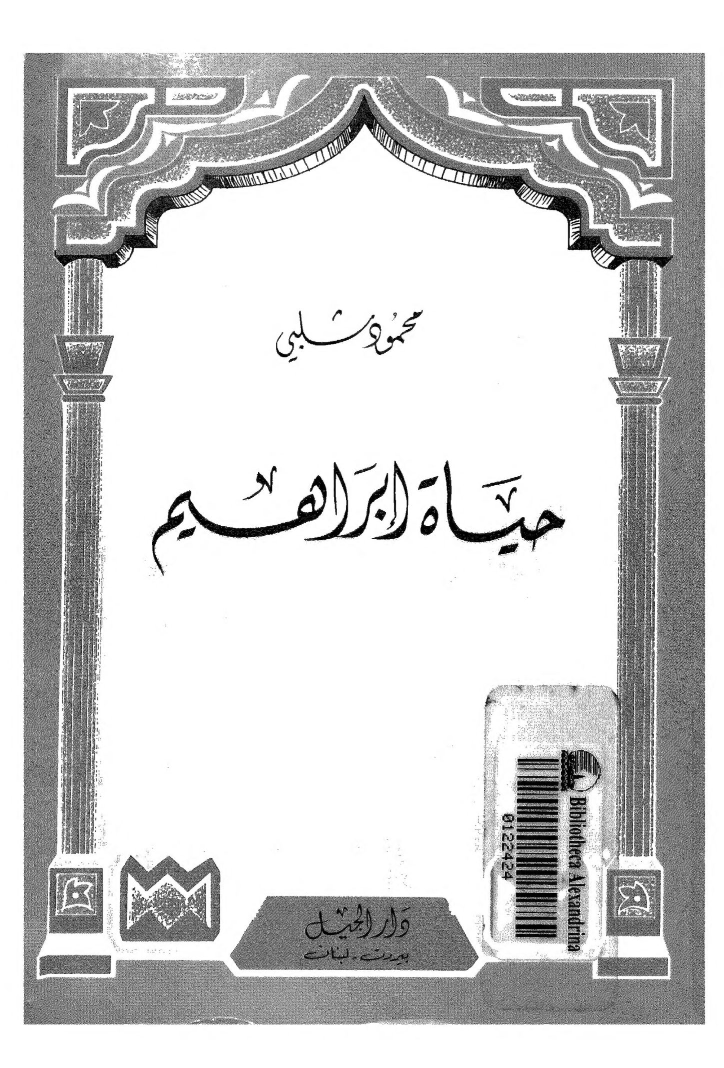

محمود شلبي
حياة إبراهيم
دار الجيل
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0122424

محمود شلبي

حياة ابراهيم

دار الجيل
بيروت - لبنان

الإهداء

اللهم منك وإليك

محمود شلبي

بين يدي هذه الطبعة

ليت الناس. حميعاً .. يقرءون «حياة ابراهيم»..
ليتهم يفعلون . اذن لاستطاعوا أن يدركوا عن أعظم شخصية في البشر ما لم يكونوا يدركون .
ولقد كنت أظن، كما يظنون... ان ابراهيم شيئاً يسيراً .
فما أن خطوت إلى ساحته حتى انكشف العطاء أمامي كثيراً...
فأدركت . بإذن الله . ما لم أك ادرك من الرجل..
أدركت أنه إمام الناس جميعاً الى يوم القيامة
وأدركت أنه قدوة الأنبياء والمرسلين...
وأدركت أنه افضل الأنبياء جميعاً باستثناء . محمد ﷺ.
وأدركت أنه الذي اثنى عليه ربه في خمسة وثلاثين مرضعاً في كتابه الكريم..
وأدركت أنه الذي ابتلي بما لم يبتلي به أحد من العالمين..
حين أمر بذبح وحيده، فذهب... وذبح... لولا أن ناداه رب العالمين...
وأدركت أنه الشخصية التي تدرجت في الوصول الى ربها... في مدارج الوصول كلها... من العقل... الى الكشف... الى البلاغ . الى الهجرة... الى تأسيس الدعوة.. ثم الى امامة الناس جميعاً ..
وأدركت لماذا جعل الله البيت الذي رفع قواعده ابراهيم بمكة أفضل بيت لله في أرضه الى يوم الدين...
وأدركت لماذا جعل الله المواضع التي اختبر الله ابراهيم فيها، مناسك، وفرائض على الناس إلى يوم القيامة؟
وأدركت أن ابراهيم كان أمة... كما وصفه ربه...
وأدركت لماذا اتخذه الله خليلا؟
وأدركت لماذا جعل الله في ذريته النبوة والحكم والكتاب؟
وأدركت لماذا قال فيه ربه «إذ جاء ربه بقلب سليم»؟
وأدركت كيف كان حين أوثقوه، والقوه في النار وحيداً؟
وأدركت لماذا رفض ابراهيم العون من جبريل حين عرض له وهو يلقى إلى الجحيم.
وأدركت لماذا امر الله تعالى محمدا ﷺ، وهو امام الخلق اجمعين، باتباع ملة ابراهيم؟
وأدركت ما هي ملة ابراهيم هذه التي أمرنا جميعا باتباعها؟
وأدركت لماذا سمى الله دين ابراهيم أحسن الأديان، وسمى ملته أحسن الملل؟
وأدركت لماذا ارتفع ابراهيم الى ذلك المقام الذي رفعه الله اليه؟
وأدركت شيئاً عن ذلك المقام «إذ قال له ربه. أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين».
وأدركت لماذا سماه محمد ﷺ خير البرية؟
وأدركت ...وأدركت ... وأدركت ..
وما ادركت.. حتى الآن.. شيئاً عن ابراهيم!!
وانما استطعت بعد ذلك كله أن اقف على مكان عال، استطيع منه أن أبصر ابراهيم وهو يشرق على العالم... ويلقي اضواءه العظيمة في الآفاق...
أما حقيقة ذلك النور... فذلك شيء لا يستطاع الوصول اليه...
بأن ابراهيم اتخذه الله خليلاً . .
فمن ذا الذي يستطيع ان يرتفع اليه؟!
وأشهد... انني بإدامة النظر الى إبراهيم... وأنا أكتب ذلك الكتاب...
قد ازددت هدى... وازددت علماً.. وازددت نوراً..
وأشهد... انني... خلال سبحي مع ابراهيم...
قد علمت السبيل الى التوحيد الصحيح.. الذي لا عوج فيه.
وأشهد... بعد ذلك كله... أن لا إله الا الله .
وأقول... بعد ذلك كله... اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم... وبارك على محمد وعلى آل محمد .. كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...
وأقول... في نهاية ذلك كله...
سلام على ابراهيم... سلام على ابراهيم... سلام على ابراهيم.

ذاك ابراهيم ؟

[قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخيرَ البرية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاك إبراهيم »] .

[أخرجه أبو داود]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شخصية عجيبة ... ذلك الذى نقرأ عنه فى هذا الكتاب .

إنه إبراهيم ؟!

أبو الأنبياء ، وخليل الله ، والذى أمرنا جميعاً باتباع ملته !!!

يتنازعه العالم كله ...

كل يريد أن يزعمه لنفسه خاصة دون سواه ...

اليهود يريدونه لأنفسهم ، حتى إنهم ليسمون أبناءهم باسمه كثيراً !

والمسيحيون يحبونه حباً شديداً ، فهو جد المسيح ...

والمسلمون أشد الناس حباً لإبراهيم ، فهو جد نبيهم كذلك ... وهم مأمورون جميعاً باتباع ملته !!

وقد لا تجد رسولا يجمع عليه أهل الأديان السماوية ... مثل إبراهيم !

إنهم يختلفون فى محمد صلى الله عليه وسلم ... وفى موسى صلى الله عليه وسلم ... وفى عيسى صلى الله عليه وسلم ...

إلا إبراهيم ... صلى الله عليه وسلم ... فهم عليه مجمعون !!

بأنه أصل الشجرة الطيبة ... شجرة النبوة ...

إليه ينتهى نسب الانبياء جميعاً من بعده ...

وبأنه إمام الناس جميعاً ... ما من نبى جاء من بعده إلا دعا إلى مثل ما دعا إبراهيم إليه...

ألم يقل الله تعالى له : « إنى جاعلك للناس إماما » ؟!

وبأنه صاحب الأسلوب الصحيح المؤدى إلى الله مباشرة ...

أسلوب التوجه المباشر إلى الله ... دون وساطة ... أو كهنوتية ... أو شفاعة ... أو التواء ...

« وناديناه أنْ : ياإبراهيمُ قد صدَّقْتَ الرؤيا » ...

وأعفاه الله من ذبح ابنه ... بعد ما تبين صدقه !!!

ولو لم يكن فى حياة إبراهيم إلا هذه الواقعة ، لكانت حسبه أن تسجل له أعظم البطولات البشرية على الاطلاق !!!

فكيف وهو صاحب الأحداث الكبار طيلة حياته الكريمة المباركة ؟!:

سوف تقرأ فى هذا الكتاب جديداً عن ذلك النبى الكريم ...

سوف تُعرض عليك حياته عرضاً جميلا يأخذ بالقلوب ...

فلا أكاذيب ولا تهاويل ... ولكن الصدق من أمره ، كما نزل به كتاب الله الكريم ، وجاءت به أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ...

هما الأصلان العظيمان ، اللذان نرجع إليهما فى أمر إبراهيم كله ...

وحياة الأنبياء ليست ملكا للناس ، يطلقون فيها خيالاتهم وأهواءهم ...

وإنما هم ملك لله أولا وآخرا ... هو أعلم بهم ... وهو أرسلهم ... وهو تحدث عنهم .

فهو وحده صاحب الحق الأول فى الحديث عنهم ...

ورسوله صلى الله عليه وسلم ... هو صاحب الحق الأول فى تفسير ما ورد عن أنبياء الله فى كتاب الله ...

ومن هنا ... كان لزاماً ... وحتما ... أن نرجع إلى كتاب الله فى أمر إبراهيم ...

وإلى صحاح أحاديث رسول الله ... فى بيان ذلك الأمر ...

ولا نلتفت بعد ذلك إلى تلك الأقاصيص ... التى ملأت التاريخ عن إبراهيم ...

ما لم يكن لها أصل فى كتاب الله ، أو حديث رسوله ...

نريد بذلك أن يكون ذلك الكتاب من « حياة إبراهيم » صدقا وحقاً ...

نرجو بذلك أن يكون عند الله مرضياً ...

وعند رسوله مرضياً ...

وعند إبراهيم كذلك مرضياً ...

ويومُ تشرق حقيقة إبراهيم على الناس ، كما خلقها الله ، وأنزلها فى كتابه ...

يومئذ يجد الناس جميعاً فيه الشخصية التى تهديهم إلى ربهم ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ...

ولست أريد بالكتابة عن إبراهيم ذلك المنهج التافه ، الذى يسلكه كثير من الناس حين يكتبون عن الأنبياء ...

ويسوقون حياتهم على أنها مجرد حوادث مرصوصة ، مرتبة ترتيباً تاريخياً !!

كلا ... فذلك أتفه ما فى حياة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إنما الرسل حقائق عليا ... نزلت فى الناس لتهديهم سواء السبيل ...

وهذا هو الجانب الذى يجب أن يجلى للناس ...

يجب أن يغوص العلماء إلى ما يستطيعون من أعماق شخصيات الأنبياء ...

ويرفعوا مفاهيم الناس إلى تلك الحقائق ... لتستنير بها بصائرهم ... ويستبينوا سبل الرشاد .

أما أن نقول للناس : فى يوم كذا ولد النبى الفلانى ، وفى يوم كذا بعث ، وفى يوم كذا هاجر ... وكان من شأنه حوادث كذا وكذا ...

فذلك شىء قد يصلح للأطفال ، ولكنه دون ما ينبغى أن يقدم للذين يريدون الاسترشاد بالرسل والأنبياء ...

ولقد أخذت نفسى فى هذا الكتاب ، أن أقدم فيه « حياة إبراهيم » من جانبيها ... جانب الحوادث والتاريخ ثم أركز تركيزاً هائلا على إشعاعات النور ، التى تتلألأ من حقيقة شخصيته الكبرى ...

لعلى بذلك أكون قد أتيت بجديد ... يفيد ... ولا يعيد ..

ولعل الذين يقرءون ذلك الكتاب عن « إبراهيم » يشعرون أنهم أفادوا عنه شيئاً جديداً ... ؟

القاهرة فى ١٣٨٧ هـ
١٩٦٧ م

محمود شلبى

ومن هنا أمر سيد الرسل باتبـاع اسلوبه ، فقال الله تعـالى له : « فاتبع ملة إبراهيم حنيفا » ... أى اسلك مسلـكه ، وانهج نهجه ... وسر على أسلوبه !!!

لمـاذا ؟...

لأن هذا الأسلوب ، هو أعلى أساليب التوجه إلى الله ...

وكل أسلوب سواه ... لا يؤدى إلى الله ...

ومن هنا صعد إبراهيم عليه السلام ... إلى مقام إمامة الناس جميعاً ... إلى ربهم ! !

ولقد ابتلاه ربه بأعجب ما ابتلى به نبي ...

فأتم إبراهيم ما ابتلى به ، وأداها على أكمل وجه ...

فـكان حقيقاً أن يرتفع إلى مقام « واتخذ الله إبراهيم خليلا » !!

ونجح إبراهيم ... فى كل تجربة دخلها فى سبيل الله ...

وسجل الله تبارك وتعالى له ذلك فقال : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمَّهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماماً » ...

استحق الإمامة بنجاحه فى التجارب التى مر عليها ...

لقد دفع الثمن من صميم كيانه ، وأعماق فؤاده ...

هددوه بالإحراق ... فما تزحزح !

وألقوه فيها ... فما هابها !!

ودخلها ... واستسلم ...

فتدخل الله تبارك وتعالى فى المعركة ... وصدر أمره : يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم !!!

وجاءه الأمر من الله : اذبح ابنك ...

فما تردد ... وما تأخر وأخذه وتله للجبين ... وأخذ يمر بالسكين على عنقه ليذبحه !!!

فمن من الناس يطيق ذلك ؟!!

لا أحد ... إنه إبراهيم وحده صاحب ذلك المقام !!

لماذا ابراهيم ؟

مصيبة هذا الإنسان . . . أنه يعيش فى مرحلة الحجاب . . .

فهو أعمى لا يبصر ما وراء الحواس ...

أصم لا يسمع ما وراء الماديات . . .

بينما هنالك من الحقائق الثابتة وراء هذه المادة ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . .

ويندفع الإنسان فى هذه الحياة ، كما يندفع الأعمى إلى الهاوية ، وهو لا يحس أنه يوشك أن يهوى إليها ! !

إلا أن الله تعالى الذى خلقه ، ويعلم كيف خلقه ، اقتضت رحمته أن ينقذه من تلك الهاوية ...

فاختار لذلك أفراداً ، من جنس الإنسان ، ورباهم على عينه ، وأهلهم ليكونوا رسلا بينه وبين الناس . . .

يبلغوهم ما يريده تعالى لهم من الخير والنجاة . . .

فالرسول بذلك رجل يعيش مع الناس فى عالم الحجاب ...

إلا أنه يعيش بقلبه فى عالم الحقيقة . . .

« قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلىّ »

فهو فى الناس بشر ، يباشر مثلهم تجربة الحياة . .

إلا أنه يوحى إليه . . يكشف له من عالم الحقائق مالا يكشف لهم . .

فهو رحمة لهم . . يبعثها الله إليهم ليصحح فكرتهم عن الحياة . .

فمن الناس من يستفيد من تلك الرحمة ، ويدخل إليها مستبشراً . .

ومنهم من يصر على أن يعيش أعمى وأن يتردى فى الهاوية ! !

من أجل ذلك كان الرسل . .

ومن أجل ذلك كان إبراهيم . .

ومن هنا كانت تلك العجائب من إبراهيم . .

يدعوهم إلى الله . . : لأنه يراه . .

وهم ينكرون أن يكون هناك إله . . لأنهم عمى لا يرونه ! !

ويدعوهم إلى التوجه إلى الله مباشرة . . لأنه يرى أن ذلك هو الأسلوب الحق . .

وهم يرون أن يتوجهوا أولا إلى أصنامهم ، لتصلهم بالله بعد ذلك ! !

ويدعو أباه إلى الله ، وإلى نبذ هذه الأصنام التى يصنعها ويحترفها . .

وأبوه يصد ، ويغضب ، لأنه أعمى ! !

إلى آخر . . تلك المتناقضات التى كانت بين الرجل ، وبين قومه ! !

هو رجل كشف الله له الحق . . وهم قوم عمى لا يبصرون . .

فاستحال اللقاء بينهما ! !

وتلك مصيبة هذا الإنسان دائما . .

وسوف تظل مصيبته هذه قائمة إلى يوم القيامة . .

أعداد من البشر هائلة تعيش محجوبة عن الحق . .

يدعوها أنبياء الله إلى التصديق بذلك الحق الذى هو وراء هذه المادة . .

إلا أنهم جميعا لا يصدقون . .

جميعا يكفرون . . إلا الذين آمنوا بالغيب ... وقليل ما هم ! !

فان قيل : لماذا إبراهيم ؟

قلنا : ليكون للناس اماما . . يرشدهم ، ويهديهم باذن ربهم الى صراط مستقيم !

حياة ابراهيم ؟

ولد فى العاصفة !؟

فى العراق . . فى أرض بابل . . فى عهد ملك طاغية .. اسمه النمروذ . .

فى قوم انتشرت فيهم عبادة الأصنام

فى زمان . . يرجع الى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . . . أى منذ نحو أربعة آلاف سنة .

فى قوم كان المنجمون أو أصحاب النجوم . أو علماء الفلك ، الذين يستدلون على الحوادث بالنظر فى النجوم . . .

كانوا أولى سطوة وقربى من الملك ، واصحاب السلطان . . .

كيف لا . . . وهم أعرف الناس بأحوال الآلهة . . . بأحوال النجوم . . . وأعلمهم بما تنوى تلك الآلهة أن تحدث فى العالمين ؟ ! !

وجاء أصحاب النجوم الى الملك . . . الى نمروذ . . . ينبئونه بأمر عجيب ! !

قالوا : انا نجد غلاما يولد فى قريتك هذه يقال له ابراهيم ، يفارق دينكم ، ويكسر أصنامكم ، فى شهر كذا ، من سنة كذا . .

ورعب الملك . . . وقرر قرارا خطيرا . . .

فلما دخلت السنة التى ذكروا ، حبس « نمروذ » الحبالى عنده . . .

الا أم ابراهيم ، فانه لم يعلم بحملها ، لأنه لم يظهر عليها أثره !

فذبح كل غلام ولد فى ذلك الوقت ! ! !

فلما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة ، كانت قريبة منها فولدت ابراهيم ! !

وأصلحت من شأنه ، ما يصنع بالمولود ، ثم . . . عليه المغارة ! !

ثم سعت الى بيتها راجعة . . .

ثم كانت تطالعه ، لتنظر ما فعل ، وكانت تجده حيا ، يمص ابهامه !!

كان ذلك بعلم أبيه . . . الا أنه هو الآخر كتم ذلك الأمر ، حتى نسى الملك الطاغية ذكر ذلك . . .

وهكذا ولد ابراهيم . . . فى العاصفة . . .

ان المواليد الذكور جميعا يذبحون بمجرد ولادتهم ...

بينما هو وحده ينجو من ذلك الذبح . . .

آزر

كان عمر « آزر » خمسا وسبعين سنة حين ولد له إبراهيم . . .

وان لآزر هذا لمواقف سوف نشهدها مع ابنه إبراهيم . . .

ولقد مات آزر — والد ابراهيم — من بعد وله مائتان وخمسون سنة !

ولقد كان آزر سيد قبيلة أور فى بلاد بابل . . . يرجعون اليه فى شئون دنياهم . . .

كما كان يتزعمهم فى شئون دينهم ، ويقودهم فى عبادة أصنامهم . . .

ولقد جعلته تلك الظروف منتجا للآلهة ، يبيعها لقبيلته ، ولغيرهم ، ويربح من ورائها مبالغ طائلة ! !

كان آزر نجارا ، ينحت الأصنام ، وينتجها ، ويبيعها للناس ! ! !

أب يصنع الآلهة
وابن يسخر من الآلهة !؟

ولا شك أن صناعة كهذه ، فى قوم انتشر فيهم عبادة الأصنام ، تكون صناعة رائجة تدر أرباحا وافرة . . . خاصة اذا كان بائعها زعيا فى قبيلته . . . يهابه الجميع ! !

ولقد كان ظن آزر حين رزق بولد سماه ابراهيم ، أن يعينه ذلك الولد على صناعته ويرث عنه تلك الصناعة .

وأن يكون من بعده زعيما . . لقومه فى دنياهم ، ودينهم . . . كما كان أبوه ! !

ولكن الذى حدث هو العكس . . .

كان آزر يصنع تلك الأصنام ، ويعطيها ابراهيم ليبيعها . .

فكان ابراهيم يقول : من يشترى مالا يضره ولا ينفعه ؟!

فلا يشتريها منه أحد ! !

بل أبعد من ذلك . . .

كان ابراهيم بدلا من أن يذهب بها الى السوق ، يروج لبيعها . . .

ينطلق بها الى نهر فيصوب رءوسها فيه ويقول : اشربى !

استهزاء بقومه . . . حتى فشا ذلك عنه فى قومه . . غير أنه لم يبلغ خبره نمروذ .

ان ابراهيم يواجه وهو فى طفولته هذه المتناقضات . . .

ان عقلة الممتاز لا يقبل أن يكون لهذه الأصنام شأن فى الحوادث يذكر . . .

بينما أبوه آزر يتزعم قومه على أساس من تلك العقيدة ويحترف لذلك صناعة تلك الأصنام.

ومن هنا تنفتح لنا أبواب شخصية ابراهيم . . .

الباب الأول . . . أنه ولد فى فترة عصيبة . . .

المواليد الذكور جميعا يذبحون . . . وهو وحده الذى يفلت بأعجوبة من هذا لذبح . .

ولا شك أن أمه حدثته عن ظروف ولادته ، وكيف أنها خبأته فى تلك المغارة ، حتى لا يذبح كالذين ذبحوا ...

والباب الثانى ... هذا التناقض فى حياته العائلية ...

فهو طفل برىء ، على الفطرة السليمة ، يدرك بحاسته الطاهرة أن هذه الأصنام التى يصنعها أبوه هى مجرد قطع من حجارة أو خشب ... وأنها لا تستحق أن تعبد ، أو أن ترجى ، أو أن توسط بين الناس وبين آلهتهم ...

فى نفس الوقت نجد أباه « آزر » ليس فقط يعبد هذه الأصنام كسائر الناس ... بل هو يصنعها ويتعيش منها ، ويتزعم قومه فى عبادتها وأداء طقوسها !!

هنالك اذاً تناقض بين باطن إبراهيم ، المستقيم ، الكريم ، الطيب ....وبين الواقع الذى يعيش فيه ...

فهو فى أسرة وثنية ... الأب يعبد الأصنام ... ويصنع الأصنام ... ويتزعم عبادة الأصنام ...

فهو أب على الغاية من الجهالة والضلالة ... ولو كان يعقل لأدرك أن هذه الأصنام لا ينبغى أن تعبد ، بدليل أنه هو يصنعها ، وينحتها بيده !!

وطفل يحس فى أعماقه أن هذا كله باطل ...

وأن هناك شيئاً وراء ذلك كله ...شيئاً يجب أن يبحث عنه ... وأن يتعرف اليه ...

البحث فى الملكوت ؟

وسوف نرى أن طفولة ابراهيم كانت ناضجة نضجاً مبكراً ...

وأنه كان شديد البغض لاتجاه أبيه آزر ، ولصناعته ، ولعقيدته ...

وأن هذا البغض كان من أكبر الأسباب التى دفعته إلى البحث عن الحقيقة ...

قال تعالى : « وإذ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ : أتتخذُ أصناماً آلهةً ؟ ! إنى أراكَ وقومَكَ فى ضلالٍ مبينٍ » . [الأنعام ٧٤]

واضح جداً فى ذلك السؤال مدى ما يشعر به الفتى من مرارة سلوك أبيه ...

أتتخذ أصناماً آلهة ؟!!

كيف تتخذ هذه الأصنام ، ثم كيف تنحتها بيدك ، ثم كيف يصل عقلك أن تعبد شيئاً أنت تنحته بيديك ؟!

ثم يلقيها فى وجه أبيه صريحة : إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .

أى انحراف ظاهر لا اشتباه فيه ...

فان من يعبد حجارة منحوتة أو خشبا مصنوعاً ، ضال واضح الضلال ...

وهكذا فاجأ أباه برأيه فيه بصراحة ، وفاجأه برأيه فى المجتمع كله بصراحة ...

أراك وقومك ... أنت والمجتمع كله ... منحرفون ... انحرافاً واضحاً !!!

وإلى هنا كانت غربة إبراهيم قد تمت ...
لقد انعزل عن أبيه ... وانعزل عن مجتمعه كله ...
إنهم جميعاً في جانب ... وهو وحده في جانب آخر ...
ومتى ؟!
وهو في طفولته !!!
يبتلى بهذه الغربة !!!

طفل ... يبحث عن ربه ؟!

ثم يقول الله تعالى مباشرة بعد تلك الآية : « وكذلك نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السماواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين » . [الأنعام ٧٥]

« وكذلك نرى إبراهيم » أى ذلك التبصير البديع نبصره .

« ملكوت السماوات والأرض » أى ربوبيته تعالى ومالكيته لها ، لا تبصير آخر أوفى منه .

فالملكوت مصدر كالرغبوت والرحموت ،ولهذا فسر بالملك العظيم، والسلطان القاهر .

وقيل : المراد بالملكوت الآيات .

وقيل : العجائب التى فى السماوات والأرض ، فانه عليه السلام ، فرجت له السماوات فنظر الى ما فيهن ، حتى انتهى بصره الى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن .

وقيل : ملكوت السماوات الشمس والقمر والنجوم .

وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار .

قالوا : وهذه الاقوال لا تقتضى أن تكون الإراءة بصرية ، إذ ليس المراد باراءة ما ذكر من الامور الحسية ، مجرد تمكينه من ابصارها ومشاهدتها فى أنفسها ، بل اطلاعه على حقائقها ، وتعريفها ، من حيث دلالتها على شؤونه عز وجل ، ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حساً ، كما ينبيء عنه التشبيه السابق .

« وليكون من الموقنين » أى من زمرة الراسخين فى الإيقان ، البالغين درجة عين اليقين ، من معرفة الله تعالى .

أى وليكون كذلك فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور .

والحصر باعتبار أن هذا الكون هو المقصود .

أى ليستدل ، وليكون من الموقنين .

ان ابراهيم قد دخل مرحلة جديدة ... هى مرحلة الكشف العام للملكوت ...

ان الله تعالى كشف له الغطاء ... فرأى ملكوت السماوات والأرض ، على حقيقتها نا فيها ، ومن فيها ، وكيفية ما يجرى فيها !!!

ولكن متى تم له ذلك ؟

ومتى تفضل الله تعالى عليه بذلك المقام ؟

بعد أن اجتاز مرحلة التجارب ... مرحلة البحث بعقله عن الحقيقة ...

هذا ربى ؟!

ثم يقول سبحانه وتعالى بعد تلك الآية مباشرة ... ليبين لنا كيف تدرج ابراهيم فى معرفة الله ... وكيف اجتاز مرحلة البحث العقلى ... حتى انتهى الى مرحلة الكشف القلبى ... : « فلما جَنَّ عليهِ الليلُ ، رأىَ كوكباً ، قال : هذا ربِّى ؟ فلما أَفَلَ ، قال : لا أُحِبُّ الآفلين » . [الأنعام ٧٦]

« فلما جن عليه الليل » فلما ستره الليل بظلامه .

« رأى كوكباً » قيل أنه المشترى ، وقيل أنه الزهرة .

المهم أنه كوكب ما ... من تلك الكواكب التى تملأ السماء ...

« قال هذا ربى » كان ذلك من ابراهيم قبل البلوغ ...

انها مرحلة طفولة ... تبحث عن الحقيقة ...

انه ظن أن هذا الكوكب المنير هو ربه ...

« فلما أفل » أى غرب .

« قال لا أحب الآفلين » لا أحب عبادة الآفلين ، أى الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان ، المتغيرين من حال إلى حال .

ونفى المحبة اشارة الى نفى اعتقاد الربوبية ...

هذه مرحلة ... مر عليها الطفل إبراهيم ...

انه كان يعتزل أباه ، ويعتزل مجتمعه ...

ويخرج وحيداً ... فى هدوء الليل ، وسكونه ...

يتفكر فى ملكوت السماوات والأرض ...

ولاحظ فى نظره الى السماء ، أن هناك كوكباً أكثر اضاءة من غيره ... فافترض أن يكون هذا هو ربه ...

الا أنه لاحظ فى تلك الليالى التى كان يخرج فيها للتفكر أن هذا الكوكب يغرب ويختفى من الأفق ...

فلما لاحظ أنه يأفل قال : لا أحب الآفلين .

لا يمكن أن يكون هذا الكوكب رباً ، لأنه يغرب ، ويختفى ، والرب يجب ألا يغرب وألا يختفى ..!

فلما رأى القمر ؟!

وكانت المرحلة الثانية ... أن تحول الغلام ابراهيم الى القمر ...

وفى ليلة من الليالى التى يخرج فيها ابراهيم للتفكر فى ملكوت السماوات والارض .. حدث ما قصه الله تعالى ...

« فلما رأى القمرَ بازغاً ، قال : هذا ربى ، فلما أفلَ قال : لئن لمْ يَهدِنى ربى لأكونَنَّ من القومِ الضالِينَ » . [الأنعام ٧٧]

« فلما رأى القمر بازغاً » أي مبتدأ في الطلوع ، منتشر الضوء ،

مأخوذ من البزغ ، وهو الشق ، كأنه بنوره ، يشق الظلمة شقا .

« قال : هذا ربى » هذا القمر ربى .

« فلما أفل » فلما غرب كما غرب الكوكب .

« قال : لئن لم يهدنى ربى » لئن لم يتفضل عليّ ربى بالهدى ، لئن لم يستنقذنى ربى من هذه الحيرة ..

« لأكونن من القوم الضالين » فان شيئا منها لا يصلح للربوبية .

إن الطفل إبراهيم حائر ...

إنه يريد أن يعرف : أين الله ؟!

إن هذا القمر لا يصلح أن يكون ربا ... إنه يغرب ، ويختفى كما اختفى الكوكب ..

إنه حائر ... شديد الحيرة ... وتلمس حيرته تلك فى قوله : « لئن لم يهدنى ربى ، لأكونن من القوم الضالين » ..

تعبير ... يحدث به نفسه ... الا أنه يكشف عن مدى حيرته ... ومدى التجائه إلى الله ... رغم أنه لم يصل إليه بعد ... إلا أنه يشعر فى باطنه أنه لابد هناك من رب !!

ولكن من هو ، وكيف هو ؟...

فذلك ، لم يصل إليه بعد ...

إنه ما زال يبحث ...

هذا ربى ؟ ... هذا أكبر ؟!

ثم يقص علينا تبارك وتعالى المرحلة الثالثة فيقول : « فلما رأى الشمسَ بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبرُ ، فلما أفلتْ قال : ياقوم إنى برىء مما تشركونَ »

[الانعام ٧٨]

« فلما رأى الشمس بازغة » أى مبتدأة فى الطلوع ، أى تشرق ...

« قال » على المنوال السابق

« هذا ربى » إشارة إلى الجرم المشاهد ... إلى الشمس ...

« هذا أكبر » بيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر

« فلما أفلت » غربت كما غرب من قبلها .

« قال » لقومه ، صادحا بالحق بين ظهرانيهم .

« يا قوم انى برىء مما تشركون » أى من اشراككم .

أى من الذى تشركونه من الاجرام المحدثة المتغيرة ، من حال الى أخرى ، المسخرة لمحدثها .

هذه هى المراحل التجريبية التى مر عليها ابراهيم فى طفولته ...

الكوكب ... ثم القمر ... ثم الشمس ...

ثم تبين له أنها كلها لا تصلح أن تكون آلهة .. لأنها تغرب .. تبدو أحيانا .. وتختفى أخرى ..

والالوهية تستلزم أن تكون ثابتة . .

وكان يخرج .. للبحث عن ربه .. ليالى طويلة .. وأياما ..

فلما استنفد طاقاته كلها ... وعجزت وسائله العقلية المحدودة عن الوصول الى الحقيقة . .

ولما أعلن عجزه ... واتجه الى الله بقلبه ، سائلا اياه أن يهديه الى الحق بقوله : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ...

ولما أعلن كفره بكل شىء سوى الله ...

وتبرأ من كل شىء الا من الله بقوله : يا قوم انى برىء مما تشركون ...

هنالك ... تفضل الله تعالى عليه بتحقيق قوله تعالى : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين » ...

هنالك كشف الله تعالى له الغطاء ...

وأراه تعالى ما هو أكبر من الكوكب ، وأكبر من القمر ، وأكبر من الشمس .

أراه الملكوت كله ... السماوات والارض بما فيها من عجائب وغرائب وأسرار ...

هنالك بدأت نبوة ابراهيم — عليه السلام —

لقد كشف الله تعالى له عن ملكوت السماوات والارض ...

وأراه عجائبها ، وأسرارها ، وأجرامها ... وكل ما فيها ...

لقد بدأت النبوة ...

هنالك لم يعد ابراهيم فى حاجة الى تلك الوسائل العقلية القاصرة ...

لم يعد فى حاجة الى العقل ، ولا الى المنطق ، ولا الى الإستدلال ...

انه الآن يشهد ....

يشهد ملكوت السماوات والارض شهودا ما بعده من شهود ...

فلا شيء فيها يغيب عنه ...

انه فى مرحلة عين اليقين ....

انه يشهد أن هذه السماوات والأرض ، وما فيها من عجائب ... انما يدبرها شيء آخر ... أكبر وأعظم منها ... شيء فوق العقول ... وفوق السماوات ، والأرض ... ومن فيهن ...

لقد آتاه الله رشده ...

وكان الفتى أهلا لذلك ...

وكنا به عالمين ؟!

قال تعالى : « ولقد آتينا ابراهيمَ رُشْدَهُ من قبلُ وكُنَّا به عالِمينَ » .

[الأنبياء ٥١]

« ولقد آتينا ابراهيم رشده » أىّ الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد الكامل .

أعنى الإهتداء الى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والإرشاد بالنواميس الإلهية

« من قبل » من قبل البلوغ .

أو من قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

« وكنا به عالمين » أى بأحواله ، وما فيه من الكمالات .
أو بأنه أهل للمقام الذى رفعناه اليه ...

الفتى ... إبراهيم ... يبدأ المعركة ؟

وعلى الفور ... ما ان هداه الله تعالى إليه ...
ما ان عرف الحقيقة ...
ما ان أيقن أن هذه الاصنام باطلة وأن عبادة هذه النجوم وهذه الكواكب باطلة ...
وان الله وحده هو الحق ... وهو الذى ينبغى أن يتوجه الإنسان اليه ...
ما ان وضحت تلك المعالم فى نفسه ... وأراه الله تعالى دليلها اليقينى ، حين أراه ملكوت السماوات والأرض ...
ما ان قامت تلك المعانى بقلبه ... حتى بدأ المعركة ...

وحده ... ضد الناس جميعا ...
فياله من مقام !!!
وأعلنها ابراهيم : ياقوم ، انى برىء مما تشركون .
أنا برىء من كل شىء سوى الله ...
هذه الأشياء التى تشركون مع الله أنا برىء منها ...

انى وجهت وجهى !؟

ثم يقول تبارك وتعالى ... مبينا لنا ماذا قال الفتى ابراهيم لقومه ، ولأبيه ، وللناس جميعا ...

« انِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماواتِ ، والارضَ ، حنيفاً ، وما أنا من المشركينَ » [الانعام ٧٩]

« انى وجهت وجهى » المراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة .

وقيل : المراد وجهت عبادتى وطاعتى .

« للذى فطر » أوجد وأنشأ .

« السماوات » التى هذه الاجرام من كواكب ونجوم من أجزائها .

« والأرض » التى تلك الأصنام من أجزائها .

« حنيفا » مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها .

« وما أنا من المشركين » أصلا فى شيء من الأقوال والأفعال .

وأعلن الطفل ابراهيم براءته من عبادة الكواكب والنجوم ...

فانه قد حاول أن يتخذ منها ربا فلم تصلح ...

فلا الكواكب ، ولا القمر ، ولا الشمس بمستطيعة أن تكون له ربا ... لأنها كلها تغيب ... والرب لا يغيب ...

كما أعلن براءته من عبادة الأصنام ... لأنها جمادات حقيرة ... ينحتها الناس بأيديهم ...

واتجه الى ما وراء ذلك كله ... الى ماوراء الكون ... ما وراء الطبيعة ... الى الذى أوجد وأنشأ كل هذا ...

انى وجهت وجهى ...

لمن ؟ ....

للذى فطر ... أى للذى أوجد هذا كله ...

السماوات والأرض ... أوجد كل ما فى هذه السماوات وما فى هذه الأرض ...

حنيفا ... مائلا عن عبادة أى شيء من هذه الماديات ...

انى سأتجه الى الله مباشرة ... سوف لا ألتفت الى ماسواه ... وسوف لا أشرك فى عبادته شيئا من هذه الأشياء ...

وما أنا من المشركين ؟ !!

الفتى إبراهيم ... يبدأ بأبيه؟

وبدأت المعركة ...

بين القديم والحديث ...

بين الباطل والحق ...

بين الشباب الثائر على أباطيل قومه ، وبين قوم جمدوا على عقائد متعفنة ...

بين ابراهيم ... وبين أبيه وقومه أجمعين ...

ودخل الفتى ابراهيم ... المعركة بكل قواه ... وبكل ما فى الشباب من اندفاع ومافى الحق من ثورة ...

وبدأ الفتى بأبيه ...

ولنسمع الى الله تعالى يقص علينا ما كان بينهما ، من تحاوُر ...

قال عز من قائل : «واذكُرْ فى الكتابِ ابراهيمَ انه كانَ صدِّيقاً نبيًّا »

[مريم ٤١]

« واذكر فى الكتاب » فى القرآن

« ابراهيم » أتل على الناس قصته .

« انه كان صديقا » ملازم الصدق ، لم يكذب قط .

« نبياً » استنبأه الله تعالى

أوكان مبالغا فى الصدق ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق .

تلك احدى صفاته — عليه السلام — العليا صفة الصديقية ...

كان لا يكذب ، ولا يحب الكذب ...

ومن هنا كان كرهه الشديد لما عليه أبوه وقومه من أكاذيب ... وعقائد ملفقة باطلة ...

ثم كانت الصفة العظمى لهذا كله ... صفة النبوة ...

أن الله تعالى اختاره سفيرا بينه وبين الناس ...

وكشف له ماشاء من الغيوب وأطلعه على ماشاء من العلوم وكلفه بماشاء أن يبلغه للناس .

يا أبت ؟!

ثم قال سبحانه : « اذ قالَ لأبيهِ : يا أَبَتِ ، لِمَ تعبُدُ مالا يسْمَعُ ، ولا يُبْصِرُ ، ولا يُغْنِي عنكَ شيئاً . » ؟! [مريم ٤٢]

« اذ قال لأبيه » بدأ بأبيه باعتباره أقرب الناس اليه ...

وباعتباره زعيم قبيلته الدينى الذى يتقدمهم فى عبادة الأصنام ...

وباعتباره الرجل الذى كان يحب ابراهيم أن يكون هو الذى يرشده الى الحق قبل غيره ...

« ياأبت » أى ياأبى ... فإن التاء عوض عن ياء الاضافة ...

وفيه من الإستعطاف مافيه ...

كما يقول الإبن لابيه فى هذا الزمان « يابابا »

فيتفتح قلب الوالد لولده سريعا ...

والتفت آزر ... يسمع ماذا يريد منه ابراهيم ...

فكان الذي يريده ابراهيم مفاجأة للرجل لم يكن يتوقعها ...

كان سؤالا عجيبا من الفتى ...

« لم تعبد مالايسمع » ثناءك عليه عند عبادتك له ، وجؤارك له ؟!

« ولا يبصر » خضوعك وخشوعك بين يديه .

أو لا يسمع ، ويبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات .

« ولايغنى » أى لايقدر على أن يغنى .

« عنك شيئاً » من الأشياء ، أوشيئا من الأغناء ؟!

لقد كان سؤالا عجيبا من الابن ...

وكانت صدمة عنيفة أصابت الأب ...

وخيبة أمل كبيرة نزلت به فيما كان يؤمله فى ابنه ...

لقد كان آخر مايفكر فيه آزر أن يسأله ابنه هذا السؤال الغريب ...

ولـكن الفتى قد تحرك ... وفاجأ أباه بسؤاله !!.

ولم يقم وزنا لمقام أبيه .. ولا لزعامته ... ولا لسنه ... ولا لعقيدته ...

وهاهو يأتى أباه من صميم كيانه ...

ويهزه هزا عنيفا من أعماقه ...

لماذا ياأبت تعبد مالايسمع ، ولا يبصر ، ولايغنى عنك شيئا ؟!

لقد خلخل ابراهيم كيان أبيه كله ...

وماذا بقى للرجل بعد ذلك ؟ ...

ان آلهته لاتسمع ولا تبصر ولاتستطيع شيئاً ... فما قيمتها بعد ذلك اذا ؟!

ابراهيم يعلن نبوته الى أبيه ؟!

ثم يقول تعالى : « يا أبتِ انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك . فاتبعنى ، أهدك صراطا سَويًا . » [مريم ٣]

وكانت هذه الصدمة الـكبرى لابيه ...

ان الفتى لم يقف عندما ذهب اليه من سب الآلهة ، ووصفها بالصمم والعمى والعجز المطلق ...

بل ها هو يزعم زعما غريبا ...

انه يزعم أنه نبى ... وأن الله قد أعطاه علما ليس عند أبيه ! !.

أيعقل هذا ؟!

أيعقل أن يكون فتى صغير ، لا خبرة له بالحياة ، ولا خبرة له بشأن من شئونها ، عنده من العلم ما ليس عند أبيه ؟

صدمة ... جديدة ... تصيب آزر فى ابنه ...

« ياأبت » ياأبى ...

« انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك » دعاه الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين ...

ولم يسم أباه بالجهل المفرط ... وان كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك .

بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له يكون أعرف بأحوال ما ستشكله من الطريق ، فاستماله برفق حيث قال ...

« فاتبعنى أهدك صراطا سويا » أى مستقيما ، موصلا الى أسنى المطالب ، منجيا عن الضلال ، المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب .

وقوله « جاءنى » ظاهر فى أن المحاورة كانت بعد أن نبىء عليه السلام ..

والذى جاءه قيل : العلم بما يجب لله تعالى ، وما يمتنع فى حقه ، وما يجوز على أتم وجه وأكمله .

فهل قبلت نفس آزر مايدعوه اليه ابنه ؟

كلا ... ان هنا حجبا كثيفة تحول بينه وبين الاستجابة للحق ...

الحجاب الاول : الزعامة ... انه سيد قبيلته ... وكفره بالاصنام سوف يسقط تلك الزعامة !

الحجاب الثانى : أنه والد لذلك الداعية ... والوضع الطبيعى أن يتبع الابن والده ، لا أن يتبع الوالد ابنه ... فكيف يتبع آزر هذا الغلام ؟!

الحجاب الثالث : المنافع التى تعود على الرجل من تلك الزعامة ... والتى سوف تزول كلها باتباعه لدعوة ابنه ...

الحجاب الرابع : ان الرجل يحترف صناعة الاصنام ... فلا يعقل أن يعمل على بوار صناعته ...

الحجاب الخامس : الظلام الذى يعيش فيه المجتمع كله ... ولا يعقل أن يخرج الإنسان عن عادات الناس جميعا ولو كانت باطلة !

الحجاب السادس : الناموس التقليدى الذى يكون دائما بين كل جديد وكل قديم .. لا هذا يسلم لذاك ، ولا ذاك يستسلم لهذا ... وانما صراع شديد بين الاثنين ... حتى يمحو أحدهما الآخر ...

وحجب أخرى كثيرة ... كانت تحول بين آزر وبين اتباع ابنه ...

ويبدو أن أشق ما أصاب آزر فى كبريائه هو قول ابنه ابراهيم له : « فاتبعنى » ...
لقد كان المظنون أن يقولها آزر لإبراهيم باعتباره والد يدعو ولده ويبصره بمسالك الحياة ...
أما أن يقولها الإبن الصغير ، للوالد الكبير الخبير ... فذلك مالا يقبله منطق ، ولا يسلم به انسان !
انها صواعق ، تنزل متتابعة على آزر ... وصواعق يصوبها اليه أقرب الناس اليه ... ابنه ابراهيم ...

يا أبت .. لا تعبد الشيطان ؟

ثم يقول تعالى : « ياأبتِ ، لاتعبُدِ الشيطانَ ، انَّ الشيطانَ كانَ للرحمن عَصِيّـا »
[مريم ٤٤]

« لا تعبد الشيطان » فان عبادتك الأصنام عبادة له ، اذ هو الذى يسولها لك ، ويغريك عليها .

« ان الشيطان كان للرحمن عصيا » انه مستعص على من شملتك رحمته ، وعمتك نعمته .
ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص ، وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه .

وهكذا دخل ابراهيم بأبيه ... فى تفاصيل الدعوة ...
وبين له القصة من أولها الى آخرها ...
وأن هناك شيطانا عصى الله تعالى حين أمره بالسجود لآدم ...
وأن هذا الشيطان يعمل دائبا على اضلال بنى آدم ...
وأنه لا ينبغى للانسان أن يعبد ذلك الشيطان ...
وانما يجب عليه أن يعبد الله تعالى ...

فالآية تشير الى أن ابراهيم قد بين لأبيه شيئا من تفاصيل القصة الخالدة ... قصة الإنسان والشيطان منذ الأزل ...

اذ لا يعقل أن ينهاه عن عبادة الشيطان ، دون أن يبين له ماهو هذا الشيطان ، وما هى قصته ...

ولكن الوضع الطبيعى أن يشرح له القصة ...

ثم بعد ذلك يطلب اليه أن يتجنب عبادة ذلك العدو الذى بين له قصته ...

ويشير الى ذلك قوله تعالى « ان الشيطان كان للرحمن عصيا » ... أى أنه كان وما زال ملعونا عاصيا لله ... للأسباب التى بينتها لك ...

أخاف أن يمسك عذاب ؟

ثم لجأ ابراهيم الى ترهيب أبيه بعد أن رغبه فى الهدى ، لعل الخوف يدفعه الى الله ، بعد أن فشل الترغيب فى دفعه اليه ...

قال تعالى : « يا أبتِ ، انى أخاف أن يَمَسَّكَ عذابٌ من الرحمن ، فتكونَ للشيطانِ وليـا . [مريم ٤٥]

تحذير من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام ، والخوف توقع المكروه .

وتنوين (عذاب) يحتمل التعظيم والتقليل .

أى أخاف أن يمسك عذاب هائل .

أو أخاف أن يمسك ولو أدنى شىء منه .

« فتكون للشيطان وليا » أى قرينا ، تليه ويليك فى العذاب فى جهنم .

والولى من الموالاة ، وهى المتابعة والمصادقة .

ان ابراهيم يبين لأبيه أن الأمر جد وليس بالهزل ...

وأنه ان لم يتبع الهدى فان العذاب واقع به لامحالة ...

وهكذا ... فصلت الدعوة بين الابن وأبيه ...

وفرضت على ابراهيم أن يقف ذلك الموقف من أبيه !!

لأرجمنك !؟

قال تعالى : « قال : أراغبٌ أنتَ عنْ آلِهتى يا إبراهيمُ ، لئن لمْ تنتهِ لأرجُمَنَّكَ ، واهجرنى مَلِيًّا » . [مريم ٤٦]

« قال » أبو إبراهيم مصرا على عناده .

« أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم » أراغب أنت عنها ، لاطالب لها ، راغب فيها ، منبها له على الخطأ فى صدوفه .

« لئن لم تنته لأرجمنك » والله لئن لم تنته عما أنت عليه : من النهى عن عبادتها ، والدعوة إلى مادعوتنى إليه . لأرجمنك بالحجارة

وقيل : باللسان ، والمراد لأشتمنك .

« واهجرنى » فاحذرنى واتركنى « مليا » أى دهرا طويلا .

وقيل : أبدا .

وقيل : طويلا .

ياللموقف !!!

ان ابراهيم — عليه السلام — تضطره الدعوة أن يقف من أبيه ذلك الموقف الشاق ...

ان أباه ينذره الإنذار الأخير ...

أراغب أنت عن آلهتى ؟!

أنت أيها الصغير ... الذى لاشأن لك يذكر ...

أنت من دون هؤلاء جميعا الذين يعبدونها . ويقدسونها ...

أنت وحدك ... رغم تفاهة شأنك ... وحداثة سنك ... أنت ترغب عن آلهتى ؟!

ليتك كنت زعيما ... أو كبيرا ... حين زعمت ذلك الزعم ... إذا لقلت : رجل له رأى ...

ولكن وجه العجب أنك أنت الفتى الذى لاعقل له ثم تكون أنت ... الذي يخرج علينا بتلك المقالات الشنيعة ، وذلك القول الفارغ ...

إن كلمة « أنت» تحمل فى طياتها كثيرا مما يغلى فى أعماق آزر، نحو ابنه إبراهيم ...
ياإبراهيم ؟ ! ... لم يقل له يابنى ، أوياولدى ...
وانما ناداه باسمه مجردا ... تقليلا لشأنه ، وتصغيرا لوضعه ؟!
ثم ثارالأب ثورته الكبرى على ابنه ... ليضع حدا لتلك المهزلة التى يباشرها إبراهيم ...
فقال له فى غضب ليس بعده غضب : لئن لم تنته لأرجمنك ...
إنى أنذرك أيها الإبن المارق ، المفارق لدين آبائه وأجداده ... لئن لم تكف عن هذا الهراء الذى تدعو إليه لأقتلنك رجما بالحجارة ، إنتصارا لآلهتنا التى زيفتها ، وسببتها ، وشتمتها ...
ولأجعلنك مثلا يروى أمام الناس ، ولأشتمنك شتما أليما ...

طرد إبراهيم ؟!

ثم كان أشد تهديدات آزر لابنه حين قال له : (واهجرنى مليا) ...
أغرب عن وجهى أيها الولد العاق الشقى ، الطريد ، الشريد ...
لاأريد أن أرى وجهك الغبى ، ولا أن أسمع كلامك الشقى !
ابتعد عنى إلى الأبد ... لست ابنى ، ولست أعرفك ...
اخرج من بيتى ...
واخرج من مدينتى ...
واخرج من هذه الأرض التى تضمنا ...
ابتعد عنى إلى آخر الدهر ... لأنك خارج ، مارق ، مفارق لدين آبائك ...
وهكذا ... دخل إبراهيم أقسى أزمة نفسية ...
إن أباه يطرده ...
لماذا ؟ ...
من أجل أنه دعاه إلى الله !!!
إنها الغربة المفروضة على إبراهيم ... وعلى الرسل أجمعين ...

وعلى دعاة الحق فى العالمين ...

دائما وأبدا تفرض عليهم الدعوة أن يغتربوا ...

سلام عليك يا إبراهيم ...

يوم طردك أبوك ... ويوم قطع صلته بك إلى الأبد ... ويوم عانيت كل هذا فى سبيل الله ...

ولا يعلم مقدار الألم الذى كان بقلب إبراهيم فى تلك اللحظات إلا الله !!

هو وحده الذى يعلم ما كان يعانى ، وما كان يلاقى ... (وكنّا به عالمين) .

ابراهيم يفارق أباه ؟!

قال تعالى : (قالَ سلامٌ عليك ، سأستَغفِرُ لكَ رَبِّى ، إنَّهُ كان بى حَفِيّـا ، وأعتزِ لُـكُمْ وماتدعونَ من دونِ الله ، وأدْعُو ربى ، عسى ألَّا أكونَ بدعاءِ ربى شقيّـا) [مريم ٤٧—٤٨]

« قال : سلام عليك » توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة .

أى لا أصيبك بمكروه بعد ، ولا أشافهك بما يؤذيك .

« سأستغفر لك ربى » أى استدعيه سبحانه أن يغفر لك بان يوفقك للتوبة ويهديك إلى الإيمان .

وكان ذلك منه عليه السلام قبل أن يتبين له بالوحى أنه لا يؤمن ...

فلما تبين له تركه أشد الترك .

« إنه كان بى حفيا » بليغا فى البر والإكرام . يقال حفى به إذا اعتنى باكرامه .

« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » المراد اتباعد عنك وعن قومك وعن معتقداتهم .

« وأدعو ربى » أى اعبده سبحانه وحده ، كما يفهم من اجتناب غيره تعالى من المعبودات .

« عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا » خائبا ضائع السعي» .

وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع ، ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإثابة والأجابة بطريق التفضل منه عز وجل ، لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير .

وهكذا ... فى الوقت الذى يقذف آزر ابنه بتلك القذائف ...

إذا بابراهيم يرد على أبيه أجمل رد وأحسنه ...

سلام عليك ... سأستغفر لك ربى ..

لاتغضب يا أبتِ ... سوف لا أفاتحك فى هذا الأمر مرة أخرى ...

سوف أستغفر لك ربى ... لعله يوفقك مستقبلا إلى إدراك الحق ، وإلى اتباعه ...

إلا أن إبراهيم ... حتى فى هذا الموقف المتأزم ... حرص على أن يبين لأبيه أنه سوف يعتزلهم ، ويعتزل عقائدهم اعتزالا تاما ...

واعتزلكم وما تدعون من دون الله ... وأدعو ربى ...

سأكفر بآلهتكم ... وأعبد ربى وحده ...

فلما اعتزلهم ... وهبنا له ... ؟

ثم يقول تعالى « فلما اعتزَلَهُمْ وما يعبُدونَ من دونِ اللهِ ، وهبنا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ ، وكلاًّ جعلنا نبيّـا ، ووهَبْنَا لهم من رحمتِنا وجعَلْنا لهُم لسان صدْقٍ عَليّـا» .

[مريم ٤٩ و ٥٠]

« فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله » بالمهاجرة من بلادهم إلى بلاد الشام ...

« وهبنا له إسحاق ويعقوب » بدل من فارقهم من أبيه وقومه الكفرة ...

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعم التى أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء .

فانهما شجرتا الأنبياء ، ولهما أولاد وأحفاد أو لوشأن خطير ، وذوو عدد كثير .

مع أنه سبحانه أراد أن يذكر إسماعيل عليه السلام بفضله على انفراد .

روى أنه عليه السلام لماقصد الشام ، أتى أولا حران ، وتزوج سارة ، وولدت له إسحاق .

وولد لإسحاق يعقوب .

« وكلا » أي وكل واحد من إسحاق، ويعقوب ، أو منهما ومن إبراهيم عليه السلام.

« جعلنا نبيا » أي كل واحد منهم جعلنا نبيا « ووهبنا لهم من رحمتنا » النبوة .

وقيل : المال والولد .

وقيل : هو الكتاب .

والأظهر أنها عامة لكل خير ديني أو دنيوى ، أوتوه مما لم يؤت أحد من العالمين .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » يفتخر بهم الناس، ويثنون عليهم ، استجابة لدعوته عليه السلام بقوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) وزيادة على ذلك .

والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام .

ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم .

وإن محامدهم لاتخفى ، كأنها نار على علم ، على تباعد الأعصار ، وتبدل الدول ، وتغير الملل والنحل .

وخص بعضهم لسان الصدق بما فى التشهد (كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم).

والعموم أولى ...

إن الله تعالى قد كافأ إبراهيم أحسن المكافأة ...

فلما اعتزلهم ... وهبنا له ...

فلما اغترب إبراهيم من أجلنا عن أبيه ، وأمه ، وأقاربه ، وأسرته ، وقبيلته ، وقومه ، ووطنه ...

فلما اغترب عن الناس جميعا ... من أجلى ... ومن أجل رسالتى ...

فلما اكتملت غربته من أجلنا ... وهبنا له ...

أبدلناه بدلا من أهله الكافرين ... أبناء مؤمنين ...

بل أنبياء ... فى القمة من الإيمان ... « وكلا جعلنا نبيا » ...

وأبدلناه ... بدلا من الوحشة التى يعيش فيها ، أنسابنا ... «ووهبنالهم من رحمتنا»...

رحمة واسعة جداً ... عظيمة جداً ... بدلا من غربته عن أهله وقرابته ووطنه ...

وبدلا من قول أبيه لأرجمنك ... بدلا من الشتم والإيذاء له ...

« وجعلنا لهم لسان صدق علياً » ... جعل الله الناس فى كل الأزمان يثنون عليهم ويمتدحونهم !!

فلما اعتزلهم ... وهبنا له ؟! ماذا وهب له ؟

لا تستطيع حصر ذلك ... فان الله إذا وهب ... أعطى ما فوق التصور ... فكيف إذا كان الموهوب، إبراهيم ؟ !

ما هذه التماثيل ؟

ونقل الفتى ابراهيم المعركة الى الشعب كله ... ووقف يتحدى المجتمع بمستوياته كلها .

وقف يتحدى الملك الطاغية ، ويتحدى رجال الدين والكهنوت ، ويتحدى الجماهير فى عقائدها ومقدساتها .

ولنسمع الآن الى الله جل ثناؤه يقص علينا أخبار تلك المعركة المقدسة .. المعركة ، التى قامت بين فرد واحد من جانب ، وكل الناس من جانب آخر !!

بين فتى أعزل من الحول والطول .. وبين ملك جبار بطاقاته وجنوده ، وشعب كبير بمقدساته وعقائده !!

قال تعالى : « ولقدْ آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ وكُنَّا به عالمينَ . إذْ قالَ لأبيهِ وقومهِ : ما هذهِ التَّماثيلُ التى أنتمْ لها عاكفونَ ؟! قالوا : وجَدْنا آباءنا لها عابدينَ . قال : لقد كنتمْ أنتمْ وآباؤكمْ فى ضلالٍ مبين . قالوا : أجئتَنَا بالحقِّ أمْ أنتَ مِنَ اللاعبينَ . ؟ قال : بَل ربُّكُمْ ربُّ السماواتِ والأرضِ الذى فطرهُنَّ ، وأنا على ذَلِكُم من الشاهدينَ » . [الأنبياء ٥١ — ٥٦]

« ولقد آتينا إبراهيم رشده» الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد

الـكامل ، أعنى الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية.

وقيل : التوفيق للخير صغيرا

واختار بعضهم التعميم .

« من قبل » من قبل البلوغ .

« وكنا به عالمين » أى بأحواله وما فيه من الـكمالات .

« إذ قال لأبيه وقومه » بدأ بذكر الأب لأنه كان الأهم عنده فى النصيحة ، والانقاذ من الضلال .

والظاهر أنه قال له ولقومه مجتمعين ...

« ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟! » أراد ما هذه الأصنام إلا أنه عبر عنها بالتماثيل تحقيراً لشأنها ، فإن التمثال الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى من مثلت الشىء إذا شبهته به .

وكانت على ما قيل على صور الرجال يعتقدون فيهم ، وقد انقرضوا .

أى ما هذه التماثيل التى أنتم لها ملازمون ؟ !

« قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » وأبطل ذلك على طريقة التوكيد القسمى حيث ...

« قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم » الذين وجدتموهم كذلك .

« فى ضلال » عجيب لا يقادر قدره .

« مبين » ظاهر . بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه ضلالا ، لاستنادكم وإياهم إلى غير دليل ، بل إلى هوى متبع ، وشيطان مطاع

وفى اختيار « فى ضلال » على ضالين ، مالا يخفى من المبالغة فى ضلالهم .

وفى الآية دليل أن على الباطل لا يصير حقا بكثرة المتمسكين به .

« قالوا » لما سمعوا مقالته استبعادا لـكون ما هم عليه ضلالا ، وتعجبا من تضليله إياهم على أتم وجه ،

« أجئتنا بالحق » أى بالجد .

« أم أنت من اللاعبين » أى الهازلين .

أى هذا الذى جئتنا به ، أهو جد وحق أم لعب وهزل ؟!

« قال » إبراهيم : ليس الأمر كذلك ...

« بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن » أى أنشأهن ، بما فيهن من المخلوقات ، التى من جملتها أنتم وآباؤكم ، وما تعبدون من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه .

وهذا انتقال عن تضليلهم فى عبادة الأصنام ، ونفى عدم استحقاقهم لذلك إلى بيان الحق ، وتعيين المستحق للعبادة .

« وأنا على ذلكم من الشاهدين» تذييل متضمن لرد نسبتهم إياه إلى اللعب والهزل .

والمعنى : وأنا على ذلكم الذى ذكرته من العالمين به ، على سبيل الحقيقة ، المبرهنين عليه ، ولست من اللاعبين .

وهذا الجواب وارد على الأسلوب الحكيم .

وكان من الظاهر أن يجيبهم بقوله : بل أنا من المحقين ولست من اللاعبين ، فجاء بقوله (بل ربكم) الآية لينبه به على أن ابطالى لما أنتم عاكفون عليه وتضليلى إياكم مما لا حاجة فيه لوضوحه إلى الدليل .

ولكن انظروا إلى هذه العظيمة، وهى أنكم تتركون عبادة خالقكم ، ومالك أمركم ، ورازقكم ، ومالك العالمين ، والذى فطر ماأنتم لها عاكفون ، وتشتغلون بعبادتها دونه ، فأى باطل أظهر من ذلك ، وأى ضلال أبين منه ؟! .

كأنه قال : لست من اللاعبين فى الدعاوى ، بل من العالمين فيها ، بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة ، كالشاهد الذى تقطع به الدعاوى .

إن هذه الآيات تسجل زاوية من ذلك الحوار الخالد الذى قام بين الفتى وبين أبيه وقومه ...

زاوية أخطر مافيها أن إبراهيم قد أشاع فى الدولة التى يعيش فيهم جوا من السخرية بالآلهة ...

جوا يصوره قوله : ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ !

فبعد أن كانت آلهة مقدسة ، يسجدون لها ، ويخضعون لسلطانها ، ولا يجرءون على ذكرها إلا بكل تقديس وتعظيم ... حوّلها إبراهيم إلى شىء يسخر منه ، ويضحك منه ... واتخذها مادة للسخرية ...

وحقرها ... وهبط بها إلى أنها مجرد تماثيل تافهة ، ليست آلهة ، ولا معبودة !!

ثم زاد السخرية مرارة فقال لهم : التى أنتم لها عاكفون ؟!

أى أنكم قوم مغفلون ...

ولو لم تكونوا مغفلين ، مالازمتموها كأنكم بهائم تلازم حظائرها !!

إنها سخرية لاذعة ...

وماهى بسخرية... فان الرسل أعلى وأكرم من أن يسخروا ...

فانهم لاينطقون إلا حقا ...

ولكن الأمر أن إبراهيم ينطق بالحق ... فهو حين يقول : ما هذه التماثيل — التى أنتم لها عاكفون ، إنما يراها فعلا تماثيل ليس إلا ...

وهى كذلك فى حقيقة أمرها ...

فلم يزد إبراهيم على أن عبر عن حقيقتها ...

إلا أن الحقيقة التى أعلنها إبراهيم تبدو سخرية لاذعة فى تصورهم ... لأنهم يعتقدون أنها آلهة وليست مجرد تماثيل !!

ولذلك قالوا له : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟!

إنهم يظنون ان إبراهيم مجرد شاب حديث السن ، يدفعه طيش الشباب إلى ذلك النوع من اللعب والعبث !!!

ولو لم يكن عابثا ، لاعبا ، ماسمى الآلهة تماثيل !!

ولذلك أعرض ابراهيم اعراضا تاما عن إقامة الدليل على أنه ليس بعابث ولا هازل،
إلى إعلان الحق الذى يدعوهم إليه : بل ربكم رب السماوات والأرض ، الذى فطرهن .
ليست هذه الأصنام أربابا كما تظنون .. وإنما ربكم الذى أوجد السماوات والأرض .
ثم يؤكد لهم ما هو فوق إمكانيات أفهامهم بقوله : وأنا على ذلكم من الشاهدين .
أى إننى أشهد تلك الحقيقة شهودا يقينيا .

أشهد ملكوت السماوات والأرض . . . وأشهد أن هناك ربا لها ولمن فيها . . .
« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض . . »
وهكذا هز إبراهيم كيان الدولة كلها ... سخر من آلهتها ... وسخر من عقائدها .
كما هز كيان أبيه من قبل !!!

فإنهم عدو لى ؟!

ثم يقص الله تعالى علينا ذلك الحوار الرائع بين إبراهيم والمجتمع كله ... ويكشف لنا زوايا أخرى من الموضوع ، فيقول عز من قائل :

« واتلُ عليهم نبأ إبراهيمَ . إذ قالَ لأبيهِ وقومهِ ما تعبدونَ . قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفينَ . قالَ هلْ يسمعونكم إذ تدعونَ . ؟ أو ينفعونكم أو يضرونَ . ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم . [الشعراء ٦٩ — ٨٩]

« واتل عليهم » اذكر ذلك لقومك ، وللناس جميعا .
« نبأ إبراهيم » أى خبره العظيم الشأن ، حسبما أوحى إليك .

« إذ قال» أى نبأه وقت .

« لأبيه وقومه» وقت قوله لهم ..

« ما تعبدون ؟ » وسألهم عما يعبدون ليبنى على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل عن استحقاق العبادة بالكلية .

« قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » أطنبوا فى الجواب للابتهاج والافتخار . أى نظل لأجلها مقبلين على عبادتها . أو مستديرين حولها . . .

« قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟! » هل يسمعون دعاءكم ؟

وقيل : السماع هنا بمعنى الاجابة . أى : هل يجيبونكم ؟!

« أو ينفعونكم » بسبب عبادتكم لهم ؟

« أو يضرون» أى يضرونكم بترككم لعبادتهم .

إذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر ؟

« قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» لا يسمعون ، ولا ينفعوننا ، ولا يضرون إنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ، ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم !

« قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون» أى أنظرتم فأبصرتم . أو تأملتم فعلمتم أى شىء استدمتم على عبادته . أى أى شىء تعبدونه ؟

« أنتم وآباؤكم الأقدمون» انكار توبيخ يتضمن بطلان آلهتهم ، وعبادتها ، وأن عبادتها ضلال قديم ، لا فائدة فى قدمه إلا ظهور بطلانه ، كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين .

« فإنهم عدو لى» تعليل لما يفهم من ذلك من أنى لا أعبدهم ، أو لا تصح عبادتهم .

وقيل : خبر لما كنتم . إذ المعنى : أفأخبركم وأعلمكم بمضمون هذا ؟

أو : فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم ، الذين يحبونهم كحب الله تعالى .

« إلا رب العالمين» أى هو وحده الذى أحبه ، وأخصه بالحب .

أى لكن رب العالمين ، ليس كذلك ، فإنه جل وعلا ولى من عبده فى الدنيا ، والآخرة ، لا يزال يتفضل عليه بالمنافع .

«الذى خلقنى» تصريحا بالنعم الخاصة به وتفصيلا لها .

وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ، ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى .

«فهو يهدين» فهو يهدينى جل شأنه إلى كل ما يهمنى ، ويصلحنى ، من أمور المعاش والمعاد ، هداية متصلة بحين الخلق ، ونفخ الروح ، متجددة على الاستمرار ، مما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع .

« والذى هو يطعمنى ويسقين » الظاهر أن المراد إطعام الطعام المعروف ، وسقى الشراب المعهود .

وقيل : المعنى يطعمنى بلا طعام ، ويسقينى بلا شراب ، كما جاء :

(إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين) وهو مشرب صوفى

« وإذا مرضت فهو يشفين » ونسبة المرض الذى هو نقمة إلى نفسه ، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله عز وجل شأنه ، لمراعاة حسن الأدب ، كما قال الخضر (فأردت أن أعيبها) وقال : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) .

« والذى يميتنى ثم يحيين » يميتنى حتما ، ثم يحيين حتما .

وقيل : وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفينى بالتوبة .

وهو من باب الإشارة لا العبارة .

وثم فى قوله (ثم يحيين) للتراخى الزمانى . لأن المراد بالاحياء الأحياء للبعث ، وهو متراخ عن الإماتة فى الزمان فى نفس الأمر .

« والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » استعظم ما عسى يندر منه من فعل خلاف الأولى حتى سماه خطيئة .

وهذا يدل على شدة سمو نفسه ، فهو يتصور ان له خطايا ، وهذا ناشىء من إدراكه أنه لم يقم بحق الله تعالى عليه !

« رب هب لى حكماً » الحكمة التى هى كمال القوة العلمية ، بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به .

وقيل : الأولى أن يفسر بكمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شئونه عز وجل وأحكامه التى يتعبد بها .

« وألحقنى بالصالحين » طلب كمال القوة العملية بأن يكون موفقاً لأعمال ترشحه للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها .

وقدم الدعاء الأول على الثانى لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العمليه ، لأنه يمكن أن يعلم الحق وإن لم يعمل به وعكسه غير ممكن .

ولأن العلم صفة الروح ، والعمل صفة البدن ، فكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل .

وقيل : المراد بالحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم والعمل .

والمراد بطلب ذلك أن يكون علمه وعمله مقبولين ، إذ ما لم يقبلا لا يلحق صاحبها بالصالحين ولا تجعل منزلته كمنزلتهم .

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » أى اجعل لنفعى ذكراً صادقاً فى جميع الأمم إلى يوم القيامة .

وحاصله : خلد صيتى ، وذكرى الجميل فى الدنيا .

وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة ، والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة ، التى يقتدى بها الآخرون ، ويذكرونه بسببها بالخير ، وهم صادقون .

فاللسان مجاز عن الذكر .

ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ، ومدحه بما كان عليه فى زمانه ، لكون الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى ورضاته .

ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة ، يبعث فيها نبي ، وأنه طلب الصيت الحسن ، والذكر الجميل فيهم ، ببعثة نبي فيهم يجدد أصل دينه ، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد ، معلما لهم أن ذلك ملة إبراهيم عليه السلام .

فكأنه طلب بعثة نبي كذلك فى آخر الزمان ، لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة . وليس ذلك إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقد طلب بعثته عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرح مما ذكر ، أعني بقوله (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) إلخ .

ولهذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « أنا دعوة إبراهيم عليه السلام » .

« واجعلني » فى الآخرة .

« من ورثة جنة النعيم » واستدل بدعائه بهذا بعد ما تقدم من الأدعية ، على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة ، وكذا كون العبد ذا منزلة عند الله عز وجل .

« واغفر لأبي » أى امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك .

وحاصله وفقه للايمان .

« إنه كان من الضالين» وهذا ظاهر إذا كان هذا الدعاء قبل موته .

وإن كان بعد الموت فالدعاء بالمغفرة على ظاهره ، وجاز الدعاء بها لمشرك .

« ولا تخزني » بتعذيب أبي ، أو ببعثه فى عداد الضالين .

أو بمعاتبتي على مافرطت ، أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث ، أو بتعذيبي وهو من الخزي بمعنى الهوان .

« يوم يبعثون » أى الناس كافة .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون » من كلام إبراهيم عليه السلام .

وقيل : من كلام الله تعالى .

يوم لا ينفع شيء من محاسن الدنيا وزينتها .

واقتصر على ذكر المال والبنين ، لأنهما معظم المحاسن والزينة .

والحق أنهما كل الحياة ، لأن الحياة إما مال وإما ناس .

«إلا من أتى الله بقلب سليم» يوم لاينفع مال وإن كان مصروفا فى الدنيا ، إلى وجوه البر والخيرات ، ولا بنون وإن كانوا صلحاء أحدا .

إلا من أتى الله بقلب سليم ، عن مرض الكفر ، والنفاق .

ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان .

أى لا نفع مطلقا لأحد إلا بحقيقة قلبه .

القلب السليم : الخالى عن مرض الكفر والنفاق

وقيل : الخالى عن العقائد الفاسدة ، والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها ، ويتبع ذلك الأعمال الصالحات ، إذ من علامة سلامة القلب تأثيرها فى الجوارح .

وقيل : هو الذى ليس فيه غير الله عز وجل .

وقيل : هو اللديغ من خشية الله تعالى ، المنزعج من مخافة القطيعة .

وقيل : هو الذى سلم من الشرك والمعاصى ، وسلم نفسه لحكم الله تعالى ، وسالم أولياءه ، وحارب اعداءه ، واسلم حيث نظر فه ، واستسلم ، وانقاد لله تعالى ؛ وأذعن لعبادته سبحانه .

إلا رب العالمين ؟!

إن أقوى ما فى ذلك العرض هو قول إبراهيم « فإنهم عدو لى ، إلا رب العالمين » ففيها ترجمة كاملة لشخصية إبراهيم ...

إنه يتكلم عن نفسه ...

ويعلن إلى الناس كافة : أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟...

فإنهم عدو لى ...

كل هذه الأصنام ، وهذه النجوم ، وهذه الكواكب ...

بل كل شىء يعبد من دون الله ... هو عدو لعابده ...

فهو ناموس خالد يعلنه إبراهيم ..

وإن من شيء يعبده الإنسان إلا وهو عدو للإنسان !

لماذا ؟...

لأنه سيتبرأ منه يوم القيامة ، ولأنه سيكون سببا فى دخوله النار، وتعذبه أشد العذاب!

إلا شيئاً واحداً ... شيئاً إذا عبده الإنسان ، لا يكون عدواً له ... بل يحبه، وينصره، وينفعه ، ويواليه ، ويكرمه ...

إلا رب العالمين ...

هذا هو الشيء الوحيد الذى ينبغى أن يحبه الإنسان بكل ما يملك من مشاعر الحب.

هذا هو الناموس الذى أعلنه إبراهيم على قومه .. على النـاس جميعاً ...

كل ما سوى الله ... عدو لإبراهيم ...

إلا رب العالمين ... فإنه وحده الذى يحبه إبراهيم ...

ما معنى هذا ؟ ...

معناه أن إبراهيم قد ارتفع إلى مقام عظيم جداً ...

مقام التجرد من السوى ...

والإتجاه لله وحده ..

مقام كراهية كل شيء

واختصاص الله بالحب وحده ...

مقام الميل عن كل شيء ... والإنطلاق فى خط مستقيم إلى الله وحده ...

مقام تخصيص قلبه لله وحده ... وتحريم الركون إلى ما سواه ...

ثم ماذا ؟...

الذى خلقنى ؟!

ثم ينطلق إبراهيم ... يعلن إلى قومه ... إلى الناس جميعاً ..

لماذا لم يحب إلا الله ؟

لماذ لم يعبد إلا الله ؟

لماذا هو يكره أن يتجه إلى أى شيء سوى الله ؟

ويغوص إبراهيم ... إلى أعماقها ... ثم يخرج وفى يمينه إشعاع باهر يكاد سنا برقه يخطف الأبصار ..

إشعاع لا يستطيعه إلا نبي ... كشف الله له الحقيقة ... وأذن له أن يتحدث باسمه عنها .

فما ذا قال إبراهيم ؟...

الذى خلقنى ؟...

لم أك شيئاً .. فجعلني شيئاً ..

لم أك موجوداً فأوجدنى .

لا أستطيع أن أحب ، أو أعبد ، إلا ذلك الذى أوجدنى فى هذه الحياة ...

ولا أستطيع أن أتصور أن يتجه قلبي إلا لمن أوجده ...

وإبراهيم هنا يغرف من ينابيع الحقيقة ... ويلقى إلى الناس ...

خذوا ... خذوا ... إنى أعبده لأنه خلقنى ...

إن وجودى نفسه صادر عنه ... مجرد هبة منه ...

هو الذى وهبنى كينونتى ... هو الذى أنشأ وجودى ...

فكيف أعبد غيره ... أو كيف أتجه إلى ما سواه ؟!

وإبراهيم فى هذا يعتبر إماما للناس كافة .

يرشدهم إلى السبب الذى من أجله لا يجوز عبادة غير الله ...

ثم ماذا ؟...

هل انتهت مهمة الله عند مرحلة الخلق ... هل أوجد إبراهيم ... ثم أهمله ... ولم يلتفت إليه ؟...

فهو يهدين ؟!

هل إبراهيم كان بدعاً فى هذا ... أم أنه ناموس عام يسرى فى إبراهيم كما يسرى فى الخلائق أجمعين ؟!

الواقع ... أنه ناموس إلهى ، ينتظم كل شىء ...

ولنسمع إلى رسول كريم آخر ، يسجل نفس ما سجله إبراهيم ... ويعلن نفس الناموس الذى أعلنه ...

ولنسمع إلى موسى يعلنها إلى فرعون ، كما وقف إبراهيم يعلنها إلى قومه ... لندرك أن رسل الله تعالى ينهلون من ينبوع واحد ... ويذيعون أسراراً وأنواراً واحدة ...

قال تعالى : « قال : فمن ربُّكما ياموسى ؟. قال : ربُّنا الذى أعْطَى كلَّ شىء خلقهُ ثم هَدَى » . [طه ٤٩ و ٥٠]

فرعون يسأل : فمن ربكما ياموسى ؟!

وموسى يجيب على مشهد من الجميع : ربنا الذى أعطى كل شىء ... خلقه ثم هدى !!

أرأيت ؟ ...

نفس منطق إبراهيم !!!

إبراهيم يقول ... إلا رب العالمين ... الذى خلقنى ، فهو يهدين ...

وموسى يقول : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى !!!

تطابق ... ليس عن صدفة ... ولا عن مجرد ردود وفصاحة ...

ولكنه تطابق الحق الواحد ... يتحدث عنه رجال علمهم الله تعالى كيف يتحدثون عن الحق ، وكيف يعلنون ؟

« إلا رب العالمين» ... تقرر أن الله تعالى رب كل شىء ... أى الذى يربى كل شىء ويبلغ به المقادير المقررة له ...

و... « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه » تقرر أن الله تعالى هو الذى منح كل شىء وجوده الذى هو عليه ...

ثم ماذا ؟ ...

ثم هذا يقول «فهو يهدين» ... أى يهدينى إلى كل مايهمى ، ويصلحنى ، من أمور المعاش ، والمعاد ، هداية متصلة ، بحسن الخلق ، ونفخ الروح ، متجددة على الإستمرار ، مما ينبيء عنه الفاء وصيغة المضارع ...

ثم ذاك يقول : « ثم هدى» ...

أى يستمر سبحانه وتعالى فى هداية كل شيء إلى مايصلحه هداية مستمرة متجددة ...

أرأيت ؟ ...

إنها النبوة تتكلم ...

وأعلنها إبراهيم ... فأذاع على العالمين ناموسا من نواميس الوجود ...

أن رب العالمين ... هو وحده الذى يهديه إلى مافيه صلاحه ، وبلوغ ماقدر له ...

وهو وحده الذى هدى ، وسوف يهدى ، ولا شيء غيره يهدى ... كل شيء ، إلى مافيه صلاحه وقيامه ...

وبذلك استحق الله وحده أن يكون معبود إبراهيم ...

إنه هو الذى خلقه ... أوجده وأنشأه ...

وهو الذى يتولاه بهدايته المستمرة إلى ما يحفظ عليه وجوده ...

فلا مدخل لغير الله فى وجوده ، ولا مدخل لغيره فى حفظه وتوجيهه ...

فكيف يتصور أن يتجه إلى شيء سواه ؟

والذى هو يطعمنى ؟!

ثم وقف إبراهيم على الملأ ... يلقى بقطع النور تباعا ... فقال : والذى هو يطعمنى ويسقين !!

هذا الطعام ... وهذا الشراب ... الذى هو عماد هذه الحياة ... هو الذى يدبره فضلا منه ونعمة ...

لأصنامكم ... ولا نجومكم ... ولا كواكبكم ... ولا أسبابكم ... ولا مجهودكم ... ولا تنظيماتكم ... بمستطيعة كلها مجتمعة أن تطعمني أو تسقيني ...

وإنما هو ... وحده الذي يطعمني ويسقيني ...

هو الذي ركبني هذا التركيب البشري ، وجعلني صالحا لأن آكل وأشرب ، وألقي في بدني ما ينفعني ، ثم أقذف خارجا ما يفضل عن غذائي أو يضرني ...

هو الذي ركب هذا التركيب ... لا أنتم ... ولا آلهتكم ...

وهو الذي خلق الأطعمة التي آطعم ... والأشربة التي اشرب ...

قال تعالى : « أفرأيتم ماتحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ؟ » .
[الواقعة ٦٣ — ٧٠]

كأني بابراهيم ... كان يشير إلى مثل هذا ...

انه نفس الينبوع ... يغترفون منه أجمعين !!!

أو كأنه يشير إلى هذا ... « قتل الإنسان ما أكفره ! . من أي شيء خلقه ؟ . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ماأمره . فلينظر الإنسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . [عبس ١٧ — ٣٢]

ان الحقيقة واحدة دائما ...

ان ابراهيم يسقط الحجب كلها ... ويسقط الأسباب كلها ... ويسقط كل ماسوى الله ...

ثم يتجه مباشرة الى الذي أوجد الحجب ... وأوجد الأسباب ... وأوجد ماسواه ...

يتجه اليه مباشرة ... تحقيقا لأسلوبه العام ... للحنيفية ... التي هي مقامه ... وهي دعوته العامة ...

صحيح أن طعامه وشرابه ... قد يكون هناك من الأسباب مايدخل في اعدادها وترتيبها حتى يكون الطعام طعاما والشراب شرابا ... ولكن من الذى خلق هذه الأسباب ، ومن الذى خلق هؤلاء الأشخاص الذين اشتركوا في اعداد هذا الطعام وهذا الشراب ؟

انه الله ... اذا فلتسقط الأسباب ... وليسقط الأشخاص ... وليتجه إليه وحده ... لأنه مصدر كل هذا وموجده من عدم ...

وهذه هي الحنيفية ... أوهذا هو مقام ابراهيم ... أو هذه هي ملة ابراهيم ...

التي اعتبر الله تعالى كل من يتحول عنها ناقص العقل سفيها ...

قال تعالى : « ومن يَرْغَبُ عن ملة ابراهيمَ الا من سَفِهَ نفسَه» ؟!

فابراهيم حين يقول « والذى هو يطعمنى ويسقين » ... لا يغفل عن وجود أسباب وأشخاص في طعامه وشرابه ...

ولكنه يسقط وجودهم لأنهم موجودون بايجاد الله لهم ...

فالوجود الحق لله ... أما ماسواه فشيء عارض ، خلقه الله ... وجعله نواميس ماضية باذنه ...

وحين يطلقها ابراهيم في علو وخلود « والذى هو » ... انما يريد أن يؤكد أنه « هو » لاشيء غيره « الذى » يطعمه ويسقيه ...

ولكن هل يقف طعام ابراهيم وشرابه عند حد تلك الأطعمة والأشربة ، المادية التي يطعمها كل حيوان ؟

كلا ... ان ابراهيم يطعمه الله تعالى ويسقيه ... بما يناسب مقامه عنده سبحانه ...

ان له طعاما وشرابا خاصا بروحه ... كما لبدنه طعامه وشرابه ...

وسبحان من يعطي كل انسان ما يناسبه ...

وتلك مذاقات لا يدركها إلا أربابها !

ومستويات لا يصل إليها إلا أهل العلم بالله ...

فهو يشفين ؟!

ثم يسترسل إبراهيم مبينا لقومه أن الأمراض بتقدير الله العزيز الحكيم ..

وأن الشفاء منها لا يكون إلا منه وحده ...

وأن الأسباب والأطباء والعلاج ... وما الى ذلك ...

لاينبغى أن تحجبنا عن الحقيقة.. وهى أن الشفاء لايكون إلامن الله ، ولايتم الا بإذنه...

وإذا لم يأذن به لن يكون أبدا ...

وإذا مرضت فهو يشفين ...

هو وحده الذى يشفينى من هذه الامراض ... ليست هذه الأصنام ولا هذه النجوم ولا هذه الكواكب ...

وهكذا استأصل إبراهيم تلك العقدة التى استحكمت فى البشر ...

حين يتوهمون أن شيئا يشفى سوى الله ...

ورد كل شىء إليه سبحانه ... حتى فى تلك الحالة ، حالة المرض ، التى يضعف فيها المريض ، ويصبح مستعدا لقبول أى اتجاه ينجيه مما هو فيه ...

والذى يميتنى ؟!

ثم يعلن إبراهيم مبدأ أخطر وأخطر ...

والذى يميتنى ثم يحيين ...

حتما يميتنى ... ناموس عام لا فكاك منه ...

وحتما سوف يحيينى ... ناموس عام لا انفكاك منه كذلك ...

وصادم ابراهيم بذلك عقائد قومه جميعا ...

حين أعلن اليهم أن الموت بإذن الله وحده ، لايملكه صنم ولا كوكب ...

وأن الحياة بعد الموت أمر واقع حتما ، لا يفر منه انسان ...

انها مبادىء جديدة يعلنها ابراهيم ...

والذى أطمع أن يغفر لى ؟!

ثم يتواضع لله تعالى ... ويصغر فى جنبه سبحانه فيقول : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » ...

وابراهيم فى ذلك يبدو رسولا حقا وصدقا ... فهو لا خطأ له ولا خطيئة ... وانما احساسه انه مهما كان منه فهو دون حق الله عليه ...

هو الذى جعله يستصغر أعماله فى جنب الله ...

وكلما ازداد الإنسان قربا من الله كلما ازداد احساسه بالتقصير فى حق الله ...

فكيف بإبراهيم ؟

أو كيف باقرب الناس الى ربه فى زمانه ؟

انظر الى تعبيره « أطمع » انه يطمع ، لايؤكد ، ولا يقطع ... وانما فقط يطمع ، يأمل ، ويرجو ..

أن يغفر لى خطيئتى ... أن يتجاوز لى عن ذنبى العظيم ...

ان ابراهيم يعلم من الله ما لا نعلم ...

انه يعلم أن الناموس المقرر فى الناس جميعا انهم خطاءون ...

ومن هنا يجب أن يطالب كل انسان من الله أن يغفر له ما كان منه من أخطاء ...

ان ابراهيم يشرح للناس ... انه يقف منهم موقف القدوة أو الأسوة ، ليقتدوا به فيما يقول ، وفيما يفعل ...

انه يحقق قول الله : « انى جاعلك للناس اماما » ...

وقوله : « قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ فى ابراهيمَ والذين معهُ ... »

وقوله : « ان ابراهيم كان أمة ... » أي اماما ...

فمثل هذا الدعاء يصدر عن ابراهيم له ظاهر وباطن ...

أما ظاهره ... فتشريع للناس أن يقولوا مثل قوله ...

وأما باطنه ... فهو تأوه وعبودية وخشوع واعتراف بفضل الله عليه ... الذى عصمه عن الخطأ ... واعفاه من الخطيئة...

وأما قوله « يوم الدين » فهو شيء جديد على قومه ...

انه يقرر أن هنالك يوما يحاسب فيه كل انسان ...

حتى الرسل والأنبياء .. يحاسبون ... هل بلغوا رسالات ربهم !!

وهذا شيء جديد على قومه ، وعلى الناس ... !!

هب لى حكما ؟!

توجه ... كريم ... جميل ... يسيل جمالا ، ومعرفة بالله ... على أكمل ما تكون المعرفة ...

« رب » ... اقصى غايات التذلل بين يدى الله ... رب ؟ ... يا من ربيتنى وتعهدتنى ...

« هب » ... هذا اللفظ يدل على أن ابراهيم فى الذروة من معرفة ربه ...

انه يعلم أن ما بالناس من نعمة فمن الله ...

وأن النعم كلها مجرد « هبة » يهبها الله لمن يشاء من عباده ...

لا استحقاق لهم أصلا فى شيء منها ...

وانما الوهاب يهب لمن يشاء ، ما شاء ... مطلق الكرم ... ومطلق الهبة ...

هب لى حكما ؟ هب لى حكمة ... علمنى من لدنك علما أدرك به حقائق الأمور ... وأدرك به أين الخير فأتبعه ... وأين الشر فأجتنبه ...

إنه يطلب الكمال فى العلم ...

ويطلب الكمال فى العمل ...

إنه يطلب قمة الحكمة ... قمة العلم ...
وكلما ارتفع مقامه فى العلم ، كلما كان عمله أصوب ...
إنه يطلب أعلى مايطلبه إنسان من ربه ...
إنه إبراهيم ؟ !

وألحقنى بالصالحين ؟ !

ثم يتواضع ... ويتواضع لربه ... ويرجوه أن يلحقه بالصالحين من عباده !!!
إن إبراهيم يعلم علم اليقين أنه فى الذروة من العباد الصالحين ...
ولكنه يخاطب رب العالمين ...
والمقام مقام عبودية ... وتذلل بين يديه ... فخرجت من فمه وكلها تذلل ورجاء !!
ألحقنى ؟ ... تفضل ... وتكرم ... واسمح لى أن ألحق بالصالحين !!!
إنه يعرف الله معرفة يدرك منها أن الله تعالى فوق مايتصور الخلق جمالا وجلالا ...
ويدرك منها أنه مهما كان هو من المقام والرسالة ، لايعدو أن يكون عبدا من عباد الله ، يفعل به ما يشاء .
ومن هنا ... ومما لا نستطيع أن نصل إلى علمه ... كان سؤاله كله خوف وكله رجاء ، وكله عبودية !!

واجعل لى لسان صدق ؟ !

هذا المطلب من مطالب ابراهيم التى توجه بها إلى الله ... يبدو عجيبا ... ويدفع إلى الرءوس سؤالا ...
كيف يطلب ابراهيم تخليد ذكراه فى الدنيا ؟ .
والجواب ... إن إبراهيم يدعو ربه أن يخلد دعوته ، لا أن يخلد شخصه ...
فكأنه يطلب خلود دعوته ... خلود فكرته ... خلود الحنيفية التى جاء بها ...
وهذا شيء طبيعى فى كل نفس كريمة ...

« واجعل لى لسان صدق » ذكرا صادقا ... خلد صيتى ...

« فى الآخرين » فى سائر الأمم الى يوم القيامة ...

ان ابراهيم يطلب خلود الدعوة ...

يطلب خلود المبدأ ... خلود الفكرة ... التى هى أغلى فكرة شهدتها الأرض ... أو يمكن أن تشهدها ...

الفكرة التى جعلت ابراهيم اماما للناس ...

والتى أمر الله الناس جميعا باتباعها « ومن يرغَبُ عن ملةِ ابراهيمَ الا من سَفِهَ نفسه » ...

والتى أمر قمة البشرية كلها ... محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعها « فاتبع ملة ابراهيم حنيفاً » ...

والتى أمر بها الأنبياء جميعا « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » ...

هذه الفكرة التى جاء بها ابراهيم ... هى الفكرة التى يطلب خلودها ، وخلود ذكرها ، وخلود صيتها ، وثناء الناس دائما عليها ...

فهو حين يقول « واجعل لى لسان صدق » انما يطلب أن يجعل الله له فى كل زمان من يثنى على ملته ، على أسلوبه ، ويدعو اليها ...

ولقد استجاب الله تعالى لمطلبه ... وخلد فكرته الى يوم القيامة ...

وبعث الرسل جميعا من بعده ينادون بها ....

وجعل المؤمنين من شتى الملل السماوية ، يثنون على دعوة ابراهيم ، وملة ابراهيم .

ويمتدحون من أجل ذلك ابراهيم نفسه ، وما كان منه من فعال حميدة ، وخصال جميلة ...

انه طلب خلود الدعوة ... فخلد هو لأنه داعية تلك الدعوة ...

وطلب خلود صيت الدعوة ... فخلد صيته هو ... حيث لا انفصام بين الدعوة والداعية ...

ان ابراهيم لايدعو لخلود شخصه ... وانما يدعو لخلود المبادىء التى يمثلها شخصه ...
وحيث أنه لاانفكاك للمبادىء عن الداعى اليها ... كان دعاؤه طلبا لخلود مبادئه ...
انه يعلم أن الله جعله اماما للناس جميعا ...
وان الله اختار ملته أو أسلوبه أسلوبا للناس جميعا ...
وارتضى دينه دينا للناس جميعا « ورضيت لكم الإسلام دينا » ...
وان الله جعله التطبيق الصحيح لذلك الدين وتلك الملة ...
وأنه قد أدى كل ذلك أحسن الأداء ...
فهو حين يطلب خلود ذكره الحسن ، انما يطلب خلود شخصية الداعية ، لاشخصية ابراهيم المنفصل عن الدعوة ...
وهذا هو المدخل الى ذلك الأمر العظيم ...
والنور الذى يبدد الظلمات التى يلقيها الشيطان فى صدور الذين يظنون الظنون ...

واجعلنى من ورثة جنة النعيم ؟!

ثم يطلب ابراهيم تمام النعمة ... فيسأل ربه أن يجعله من ورثة الجنة التى يتحقق فيها النعيم المقيم ...
تلك الجنة التى يشهدها ابراهيم وهو فى دنياه شهودا حقيقيا ...
فهو يتحدث عن شيء يراه رأى العين ...
ولا يتحدث عن غيب مظنون ...
وانما هو عالم مشهود عنده ...
ولا شك أن فكرة ابراهيم عن الجنة وهو يشهدها ويعاينها فى الدنيا ، فكرة كاملة متكاملة ...
مما يجعله يلح الحاحا شديداً أن يكون من ورثتها ...

واغفر لأبى ؟!

ثم يطلب من الله أن يغفر لأبيه آزر ... وهو حنان طبيعى ... غريزى ... من كل ابن نحو أبيه ...

ولكن هل استجاب الله لدعائه فى أبيه ؟

كلا ... بل رفض رفضا تاما .

وان لذلك لقصة سوف تأتى فيما بعد ...

ولا تخزنى ؟

تواضع جديد ... فى جنب الله ... لاتخزنى بتعذيب أبى ... أو بمعاتبتى على مافرطت فى جنبك ...

« يوم يبعثون » يوم تبعث الناس جميعا ...

وهذا شىء جديد يعلنه ابراهيم إلى قومه ... والى الناس جميعا ...

يوم لا ينفع مال ولا بنون ؟!

هذا هو أخطر ناموس يعلنه ابراهيم الى الناس جميعا ...

لا ينفع مال ... ولا ينفع أحد أحدا ...

أى لاشىء من هذه الدنيا ينفعك لأن المال تعبير عن الثروات عموما مهما تنوعت ... والبنين تعبير عن الأولاد جميعا مهما تنوعت ... وكل مولود ولد ... فهو تعبير عن الناس جميعا ...

أى لا ينفع شىء من هذه الدنيا وزينتها وفتنها ...

الا من أتى الله ... بقلب سليم ؟!

وهذه هى دعوة ابراهيم ... أو فكرة ابراهيم ... أو خلاصة رسالته ...

القلب السليم ... هو وحده الذى ينفع الإنسان يوم القيامة ...

ثم انظر الى تعبيره ... إلا من أتى الله ...

إلا من جاء ربه ... وذلك يكون فى الدنيا ، وفى الآخرة ...

أى إلا من عاش فى الدنيا سليم القلب ...

وإلا من مات ولقى الله وهو سليم القلب .

وألا من بعث يوم القيامة وهو سليم القلب ...

فما هو القلب السليم ؟

أوما هو أنموذج القلب السليم الذى ينبغى على كل إنسان إلى يوم القيامة أن يحتذيه؟

هو قلب إبراهيم !!

ما دليل ذلك ؟

دليله قول الله تعالى : «وإن من شيعته لإبراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم» ...

إن الله يعلن أن إبراهيم قد جاءه بقلب سليم ...

ويعلن فى موضع آخر أنه لاينفع يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم ...

فماذا نفهم من هذا ؟

نفهم شيئا عجيبا جديدا ...

أن قلب إبراهيم الأنموذج الذى يرتضيه الله تعالى للناس جميعا ...

وأن قلب إبراهيم هو القلب الذى يحبه الله تعالى ...

وأن قلب إبراهيم هو القلب الذى ينجو صاحبه يوم القيامة ...

ولقد قالوا فى القلب السليم أقوالا ...

وعددوا فى تعريفه تعديدا ...

ولكن أقوالهم كلها تبقى ناقصة ... تشير إلى الحقيقة ... ولا تحددها ...

وإنما القول الفصل ... والقول الحق ... فى القلب السليم ... أن نقول :

القلب السليم قلب ابراهيم ...

اذا قلنا ذلك فقد أصبنا الحقيقة كاملة ...

لأن الله تعالى نص على ذلك : اذ جاء ربه بقلب سليم ...

ولا قطع وراء ذلك ... ولا تحديد بعد ذلك ...

ان الله نفسه يعلن بنفسه أن ابراهيم جاءه بقلب سليم ...

ومن أعلم بقلوب الناس من الله ؟

وحين نقول إن القلب السليم هو قلب ابراهيم انما نقدم للناس نموذجا عمليا للقلب السليم ...

فلا نتركهم يتيهون فى متاهات التعاريف وانما نرشدهم مباشرة الى شخصية ذات قلب سليم ...

فإذا قالوا بعد ذلك : فما هو القلب السليم ...

قلنا لهم : هو ابراهيم ... تابعوه ... وادرسوه ... وافهموه ... وادركوه ؟ ...

تدركوا بعد ذلك ماهو القلب السليم ؟

ان ابراهيم هو ذروة القلب السليم ...

هو قمة القلب السليم ...

وان حياته كلها ... ظاهرها وباطنها ...

هى هذا القلب السليم ...

فان سألتنى بعد ذلك : ماهو القلب السليم ؟

قلت لك : اعرف ابراهيم وتابع خطاه ... وحاول أن تستنير بنوره ... تدرك ما هو القلب السليم !!!

ولا أخاف ماتشركون به ؟!

واشتعلت المعركة بين إبراهيم وبين قومه ...

وانطلق يشرح فكرته للناس ... وينشر دعوته ... ويبسطها فى المجتمع ...

فأثارت جدلا عنيفا جداً ...

هزت المجتمع كله من أساسه .

ولم يعد للناس من حديث الا هذه الفكرة الجديدة التى ابتدعها ابراهيم ! !

قال تعالى : « وحاجَّهُ قومُهُ : قال : أتحاجُّونِّى فى الله وقد هدانِ ؟ ! ، ولاأخافُ ماتشركون به الا أن يشاء ربى شيئاً ، وسِعَ ربى كلَّ شىءٍ علماً ، أفلا تتذكَّرون ؟ . وكيف أخافُ ماأشركتمْ ولاتخافونَ أنكمْ أشركتمْ باللهِ مالم ينزلْ به عليكمْ سلطاناً ؟ ! فأىُّ الفريقينِ أحَقُّ بالأمنِ ، ان كنتم تعلمونَ ؟ . الذين آمنوا ولم يَلْبسُوا ايمانَهُم بظُلْمٍ ، أولئك لهمُ الأمنُ وهم مُهتدونَ . وتلك حُجَّتُنَا آتيْناها ابراهيمَ على قومِهِ ، نرفعُ درجاتٍ مَّن نشاء ، انَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ . » [الأنعام ٨٠ — ٨٣]

« وحاجه قومه » أى خاصموه .

أوشرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد تارة بايراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف والتهديد .

« قال » منكرا عليهم محاجتهم له ، مع قصورهم عن تلك المرتبة ، وعزة المطلب ، وقوة الخصم ، ووضوح الحق .

« أتحاجونى فى الله » أى فى شأنه تعالى ووحدانيته سبحانه .

انه يستبعد أن يحاجوه فى أمر فرغ منه ، وشاهده فى عين اليقين .

« وقد هدان » فان كونه مهديا من جهة الله تعالى ، ومؤيدا من عنده سبحانه ، ممايوجب الكف عن محاجته ، وعدم المبالاة بها ، والالتفات اليها اذا وقعت .

وقيل : هدان الى الحق بعد ماسلكت طريقتكم بالفرض والتقدير ، وتبين بطلانها تبينا تاما كما شاهدتموه .

وعلى القولين ، لايقتضى سبق ضلال له وجهل بمعرفة ربه جل وعلا .

« ولا أخاف ما تشركون به » جواب عما خوفوه — عليه السلام — من إصابة مكروه من جهة معبودهم الباطل .

وهذا التخويف قيل : كان على ترك عبادة مايعبدونه .

وقيل : بل على الاستخفاف به واحتقاره بنحو الكسر والتنقيص .

قيل : ولعل ذلك حين فعل بآلهتهم ما فعل مما قص الله تعالى علينا .

والباء سببية : أي الذى تشركون بسببه .

« الا أن يشاء ربى شيئا » أى لا أخاف ما تشركون به فى وقت من الأوقات الا فى وقت مشيئته تعالى اصابة مكروه لى من جهتها .

وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فى ايجاده واحداثه .

أو : ولكن أخاف أن يشاء ربى خوفى مما اشركتم به .

وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة الى ضميره — عليه السلام — اشارة الى أن مشيئته تلك ان وقعت غير خالية عن مصلحة تعود عليه بالتربية .

أو اظهار منه — عليه الصلاة والسلام — لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لامره ، واعتراف بكونه تحت ملكونه وربوبيته تعالى .

« وسع ربى كل شىء علما » أى أحاط بكل شىء علما .

فلا يبعد أن يكون فى علمه سبحانه انزال المكروه بى من جهتها بسبب من الاسباب.

« أفلا تتذكرون » أى أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل فى أن آلهتكم بمعزل عن القدرة على شىء ما من النفع أو الضر . فلا تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى .

« وكيف أخاف ماأشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله » حيث لم يخافوا فى محل الخوف فلأن لايخاف — عليه السلام — فى محل الأمن أولى وأحرى .

أى كيف أخاف أنا ماليس فى حيز الخوف أصلا ، وأنهم لايخافون غائلة ماهو أعظم المخوفات وأهولها وهو اشراككم بالله تعالى الذى فطر السماوات والأرض ماهو من جملة مخلوقاته الذى فطر .

وعبر عنه بقوله سبحانه : « ما لم ينزل به عليكم سلطانا » أى حجة على طريق التهكم .

« فأى الفريقين أحق بالأمن » المراد بالفريقين ، الفريق الآمن فى محل الأمن ، والآمن فى محل الخوف .

فأينا أحق بالأمن ؟ أنا أم أنتم ؟

«إن كنتم تعلمون» أى من هو أحق بذلك ، أو أى شىء من الأشياء ، أو ان كنتم من أولى العلم فأخبرونى بذلك .

أولئك لهم الأمن ؟!

« الذين آمنوا » استئناف يحتمل أن يكون من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لا محيد عنه .

ويحتمل أن يكون من جهة ابراهيم ـ عليه السلام ـ أى الفريق الذين آمنوا بما يجب الإيمان به .

« ولم يلبسوا » أى يخلطوا .

« إيمانهم » ذلك

« بظلم» أى شرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله تعالى وان عبادتهم لغيره سبحانه معه من تتمات ايمانهم ، وأحكامه ، لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما ينبىء عنه قولهم : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)

والى تفسير الظلم بالشرك هنا ذهب اكثر المفسرين .

ويدل عليه ماأخرجه الشيخان أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟

« فقال صلى الله عليه وسلم : ليس ما تظنون انما هو ما قال لقمان عليه السلام لابنه (يابنى لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) .

وقيل : المراد به المعصية .

واستدلوا بالآية على أن صاحب الكبيرة لاأمن له ولانجاة من العذاب ، حيث دلت بتقديم لهم الآتى على اختصاص الأمن بمن لم يخلط ايمانه بظلم أى بفسق .

الخلاصة أن الأمن فى الدنيا والآخرة يتحقق لمن لم يشرك بالله أصلا . ولم يظلم ولم يعص فرعا .

« أولئك لهم الأمن » وقيل: المراد من الأمن الأمن من خلود العذاب . لا الأمن من العذاب مطلقا .

« وهم مهتدون» الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين .

نرفع درجات من نشاء ؟!

« وتلك حجتنا » اشارة الى ما احتج به ابراهيم — عليه السلام — وفى اضافته الى نون العظمة من التفخيم ما لا يخفى .

« آتيناها ابراهيم » أى أرشدناه اليها أو علمناه اياها .

« على قومه » أى آتيناها ابراهيم حجة على قومه .

« نرفع درجات » أى رتبا عظيمة عالية من العلم والحكمة .

« من نشاء » من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة :

وايثار صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة فيما بين المصطفين الأخيار ، غير مختصة بابراهيم —عليه السلام —

« ان ربك حكيم » أى فى كل ما يفعل من رفع وخفض .

« عليم » أى بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة .

وفى قوله تعالى « درجات » اشاره الى علو الدرجات التى رفع الله تعالى اليها ابراهيم ...

درجات ؟!!

عالية جدا ... رفيعة جدا ...

استمرار على الدعوة ؟!

ويقول تعالى :« وابراهيمَ اذ قالَ لقومهِ : اعبدوا اللهَ ، واتقوه ، ذلكُمْ خيرٌ لكمْ ان كنتمْ تعلمونَ - انما تعبدونَ من دونِ الله أوثاناً ، وتخلقونَ افكاً ، انَّ الذين تعبُدونَ من دون اللهِ لايملكونَ لكمْ رزقاً ، فابتغُوا عندَ الله الرزقَ ، واعبُدُوه ، واشكرُوا لهُ ، اليهِ ترجعونْ . وان تكذّبُوا فقدْ كذّبَ أممٌ من قبلكمْ ، وما على الرسولِ الا البلاغُ المبينُ . » [العنكبوت ١٦ — ١٨]

« وابراهيم اذ قال لقومه » ومما ينبغى ذكره ابراهيم ، اذ قال لقومه ...

أرسلناه حين تكامل عقله ، وقدر على النظر والإستدلال ، وترقى من رتبة الكمال الى درجة التكميل ، حيث تصدى لإرشاد الخلق الى طريق الحق .

وقيل : قبل البعثة .

« اعبدوا الله » وحده .

« واتقوه » أن تشركوا به سبحانه شيئا .

« ذلكم » أى ماذكر من العبادة والتقوى .

« خير لكم » من كل شيء فيه خيرية ، أو مما أنتم عليه ...

« ان كنتم تعلمون » أى الخير والشر ، وتميزون أحدها عن الآخر ...

« انما تعبدون من دون الله أوثانا » أى ما تعبدون من دونه تعالى الا أوثانا ، هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ، ليس فيها وصف غير ذلك ...

« وتخلقون افكا » أى وتكذبون كذبا ، حيث يسمونها آلهة ، وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله سبحانه .

أو تعلمونها وتنحتونها للأفك والكذب .

« ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا » لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق .

« فابتغوا عند الله الرزق » أي كله .

« واعبدوه » عز وجل وحده .

« واشكروا له » على نعمائه .

« إليه ترجعون » استعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر ، فإنه إليه ترجعون .

« وإن تكذبوا » فإن تصدقوني فقد فزتم بسعادة الدارين ، وأن تكذبوا أي تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون بالبعث ...

« فقد كذب أمم من قبلكم » فلا تضرونني بتكذيبكم ، فإنه قد كذب أمم قبلكم رسلهم ، فلم يضرهم تكذيبهم شيئا ، وإنما ضروا أنفسهم ، حيث تسبب لما حل بهم من العذاب ، فكذا تكذيبكم إياي .

« وما على الرسول إلا البلاغ المبين» أي التبليغ الذي لا يبقى معه شك ، وما عليه ان يصدقه قومه البتة ، وقد خرجت من عهدة التبليغ بمالامزيد عليه ، فلا يضرني تكذيبكم بعد ذلك أصلا .

فساقها لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلى بنحو ماابتلى به من شرك القوم ، وتكذيبهم ...

إن ابراهيم يدعو قومه بشتى الوسائل ...

إنه هنا يبين لهم أنهم مايعبدون في الحقيقة الا أوثانا حقيرة لاوزن لها ... مجرد تماثيل لاتملك لنفسها ولا لغيرها شيئا ...

وانهم بذلك يخلقون افكا ... أي يخترعون كذبا عظيما ... لا أصل له من الحقيقة ...

ثم يمضي بهم الى أعماقهم ... الى لقمة العيش التي تتعب الإنسان دائما ...

فيقول : ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا ...

أي أن الأرزاق ليست ملكا لهؤلاء ، ولا هم يستطيعون ...

اذا من يملك الرزق ؟

فابتغوا عند الله الرزق ... اطلبوا الرزق من الله ... لأنه هو الرزاق ...

واعبدوه ... اتجهوا الى الله مباشرة بدون هذه الأصنام ... وبدون هذه الوساطات ...

اتجهوا اليه هو وحده ...

واشكروا له ... وليكن شكركم له وحده ... فهو المنعم ... وهو صاحب النعم كلها...

ثم يخوفهم بعد أن رغبهم ... وحذرهم بقوله : اليه ترجعون ... رغم أنوفكم عائدون اليه ، وهو محاسبكم عما قدمتم ... فأين تذهبون ؟

ثم يعلن ابراهيم ناموسا خالدا من نواميس البشر ... فيقول : وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ...

ليس بمستغرب ماتفعلون ... ان تكذيبكم شيء طبيعي ... ليس مفاجأة لى ... انه ناموس طبيعي ... فما من رسول الا وكذبه قومه ... وما أنا الا رسول ... شأنى شأن غيرى من الرسل ... ويسرى على وعليكم ما سرى عليهم ...

ثم يعلن ناموسا آخر .. وماعلى الرسول الا البلاغ المبين ... ماأوجب الله على أى رسول الا أن يبلغ رسالته الى الناس بلاغا واضحا ، بحيث تنقطع المعاذير ... ولا يكون لأحد على الله حجة بعد الرسل ... أما أن يستجيب الناس أولا يستجيبون لرسالته ، فهذا ليس من شأنه ، وما لم يكلفه به الله ...

لماذا ؟ ...

لأن دعوة الناس الى الله تقوم على حرية الفكر ، لا على الاكراه ، والقهر ...

فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ...

نفس الناموس ؟!

قال تعالى : « وان يكذبوكَ فقدْ كذَّبتْ قبلهم قومُ نوح ، وعادٌ ، وثمودُ . وقومُ ابراهيمَ ، وقومُ لوطٍ . وأصحابُ مَدْيَنَ ، وكذِّبَ موسى ، فأمليتُ للكافرينَ ، ثم أخذْتهُمْ ، فكيْفَ كانَ نكيرِ ؟ » [الحج ٤٢ — ٤٤]

« فأمليت للكافرين » أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم .

« ثم أخذتهم » ثم أهلكتهم ..

« فكيف كان نكير» انكارى عليهم بتغيير ماهم عليه من الحياة ، والنعمة ، وعمارة البلاد وتبديله لضده ؟

إنه نفس الناموس الذى أعلنه إبراهيم إلى قومه ...

كل هؤلاء كذبوا رسلهم ...

ولوجئت كل يوم البشرية برسول ، لكذبت كل يوم ذلك الرسول ...

إنه ناموس عام ... لايتخلف ... ليس فقط هؤلاء هم المكذبون ... وإنما كل أمة كانت أو تكون ، سوف يكون موقفها من رسولها هو التكذيب ...

فهل كان ذلك التكذيب ذا أثر على رسالات الرسل ؟...

أو هل استطاع التكذيب أن يوقف كلمة الحق ؟

كلا ... سوف تظهر كلمة الحق ، وسوف تنتصر ، وسوف يذهب هؤلاء المكذبون إلى الجحيم ... كما يذهب الغثاء ، وأعواد الحطب إلى الحريق...

وجعلها كلمة باقيه !؟

قال تعالى : « وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ ، وقومهِ : إنَّنى بَراءٌ مما تعبدونَ . إلا الذى فَطَرنى ، فإنَّهُ سَيهْدِينِ . وجَعَلَها كلمةً باقيةً فى عَقِبهِ ، لعلهم يَرجعونَ » .

[الزخرف ٢٦ — ٢٨]

« وإد قال ابراهيم » واذكر لهم وقت قوله ...

« لأبيه » آزر .

« وقومه » المكبين على التقليد ، وكيف تبرأ مما هم فيه بقوله ...

« إننى براء مما تعبدون » وتمسك بالبرهان .

وهو نعى على أهل مكة أن يقلدوا تقليدا أعمى .

وكان الأولى لهم أن يقلدوا ابراهيم ، وينظروا نظر المتفكر .

« إلا الذى فطرنى » إننى براء من آلهة تعبدونها ، غير الذى فطرنى ...

« فإنه سيهدين » يثبتنى على الهداية أو سيهدين إلى وراء ماهدانى إليه .

« وجعلها » الضمير لابراهيم أو الله ، والضمير المنصوب لكلمة لاإله إلا الله .

« كلمة باقية فى عقبه » فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ، ويدعو إلى توحيده عز وجل .

« لعلهم يرجعون» جعلها باقيه فى عقبه ، كى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد ، أو لسبب بقائها فيهم ...

والآن ... ماهى هذه الكلمة الباقية ؟

وما معنى الباقية ؟

أما الكلمة الباقية ؟ فهى لاإله إلا الله ... وأما بقاؤها فهو بمعنى خلودها ...

أى جعلها الله تعالى كلمة خالدة فى نسل إبراهيم ... لعلهم يرجعون ... أى لعل الناس جميعا يرجعون عن الشرك والكفر ...

إن الله تعالى قد ضمن خلود فكرة التوحيد فى نسل ابراهيم ...

رحمة بالبشرية كلها ... أن تضل وتهوى ...

لأكيدن أصنامكم ؟!

قال تعالى : « وتالله لأكيدَنَّ أصنامَكُم بعدَ أن تُولّوا مُدبرينَ . فجعلَهُمْ جُذاذاً إلا كبيراً لهُمْ لعلهم إليهِ يرجعونَ . قالوا : من فعَلَ هذا بآلهتنا ؟! إنَّهُ لمِنَ الظالمينَ . قالوا : سَمِعْنا فتى يذكُرُهُمْ يقالُ لهُ إبراهيمُ » . [الأنبياء ٥٧ — ٦٠]

« وتالله لأكيدن أصنامكم » أى لاجتهدن فى كسرها ...

وأصل الكيد الأحتيال فى إيجاد مايضر مع إظهار خلافه ، وهو يستلزم الإجتهاد .

وفيه إيذان بصعوبة الإنتهاز ، وتوقفه على استعمال الحيل ليحتاطوا فى الحفظ فيكون

الظفر بالمطلوب أتم فى التبكيت .

وكانت الأصنام على ماقيل اثنين وسبعين

« بعد أن تولوا مدبرين » من عبادتها إلى عيدكم .

« فجعلهم » أى فولوا ، فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم ...

« جذاذا » أى قطعا ، من الجذ الذى هو القطع ، فهو كالحطام من الحطم الذى هو الكسر .

روى : أن آزر خرج به فى عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه ، فسجدوا لها ، ووضعوا بينها طعاما ، خرجوا به معهم ...

وقالوا : إلى أن نرجع ، باركت الآلهة طعامنا ...فذهبوا ...

فلما كان ابراهيم فى الطريق ، ثنى عزمه عن المسير معهم ...

فقعد ... وقال : انى سقيم .

فدخل على الأصنام وهى مصطفة ، وثم صنم عظيم ، مستقبل الباب ، كان من ذهب ، وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ...

فكسر الكل بفأس كان فى يده ، ولم يبق الا الكبير ...

وعلق الفأس فى عنقه ...

وقيل : فى يده ...

« الا كبيراً لهم» أى الأصنام ، كما هو الظاهر ...

والكبر اما فى المنزلة أو فى الجثة .

« لعلهم اليه يرجعون » استئناف لبيان وجه الكسر ، واستبقاء الكبير ... »

وضمير إليه — عند الجمهور — عائد إلى ابراهيم ...

أى لعلهم يرجعون إلى ابراهيم ، لا إلى غيره ...

فيحاجهم ، ويبكتهم ، بما سيأتى من الجواب ...

إن ابراهيم يريد أن يدخل مع قومه معركة عملية......

وقيل : الضمير لله تعالى ...

أى لعلهم يرجعون إلى الله تعالى ، وتوحيده ، حين يسألونه عليه السلام ، فيجيبهم ، ويظهر عجز آلهتهم ...

وقيل : الضمير للكبير ...

أى لعلهم يرجعون إلى الكبير ...

كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات ...

فيقولون له : ما لهؤلاء ، مكسورة ، وما لك صحيحاً ، والفأس فى عنقك أو فى يدك ؟!

وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر أنهم فى عبادته على جهل عظيم .

ويحتمل أنه عليه السلام يعلم أنهم لا يرجعون اليه ، لكن ذلك من باب الاستهزاء والاستجهال .

واعتبار حال الكبير عندهم ...

فإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه فى حل المشكل ...

ولعل هذا الوجه أسرع الأوجه تبادراً ...

لكن جمهور المفسرين على الأول ...

« قالوا » أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا .

« من فعل هذا » الأمر العظيم .

« بآلهتنا » قالوه على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع ...

والتعبير هنا بالآلهة ، دون الأصنام أو هؤلاء للمبالغة فى التشنيع ...

« إنه لمن الظالمين » أى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا ، إنه معدود من جملة الظلمة ...

إما لجرأته على إهانتها ، وهى الحقية بالأعظام .

أو لتعريض نفسه للهلكة ...

أو لإفراطه فى الكسر والحطم ...

والظلم على الأوجه الثلاثة بمعنى وضع الشيء فى غير موضعه ..

« قالوا » أى بعض منهم ، وهم الذين سمعوا قوله — عليه السلام — (وتا لله لأكيدنّ أصنامكم) ..

« سمعنا فتى يذكرهم » يعيبهم ، فلعله الذى فعل ذلك بهم ..

« يقال له إبراهيم » يطلق عليه ابراهيم ، أو يسمى ابراهيم ...

ألا تأكلون ؟!

قال تعالى : « وإن من شيعته لإبراهيمَ . إذ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليمٍ . إذ قال لأبيه وقومِهِ ماذا تعبدونَ ؟! . أإفكاً آلهةً دونَ اللهِ تريدونَ ؟!. فما ظنكم بربِّ العالمينَ ؟ فنظرَ نظرةً فى النجوم . فقال : إنِّى سقيمٌ . فتوَلَّوْا عنهُ مُدبرينَ . فراغَ إلى آلهتِهِمْ فقال : ألا تأكلونَ . ما لكُمْ لا تنطقونَ ؟!. فراغَ عليهم ضرباً باليمينِ » .

[الصافات ٨٣ — ٩٣]

« وإن من شيعته » أى ممن شايع نوحا ، وتابعه فى أصول دينه .

أى وان من طبقته ، ودرجته ...

« لإبراهيم » وان اختلفت فروع شريعتيهما .

أو ممن شايعه فى التصلب فى دين الله تعالى ومصابرة المكذبين .

« اذ جاء ربه » ... متى شايعه ؟. شايعه اذ جاء ربه ...

« بقلب سليم » أى سالم من جميع الآفات . كفساد العقائد ، والنيات السيئة ، والصفات القبيحة ، كالحسد والغل ، وغير ذلك ...

وقيل : تخصيص السلامة بالسلامة من الشرك ...

أو : سالم من العلائق الدنيوية بمعنى أنه ليس فيه شيء من محبتها والركون اليها والى أهلها ...

والمراد بمجيئه ربه بقلبه اخلاصه قلبه له تعالى ...

أى اذ أخلص عليه السلام لله تعالى قلبه السليم من الآفات ...

أو المنقطع عن العلائق ...

أو الحزين المنكسر ...

وقيل : معنى مجيئه ربه بقلبه أنه أخلص قلبه لله تعالى ، وعلم سبحانه ذلك منه كما يعلم الغائب وأحواله بمجيئه وحضوره .

وعندى أن المعنى : أنه فتح له حين جاء بقلب سليم ...

ولذلك لم يقل : اذ جاء ربه سليم القلب ...

« اذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟! »

أى : أى شيء تعبدون ؟!

« أأفكا آلهة دون الله تريدون ؟ ! » أتريدون آلهة دون الله تعالى افكا ؟ أى للافك ... بانهم على افك وباطل فى شركهم ...

« فما ظنكم برب العالمين » أى : أى شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين ؟!

أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية ؟!

أو : أعلمتم اى شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى ؟ !

أو : أى شيء ظنكم بعقابه عزوجل حتى اجترأتم على الافك عليه تعالى ولم تخافوا ؟!

وكان قومه يعظمون الكواكب المعروفة ، ويعتقدون السعود والنحوس ، والخير والشر فى العالم منها ، ويتخذون لكل كوكب منها هيكلا ، ويجعلون فيها أصناما تناسب ذلك الكوكب بزعمهم ، ويجعلون عبادتها وتعظيمها ذريعة الى عبادة تلك الكواكب ، واستنزال روحانياتها ...

وكانوا يستدلون بأوضاعها على الحوادث الكونية عامة أو خاصة ...

فاتفق ان دنا لهم يوم عيد لهم يخرجون فيه ...

فأرسل ملكهم إلى إبراهيم ، انغدا عيدنا ، فاحضر معنا ، فاستشعر حصول الفرصة لحصول ما عسى أن يكون سببا لتوحيدهم ...

فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لاينكرونه عليه ...

« فنظر نظرة فى النجوم » أى فتأمل نوعا من التأمل فى أحوالها ...

وهو فى نفس الأمر على طراز تأمل الكاملين فى خلق السماوات والأرض ، وتفكرهم فى ذلك ، إذ هو اللائق به عليه السلام ...

ولكنه أوهمهم أنه يفكر فى أحوالها من الإتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التى تدل بزعمهم على الحوادث ...

ليرتب عليها ما يتوصل به على غرضه الذى يكون وسيلة إلى انقاذهم مما هم فيه ...

« فقال » أى لهم .

« إنى سقيم » أراد أنه سيسقم ، ولقد صدق — عليه السلام — ، فان كل إنسان لابد أن يسقم ، أى يمرض .

وقيل : أراد مستعد للسقم الآن .

أو : سقيم القلب لكفركم . والقوم توهموا أنه أراد قرب اتصافه بسقم لا يستطيع معه الخروج معهم إلى معبدهم .

« فتولوا عنه مدبرين » أى أعرضوا وتركوا قربه ...

والمراد أنهم ذهبوا إلى معبدهم وتركوه ...

أو : فاعرضوا عنه هاربين مخافة العدوى ، على اعتبارانه مريض بالطاعون .

« فراغ إلى آلهتهم » فذهب بخفية إلى أصنامهم التى يعبدون .

« فقال » للأصنام استهزاء .

« ألا تأكلون » من الطعام الذى عندكم ؟!

وكان المشركون يضعون فى أيام أعيادهم طعاما لدى الأصنام لتبرك عليه .

« مالكم لاتنطقون ؟! » بجوابى .

« فراغ عليهم » فمال مستعليا عليهم .

« ضربا » أى يضربهم ضربا .

« باليمين » أى باليد اليمنى .

روى أنه كان يجمع يديه فى الآلة التى يضربها بها ، وهى الفأس ، فيضربها بكمال قوته ...

إن إبراهيم قد صب كل غيظه على هذه الأصنام ، فهشمها تهشيما !!

القبض على ابراهيم ؟!

وتحركت أجهزة الدولة كلها ...

وغضب الملك غضبا شديدا ...

وغضبت الدولة ... وغضب الشعب كله ...

إن الآلهة كلها قد حطمت ... إن أصابع الإتهام كلها تشير إلى هذا الفتى ...

هذا الشاب المسمى إبراهيم ...

هذا الذى ملأ المجتمع كله سخرية من الآلهة ... ومن عابديها ...

حتى بلغت به الجرأة يوما أن يهدد تهديدا علنيا ويقول : تالله لأكيدن أصنامكم !!

إذا لابد من القبض عليه ... ولابد من عقابه عقابا أليما !!

وحين تجمع الدولة ، حكومة ، وشعبا ، على الخرافات ... يصبح الأمر مضحكا غاية الضحك ...

قال تعالى : « قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون » .

[الأنبياء ٦١]

« قالوا » أولئك القائلون .

« فأتوا به » أى احضروه .

« على أعين الناس » مشاهدا معاينا لهم على أتم وجه ...

« لعلهم يشهدون » أى يحضرون عقوبتنا له ... .

وقيل : يشهدون بفعله .

أو : بقوله ذلك .

كأنه قيل : فماذا فعلوا به بعد ذلك ، هل أتوا به أولا ؟ !.

فأتوا به ؟ ! ...

اقبضوا على المجرم ... اقبضوا على هذا الذى حطم آلهتنا ...

وأودع إبراهيم السجن ...

ومكث به حتى أعدوا للمحاكمة ، وأذاعوا على الشعب أنه تم القبض على المجرم الأثيم ، الذى حطم الآلهة ، اللعين ...

وسوف يحاكم يوم كذا ، الساعة كذا ...

وسيرأس جلالة الملك المحاكمة بنفسه ... والدعوة عامة للشعب كله ...

محاكمة علنية ؟!

وقبض على ابراهيم ... قبضت عليه الدولة الغاضبة ...

واشترك فى القبض عليه الشعب الثائر ...

لقد كان كل انسان فى الشعب يريد أن يبطش بابراهيم ...

وكان كل إنسان يريد أن يظفر بشرف الإنفراد بقتل هذا الذى سولت له نفسه أن يحطم الآلهة ...

ويتحدى عقائد الشعب كلها !!

وجىء بإبراهيم مكبلا ...

وانعقدت المحاكمة الكبرى ...

وتدفق الناس جميعا يشهدون ...

لم يتخلف عن حضور تلك المحاكمة أحد ...

كل الناس ... كل الرجال ... كل النساء ...

كل الشيوخ ... كل الأطفال ...

كل الرسميين ... كل الشعب ...

الجميع قد اجتمعوا فى ذلك اليوم الرهيب ... ليشهدوا محاكمة عدو الآلهة ... عدو الشعب !!!

وفى المعبد الأكبر ... حيث هشم إبراهيم الآلهة وجعلها حطاما ...
دارت أعجب محاكمة فى التاريخ !!

قال تعالى : (قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم ؟!. قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا : انكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم : لقد علمت ماهؤلاء ينطقون . قال : أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ ! أف لكم ، ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟! » . [الأنبياء ٦٢ — ٦٧]

وقف ابراهيم ...
وحده ؟ !!!!
وهنا العظمة من الرجل...
وحده ؟ !!!
لادولة تسنده بجيوشها ...
ولا والد يؤيده بقوته وعصبيته ...
ولا أتباع يثورون من أجله ، ويدافعون عنه ...
ولا أصحاب ينصرونه ، ويحاربون من حاربه ...
ولاحتى مجرد آحاد فى الشعب يعطفون عليه مجرد عطف ...
وحده ؟!!!!
وحدك ياإبراهيم ...
وقفت هذا الموقف ...

رأس الدولة ... نمروذ ... الجبار الطاغية ... ضدك ...

والدولة بسلطاتها وجبروتها ... ضدك ...

ورجال الدين بكهنوتهم ... ومكرهم ... ضدك ...

والشعب كله ... ضدك ...

وواجهت الموقف ... وحدك ؟!!!

بأبى أنت وأمى ... ياخليل الله ... حين وقفت ... وحدك ...

كل الناس ساخطون عليك ...

كل الطاقات موجهة إليك ... تريد أن تنتقم منك ...

أى أعصاب ... كانت أعصابك ؟!

وأى عزم كان عزمك ؟!

وأى قوة كانت تسندك ؟!

لايدرك ... ياإبراهيم ... ذلك المقام منك ... الا من اتخذك خليلا ...

وأعلن بدء المحاكمة ...

ودخل إبراهيم مقبوضا عليه ... يصب الناس عليه سخطهم ولعناتهم !!!

الطاغية ... يدعى الألوهية ؟!

ودخل صاحب الجلالة المقدسة ، الملك النمروذ ... فى أبهته وسلطانه ...

ورأس جلسة المحاكمة بنفسه ...

وجىء بإبراهيم ، وقد قيدوه بالسلاسل ، واحاطوه بالحراسة ...

وانتفش الملك كالطاووس ، واراد أن يعلن أمام الشعب عظمته ، ويؤكد ألوهيته ... للجماهير المغفلة ، التى يستعبدها كالبهائم ...

فقال فى استعلاء الجبابرة ، واستعظام الاكاسرة ، موجها الكلام إلى ابراهيم : أرأيت الهك الذي تعبده ، وتدعو الى عبادته ماهو ؟

فقال ابراهيم فى ثبات النبوة ويقين الرسل : ربى الذى يحيي ويميت .

فقهقه النمروذ ... وازداد اختيالا وعجبا ... ثم قال : أنا أحيي وأميت ..

وقالها المذكور فى وقاحة وتعاظم ... واستمع اليها الشعب المغفل فى اعجاب وتصديق !!!

فقال ابراهيم : كيف ذلك ؟!

قال الملك : آخذ رجلين ، قداستوجبا القتل ، فأقتل أحدهما ، فأكون قد أمته ،وأعفو عن الآخر ، فأكون قد أحييته ....

منطق عجيب ... ولكنه منطق جبار عنيد ...

واستمع الشعب كله ... وكاد يصدق مايزعم الملك ...

وللكلام اذا صدر عن أولى السلطان والجبروت أثر فى نفوس المستضعفين !!

وهنا تلألأت النبوة فى أعماق ابراهيم ...

وألقى بها قوية ، لاتقاوم ...

فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ...

ونزلت على الملك كما ينزل القدر الصاعق على المصعوق ...

وانتظر الشعب أن يسمع اجابة الملك ... ولكنهم لم يسمعوا جوابا ..

لقد انهار الجبار ... وانهدم من اعماقه ...

ماذا يقول لابراهيم ؟

أيزعم له أنه يستطيع أن يأتى بالشمس من المغرب ، كما زعم له أنه يحيي ويميت ؟

ماذا يفعل وابراهيم يطالبه أن يغير مشرق الشمس ويجعلها تشرق من الغرب بدلا من الشرق ؟

إنه يطالبه بشيء محسوس ... يراه المجتمعون جميعاً ...

لقد هوى التحدى على رأسه فأسكته ...

وظهر النمروذ لأول مرة أمام شعبه ذليلا ... لا يستطيع شيئاً !!!

ولننظر الآن ماذا قال الله تعالى فى تلك المحاورة الخالدة التى كانت بين الملك وابراهيم.

قال تعالى: « أَلَمْ تَرَ إلى الذى حَاجَّ ابراهيمَ فى ربهِ ، أنْ آتاهُ الله الملك ، إذ قال ابراهيمُ : ربِّى الذى يُحْيِي ويُميتُ ، قال : أنا أُحْيِي وأُميتُ ، قال ابراهيمُ : فإنَّ اللهَ يأتى بالشمس منَ المشرقِ فأتِ بها مِن المغرب فبُهتَ الذى كَفَرَ ، واللهُ لا يهدى القومَ الظالمينَ » . [البقرة ٢٥٨]

« ألم تر » ألم تنظر ، ألم ينته علمك إلى قصة هذا الكافر الذى لسب له قولى له كيف تصدى لمحاجة من تكفلت بنصرته . وأخبرت بأنى ولى له ، ولمن كان من شيعته ؟

أى قد تحققت رؤية هذه القصة العجيبة .

وتقررت بناء على أن الأمر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب .

فلتكن فى الغاية القصوى من تحقق ما ذكرته لك من ولايتى للمؤمنين وعدمها للكافرين .

ولتطب نفساً أيها الحبيب ، وأبشر بالنصر ، فقد نصرت الخليل ، وأين مقام الخليل من الحبيب ؟ ! .

والمراد بالموصول نمروذ بن كنعان بن سنجاريب .

وهو أول من تجبر وادعى الألوهية .

واختلف فى وقتها والراجح أنها عند كسر الأصنام ، وقبل إلقائه فى النار .

« فى ربه » الإضافة إلى ضميره — عليه السلام — تشريف له وإيذان من أول الأمر بتأييد وليه له فى المحاجة ، فإن التربية نوع من الولاية . حاج : جادل .

« أن آتاه الله الملك » أى لأن أتاه الله تعالى ذلك .

والتعليل فيه على وجهين ، إما أن ايتاء الملك حمله على ذلك ، لأنه أورثه الكبر والبطر ، فنشأت المحاجة عنهما .

وإما أنه من باب العكس فى الـكلام ، بمعنى انه وضع المحاجة موضع الشكر إذ كان من حقه أن يشكر على ذلك .

فعلى الاول العلة حقيقية . وعلى الثانى تهكمية .

« إذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت» ..

روى أنه قال بعد أن سجن لـكسره الاصنام ، وإثر قول نمروذ له ، وقد كان أوتى قبله الملك : من ربك الذى تدعو إليه ؟

« قال : أنا أحيي وأميت » أراد — عليه السلام — بيحيي ويميت ، يخلق الحيـاة والموت فى الاجساد .

وأراد اللعين غير ذلك .

فقد روى عنه أنه أتى برجلين ، فقتل أحدهما وترك الآخر ، وقال ما قال !

ولما كان هذا بمعزل عن المقصود ، وكان بطلانه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد ، والتعرض لإبطال مثل ذلك من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل ، أعرض الخليل — عليه السلام — عن إبطاله وأتى بدليل آخر أظهر من الشمس . . .

« قال ابراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » ...

روى أنه لم ينتقل إلى الحجة الاخرى حتى قال له : أحى من قتلته إن كنت صادقا .

لـكن لم يقص الله تعالى ذلك الإلزام علينا فى الـكتاب اكتفاء بظهور الفساد جداً .

« فبهت الذى كفر» أى غلب وصار مبهوتا ، منقطعاً عن الكلام ، متحيراً لاستيلاء الحجة عليه

أو : فغلب ابراهيم الـكافر وأسكته «والله لا يهدى القوم الظالمين» إلى مناهج الحق كما هدى أولياءه ,

أأنت فعلت هذا ؟!

وفى المعبد ... حيث وقعت الجريمة .

وكانت المحاكمة ... انتفض الملك الطاغية ... الذى يرأس المحاكمة وسأله : أأنت فعلت هذا ؟ !

وفى التعبير منتهى التحقير لإبراهيم ...

أأنت ؟ !!

أأنت أيها ... أيها الفتى التافه الذى لاوزن له ... جرؤت على هذا الأمر العظيم ؟!

فعلت هذا ؟ ! ...

أأنت الذى حطم هذه الآلهة ؟!

يشيرون إلى حطام الآلهة المتناثرة من حولهم ...

« بآلهتنا » التى نعبدها ونقدسها ونعظمها !!!

ياإبراهيم » أيها المسمى بابراهيم ؟ وساد صمت عميق ... رهيب ... بعد أن ألقى الملك هذا السؤال على المتهم !!

وتطلع الشعب كله ... وفيهم آزر ... ذلك الأب الغاشم ...

تطلعوا جميعا ... ماذا يقول إبراهيم ؟

أيعترف بجريمته ... وهو يعلم أن اعترافه معناه الموت المحقق ؟

أم ماذا يكون موقفه ؟ !

بل فعله كبيرهم هذا ؟!

وفى ذلك الصمت الرهيب ...

تكلم إبراهيم ... ووقفت الدنيا كلها تسمع ...

ووقفت السماء تنصت ...

« قال : بل فعله كبيرهم هذا » !

وأشار إبراهيم إلى الصنم الأكبر الذى علق الفأس فى عنقه ...

استهزاء بهم ... وتبيينا لهم أن هذا الكبير هو الفاعل ، ليعلموا أنه لا ينفع ولا يضر ...

إن إبراهيم لا يعنى بذلك إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الابلغ ، متضمنا فيه الإستهزاء والتضليل .

إن إبراهيم يعترف ...

ثم واصل إبراهيم استهزاءه بهيئة المحاكمة فقال : « فسألوهم إن كانوا ينطقون » ... أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا ...

ثورة فى الشعب ؟ !

« فرجعوا إلى أنفسهم » فتفكروا ، وتدبروا ، وتذكروا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ، ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أوجلب منفعة له ، فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟ !

« فقالوا » أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم ...

« إنكم أنتم الظالمون » أى بعبادة ما لا ينطق

أو بسؤالكم إبراهيم ، وعدولكم عن سؤالها وهى آلهتكم

أو بغفلتكم عن آلهتكم ، وعدم حفظكم إياها .

- بأن اتهمتم إبراهيم والفأس فى عنق الكبير .

ما هذا ؟ ...

لقد أحدث كلام إبراهيم دويا فى المجتمعين ...

إن الحاضرين جميعا بدءوا ينشقون على أنفسهم ...

لقد أصاب كلام إبراهيم من كثير منهم مقتلا ...

لماذا تحاكمون إبراهيم ؟

لماذا تسألوه وآلة الجريمة معلقة فى عنق الصنم الأكبر ؟

ما شأن إبراهيم وهذه الجريمة ؟

سلوا الآلهة ... فإن لم تنطق فإنها ليست بآلهة ...

هناك تفاعلات ... هناك دوامات بدأت تتلاطم فى رءوس الناس ...

« ثم نكسوا على رؤسهم » أصل النكس قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله . أى أطرقوا رؤسهم خجلا وحيرة .

إن هيئة المحكمة كلها فى حيرة ، فى خجل ...

ماذا تقول لإبراهيم ؟

ان إبراهيم قد ألقمها حجرا ...

ولكن هل يتقهقرون أمامه ... أمام الشعب الثائر ... الذى يريد الإنتقام لآلهته مهما كان الثمن ؟!

واستجمعوا شجاعتهم ، وقالوا : « لقد علمت ماهؤلاء ينطقون » لايخفى علينا وعليك أيها المبكت بأنها لاتنطق أنها كذلك ، وإنا إنما اتخذناها آلهة مع العلم بالوصف .

وانبعث إبراهيم يجلجل بكلمة الحق أمام الشعب كله ...

« قال : أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولا يضركم » ؟!

أتعلمون ذلك فتعبدون أصناما لا تنفعكم شيئا من النفع ولاتضركم شيئا من الضرر؟!

« أف لكم ولما تعبدون من دون» تضجر منه — عليه السلام — من إصرارهم على الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحق وهو اسم فعل بمعنى اتضجر .

« أفلا تعقلون » ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنعكم ؟ !

ودوى بها إبراهيم ... فدوت فى قلوب الناس جميعا ...

وزلزلتهم جميعا ... فانشقوا فرقا ... فريق يكاد يقتنع بكلام إبراهيم ...

وآخرون أعماهم الضلال ... فلا يرون إلا ابادة إبراهيم !!

وتحقق لإبراهيم مايريد ...

تحقق له أن يجتمع الشعب كله ... ليحاكمه ...

فتكون فرصة يعلن إليهم الحقيقة ... ويثبت فيهم كلمة الحق ..

وقد وقع له مايريد ...

أتعبدون ما تنحتون ؟!

ويسجل الله تعالى تلك المحاكمة الرهيبة ... وذلك الحوار الخالد فى موضع آخر فيقول : « فأقبلوا إليه يزِفُّونَ . قال : أتعبدونَ ما تَنحتونَ . والله خلقكُمْ ومَا تعملونَ ؟! » . [الصافات ٩٤ — ٩٦]

« فأقبلوا إليه » أى إلى إبراهيم بعد رجوعهم . من عيدهم . وسؤالهم عن الكاسر وقولهم : فأتوا به على أعين الناس ...

« يزفون » أى يسرعون من زف النعام ، أسرع لخلطه الطيران بالمشى ...

أى انهم انطلقوا يبحثون عنه ...

ليقبضوا عليه ... فأقبلوا إليه يزفون ... أى يسرعون للقبض عليه حتى لا يفلتهم ..

أو أقبل الشعب كله مسرعا لحضور المحاكمة ، ومشاهدتها ... لحرصهم جميعا عليها ..

« قال » بعد أن أتوا به ، وجرى ماجرى من المحاوره ...

« أتعبدون ما تنحتون » الذى تنحتونه من الأصنام !!

وتوبيخهم على عبادة النحت مع انهم يعبدون الأصنام ، وهى ليست نفس النحت للاشارة إلى أنهم فى الحقيقة إنما عبدوا النحت .

لأن الأصنام قبله حجارة ، ولم يكونوا يعبدونها ، وإنما عبدوها بعد أن نحتوها .

ففى الحقيقة ماعبدوا إلا نحتهم .

« والله خلقكم وما تعملون » أى خلقكم وخلق الذى تعملونه .

أى من الأصنام ...

الحكم .. بالاعدام حرقا ؟!

وتطلع الجميع ... ماذا يكون الحكم على إبراهيم ...

وساد صمت رهيب ... وتداول المحكمون ... ثم صدر حكمهم على إبراهيم ؟ !

وكان حكما فيه كل مافى صدورهم من الغيظ ... والغضب عليه ...

وهاهو الحكم ...

« يعدم إبراهيم بن آزر حرقا ... ويبنى له بنيان عظيم ... ونشعل فيه نيران عظيمة... يشترك فى ايقادها الشعب كله ... ثم يلقى إلى الجحيم ، أمام الناس أجمعين ... »

هذا هو الحكم الذى صدر على إبراهيم ... استنبطناه من آيات القرآن الكريم ، التى نزلت من رب العالمين ...

فمن أين لنا منطوق هذا الحكم ؟

قال تعالى : « قالوا : حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ، إن كنتمْ فاعلين » .
[الأنبياء ٦٨]

« قالوا » أى قال بعضهم لبعض ، لما عجزوا عن المحاجة ، وضاقت بهم الحيل .

والقائل هنا هم هيئة المحاكمة ... لأنهم هم الذين بيدهم القضية ، ومن حقهم التداول ، والتشاور فيها ...

« حرقوه » فإن النار أشد العقوبات ولذا جاء لايعذب بالنار إلا خالقها .

« وانصروا آلهتكم » بالإنتقام لها .

« إن كنتم فاعلين » إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا ، فاختاروا له ذلك ، وإلا فرطتم فى نصرتها وكأنكم لم تفعلوا شيئا مافيها .

وأشار بذلك — على المشهور — الملك نمروذ ...

ومعنى ذلك أن الملك بنفسه كان يرأس المحاكمة ...

وهذا يعطينا فكره عن مدى أهمية تلك المحاكمة ...

التى رأسها الملك بنفسه ، واجتمع لها الشعب بأكمله ...

وهذا دليل من أدلة الحكم بالإعدام حرقا ...

نأخذه من قوله تعالى (حرقوه) ...

أى اعدموه حرقا ...

ولو وجدوا فى رؤسهم وسيلة لتعذيبه أكبر من الإحراق لحكموا بها ...

ولكنهم لم يجدوا !!! •

ثم ماذا ؟ ...

ثم اليك قوله تعالى «قالوا : ابنوا له بنياناً ، فألقوهُ فى الجحيم . فأرادوا به كيدا ...»
[الصافات ٩٧ — ٩٨]

« قالوا » أى قال أعضاء المحكمة .

« ابنوا له » اصدروا أمرا أن يبنى له ... له خصيصا ... من أجل تنفيذ احراقه ...

« بنيانا » عظيما ... هائلا ... يتسع لأكبر قدر يتصور من النيران ...

اشعلوا له جحيما ... نارا هائلة ... لم يسمع بهولها ولاشدتها ، ولا طول مدة اشتعالها أحد فى الدنيا ...

ويشير إلى ذلك قولهم : « فألقوه فى الجحيم » فاقذفوه قذفا فى هذه النار المشتعلة الهائلة ...

إن التعبير بالجحيم ... يدل على مدى النيران التى أشعلوها لاحراقه !!!

لقد وضعوا أحقادهم كلها ، وغلهم كله فى مكرهم هذا ...

« فأرادوا به كيدا » سوءا ، باحتيال ، فإنه لما قهرهم بالحجة ، قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم !!

وهذا هو الدليل الثانى الذى استنبطنا منه منطوق الحكم على إبراهيم ...

قوله : « حرقوه » ... أخذنا منه « يعدم إبراهيم حرقا »

وقوله : « ابنوا له بنيانا ، فألقوه فى الجحيم » ... أخذنا منه « ويبنى له بنيان عظيم ... وتشعل فيه نيران عظيمة ... يشترك فى إيقادها الشعب كله ... ثم يلقى إلى الجحيم أمام الناس أجمعين » ...

إن الآيات تكاد تنطق بتلك التفاصيل ...

إن من الطبيعى أن يسوق الملك الجبار ، وحكومته التى تأتمر بأمره ، الشعب كله سوق البهائم إلى مايريد ...

ولاشيء يشفى صدورهم من هذا الفتى الذى قهرهم بمنطقه البسيط أمام الشعب كله ... إلا أن يشترك الشعب كله فى احراق إبراهيم ...

حينئذ يثأر الملك لنفسه ، وتثأر الدولة لكرامتها ...

ثم يتوزع دم إبراهيم على الجميع ... فلا يكون النمروذ مسئولا عنه وحده ...

وكل هذا تجده مستكنا فى قوله تعالى «فأرادوا به كيدا ...» أرادوا أن يطمسوه ... حتى لايطمس عليهم باظهار بطلان ماهم عليه للشعب ...

ويشير إلى ذلك قولهم (إن كنتم فاعلين) ... أى أن كنتم حقا تريدون أن تنكلوا به نكالا عظيما فافعلوا هذا ، ولاتأخذكم به رأفة ...

ثم قولهم «انصروا آلهتكم» ... أى أن هذا وحده هو الذى فيه نصر الآلهة ، وإعادة المهابة إليها كما كانت وفيه إعادة الإحترام إلى عقائدكم ومقدساتكم ... التى حطمها إبراهيم ... فأهانكم إهانة مابعدها من إهانة !!!

تنفيذ الحكم ؟!

ونطق الملك بنفسه بالحكم ... واستمع إليه الشعب كله ...

وإبراهيم يقف صامتا ، يشهد التجربة التى خاضها تصل إلى ذروتها ... وتحقق أهدافها كاملة ...

فهاهو الملك وحكومته قد اجتمعوا ... وهاهو الشعب بمستوياته كلها قد شهد ... وهاهى الفرصه التى كان يريدها وقد تحققت ... وتم له مايريد ... بلغهم رسالة ربه ... وبين لهم بطلان آلهتهم التى يعبدون ... بين لهم أن النمروذ لايعدو أن يكون عبدا لايقدر على شيء ممايزعمه لنفسه ... لقد أكمل إبراهيم ابلاغ الرسالة ... وعلى مشهد من الشعب كله... وعلى مشهد من الدولة كلها ...

وهاهو يبلغ مقام الشهادة فى سبيل الله ...

بل قمة الشهادة ...

بل ذروة قمة الشهادة ...

إنه سوف يحرق حرقا ... إن الشعب كله سوف يشترك فى اعداد النيران التى سيحرق بها ...

إن الشعب كله سوف يشهد إحراقه ...

إنه واحد ... يقف وحده ... ضد الناس جميعا ...

فأى شهيد كان إبراهيم ؟!!

وصدرت الأوامر من الملك الطاغية:أن يبنوا له بنيانا ليس كمثله بنيان ...

وشيدت الدولة بطاقاتها الفنية والقهروتية ذلك البنيان ...

وكان بنيانا هائلا ... ذا حوائط سميكة متينة ...

عاليا جداً ... عميقا جداً ... واسعا جداً ... متينا جداً ...

وماذا تظن ببنيان وضعت فيه الدولة والشعب غيظها وكيدها ؟!

ثم أمر نمرود بجمع الأحطاب ، من أصناف الخشب ...

وتسابق الناس جميعا باحضار تلك الأحطاب ...

يتقربون بها إلى الآلهة التى أهانها إبراهيم !!!

حتى إن كانت المرأة لتنذر بأن بلغت ماتطلب أن تحتطب لنار إبراهيم !!

إن الشعب كله يشترك فى إعدام عدو الشعب ... عدو الآلهة !!!

فألقوه فى الجحيم ؟!

وأشعلوا النار ...

حتى إن كانت الطير لتمر بها فتحترق من شدتها وحرها !!

فماظنك بنيران جمعوا لها كل مايتصور من وسائل الإشعال ؟!

واجتمع الناس جميعا ... كما اجتمعوا يوم المحاكمة ...

اجتمعوا ليشهدوا القاء إبراهيم إلى النار ...

وكثيرا ماتجمع الشعوب على الباطل ، وكثيرا ما تتلذذ برؤية العذاب ...

إنه مشهد رائع ... لا بد لكل إنسان أن يحرص على حضوره ...

وحضر الملك « النمروذ » ... وحضرت هيئة المحكمة ... وحضر رجالات الدولة ؛ وحضر الشعب كله ...

وجيء بابراهيم ... يسوقه جند أشداء ...

وهو يمشى بينهم أعلى من السماء !!!

أى إبراهيم ... كيف كنت فى تلك اللحظة ؟

وكيف كان شعورك ؟!

ثم أخذوا يقيدونه ، ويكتفونه ...

والأعين كلها تتطلع إلى ذلك الفتى الرائع ... إلى تلك القوة الخارقة التى تتمثل فى ذلك الشاب ...

إن كل مايجرى عليه ، ومن أجله ، وحوله ...

كأنه يجرى على غيره ، ويعد لإنسان آخر ...

إن عليه سكينة عجيبة ...

إنه ليس بخائف ... ولابمنقبض ... ولايبدو عليه أى مظهر من مظاهر الخوف أوالحزن أو الرهبة ...

هاهى النيران تشتعل أمام عينيه تنتظر إحراقه ...

وهاهى الدولة بجبروتها تريد أن تدمره تدميرا ...

وهاهو الشعب كله يصب عليه سخطه ...

ومع هذا كله ... يقف هادئا ... مسرورا ... كأنما هو يساق إلى حفلة تكريم !!

ماهذا ؟ ... أبشر هذا ؟! نعم ... واسمه إبراهيم !!!

وهاهم أولاء يقيدونه ، ويكتفونه وهو يقول :

لا إله إلا أنت ، سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك !!!

أما اليك ... فلا ؟!

وعرض له جبريل ، وهو يوثق ، فقال : ألك حاجة يا إبراهيم ؟

قال : أما إليك ، فلا .

ورفض إبراهيم أن يقدم له جبريل أى عون ...

رفض لأنه يعمل لله لا لجبريل ، ويتامل مع الله مباشرة لا مع الوسائط ...

وإنه لمقام إبراهيم !!!

أما إليك ... فلا ؟!!

كلمة ... ولكنها بحار من نور ... لا يدركها إلا إبراهيم !!!

فإنها مقامه ... ويا له من مقام !!

ابراهيم ... ابراهيم ؟!

وجاءت اللحظة الرهيبة ...

وسيق إبراهيم مقيدا بالأغلال والسلاسل ...

كأنما هو قد ارتكب كبرى الكبر !!

وتطلع الناس جميعا يشهدون ...

إن الحراس يصعدون بإبراهيم على السلم المؤدى إلى أعلا البناء ...

وهو يمشى معهم ... عليه السكينة ... والصفاء ... والجمال ... والجلال ...

فلما أجمعوا لقذفه فيها ، صاحت السماء والأرض ، وما فيها ، إلا الثقلين إلى الله صيحة واحدة :

أى ربنا ، إبراهيم ، ليس فى أرضك من يعبدك غيره ، يحرق بالنار فيك ، فأذن لنا فى نصره .

قال الله تعالى : إن استغاث بشىء منكم فلينصره ، وان لم يدع غيرى فأناله .

آخر لحظة ؟ !

فلما رفعوه على رأس البنيان ، رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم أنت الواحد فى السماء ، وأنت الواحد فى الأرض ، حسبى الله ، ونعم الوكيل .

ثم وضعوا إبراهيم فى كفة منجنيق ...

لماذا ؟ ...

ليلقوه فى وسط الجحيم ...

وهذا يدل على أن البناء كان واسعا ... وأن لهيبه كان شديدا جدا ...

فلما وضع فى كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ...

تطلعت الأعين كلها ... وساد الناس صمت عميق جدا ...

ثم صدرت الأوامر ...

فألقوه منه إلى النار ...

وهوى ابراهيم إلى النار ... وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ! !

روى البخارى عن ابن عباس ، أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ... »

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

وانصرفت جموع الشعب ... وعلى رأسها الملك ، ورجال الدولة ... وهم على يقين أن تلك النار ستحول إبراهيم إلى رماد بعد لحظات ...

وأن الآلهة سوف ترضى عنهم كل الرضى ...

وانطلقوا ... وهم يتحدثون ... ويضحكون ... ويمرحون ...

يانار ... كونى ؟!

وصدر الأمر الإلهى إلى النار ...

قال تعالى : « قلنا : يا نارُ كونِى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كَيْداً ، فجعلناهُمُ الأخسرينَ » .
[الأنبياء ٦٩ — ٧٠]

« قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » أى كونى ذات برد وسلام ، أى ابردى برداً غير ضار.

قيل : لولم يقل سبحانه « وسلاما » لقتله بردها .

أى : وسلمنا سلاما عليه .

وكان إبراهيم — عليه السلام — إذ ذاك ابن ستة عشر سنة .

أى صارت النار العظيمة كذلك مع بقائها على هيئتها .

وهى خارقة كبرى من خوارق الله .

« وأرادوا به كيداً » مكرا عظيما فى الأضرار به . .

« فجعلناهم الأخسرين» أخسر من كل خاسر .

حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق قولا وفعلا ، برهانا قاطعا على أنه — عليه السلام — على الحق ، وهم على الباطل ، وموجبا لارتفاع درجته — عليه السلام — واستحقاقهم لأشد العذاب .

كما قال تعالى : « فأرادوا به كيداً فجعلناهُمُ الأسْفَلِينَ » .

[الصافات ٩٨]

« فجعلناهم الأسفلين » الأذلين بابطال كيدهم ، وجعله برهانا ظاهرا ظهور نار القرى ، حيث جعل سبحانه النارعليه بردا وسلاما .

وقيل : أى الهالكين .

أو : المعذبين فى الدرك الأسفل من النار .

ونقف هنا طويلا ... ونتأمل قوله تعالى وهو ينادى النار « يانار » ....

فنشعر أن الله تعالى يخاطب ماشاء من خلقه كيف شاء ...

وأن مخلوقاته تسمع لقوله وتطيع ... ولا تستطيع أن تتخلف عما يريده تعالى منها ...

ثم انظر إلى النداء « يانار ، كونى » آمرك أن تكونى فورا ...

بردا ؟ ... لا حرارة فيك .

وسلاما ؟ ... ولاضرر منك .

على إبراهيم ؟ ... على إبراهيم وحده ... هو خاصة ... لا لأحد سواه ...

وهنا المعجزة ...

إن النار تشتعل اشتعالا عظيما ... لاتخمد ... ولا تنطفىء ... بينما إبراهيم وحده يعطل له الناموس العام ... فلا حرارة فى النار بالنسبة لشخصه ، ولاضرر فيها بالنسبة له وحده !!!

إن الذى وضع الناموس ... هو الذى يملك أن يوقفه ، أو يغيره ، أو يحوله ...

ولقد صدر الأمر منه ،،، كونى بردا وسلاما ،،، فكانت بردا وسلاما !!!

أى تكريم ، وأى نصر ، وأى معجزة ؟!!

لقد هوى إبراهيم إلى النار ... مستسلما لله ...

لايعلم إلا أن النار سوف تقضى عليه لفوره ...

ولم يكن إبراهيم يعلم أن الله سيفعل هذا ...

ولكنها كانت مفاجأة له ... فاجأه الله تعالى بها ... ليعلم أن الله معه ... وأنه ناصره على عدوه ...

فانظر ماذا كان شعور إبراهيم حين وجد نفسه وهو فى النار ، فى جنة ناعمة ، ونسيم عليل ، وظل ظليل ؟!

أطيب أيامه ؟!

ومكثت النار مشتعلة على إبراهيم خمسين يوما ...

وإبراهيم يعيش فيها حياة طيبة سعيدة ...

وكان إبراهيم فيما بعد يتحدث أنها كانت أطيب أيام حياته !!!

نمروذ يشهد المعجزة بنفسه ؟!

فمكث نمروذ أياما لايشك أن النار قد أكلت إبراهيم .

فرأى فى المنام كانه نظر فيها وهى يحرق بعضها بعضا ، وإبراهيم جالس جنبه رجل مثله فقال لقومه : لقد رأيت كأن إبراهيم حى ولقد شبه على ، ابنوا لى صرحا يشرف بى على النار ، فبنوا له .

وأشرف منه ، فرأى إبراهيم جالسا ، وإلى جانبه رجل فى صورته .

فناداه نمروذ : ياإبراهيم ، إن الهك كبير ، الذى بلغت قدرته وعزته أن حال بينك وبين ماأرى ، هل تستطيع أن تخرج منها ؟

قال : نعم .

قال : أتخشى أن أقمت فيها ؟

قال : لا .

فقام إبراهيم فخرج منها .

فلما خرج قال له : ياإبراهيم ، أين الرجل الذى رأيت معك مثل صورتك ؟

قال : ذلك ملك الظل أرسله إلى ربى لمؤانستى .

شهرة ؟ !

قال نمروذ : إنى مقرب إلى الهك قربانا ، لما رأيت من قدرته ، وعزته ، وما صنع بك حين أبيت إلا عبادته .

فقال إبراهيم : إذا لا يقبل الله منك ، ما كنت على شىء من دينك .

فقال : يا إبراهيم ، لا أستطيع ترك ملكى

وقرب أربعة آلاف بقرة

وكف عن ابراهيم ...

ومنعه الله منه ...

إيمان ؟!

وآمن مع ابراهيم شباب من قومه ، حين رأوا ما صنع الله به ، على خوف من نمروذ وملئهم .

وآمن له لوط بن هاران ، وهو ابن أخي ابراهيم .

وآمنت به سارة ، وهي ابنة عمه ...

وهي سارة ابنة هاران الأكبر ، عم ابراهيم ..

هل حققت المعجزة الكبرى هدفها ؟!

لقد وقعت تلك المعجزة الكبرى لأبراهيم ... فكانت عجبا للناس جميعا ...

ولقد ذهب الملك بنفسه وشهدها ... وكلم ابراهيم .. وقع بينهما حوار ..

وذهب الناس جميعا يشهدون ...

ورأوا بأعينهم كيف يحيا ابراهيم سعيدا فى نار مشتعلة تكفى لتأكل آلافا مثل ابراهيم فى لحظة !

واستيقنوا جميعا أن هذا أمر خارق ...

وأن أحداً لا يستطيع أن يصنع هذا . .

فهل تحولوا عن عبادة أصنامهم إلى عبادة إله إبراهيم الذى صنع به ذلك الصنيع ؟!

كلا ... إن الناس هم الناس ...

لم يتحولوا . . ولم ينتفعوا . . واكتفوا بأن هزوا رءوسهم إعجابا أو استغرابا . . ثم انصرفوا !!!

وهذا الملك الطاغية .. هل تحول عن طغيانه ، أو اهتدى ؟!

كلا .. لم ينتفع بشىء من هذا كله ، إلا أن اهدى إلى إله إبراهيم شيئا من الذبائح !!

ولا شىء وراء هذا !!!

إن الغباء العام حين يسيطر على الناس لا ينفع معه نصح ناصح ، ولا معجزة رسول ،

وها هم أولاء جميعاً يشهدون المعجزة بأعينهم .
ويشهدون تلك النيران التى اشتركوا جميعا فى اشعالها ..
لا تفعل شيئا فى ابراهيم . . وهو يتحرك فيها مسرورا .. لا يريد أن يخرج منها . .
لما يشعر من سعادة !!
ولكن كل هذا ذهب مع الريح .
إنه الغباء العام .

الذين معه ؟!

إلا أن صيحة إبراهيم أصابت عددا قليلا من قومه ..
أصابت نفرا من الشباب فى صميم قلوبهم
فتفتحت للحق . ، وآمنت أن لا إله إلا الله
وأن هذه الأصنام باطلة
وأن هذا الملك طاغية عنيد ... لا قيمة له ... ولا تأثير فى أحوال العباد ...
وأن تلك الكواكب والنجوم مسخرة بأمر الله ، ليس لها من الأمر شىء ؟!
وأن دعوة ابراهيم التى يدعو إليها حق ...
وأنها تحمل فى ذاتها كلمة الحق ...
وأن ما حدث لإبراهيم .. من تحويل النار الى جنة .. انما كان بأمر الله تعالى وقدرته
أصابت الدعوة نفرا قليلا .. ومست شغاف قلوبهم ...
فتفتحت تلك القلوب على نداء الفطرة ، نداء التوحيد ...
وتجمعت تلك القلوب القليلة حول قائد الدعوة ... حول إبراهيم ...
وجعل إبراهيم يعلمهم ... وهم يتعلمون على يديه ...
إلا أن اتجاههم هذا كان غريبا على قومهم ...
كلفهم غاليا ... واصبحوا غرباء فى قومهم ...

كما كان ابراهيم من قبل غريبا ...

ويسجل الله تعالى ذلك فى قوله سبحانه : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ، والذين معه ، إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا . وإليك المصير . ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .

[الممتحنة ٣ — ٦]

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ». لن تنفعكم قراباتكم أو أقاربكم ، ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم ، وتتقربون إليهم محاماة عليهم .

« يوم القيامة » بدفع ضر أوجلب نفع .

« يفصل بينكم » استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ .

أى يفرق الله بينكم ، بما يكون من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى . (يوم يفر المرء من أخيه) الآية ...

وعندى أن الأمر أقرب من ذلك كله ... فإنه بمجرد الموت يفصل بين الجميع ، ويتحول كل إلى مقامه الذى يناسبه .

« والله بما تعملون بصير » فيجازيكم به .

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » الأسوة بضم أو بكسر بمعنى الائتساء والإقتداء .

وتطلق على الخصلة التى من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ...

وعلى نفس الشخص المؤتسى به .

والمراد بالذين معه — عليه السلام — أتباعه المؤمنون .

وقيل : لم يكن معه وقت مكافحته قومه وبراءته منهم أتباع مؤمنون كالخوهم معه وتبرءوا منهم .

وأنت تعلم أنه لا يلزم وجود الأتباع المؤمنين فى أول المكافحة ، بل اللازم وجودهم ولو بعد ، ولا شك فى أنهم وجدوا بعد ، فليحمل من معه عليهم .

« إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » برآء جمع برىء كظريف وظرفاء .

يحسب المشركون أنفسهم على شىء وكأنهم استشعروا ذلك منهم فقالوا لهم : « إنا برآء منكم » .

« ومما تعبدون من دون الله » من الأصنام ، والكواكب ، وغيرها ...

وهذا يؤكد اسقاط الوسائط والشفاعات ...

« كفرنا بكم » كفرنا بكم ، وبما تعبدون من دون الله ...

كأنه قيل . إنا لا نعبد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ، وما أنتم عندنا على شىء .

وقيل : كفرنا بما تعبدون ، ثم كفرنا بكم وبما تعبدون ، لأن من كفر بما أتى به الشخص فقد كفر به ، ثم اكتفى — بكفرنا بكم — لتضمنه الكفر بجميع ما أتوا به ، وما تلبسوا به .

« وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً » أى هذا دأبنا معكم لا نتركه .

« حتى تؤمنوا بالله وحده » وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فتنقلب العداوة ولاية ، والبغضاء محبة .

وقوله — وحده — هو السر ... أى لابد من الإيمان بالله مجردا من كل وساطات وشفاعات .

وحده ؟ !!!

هى سر الأمر كله ...

قيل : العداوة ضد الصداقة ،

والبغضاء . شدة البغض .

وقيل : البغض نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه ، وهو ضد الحب .

« إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » استثناء من قوله تعالى : « أسوة حسنة »

أي أن إبراهيم أسوة ، إلا في استغفاره لأبيه ، فإنه لا ينبغي الإقتداء به .

قيل ، إن إبراهيم — عليه السلام — لما أجاب قول أبيه : « لأرجمنك واهجرني مليا » بقوله : «سأستغفر لك ربي » رحمة ورأفة به، ولم يكن عارفا باصراره على الكفر ، وفي بوعده ...

وقال : (واغفر لأبي) .

فلما تبين اصراره ترك الدعاء وتبرأ منه .

فظهر ان استغفاره لم يكن منكرا .

وهو في حياته بخلاف مانحن فيه ، فإنه فصل عداوتهم وحرصهم على قطع أرحامهم بقوله تعالى (لن تنفعكم) الخ ، وسلاهم عن القطيعة بقصة ابراهيم — عليه السلام — ثم استثنى منها ما ذكر .

كأنه قيل : لاتجاملوهم ، ولا تبدوا لهم الرأفة كما فعل ابراهيم ، لأنه لم يتبين له ؛ كما تبين لكم .

وقيل : عدم كون استغفاره — عليه السلام — لأن الكافر ، ممالاينبغي أن يؤتسى به ، بأنه كان قبل النهي ، أو لموعدة وعدها إياه .

وقيل : لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره ، إلا في استغفاره لأبيه المشرك .

والمعنى : إن لكم الإقتداء بابراهيم — عليه السلام — والذين معه في البراءة من الكفرة ، لكن استغفاره للكافر ليس لكم الإقتداء به فيه وما قاله يجب عليكم البراءة ، ويحرم عليكم الإستغفار ، وابداء الرأفة .

« ومآأملك لك من الله من شيء » لأستغفرن لك ومافي طاقتي إلاهذا ،

وفيه أنه لو ملك أكثر من ذلك لفعل .

وعلى هذا فهو حقيق بالإستثناء .

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

إما من قول إبراهيم والذين معه .

وإما أنه أمر لنا لندعو بها .

ربنا عليك توكلنا ، لاعلى غيرك .

وإليك أنبنا ، لا إلى غيرك .

وإليك المصير ، لا إلى غيرك .

بيان لحالهم فى المجاهدة لأعداء الله عز وجل ، ثم اللجأ إلى الله تعالى فى كفاية شرهم ، وأن تلك منهم له عز وجل لا لحظ نفس .

وجوز أن يكون المعنى : قولوا ربنا أمرا منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه ، وتعليما عنه عزوجل لهم، وتتميما لما وصاهم سبحانه بهمن قطع العلائق بينهم وبين الكفار ، والائتساء بابراهيم — عليه السلام — وقومه فى البراءة منهم .

وتنبيها على الإنابة إلى الله تعالى ، والاستعاذة من فتنة أهل الكفر ، والإستغفار مما فرط منهم .

« ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا » أى لاتسلطهم علينا ، فيسبوننا ويعذبوننا .

ربنا لاتجعلنا معذبين للذين كفروا .

وقيل : لاتعذبنا بأيديهم .

والرجاء يحتمل الأمل والخوف .

وقيل : تكرير لما تقدم من المبالغة فى الحث على الائتساء بابراهيم — عليه السلام — ومن معه .

وقيل : إشارة إلى أن من كان يرجو الله تعالى واليوم الآخر ، لايترك الأقتداء بهم ، وان تركه من مخايل عدم رجاء الله سبحانه واليوم الآخر ، الذى هو من شأن الكفرة ،

بل مما يؤذن بالكفر كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى : « ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » فانه مما يوعد بامثاله الكفرة .

ويؤخذ من تكرار قوله تعالى : « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة » أن إبراهيم دعوة عالمية لكل الناس ، وكل الأديان وأنه هو القدوة التى ينبغى أن يصحح أهل الأديان جميعا عقائدهم عليها .

وأنه بذلك يمكن أن يدعى العالم كله إلى إبراهيم ...

إلى الأقتداء بابراهيم ...

وهذا يتطابق مع قوله تعالى : « إنى جاعلك للناس إماما » ...

وهذا هو سر التأكيد والتكرير .

« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة » ...

« واغفر لنا » ما فرط منا .

« ربنا إنك أنت العزيز » الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء من توكل عليه .

« الحكيم » الذى لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة .

« لقد كان لكم فيهم » فى إبراهيم ومن معه .

وهو قسم للتأكيد .

لماذا يؤكد ويقسم ؟

لضرورة اتباع إبراهيم ... فى التجرد ... والكفر بما عليه المشركون ...

« أسوة حسنة » قدوة حسنة ...

« لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » أى ثوابه تعالى أولقاءه سبحانه ونعيم الآخرة .

أو : أيام الله تعالى واليوم الآخر خصوصا . ثم يقول تعالى مبينا لماذا ينهاهم عن موالاة الكفار والمشركين : « ياأيها الذين آمنوا لا تتولَّوْا قوماً غضِبَ اللهُ عليهمْ قد يئسوا من الآخرةِ كما يئسَ الكفارُ من أصحابِ القبورِ » . [الممتحنة ١٣]

« لاتتولوا قوما » هم عامة الكفار .

« قد يئسوا من الآخرة » يأسهم من الآخرة لكفرهم بها .

« كما يئس الكفار من أصحاب القبور » أى أن يأس هؤلاء من الآخرة كيأس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور وتبينوا حرمانهم من نعيمها المقيم .

وقيل : المعنى أن هؤلاء القوم المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويلقوهم فى دار الدنيا .

وبقليل من التأمل فى تلك الآيات ندرك أن إبراهيم كان معه نفر قليل آمنوا به ...

وأن هؤلاء كانوا من القلة بحيث لا يستطيعون دفع ضرر عنه ، ولا مجابهة مجتمعهم بالقوة ...

وأن أقصى ما استطاعوا ، أن يوجهوه إلى قومهم هو قولهم « إنا براء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده » .

إنهم اعلنوا إلى قومهم براءتهم منهم ، ومن آلهتهم ، ومن معتقداتهم ، وأنهم أعداء لهم يبغضونهم ويبغضون ماهم عليه إلى الأبد ...

إلا أن يؤمنوا بالله ... وحده ... إيمانا مجردا من اتخاذ الوسائط ، والأصنام ...

فحينئذ فقط ... يمكن أن تقوم صداقة بينهم وبين مجتمعهم ...

وندرك كذلك أن الله أبى أن يقتدى بإبراهيم فى استغفاره لأبيه الكافر ... واعتبر ذلك شيئا لاينبغى متابعة ابراهيم فيه ...

وأن الله يريد للفريقين أن يتميزا ... إما أن يكون الإنسان مؤمنا وإما كافرا ...

أما هذا التميع بين الفريقين ... فهذا شىء لا يحبه الله ...

وأن هؤلاء الذين كانوا مع ابراهيم ، كانوا يخشون أن يعذبهم الذين كفروا كما عذبوا إبراهيم بالقائه فى النار .

وهذا واضح من دعائهم: «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » ... أى لا تعذبنا بأيديهم...
ويدل على تسلط الباطل واستعلائه واستحكامه ...

لماذا .. مرتين ؟!

الملاحظ أن الله قال : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ، والذين معه إذ قالوا لقومهم » ...

ثم قال مرة أخرى : « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة » ...

فلماذا هذا الإصرار ... وهذا التكرار ؟

ولماذا يقسم الله مرتين أن قد كانت لنا فيهم أسوة حسنة ...

لماذا يؤكد للناس كافة أسوة حسنة ، أى قدوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ؟

الأمر عميق جدا ... وواضح جدا ...

إن ابراهيم كان يدعو إلى الحنيفية ... إلى الاتجاه المباشر إلى الله ...

إلى اسقاط كل واسطة فى الطريق بين الإنسان وبين ربه ...

فلا كواكب ولا نجوم ولا أصنام ولا ملوك ولا رجال دين ولا أولياء ولا شفعاء أيا ما كانوا ... بين الانسان وربه ...

وإنما ... وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض ...

حنيفا ... مائلا عن كل هذا ... متجها إليه مباشرة ...

وهذه الملة ... أو هذا الأسلوب ... هو الذى يرتضيه الله للناس جميعا ...

ثم إن ابراهيم قام يدعو العالم كله إلى ذلك ... وحده ... ولم يبال مايصيبه فى سبيل ذلك ...

وهذه البطولة وهذه الثورة فى الحق ، والثبات على الحق ، ولو خالف كل ماعليه الناس ... هو أقصى غايات البطولة ... وهو قمة مايرتضيه الله من الإنسان ...

ثم إعلانه هو وأتباعه بعد ذلك إلى قومهم انهم برآء منهم ومما يعبدون ...

هذا الوضوح فى الدعوة ... وهذا التميز ... بين المؤمنين والكافرين ... هذا هو الأسلوب الذى يحبه الله من عباده المؤمنين ...

من أجل ذلك كررها مرتين « لقد كان لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » « لقد كانت لكم فيهم أسوة حسنة »

كأنه يريد أن يقول للمؤمنين فى كل زمان ومكان ، وللناس دائما أبدا ...

هذه هى القدوة التى أحب أن تقتدوا جميعا بها ...

هذا هو الأسلوب الذى أحب أن تكونوا عليه ... الحنيفية .. الاتجاه المباشر إلى ..

هذه هى البطولة التى أحب أن تكونوا عليها ... معرفة الحق والجهر به والدعوة إليه ... ولو كان ذلك مخالفا لما عليه الناس جميعا ...

هذا هو التميز الذى أحب أن تتميزوا به عن الناس جميعا ...

أنتم فى ناحية ... والكفار فى ناحية لا التقاء بينكم حتى يؤمنوا بالله وحده ... حينئذ فقط أحل لكم أن تتوادوا وتتصادقوا ... وتكون بينكم علاقات وعواطف ...

من أجل ذلك ... ومن أجل مالا نستطيع الغوص إلى أعماقه ... أقسم تعالى مرتين وأكد مرتين ... ودعا مرتين إلى اتباعهم فيما هم عليه ...

تكذيب عام؟!

وفشلت دعوة إبراهيم تماما أن تثمر شيئا فى هؤلاء المكابرين ...

إلا أن ابراهيم استمر يدعوهم إلى ربهم ، فلم يزدادوا الا انكارا ...

قال تعالى : « وإن يكذبوكَ فقدْ كذَّبتْ قبلهم قومُ نوحٍ ، وعادٌ ، وثمودُ ، وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ » . [الحج ٤٢]

إن قوم ابراهيم اذا قد كذبوا ... هم جميعا كانوا من المكذبين ...

إلا عددا قليلا جدا ... آمنوا بابراهيم على خوف من النمروذ وملئه ، أن يفتنوهم ، ويعذبوهم ...

قال تعالى : « فما كانَ جوابَ قومِهِ إلا أن قالوا : اقتلوهُ ، أو حرِّقوهُ ، فأنجاهُ اللهُ منَ النار ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنونَ . وقال : إنَّما اتخذتُم من دونِ اللهِ أوثاناً ، مودَّةَ بينكُمْ في الحياةِ الدنيا ، ثم يومَ القيامةِ يكفرُ بعضُكُمْ ببعضٍ ، ويلعَنُ بعضُكُمْ بعضاً ، ومأواكُمُ النارُ ، ومالكم من ناصرينَ . فآمَنَ له لوطٌ ، وقالَ : إنِّي مُهاجرٌ إلى ربِّي ، انهُ هو العزيزُ الحكيمُ » .

[العنكبوت ٢٤ — ٢٦]

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه » ... والآمرون بذلك هم هيأة المحاكمة التي انعقدت برياسة الملك النمروذ لمحاكمته ...

انهم يتشاورن فيه ... ماذا يصنعون ؟ فمن قائل : اقتلوه ... ومن قائل : حرقوه ... أي اعدموه ... اما قتلا ... واما حرقا ...

« فأنجاه الله من النار » فألقوه في النار ، فأنجاه الله تعالى منها ، بأن جعلها سبحانه عليه بردا وسلاما حسبما بين في مواضع أخر .

« ان في ذلك » أي في انجائه منها .

« لآيات » بينة عجيبة وهي حفظه تعالى اياه من حرها ، وانشاء روضة في مكانها .

قيل : لم يحترق بالنار الا الحبل الذي أوثقوه به — عليه السلام — .

« لقوم يؤمنون » خصهم بالذكر لانهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها .

« وقال » ابراهيم — عليه السلام — مخاطبا لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن ابراهيم بعد معجزة نجاته من النار ...

خرج منها يدعو الى الله تعالى ... وأنه لم يسكت عن دعوتهم ...

وانما واصل الدعوة أكثر من ذي قبل ... واتخذ من المعجزة برهانا على صدقه ...

وأن الناس أصبحوا أكثر استعدادا للاستماع اليه بعد وقوع المعجزة ...

لأن الخارقة كانت مثار دهشة الجميع ...

ومثار الجدل بين الناس ...

مما رفع ذكره ... وانتشر بسببه اسمه ...

وأصبح حديث الناس كافة ...

وهذا الجو مهيأ كل التهيئة لمعاودة الدعوة والبيان ...

وهذه الفتره هى التى استجاب له فيها ذلك النفر القليل جدا من الشباب من قومه ...

« انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا » أى لتتوادوا بينكم ، وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها ، واتفاقكم عليها ، وائتلافكم .

كما يتفق الناس على مذهب ليكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم .

أو المعنى : ان مودة بعضكم بعضا هى التى دعتكم الى اتخاذها ، بأن رأيتم بعض من تودونه اتخذها فاتخذتموها موافقة له لمودتكم اياه .

وهذا كما يرى الانسان من يوده يفعل شيئا فيفعله مودة له .

ان ابراهيم — عليه السلام — هنا يكشف تلك العقدة التى تدفع الناس الى الباطل وهم لايشعرون ... حتى يخيل اليهم فى النهاية أنهم على حق ... من طول ماألفوا باطلهم، وطول مايصنعون ...

انما اتخذتم ... أوثانا !! ...

الواقع انكم اتخذتم شيئا حقيرا ... تافها ... لايستحق أن يعبد ... ومع ذلك عبدتموه ... لماذا ؟

مودة بينكم فى الحياة الدنيا .. إنها نظرية الحياء الاجتماعى ... أوالرياء الاجتماعى ...

هذا يفعل كذا ، فلأفعل أنا كذا ...

هؤلاء يعبدون أصناما ... فلأعبد أنا أصناما مثلهم ...

اذ لايعقل أن يكون هؤلاء جميعا على باطل وأنا وحدى على حق !!

وهكذا ... تقليد أعمى ... وبدون تفكير ... مجرد مجاراة للمجتمع !!!

وهذا هو المرض الأعظم الذى يضل المجتمعات كلها ... دائما أبدا ...

يخرج الناس الى الحياة فيجدوا آباءهم يفعلون أشياء ...

وباللاوعى ... ولمجرد التقليد ... يفعلون كما رأو آباءهم يفعلون !!!

فان جودلوا فيما يصنعون ، قالوا : وجدنا آباءنا عليها عاكفين !!

مصيبة ... أومرض اجتماعى ... خطير جدا ...

ولـكنه الإنسان ... هو هو ... فى غبائه وكبريائه !!!

وهذا ماواجه ابراهيم فى مجتمعه ...

مجتمع مغفل ... ينحت أحجارا بيده ... ثم يتخذها آلهة ...

لماذا ؟ ... قلد الأبناء فعل الآباء ...

فلما انبعث ابراهيم يبين لهم خطأ مايصنعون ثاروا وغضبوا وكانت حجتهم المضحكة وجدنا آباءنا عليها عاكفين !!

شيء مضحك جدا جدا جدا ...

والذى يدفع للضحك أكثر فأكثر ... أن يجمع المجتمع كله على ذلك ...

وأعجب من ذلك وأعجب أن هذا المرض مازال ، وسوف يظل مرضا مزمنا ملازما للبشرية أينما كانت !!!

فلو أنك جئت اليوم ... وفى عصر الصواريخ وسفن الفضاء ... إلى الشيوعيين وقلت لهم : ماهذه الطبيعة التى أنتم بها مؤمنون ...

لثاروا ... وهاجوا ... وماجوا ... وكانت حجتهم : هكذا وجدنا آباءنا يفعلون ...

ولرفعوا عقائدهم : إن الله خرافة ... إن الذين يعتقدون بوجود إله قوم رجعيون !!

أرأيت ؟ نفس المرض ... يلازم البشرية !!

ولو أنك جئت اليوم ... وفى عصر التليفزيون والذرة ... إلى المسيحيين وقلت لهم : ماهذا الإفك الذى تقولون ، حين تزعمون أن المسيح ابن الله ؟!

لهاجوا جميعا فى وجهك : هكذا وجدنا آباءنا يعتقدون !!

نفس المرض ... ونفس الداء !!!

إن ابراهيم يكشف للبشرية كلها مرضها ... الذى يدفعها إلى الانحراف عن الحق ... واعتقاد الباطل ...

إنه التقليد ... إنه الحياء الاجتماعى ... إن الناس يتدافعون الى اعتقاد الباطل ، حرصا على بقاء الحب بينهم فى الدنيا ...

انهم يرضون بعضهم البعض على حساب الحق ...
ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ...
ماذا يحدث حين تزول هذه الدنيا ، وتذهب هذه العواطف الكاذبة ؟
« ثم يوم القيامة » يتبدل الحال حيث .
« يكفر بعضكم » وهم العابدون .
« ببعض » وهم الأوثان ...

« ويلعن بعضكم بعضا » أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان — حيث ينطقها الله تعالى — الفريق الآخر .

أى يتناكرون يوم القيامة .

« ومأواكم النار » هى منزلكم الذى تأوون اليه جميعا ...
« ومالكم من ناصرين » يخلصونكم منها ، كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها .

إن إبراهيم يبين لهم فى قوة واستعلاء بالله ...
إنكم الآن تتوادون وتتخذون هذه الأصنام من باب العاطفة المشتركة بينكم ...
أما يوم القيامة ... وحين تعاينون العذاب ...
فان هذه المودة ستتحول إلى تباغض وتناكر ...
يبلغ من شدتها أنكم سوف يلعن بعضكم بعضا ...
إن إبراهيم هنا يبدو قويا غاية القوة ...

يتحدى قومه ... ويتحدى ... ويسفه ما هم عليه ... ويبين لهم أن مصيرهم أسود ... مصيرهم نار موقدة يلقون فيها أشد الإهانة وأشد العذاب ...

واستمر إبراهيم فى دعوته ...

واستمر قومه فى إعراضهم .

إلا قليلا من الشباب الذين لم تخيم عليهم بعد ظلمات التقليد ...

فآمن له لوط ؟!

« فآمن له لوط » أى صدقه — عليه السلام — فى جميع مقالاته ! أو بنبوته حين ادعاها .

ولوط ابن أخيه هازان .

« وقال » إبراهيم عليه السلام .

وقيل : الضمير للوط — عليه السلام — .

« إنى مهاجر » أى من قومى .

« إلى ربى » أى إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها .

إلى حيث لا أمنع عبادة ربى .

وقيل : المعنى مهاجر من خالفنى من قومى متقرب إلى ربى .

« إنه » عزوجل .

« هو العزيز » الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى .

« الحكيم » الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ، ومصلحة .

فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى .

روى أنه — عليه السلام — هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه إلى حران ، ثم منها إلى الشام .

إن لوطا ... شاب قد استهوته دعوة عمه إبراهيم ...

إنه يرى فيها أضواء الحق تتلألأ ... ويحس فى أعماقه أنها تتجاوب مع فطرته ...

إنه يرى فيها رفعاًالخسة الإنسان ، وعلوا بمنزلته ...

إنه يجد فيها كل مايطمع إليه الشباب من بطولة ، وحق ، وجمال ، وحرية ، ومساواة ...

إذا كان الشباب تستهويه البطولة الخارقة ...

فإن إبراهيم قدارتفع إلى ذروة البطولة بموقفه الخالد حين حطم الآلهة كلها ، حين ألقوه إلى النار وهو لايتزحزح عن الحق أبدا !!

ومثل هذه البطولة العليا حين تقع تلتقط من المجتمع قلوب الشباب الثائر على عفونات قومه ... وتجذبها إليها جذبا ...

وهاهو البطل ... هاهو إبراهيم ... بطولة فوق التصور ... فكيف لاينجذب لوط الشاب إليه ؟!

وإذا كان كل جديد يستهوى الشباب ... فان إبراهيم قد جاء بذروة التجديد فى المجتمع ...

انه يدعو إلى نبذ كل قديم ... نبذ الأصنام والكواكب ...

والإتجاه إلى ... إلى الله ... إنه يدعو إلى عبادة جديدة تماما ... لم يعهدها قومه من قبل ...

فكيف لاينجذب لوط ... الشاب إلى تلك الدعوة ؟

وإذا كان الإنسان بطبيعته يميل إلى اتخاذ القدوة التى يقلدها ويتبعها ...

يميل إلى اتخاذ الشخصية ... أو الزعيم ... الذى يتبعه ...

فها هو إبراهيم أعظم شخصية يمكن أن يتصورها إنسان فى عصره ...

فكيف لاينجذب لوط ... الشاب ... المتفتح ... إلى تلك الشخصية ؟

كانت هذه العوامل كلها ... دوافع حركت الفتى ... لوط إلى الإيمان بابراهيم ...

يضاف إلى ذلك معدن لوط ... معدنه الطاهر ... الطيب ... الذى أهله للنبوة فيما بعد ...

فآمن له ؟!

آمن لوط بشخصية ابراهيم ...
وآمن بدعوة ابراهيم ...
وآمن بتجديد ابراهيم ...

سارة ؟!

كان لوط هو الشاب الذى آمن بابراهيم من أسرة ابراهيم ...

وكانت هناك فتاة ... جميلة جدا ... من أسرة ابراهيم كذلك ... ترقب ما يفعل ابراهيم ... وتسمع قصته من أولها الى آخرها ...

كانت تلك الفتاة الرائعة الجمال هى سارة ابنة عمه ...

وكانت تحبه حبا شديدا ...

ومالها لاتحب الفتى ابراهيم وقد اكتمل فيه أقصى ما تطمح اليه فتاة فى الوجود ؟

فهو ابن عمها ... وصاحب الحق فيها قبل غيره من الشباب ... حسبما تمليه تقاليد القبائل الراسخة ...

وهو ... الفتى ... القوى ... المهيب ... الذى يتفجر قوة واندفاعا ...

وهو البطل ... بل سيد الأبطال ...

انه وقف موقفا لا تستطيعه أمة باكلها مجتمعة ؟

وقف يحطم الآلهة ! ويتحدى الملك الجبار ، والشعب كله ... حتى ألقوه فى النار !

وهو العقل الممتاز ... وأى امتياز للعقول يصل الى ما وصل اليه عقل ابراهيم ؟

وهو الجديد والتجديد فى أبهى اندفاعاتهما ...

وهو الكريم ... وهو العظيم ... وهو الحليم ...

من هنا أحبته سارة حبين ...

حب لقلبها ... وهو ما يقع لكل فتاة فى سنها ...

وحب لربها ... حين عرفها ابراهيم ربها ، وأرشدها الى خالقها ...

وبذلك استمكن حب ابراهيم من قلب سارة ...

فهى تحبه على أنه فتاها الأوحد ...

وهى تحبه على أنه رسول الله الذى دعاها اليه ...

وهى تحبه على أنه بطلها وفارسها وقدوتها ...

وهى تحبه على أنه انموذج الشاب العظيم صاحب البطولات الخارقة ...

وبالجملة ... كل أسباب الحب العميق ... قد اجتمعت فى قلب سارة نحو فتاها ابراهيم ...

وأى فتاة تستطيع أن تدافع حب ابراهيم ...

أما ابراهيم ... الفتى الأسطورى .

أما ابراهيم الإنسان ...

أما ابراهيم البشر ...

فإنه كذلك أحب تلك الفتاة لنفس الأسباب ...

انه يراها أجمل فتاة ... وقد كانت كذلك فعلا ...

ويراها تلك الفتاة المؤمنة بربها المؤمنة به ، المؤمنة برسالته ...

ويراها ابنة عمه التى جمعت بين طيب المعدن ، وطيب الصفات ...

فأحبها لذلك كله ...

وتزوجها ...

فكانت منه ... كما كانت خديجة من محمد صلى الله عليه وسلم ...

ولقد ظل ابراهيم طول حياته يحمل لسارة أجمل العواطف ، ويكن لها أخلص المشاعر ، كما ظل محمد صلى الله عليه وسلم يحمل لخديجة حية وميتة أجمل العواطف وأحناها !

إنى مهاجر الى ربى ؟!

قال تعالى : ونجّيناهُ ، ولوطاً ، إلى الأرضِ التى باركْنا فيها للعالمين ، [الأنبياء ٧١]

« ونجيناه ولوطا » وهو على ماتقدم ابن أخيه ,

وقد ضمن (نجيناه) معنى أخرجناه .

« إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » أى منتهيا إلى الأرض .

المراد بهذه الأرض أرض الشام .

ووصفها بعموم البركة ؛ لأن أكثر الأنبياء — عليه السلام — بعثوا فيها .

وانتشرت في العالم شرائعهم ، التي هي مبادئ الكمالات ، والخيرات ، الدينية ، والدنيوية ، من الخصب وغيره .

والأول أظهر ، وأنسب ، بحال الأنبياء — عليهم السلام — .

روى أنه — عليه السلام — خرج من العراق ، ومعه لوط ، وسارة بنت عمه هاران الأكبر ، وقد كانا مؤمنين به عليه السلام ، يلتمس الفرار بدينه ...

فنزل « حاران » فمكث بها ماشاء الله تعالى ثم قدم مصر .

ثم خرج منها إلى الشام ، فنزل « السبع » من أرض فلسطين .

ونزل لوط بالمؤتفكة ، على مسيرة يوم وليلة من « السبع » أو أقرب .

وقال تعالى : «فآمن له لوطٌ ، وقال : إنى مُهاجرٌ الى ربِّى ، انه هو العزيزُ الحكيمُ». [العنكبوت ٢٦]

« وقال » ابراهيم — عليه السلام —

وقيل : الضمير للوط — عليه السلام .

« انى مهاجر » أى من قومى .

« الى ربى» الى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة اليها .

روى أنه — عليه السلام — هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط ، وسارة ابنة عمه الى حاران .

ثم منها الى الشام ...

فنزل قرية من أرض فلسطين ، ونزل لوط سدوم وهى المؤتفكة ، على مسيرة يوم وليلة من قرية ابراهيم — عليه السلام —

وكان عمره اذ ذاك خمساوسبعين سنة .

وهو أول من هاجر فى الله تعالى .

أى أنه منذ كان ابن ١٦ سنة — وقت القائه فى النار — الى أن كان ابن خمس وسبعين سنة أى نحوا من خمسين عاما ، كان يدعو قومه الى الله ، فلم يستجب له من أحد ، غير نفر قليل ، وغير لوط ابن أخيه ، وسارة ابنة عمه !!

* * *

قال تعالى :«فأرادوا به كيداً فجعلناهمُ الأسفلين . وقال: انّى ذاهبٌ الى ربى سيَهْدين .

[الصافات ٩٨ — ٩٩]

« وقال : انى ذاهب الى ربى » الى حيث أمرنى ، أو حيث اتجرد فيه لعبادته عزوجل .

والمراد بذلك المكان الشام .

كان المراد اظهار اليأس من ايمانهم ، وكراهة البقاء معهم ...

أى انى مفارقكم ، ومهاجر منكم ، الى ربى .

« سيهدين » الى مافيه صلاح دينى ، أو الى مقصدى .

والسيد لتأكيد وقوع ذلك فى المستقبل أى حتما سيهدين .

وهذا يدل على عظيم توكله — عليه السلام —

* * *

هذه هى النصوص التى تشير وتسجل هجرة ابراهيم ...

ان الهجرة شىء لازم لابراهيم ... كرسول ... وصاحب دعوة ...

ان ابراهيم ينادى فى قومه منذ كان فتى حتى أوفى على الخامسة والسبعين ...

ويقيم لهم الدليل اثر الدليل على وحدانية الله ، وبطلان ما هم عليه ...

ولكن هيهات هيهات ... أن يستجيبوا له ...

ان الأصنام أحب اليهم مما يدعوهم اليه ...

وليس من شك أن قومه قد آذوه والذين معه ...

وأن هذا الايذاء قد اشتد إلى درجة أصبحت تستوجب التحول عن تلك البلاد العقيمة ....

لتجد دعوة التوحيد أرضا جديدة ... تنبت فيها ، وتزدهر ...

تماما ... كما مكث محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر سنة يدعو قومه ، فلم يزدهم دعاؤه إلا اصراراً على أصنامهم ، وإلا ايذاء له ولأتباعه...

إن ابراهيم قدمر بنفس المرحلة ... والتاريخ يعيد نفسه ... ولن تجد لسنة الله تبديلا ...

ولما تبين لابراهيم أن الدعوة أصبحت عقيمة فى تلك البلاد ...

وأنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ... « قال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » ...

وقال لوط كذلك : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » ...

وخرج ابراهيم من بلاد آبائه ، كما خرج محمد من مكة مسقط رأسه ...

خرج ابراهيم ومعه زوجته المؤمنة به ، التى تحبه حبا شديدا ...

وخرج معهما لوط . ذلك الشاب الذى آمن به من قبل . والذى أصبح الآن رجلا ..

وخرج معهم أولئك النفر القليل ممن آمن بابراهيم ...

رحلوا جميعا إلى « أور » الكلدانيين ، وهى مدينة كانت فيما مضى بالقرب من الشاطىء الغربى لنهر الفرات .

وارتحل منها إلى « حاران » بلدة من بلاد كنعان (فلسطين) .

وكانت أرض فلسطين حينذاك بعضها تحت حكم الكنعانيين ولذلك سميت « كنعان »

فأقام ابراهيم فى بلدة تدعى شكين ... (نابلس الآن) .

ولم يطل به المقام فى نابلس ، بل كان ينتقل منها إلى الجنوب ليدعو إلى دين الله الحنيف ، ويتم رسالته فى أوسع نطاق ...

أما ابن أخيه لوط فقد رحل إلى مواقع يقال لها سادوم وعامورة في شرق الأردن مكان البحر الميت المعروف ببحر لوط الآن .

وانفرد بالرسالة يدعو القوم فيها إلى عبادة الواحد القهار ...

وهكذا ... اغترب ابراهيم عن وطنه فى سبيل الله ...

بعد أن اغترب عن قومه من قبل فى سبيل الله ...

وكل ذلك شيء طبيعى ، ومفروض على أهل المبادىء ... فكيف برسل الله ... الذين يبلغون رسالاته ؟

إنها ضريبة حتمية على كل صاحب دعوة جديدة !!

أرنى كيف تحيي الموتى ؟!

قال تعالى : « وإذْ قال إبراهيم : « ربِّ أرنى كيف تُحْيِ الموتى ، قال : أوَ لَمْ تُؤْمِن ؟ قال : بَلَى ، ولـكن ليَطمئنَّ قلبى ، قال : فخُـذْ أربعة من الطيْر ، فصُرْهُنَّ إليك ، ثمَّ اجْعَلْ على كلِّ جَبَلٍ منهُن جُزْءا ، ثم ادْعُهُنَّ يأتينكَ سَعْياً ، واعْلم أنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ . » [البقرة ٢٦٠]

« رب » كلمة استعطاف ، شرع ذكرها قبل الدعاء مبالغة فى استعداد الإجابة .

« أرنى » من الرؤية البصرية .

« كيف تحيي الموتى » أى بصرنى كيفية احيائك الموتى .

وإنما سأله — عليه السلام — لينتقل من مرتبه اليقين إلى عين اليقين .

وروى أن الملك بشره عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلا ، وأنه يجيب دعوته ، ويحيي الموتى بدعائه ، فسأل لذلك .

وروى : أن سبب السؤال منازعة النمروذ إياه فى الإحياء ، حيث رد عليه لما زعم أن العفو احياء ، وتوعده بالقتل إن لم يحى الله تعالى الميت بحيث يشاهده فدعا حينئذ ...

وهذا يشير إلى أن هذا السؤال له علاقة بالتحاور الذي كان بين النمروذ وابراهيم .

وأن العملية كانت معجزة أخرى ، وقعت أمام النمروذ والشعب ...

« قال : أولم تؤمن » أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الأحياء كيف أشاء حتى تسألنى عنه ؟

أو بأنى قد اتخذتك خليلا .

أو بأن الجبار لا يقتلك .

« قال : بلى » قال إبراهيم : آمنت بذلك .

« ولكن » سألت .

« ليطمئن » أى يسكن .

قلبى بمضامة الأعيان إلى الإيمان ، والايقان بأنك قادر على ذلك .

أو : ليطمئن قلبى بالخلة .

أو : بأن الجبار لا يقتلنى .

ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر ، فينسب إلى ابراهيم ـ وحاشاه ـ شكا لما وردفى هذه الآية ، قطع النبى صلى الله عليه وسلم دابر هذا الوهم بقوله على سبيل التواضع : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » أى ونحن لم نشك ، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى .

وقيل : ان الكلام مع افعل جاء هنا لنفى المعنى عن الحبيب والخليل — عليهما الصلاة والسلام —

« فخذ » أى ان اردت ذلك فخذ .

أربعة من الطير » جمع طائر .

قيل : أنها الغراب . والطاووس ، والديك ، والحمامة .

« فصرهن » فقطعهن

أى اجمعهن ، وضمهن اليك لتتأملها ، وتعرف شأنها مفصلة . حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلا .

« ثم اجعل» أى ألق . أو صير . بعد ذبحهن ، وخلط لحومهن ، وريشهن ، ودمائهن

« على كل جبل » يمكنك الوضع عليه ، ولم يعين له ذلك .

روى أن الجبال كانت أربعة .

وقيل : سبعة .

وقيل : عشرة .

وعندى أن قوله « على كل جبل » اشارة إلى أن الله اعطى ابراهيم حرية توزيعها كيف شاء على ماشاء من الجبال ...

أى وزعها كيف شئت على شتى الجبال من حولك ...

« منهن » أى من تلك الطير .

« جزءا » أى قطعه ، وبعضا ربعا ، أو سبعا ، أو عشرا .

« ثم ادعهن » أى نادهن .

قيل : إنه — عليه الصلاة والسلام — نادى : أيتها العظام المتمزقة ، واللحوم المتفرقة ، والعروق المتقطعة ، اجتمعى يرد الله تعالى فيكن أرواحكم . فوثب العظم إلى العظم ، وطارت الريشة إلى الريشة ، وجرى الدم إلى الدم ، حتى رجع إلى كل طائر دمه ولحمه وريشه

« يأتينك سعيا » فالدعاء إنما وقع بعد الإحياء .

أى ساعيات مسرعات .

وفيه دليل على أن البنية ليست شرطا فى الحياة لأنه تعالى جعل كل واحد من تلك الأجزاء والابعاض حيا قادرا على السعى والعدو !!

« واعلم أن الله عزيز » غالب على أمره .

« حكيم » ذوحكمة بالغة فى أفعاله ، فليس بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجز عن خرق العادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح .

حكى أن الله سبحانه لما وفى لابراهيم — عليه الصلاة والسلام — بما سأل ، قال له : ياابراهيم ، نحن أريناك كيف تحيي الموتى ، فأرنا كيف تميت الأحياء مشيرا إلى ما سيأمره به من ذبح ولده — عليه الصلاة والسلام — .

وهو من باب الانبساط مع الخليل ، ودائرة الخلة واسعة !!

ورأى ابراهيم عجائب ربه ...

رأى أجزاء الطيور التى قطعها وخلطها بيده ووزعها على جبال متعددة ... رآها تتجمع إلى بعضها البعض ... وتتركب ... وتعود طيورا كما كانت ؟!

إنه كان يعلم أن الله على كل شيء قدير ، ولكنه يريد أن يرى بعينيه تلك التجربة ... وسمح له الله أن يرى ... فازداد يقينا على يقينه ...

واطمأن قلبه بما رأى !!

ابراهيم ... فى مصر ؟!

ومكث ابراهيم ماشاء الله ببلاد الشام ... ثم حدث جوع وقحط شديد ...

فرحل وزوجه سارة ... ومعهما لوط ... إلى مصر ...

تلك البلاد الجميلة التى يأوى إليها دائما وأبدا كل من أتعبته الحياة ...

ويبدو أن لوطا افترق عنهما بعد وصولهما إلى البلاد المصرية ...

فذهب هو إلى مكان منها ...

وذهب ابراهيم وزوجه سارة إلى مكان آخر من البلاد المصرية ...

بلاء .. الجمال ؟!

وفى مصر ... وقع لابراهيم ذلك الحادث المؤسف ...

« عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال: لم يَـكْذِبْ إبراهيمُ — عليه السلام — إلا ثلاثَ كذَباتٍ ، ثِنتَيْنِ منهُنَّ فى ذاتِ اللهِ عز وجل ، قولُهُ (إنى سقيمٌ) وقولُهُ (بلْ فعَلَهُ كبيرُهُمْ هذا) .

« وقال : بَينا هوَ ذاتَ يومٍ وسارَةُ ، إذْ أتَى على جبَّارٍ من الجبابرةِ

« فقيلَ لهُ : إن هاهنا رجُلاً معه امرأةٌ من أحسَنِ الناس

« فأرْسَلَ إليْهِ »

« فسألَهُ عنْها

« فقال : منْ هَذهِ ؟

« قال : أخْتى

« فأتى سارةَ

« قال : ياسارةُ ، ليس على وَجْهِ الأرْضِ مُؤْمِنٌ غيْرى وغيرُكِ ، وإنَّ هذا سألنى فأخبرْتهُ أنَّكِ أختى ، فلا تُكَذّبينى .

« فأرْسَلَ إلَيْها

« فلما دَخَلَتْ عليْهِ ، ذَهَبَ يتناوَلُها بيدِهِ

« فأُخِذَ

« فقال : ادْعِى اللهَ لى ، ولا أضُرُّكِ

« فدَعَتِ اللهَ فأُطْلِقَ

« ثم تناوَلها الثانيَةَ

« فأُخِذَ مثْلَها ، أو أشدَّ

« فقال : ادْعِى اللهَ لى ، ولا أضُرُّكِ

« فدَعَتْ ، فأُطْلِقَ

« فدعا بَعْضَ حَجَبَتِهِ

« فقال : إنَّكُمْ لم تأتُونى بإنسان ، إنما أتَيْتمونى بشيطانٍ .

« فأتتْهُ ، وهو قائمٌ يُصَلِّى ، فأوْمأَ بيدِهِ : مَهْيَا ؟

« قالَتْ : ردَّ اللهُ كَيْدَ الكافِرِ — أو الفاجر — فى نحرِهِ ، وأخْدَمَ هاجَرَ .

« قال أبو هريرة : فتِلْكَ أمُّكُمْ يابنى ماءِ السماءِ » . [البخارى]

« إلا ثلاث كذبات » ... أما الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله عز وجل فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عنه .

وأما فى غيره فالصحيح امتناعه .

فيؤول ذلك بأنه كذب بالنسبة إلى فهم السامعين .

أما فى نفس الأمر فلا .

إذ معنى سقيم إنى ساسقم لأن الإنسان عرضة للاسقام .

واما (فعله كبيرهم) فيؤول بأنه أسند اليه لأنه هو السبب لذلك وهو مشروط بقوله (ان كانوا ينطقون) .

وأما سارة فهى أخته بالاسلام .

« ثنتين منهن » أى كذبتين من هذه الكذبات الثلاث كانتا فى ذات الله تعالى أى لأجله .

وانما خص هاتين الثنتين لأنهما فى ذات الله ...

لأن قصة سارة وان كانت أيضا فى ذات الله لانها سبب لدفع كافر ظالم عن مواقعة فاحشة عظيمة ، لكنها تضمنت حظا لنفسه ونفعا له بخلاف الثنتين المذكورتين لانهما كانتا فى ذات الله محضا .

« على جبار » يعنى مر على جبار من الجبابرة ... واسم هذا الجبار عمرو بن امرىء القيس بن سبا ، وكان على مصر ...

قال علماء السير : أقام ابراهيم بالشام مدة فقحط الشام فسار الى مصر ومعه سارة ، وكان بها فرعون ، وهو أول الفراعنة ، عاش دهرا طويلا ، فأتى اليه رجل وقال : أنه قدم رجل ومعه امرأة من أحسن الناس وجرى له معه ما ذكره فى الحديث .

« فأرسل اليه » أى أرسل هذا الجبار الى إبراهيم .

« فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك » قيل يشكل عليه كون لوط معه .

وأجاب بعضهم : بأن مراده بالأرض الأرض التى وقع له بها ما وقع ؛ ولم يكن لوط معه اذ ذاك .

فان : قلت : ذكر أهل السير ان ابراهيم سار الى مصر ومعه سارة ولوط ، قلت : يمكن أنه سار معه الى مصر ولم يدخلها معه .

« فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى » وكانت عادة هذا الجبار أن لايتعرض الا الى ذوات الأزواج فلذلك قال لها : انى أخبرته أنك أختى .

وقيل : لو قال أنها امرأتى لألزمه بالطلاق .

قلت : أو قتله ، أو اغتصبها منه !

« فلما دخلت عليه » فلما دخلت سارة على الجبار .

« فأخذ » أى اختنق حتى ركض برجله كأنه مصروع .

وفى رواية مسلم « فأرسل إليها ، فأتى بها ، قام ابراهيم يصلى ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يديه اليها فقبضت يده قبضة شديدة » .

وعند أهل السير « فلما دخلت عليه ورآها أهوى اليها ، فتناولها بيده ، فيبست الى صدره » .

« فدعت » وكان دعاؤها « اللهم ان كنت تعلم انى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى الا على زوجى فلا تسلط على الكافر » .

« فدعا بعض حجبته » جمع حاجب ...

وفى رواية مسلم « ودعا الذى جاء بها » ...

« انكم لم تأتونى بإنسان انما أتيتمونى بشيطان » .

وفى رواية الاعرج « ما أرسلتم الى الا شيطانا ارجعوها الى ابراهيم » .

وفى رواية مسلم « فقال : انما جئتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان ، فاخرجها من أرضى ، واعطها هاجر » .

« فاخدمها هاجر » أى وهب لها خادما اسمها هاجر .

ويقال : آجر .

وهى أم اسماعيل — عليه الصلاة والسلام — .

ويقال ان أباها كان من ملوك القبط .

« فاتته » أى فاتت هاجر ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — والحال أنه يصلى .

« فأومأ بيده » أى أشار بيده .

« مهيا » معناها ماحالك وما شأنك ؟

« فتلك أمكم يابنى ماء السماء » أراد بهم العرب لأنهم يعيشون على المطر ،

هذا ... الفرعون ؟!

تلك هى الأقصوصة التى جرت لابراهيم وامتحن فيها امتحانا شديدا ...

وخلاصتها أنه نزل الى مصر ومعه أجمل امرأة ... معه سارة ...

وكان على مصر ملك مستهتر ولا يعنينا هنا اسمه بالذات ، وانما يعنينا أنه جبار من الجبابرة ... وانه مستهتر عابث ... دنىء ...

وابتلى ابراهيم فى صميم كيانه ؟!

ابتلى فى زوجه ... فى امرأته التى كانت أجمل نساء زمانها ...

وكانت جريمته أن امرأته أجمل امرأة !!!

وكان لهذا الجبار قوادون يتصيدون له النساء ، ويأتونه بأخبارهن ...

وجاءوا إليه يهرعون : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس !!!

وبعث الملك من يحضر ابراهيم إليه فأحضروه ...

واضطر ابراهيم اضطرارا أن يكذب ويقول : أختى ...

وظن ابراهيم أنه بذلك ينجو بامرأته من هذا العابث الأثيم ... الذى كان مولعا بالسطو على الزوجات ...

ولكن المذكور بهره جمال سارة ونوى بها أمرا !!!

وأحضروها إليه بالقوة ...

فما كان ابراهيم ليسلم امرأته إلا مقهورا ...

وكان بلاء لابراهيم مبينا !!!

هاهى امرأته فى قصر الملك ... وهو لايستطيع لها نصرا !!!

وأدخلوها إليه ...

كان الملك يزهو فى زينة الملك ، وعظمة السلطة ، وكبر الفرعونية ...

وهى امرأة مجردة من كل سبب ...

قهروا زوجها ، وأخذوها منه عنوة ، وأسلموها إلى هذا الوغد الأثيم !!!

وكانت أزمة عنيفة جدا ، مست شغاف فؤاد ابراهيم ...

سارة ؟!!

أجمل امرأة ... المؤمنة ... زوجته البارة الرحيمة ... الكاملة ... تؤخذ عنوة ... وتسلم إلى فرعون ؟!!

ماذا يفعل ابراهيم ؟!!

ماذا يستطيع أن يقدم لها ضد هذا الطاغية وجنوده ؟

وأين ابراهيم ، الفرد الذى لاحول له ولا قوة ، من هذا الجبار فى جنوده وجبروته ؟

ومن أعماقه ... أحس أن لا ملجأ من الله إلا إليه ...

وعلى الفور .. اتجه الخليل إلى خليله ...

اتجه إليه مباشرة ...

فما أخذوها منه ... حتى قام يصلى ... ويجأر إليه أن يحفظ سارة !!!

وفى نفس الوقت ... ما ان أدخلت سارة على الملك ...

حتى قامت هى الأخرى تتوضأ وتصلى !!!

انظر ... هو ينادى ربه فى أزمته ...

وهى تنادى ربها فى أزمتها ...

إنهم لاينتصران إلا بالله ، ولايعرفان إلا الله ، ولا يناديان إلا الله ...

فماذا حدث ؟

حدث العجب ... ما كان الله ليرد دعاء ابراهيم ، ولادعاء سارة ...

قام العجل المسمى فرعون يتناولها بيده ...

فبيست يده على صدره ...

واختنق حتى الموت ...

وجعل يركض برجله ، كأنه حمار يموت ، أو جيفة تتحرك !!!

إن الله تدخل فى المعركة ...

ان الله يدافع عن الذين آمنوا ...

وكيف لايدافع الله عن اثنين هما وحدهما المؤمنان به فى تلك الأرض ؟

ألم يقل لها ابراهيم : ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ؟!

وكرر العجل محاولته ثلاثا ... وهو يطمع كل مرة أن يظفر بها ...

ولكن الله نكل به نكالا شديدا ...

وصاح العتل : انكم لم تأتونى بإنسان ، انما أتيتمونى بشيطان !!

ورعب زعبا شديدا ...

جعله يردها الى ابراهيم مكرمة ... ومعها جارية اسمها هاجر !!

وجاءته ، وهو قائم يصلى ... ان ابراهيم مازال فى نجواه مع خليله ...

والتقوا لقاء كله لهفة وحب ...

وكان بينهما مايكون بين الحبيب يعود الى حبيبه بعد أن فقد الأمل فى عودته !!

واستبان لابراهيم كيف ابتلاه الله ... ثم نجاه ...

واستبان لسارة كيف ابتلاها الله ... ثم نجاها ...

وما أشبه تلك الأقصوصة بأقصوصة يوسف — عليه السلام — حفيد سارة ...

وكان جماله سببا فى بلائه ... وكان مصدر بلائه امرأة عزيز مصر ... زوجة جلالة ملك مصر !!!

كما كان جمال سارة سببا فى بلائها ... وكان مصدر بلائها عزيز مصر ... جلالة ملك مصر !!!

وكما استعصم يوسف ... وأبى ... وعلا ...

استعصمت سارة ... وأبت ... ولجأت اليه سبحانه .. فعصمها .. وكبت الكافر ...
وسبحان من يبتلى من شاء ، بما شاء ، كيفما شاء !!

عودة ابراهيم الى فلسطين ؟!

ثم عاد ابراهيم ، وزوجه سارة ، إلى فلسطين ...

بطل ؟!

ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط ، فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا انعامه
فخرج ابراهيم ، وبلغ تلك الأمول ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا ، وهزمهم ،
وساق فى آثارهم ، حتى وصل إلى شرقى دمشق ، وعسكر بظاهرها عند برزة ،
ثم رجع مؤيدا ، منصورا إلى بلاده .
وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له ، مكرمين ، خاضعين .
واستقر بفلسطين ...
ونقف مع هذا الموقف من إبراهيم ... فندرك أنه كان مقاتلا ممتازا ...
وهذا يكشف جانبا خطيرا من شخصية ابراهيم ...
وهو جانب القتال والشجاعة والإقدام على التضحية ...
وجانب الإنتصار للمظلوم مهما كان الثمن ...

على الكبر ؟!

قال تعالى : « الحمدُ للهِ الذى وَهَبَ لى على الكِبَر إسماعيلَ وإسحاق إنَّ ربِّى لسميعُ الدعاء ، [ابراهيم ٣٩]
« الحمد الله الذى وهب لى على الكبر » أى مع كبر سنى ويأسى عن الولد ،
والتقييد بذلك استعظاما للنعمة ! وإظهارا لشكرها .

« اسماعيل واسحاق » روى أنه وهب له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة .
ووهب له اسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة .

« إن ربى » ومالك امرى .

« لسميع الدعاء » أي لمجيبه . فالسمع بمعنى القبول والاجابه مجاز . كما فى سمع الله لمن حمده .

يتوسل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى فى شأنه كأنه عليه السلام يقول : اللهم استجب دعائي فى حق ذريتي فى هذا المقام . فانك لم تزل سميع الدعاء ، وقد دعوتك على الكبر أن تهب لى ولدا . فأجبت دعائي . ووهبت لي اسماعيل واسحاق .

وهذا النص يؤكد أن ابراهيم ولد له بعد أن بلغ الكبر ...

وأن الله وهبه اسماعيل أولا ...

ثم اسحاق ثانيا ...

لأن إبراهيم صاحب التجربة يسجلها بنفسه ، ويحمد الله تعالى عليها بنفسه ...

ولأن الله هو الذى يقصها علينا فى كتابه ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ !

اسماعيل ؟ !

قال تعالى : « واذكُرْ فى الكتابِ إسماعيلَ ، إنَّهُ كانَ صادق الوعْد ، وكان رسولا نبيا . وكان يأمُرُ أهلَهُ بالصلاة ، والزكاة ، وكانَ عند ربِّهِ مَرْضِيا .
[مريم ٥٤ و ٥٥]

« واذكر فى الكتاب » فى القرآن .

« اسماعيل » ابن ابراهيم — عليهما السلام —
وفصل ذكره عن ذكر ابيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بامره بايراده مستقلا .

« إنه كان صادق الوعد» وايراده ــ عليه السلام ــ بهذ الوصف لكمال شهرته بذلك وناهيك فى صدقه أنه وعد أباه الصبر على الذبح بقوله (ستجدني ان شاء الله من الصابرين) فوفى !!

قيل : لا يبعد أن يكون ذلك اشارة إلى هذا الوعد والصدق فيامن أعظم مايتصور !!

« وكان رسولا نبيا » فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة مستقلة ، فإن أولاد ابراهيم — عليهم السلام — كانوا على شريعته .

واسماعيل — عليه السلام — بعث إلى جرهم بشريعة أبيه .

«وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة» اشتغالا بالأهم ، وهو أن يبدأ الرجل بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقرب الناس اليه .

قال الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين ـ وأمر أهلك بالصلاة ـ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

وقال الحسن : المراد بأهله أمته ، لكون النبي بمنزلة الأب لأمته .

« وكان عند ربه مرضياً » لاستقامة أقواله وأفعاله .

ذلك هو اسماعيل ...

شخصية أبرز صفاتها ... صادق الوعد ... رسول ... نبي ... يأمر أهله بالصلاة ... والزكاة ... مرضى عند ربه ...

وماذا من الكمال بعد هذا ؟..

واسماعيل هذا ... يكفيه ـ فوق هذه الصفات جميعاً ـ أنه جد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ... والحلقة التي تربط محمداً وابراهيم عليهم الصلاة والسلام .

غلام حليم

قال تعالى : « ربِّ هبْ لي منَ الصالحينَ . فبَشَّرْناهُ بغلامٍ حليمٍ » .

[الصافات ١٠٠ ـ ١٠١]

« رب هب لي من الصالحين » بعض الصالحين ، يعينني على الدعوة ، والطاعة ، ويؤنسني في الغربة .

والتقدير : ولدا من الصالحين ،

« فبشرناه بغلام حليم » ظاهر فى أن مابشر به عين ما استوهبه ...

ولقد جمع بهذا القول بشارات ...

أنه ذكر لاختصاص الغلام به ...

وأنه يبلغ ...

وأنه يكون حليما ... وأى حلم مثل حلمه ؟!

عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » ... فما ظنك به بعد بلوغه ؟!

وقيل : ما نعت الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم عليهما السلام .

وحالهما المذكورة فيما بعد تدل على ماذكر فيهما .

إن ابراهيم يدعو ربه ... وكان ذلك بعد أن مضى عليه عشرون عاما فى الشام ... بعد هجرته عن قومه ...

يدعوه أن يهب له ولدا صالحا ...

يرث هذه الدعوة ... هذه الكلمة ... ويتم إبلاغ هذه الرسالة ...

وإن الله تعالى يبشره أنه استجاب لدعائه ، وانه سيهبه غلاما ... حليما ... أخص صفاته الحلم !!!

من الأخيار ؟!

قال تعالى : «واذكُرْ إسماعيلَ والْيَسَعَ ، وذا الكِفْلِ ، وكلٌّ من الأخْيارِ . هذا ذِكْر...»
[ص ٤٨ — ٤٩]

« واذكر إسماعيل » فصل ذكره عن ذكر أبيه ، وأخيه ، اعتناء بشأنه ، من حيث لا يشرك العرب فيه غيرهم .

أو للأشعار بعراقته فى الصبر ، الذى هو المقصود بالتكرار .

« وكل من الأخيار » أي وكلهم من المشهورين بالخيرية .

« هذا ذكر » أى شرف لهم ، وشاع الذكر بهذا المعنى ...
والمراد فى ذكر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شرف عظيم لهم ...
إن اسماعيل قمة فى الخير ... انه يقف فى ذروة الأخيار ...
إن الله يشهد له بذلك ... وكفى بالله شهيدا !

بداية النبوة والكتاب فى ذرية ابراهيم ؟!

قال تعالى : « ولقدْ أرسلْنا نوحاً ، وإبراهيمَ ، وجعلْنا فى ذرِّيتهما النبوَّةَ والكتابَ ... » [الحديد ٢٦]

« وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتاب .
إن اسماعيل هو بداية النبوة والكتاب فى ذرية ابراهيم ...
إنه الإشعاع الأول فى تلك الذرية ...
إنه الولد البكر ... وانه أول من استنبىء من ذرية ابراهيم ...
وأول من كان رسولا نبيا منها ...

لماذا طلب ابراهيم الولد ؟!

رجل يقف على قمة المائة من عمره ...
قضى حياته من صغره داعيا إلى الله بإذنه ...
وامرأته إلى جواره ... تؤمن به ، وتهاجر معه أينما ذهب ...
وتلفت ابراهيم من حوله فوجد نفسه وحيدا ...
ونظر إلى هذه الدعوة التى يحملها ، فأحس بضرورة وجود من يتابع السير بها من بعده ...
ونظر ... فأدرك أنه هو القلب السليم ، الذى اصطفاه رب العالمين ...
هنالك ... رغب أن يكون الذى يحمل هذه الرسالة من ذريته ...
ولكن هناك النواميس العامة ... تمنع ذلك ...

إنه شيخ كبير يناهز المائة ... فكيف يطمع الآن فيما لم يتحقق له فى شبابه !!
وهذه زوجه عجوز ، عقيم ... فكيف تطمع فيما لم يقع لها فى شبابها ؟!
هناك استحالة طبيعية ... هناك نواميس تمنع ذلك ...
ولكن ابراهيم الذى يعلم من الله مالا نعلم ...
يعلم أن الذى خلق تلك النواميس ، هو الذى يملك تغييرها وتحويلها ...
هنالك اتجه ابراهيم إليه ...
اتجه إليه مباشرة ...
اتجه إلى من بيده تغيير النواميس وتبديلها ...
وناداه : « رب هب لى من الصالحين » ...
فماذا كان جواب ربه ؟
« فبشرناه بغلام حليم » ...
إن ابراهيم اتجه إليه مباشرة ... فكان الله عند ظنه !!!

كيف كانت القصة ؟!

« قال ابن عباس : اولَ ما اتخَذَ النساء المِنْطَقَ ، من قبَلِ أمِّ إسماعيلَ
« اتخذَتْ مِنطقًا ، لتعَفِّيَ أثرَها على سارةَ
« ثم جاء بهاإبراهيمُ ، بابنها إسماعيلَ وهيَ ترْضِعُهُ ، حتى وضَعَهما عند البيتِ ، عند دَوْحةٍ ، فوقَ زمْزمَ فى أعلى المسجد
« وليس بمكةَ يومئذٍ أحَدٌ وليسَ بها ماء
« فوضَعَهُما ، هنالِكَ ،
« ووضَعَ عندَهُما جِرَابًا ، فيه تمْرٌ . وسِقاء فيه ماء
« ثم قفَى ابراهيمُ مُنطلِقًا ... » [البخارى]

هذه قطعة ... من ذلك الحديث ... الخالد ... الجامع ... الذى أورده البخارى فى صحيحه ... يتلألأ كما يتلألأ النور فى آفاق الأبد ...

ولندخل قليلا ... قليلا ... إلى أنواره ...

« أول ما اتخذ النساء المنطق » ما يشد به الوسط ...

أى اتخذت أم إسماعيل منطقا ، وكان أول الاتخاذ من جهتها ...

ومعناه انها تزيت بزى الخدم اشعارا بأنها خادمها . يعنى خادم سارة ، لتستميل خاطرها ، وتجبر قلبها ...

وكان السبب فى ذلك ان سارة كانت وهبت هاجر لابراهيم ...

فحملت منه باسماعيل ...

فلما ولدته ، غارت منها ، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء !

فاتخذت هاجر منطقا ، فشدت به وسطها ، وجرت ذيلها ، لتخفى أثرها على سارة .

وهو معنى قوله (لتعفى أثرها) أى لأن تعفى : يقال عفا على ما كان منه إذا أصلح بعد الفساد ..

ويقال إن ابراهيم شفع فيها . وقال لساره :حللى يمينك بأن تثقبى أذنيها ، وتخفضيها.. فكانت أول من فعل ذلك .

« ثم جاء بها ابراهيم » قيل : كان تطوى له الأرض ...

وأنا أقول : لاداعى لتكلف هذا ... إنما جاء بها ابراهيم من الشام حيث كان يقيم ، إلى الموضع الذى به زمزم اليوم بالحجاز ... فى رحلة طبيعية ... قطع فيها أياما وليالى ككل مسافر ...

« وهى ترضعه » أى هاجر ترضع إسماعيل ...

لقد كان إسماعيل رضيعا ... وكانت أمه هاجر ترضعه فى تلك الرحلة الطويلة ...

« عند البيت » عندموضع البيت ، لأنه لم يكن فى ذلك الوقت بيت ولا بناء .

« فوضعهما » عند البيت .

« عند دوحة » هى الشجرة العظيمة .

« فوق زمزم » أى فوق المكان الذي نبعت فيه بعد ذلك زمزم لأنها لم تكن موجودة يومها ...

« فى أعلى المسجد » أى فى أعلى مكان المسجد ، لأنه لم يكن حينئذ بنى المسجد ،
« جرابا » هو الذى يتخذ من الجلد يوضع فيه الزواد .
« وسقاء » هو قربة صغيرة .
وفى رواية (شَنة) وهى القربة العتيقة اليابسة .
« ثم قفى » أى ولى ، يعنى ولّى راجعا إلى الشام .
وفى رواية ابن اسحاق : فانصرف إبراهيم — عليه السلام — إلى أهله بالشام ، وترك إسماعيل وأمه عند البيت .
« منطلقا » أى إلى الشام ...

لقد بدأت الأقصوصة ... إن ابراهيم دخل تجربة الزوجتين ... سارة هى الزوجة الأولى ... الحرة ... الحسناء ... التى يحبها حبا شديدا ... والتى لازمته طيلة حياته منذ كان فتى بالعراق ... حتى شيخوخته وهو يناهز المائة فى الشام ...

وهاجر هى الزوجة الثانية ... ولكنها كانت جارية ... تملكها سارة منذ أهديت إليها فى مصر ... ولسنا ندرى أيتهن كانت أجمل ؟

سارة ... التى قيل انها كانت أجمل امرأة منذ حواء إلى زمانها ...
أم هاجر المصرية التى عاشت فى ظلال القصر الملكى بمصر ، وفى نعيم فرعون مصر .. والتى اكتمل فيها مزايا الجمال المصرى الذى شرب من ماء النيل العظيم ؟!
دخل ابراهيم تلك التجربة العنيفة ..

تجربة الضرائر ... التى زادها اشتعالا أن احداهن عقيم لا تلد ... بينما الأخرى ولدت غلاما ، ذكرا ، جميلا ، رائعا ، فيه من صغره جمال النبوة وجلالها ...
وزاد اشتعالها كذلك أن هذه التى ولدت كانت تحت يد سيدتها ...
وأن تلك السيدة هى التى قدمتها لابراهيم ليدخل بها ، لعله يرزق منها بولد ...
ان سارة حين اقترحت على ابراهيم أن يدخل بهاجر ، وأذنت فى ذلك ، لم تكن تتصور مايحدث بعد ذلك على الطبيعة ...

فلما تحول الاقتراح إلى حقيقة ، ودخل ابراهيم بجاريتها ، وحملت تلك الجارية ، ثم وضعت ، وكان الموضوع غلاما ، فيه سر أبيه ، وامتيازه ، ونور نبوته ...

اشتعل القلب منها غيرة ...

وزاد نيرانها أن ابراهيم شغف بذلك الغلام حبا ...

وماله لا يشغف به وهو نسخة حرفية منه روعة وحسنا ؟ !

فما وضع سارة مع ابراهيم بعد ذلك إذا ؟

ولكن ابراهيم ... ذلك العظيم ... ليس كاولئك الذين ينسون الوفاء لعشيراتهم ...

فما كان منه إلا أن حل الموضوع ذلك الحل الطبيعى ...

أن يباعد بينهما ... بين سارة التى تشتعل غيرة ... وبين هاجر التى رزقه الله منها بذلك الغلام الحليم ...

ولكن أين يذهب ابراهيم بهاجر وولدها ...

ايضعهما فى بيت قريب من بيت سارة ؟

كلا ... ان الأمر وراء ذلك الذى يشتعل بين زوجتيه ...

إن الله قد قدر قدرا ، سيقع حتما ...

وما ذلك كله الا الحرف الأول فى القصة الخالدة ...

وأمر الله ابراهيم أن يسير بهاجر ورضيعها إلى جبال فاران ...

إلى جبال مكة ... حيث لا زرع ، ولا ماء ، ولا إنسان ...

ولا أثر لأى نوع من أنواع الحياه !!!

ماهذا ؟!!

إنه الله ... يريد أمرا ...

إنه ابراهيم ... خليله ... ينفذ أمره !!!

إيه ياابراهيم ؟!

ما هذا المقام ؟ ... وماهذا الخلود ؟ ...وما هذا الشرف ؟.. وماذاك التكريم ؟

عليك صلوات الله وسلامه ياخليل الرحمن ...

حين أوحى اليك ربك ... أن خذ هاجر ورضيعها ... واذهب بهما إلى تلك الجبال البعيدة ... ودعهما هناك !!!

شيء فوق الطاقة ...

لايستطيع بشر أن يحتمل هذا ...

رجل... مسئول عن أسرة ... يأخذ تلك الأسرة بأكملها ... ليتركها للموت المحتّم... فى تلك الصحراء الحارقة ... ثم يمضى راجعا ؟!

ان هذا فى منطق الناس جنون ...

ولكنه فى منطق الأنبياء ... ودائرة الخليل ... أمر الهى واجب التنفيذ فوراً ...

ومن هنا ... ومن مثل ذلك ...رفع الله اولئك الأنبياء فوق عباده جميعا درجات ...

بانهم يحتملون مالايستطيع البشر جميعا احتماله ...

إبراهيم ؟!!!

ماذا أقول ؟!!!

إنك فوق القول ... وفوق إدراكنا ... الله وحده هو الذى يعلم من أنت ...

عليك صلوات الله وسلامه ياابراهيم !!

وفى المكان المحدد ...

فى تلك الصحراء التى تؤكد الموت للمقيم فيها ...

وضع ابراهيم هاجر ... ووضع فلذة كبده ... هناك ...

وترك معهما شيئا لايدفع عنهما الموت إلا لحظات !!

ترك جرابا صغيرا فيه قليل من التمر

وسقاء صغيرا فيه قليل من الماء ...

ثم قفى ابراهيم منطلقا ؟!!

ثم ولى عائدا ...

وتركهما ...

أعماق التجربة ؟!

منظر تنفجر له العيون دمعاً و بُكيا ؟!

أمرأة ... ورضيعها ...

وحدها ...

فى جبال وصحراء موحشة ...

والرياح تدوى من حولها ... بصوتها الرهيب ...

لا ماء ... لا زرع ... لا انسان ... لا طير ... لا حيوان ... لا شيء ...

هذا هو المنظر ...

وابراهيم ، ذلك الشيخ المهيب ... يرى كل ذلك ...

ولكنه يولى عنهما عائدا ...

ويتركهما ؟!!

لماذا يفعل الله هذا ؟!

لماذا يفرض الله على ابراهيم هذا البلاء ؟

ولماذا يفرص على هاجران تشهد موت ابنها عطشا وجوعا بعينيها ؟

ولماذا يفرض على ذلك الرضيع أن ينشأ وحيدا فى تلك الصحراء ؟

لأن الله يريد أن يخلصهم جميعا لنفسه ... فهو يقطع الاسباب كلها ليلجئهم إليه ...

إن قلب ابراهيم قد تعلق بالغلام ... إذا فليباعد بين ابراهيم وبين ذلك الغلام !!!

ان الأب هو الذى يقوم بتربية ولده وكفالته ...

إذا فليقطع عن ذلك الغلام تلك الأسباب ، وليترك وحيدا ليربيه ربه ويكفله !!!

وإن تلك المرأة قد ظنت انها اصبحت ذات حظوة عند ابراهيم حين ولدت له اسماعيل ...

فيفرق بينهما ... هى فى الحجاز ، وهو فى الشام ...

ليعلم كل منهما أن الله أولى بهما من أنفسهما !!!

بلايا فى مظاهرها، مرايا فى جواهرها ... تعكس رحمة الله المرادة بأهل البيت وبركاته عليهم ...

وأعماق وراء ذالك ...

لا ندركها ... الله وحده يعلمها ...

آلله ... الذى أمرك بهذا ؟!

والآن ننتقل إلى قطعة أخرى من ذالك الحديث الخالد ...

« ... فتَبِعَتْهُ أمُّ اسماعيلَ

فقالَتْ : ياابراهيمُ ؟ ! أينَ تذهبُ ؟ ! . وتترُكُنا بهذا الوادِى الذى ليسَ فيهِ إنسٌ ، ولاشىْءٌ ؟!

« فقالَتْ له ذلكِ مِراراً

« وجَعَلَ لا يَلْتفِتُ إليها

« فقالَتْ لهُ : آللهُ الذى أمرَكَ بهذا ؟!

« قال : نَعَمْ

« قالتْ : إذنْ لا يُضَيِّعنا

« ثم رجَعَتْ

« فانطلَقَ ابْراهيمُ ... » [البخارى]

« فتبعته أم اسماعيل » وفى روايه ابن اسحاق « فاتبعته » .

وفى رواية ابن جريج « فادركته بكذا »

« إذن لا يضيعنا » وفى رواية عطاء « لن يضيعنا »

وفى رواية ابن جريج « حسبى » وفى رواية ابراهيم بن نافع عن كثير فقالت « رضيت بالله »

ذلك مشهد آخر من القصة الخالدة ... قصة بدء النبوة والكتاب فى الأرض ...

هاهو ابراهيم يترك زوجه ووحيده ... فى تلك المجاهل ... ويولى راجعا ...

هكذا ... بلا مقدمات ... وبلا ترتيب ... وبلا اعداد ...

كأنه يقول لهم : موتوا هاهنا !!!

وهاهى أم اسماعيل تتبعه وتناديه فى فزع : ياابراهيم ... اين تذهب ؟ ... أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولاشىء ؟!!

إن المرأة خائفة ... انه شىء طبيعى أن تكون خائفة ...

ان الليل سوف يزحف بظلامه عليهما بعد قليل ...

ولا أحد معهما ... حتى ابراهيم ... الرجل الوحيد الذى معهم يرحل عنهما ؟ !

انها لم تك تظن ان ابراهيم جاء بها إلى ذلك المكان ليتركها فيه تموت هى ورضيعها ...

وإنما كانت تظن انه سوف يقيم معهما فيه ، أو يدبر لهما وسائل الأمن والحياه !!

فماذا فعل ابراهيم ؟!

وماذا أجابها ؟

لم يجبها بشىء ... وظل صامتا وواصل انطلاقه راجعا !!!

وهى تجرى من ورائه وتناديه : ابراهيم ... أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولاشىء ؟!!

وهو فى صمته لايتكلم ... وفى سعيه راجعا لايتحول ...

كأن شيئا لم يحدث ... أو كأنها لاتستغيث به ولاتناديه فى فزع ..

وكلما رأته يبتعد عنها ... وعن المكان الذى فيه ولدها ...

كلما ازدادت سعيا من ورائه ... وهى تردد تلك العبارات خائفة ...

فلما استيأست أن يرد عليها ... جاءته من حيث يستجيب : آلله الذى أمرك بهذا ؟

هنالك التفت إليها ابراهيم وقال : نعم ؟

قالت : إذن لا يضيعنا !!

ثم رجعت ... فانطلق إبراهيم !!

نعم ؟ ! ... هذا هو كل ماعند ابراهيم . ايقوله لها ...

إن المسألة أمرٌ من الله ... لاسبيل الى التردد فيه ... ولا الى الحديث فيه ...

فلما سألته كان جوابه : نعم ...

وهنا تبدو هاجر عظيمة فى ردها : اذن لا يضيعنا ...

انها على يقين أن الله سوف لا يضيعهما ، مادام هو الآمر بذلك !!

ايمان ... توكل ... تصديق ...

قل ماشئت ... فلن تدرك من اغوارها ... وانوارها ... الا يسيرا ...

وماظنك بامرأة عاشرت خليل الرحمن ...

أوماظنك بامرأة زوجها نبى الله ، وابنها نبى الله ... كيف تكون ؟!

أوما ظنك بامرأة فى آخر نسلها محمد ... امام الأولين والآخرين ؟!

اذن لا يضيعنا ؟ !

كلمة عالية ... كبيرة ... نورها عظيم !!

انى أسكنت من ذريتى ؟!

« ... حتى اذا كانَ عندَ الثَّنِيَّةِ ، حيث لا يَرَوْنَهُ

« استَقْبَلَ بوجْهِهِ البيتَ ، ثم دعا بهؤلاء الكلمَاتِ

« ورَفَعَ يدَيْهِ فقالَ :

« ربِّ ، انِّى أسكَنْتُ من ذرِّيتى بوادٍ غيْرِ ذى زرْعٍ ، عندَ بيْتِكَ المحَرَّمِ ،

« حتى بَلَغَ يشكُرونَ ...» [البخارى]

نحن الآن أمام بحر من النور الابراهيمى ... نرجو الله جل ثناؤه أن نستطيع السبح فيه ... بحوله وقوته ...

« عند الثنية » هو فى الجبل كالعقبة .

وقيل : هو الطريق العالى فيه .

وقيل : أعلى المسيل فى رأسه .

« رب » يعنى يارب . ويروى « ربى » .

وفى رواية « ربنا » كما فى القرآن وهو قوله تعالى (ربنا إنى أسكنت من ذريتى ، بواد غير ذى ذرع ، عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس ، تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون) .

قوله « بواد غير ذى زرع » هو مكة .

قوله « المحرم » وصف البيت بالمحرم لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به .

قوله « ليقيموا الصلاة » عند بيتك المحرم يتعلق بقوله (أسكنت) أى ما أسكنتهم بهذا الوادى الخلاء البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم .

قوله « فاجعل أفئدة من الناس » أى من أفئدة الناس ، وهى جمع فؤاد ، وهى القلوب ، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد .

وقيل : جمع وفود من الناس .

ولو قال : أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس .

قوله « تهوى إليهم » أى تقصدهم ، وتسكن إليهم .

قوله « وارزقهم من الثمرات » أى التى تكون فى بلاد الريف ، حتى يحبهم الناس . فقبل الله دعاءه ، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار لعلهم يشكرون النعمة .

ما هذا ؟!

هذا شىء خطير جدا ...

أن زاوية خطيرة من شخصية ابراهيم تتلألأ ... بنورها المبين ...

« حيث لا يرونه » ... من هنا ... يبدو ابراهيم عاليا جدا جدا جدا ... انه لم يدع ربه حيث يرونه ولكن حيث لا يرونه !!!

لم يدع ربه أمام هاجر وابنها ..

كلا ... وانما حيث « لا يرونه » ...

لماذا ؟ ... لماذا يتخفى ابراهيم فى الدعاء ؟

ليكون بينه وبين خليله ...

وحين يتناجى الخليل مع خليله ... تحلو الوحدة ... ويحلو الاختفاء عن أعين الناس .

حتى إذا كان عند الثنية ؟ !

حتى إذا ابتعد ابراهيم عن هاجر ورضيعها ... وبلغ ذلك المرتفع من الجبل ... واطمأن إلى أنه أصبح وحده ...

حيث لا إنس ، لا شيء يراه ...

هنالك انفجر قلبه يهدر ... بينما عيناه تنفجر بالدموع ...

وكان مقاما عاليا ...

رجل ... وحده ... ترك وراءه زوجه ، ووحيده ... للفناء ... حيث لا ماء ، ولا غذاء ... لا شيء إلا الهواء !!!

ثم ماذا ؟ ...

ثم ما هو أروع ... وأحلى ... وأغلى ...

ابراهيم يستقبل البيت بوجهه ... ابراهيم يتجه إلى مكان البيت ... الذى يرمز الى وجوب الاتجاه الى الله وحده ...

حيث ترك هناك زوجه ووحيده ...

ان فيها من المعانى العميقة مالا يدركه الا ابراهيم ... ومن اذن له الله أن يرقى الى مقام ادراك شيء عن ابراهيم ...

ورفع ابراهيم يديه ... ووجهه الى البيت ... وفى استسلام تام لربه ... ومن قلب تتموج منه أمواج التسليم ، والحب ، الرضى ، والمعرفة ، بالله ...

ومن عيون تتتابع منها الدموع ...

نادى ابراهيم ربه « رب » ...

ما أحلاها ... صادرة عن الخليل ... متجهة الى ربه !!!

انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع ؟! ...

عوالم من العلم فى هذه الجملة ...

انه يقرر أنه أسكن من ذريته ... لا كل ذريته .. أى أن هناك تضحية بهذا الغلام .

أين ؟ ... بواد غير ذى زرع !!

بمكان ليس فيه زرع ، ولا يحتمل أن يكون فيه زرع !!

اذا الهلاك متحقق لهؤلاء الذين تركهم هناك !!

عند بيتك المحرم ؟ ...

هل كان هناك بيت محرم وقتذاك ؟

كلا ... وانما هى النبوة التى أعلمها الله أن سيكون هنا بيتا محرما لله ...

ثم ماذا ؟ ... ثم انظر الى أعماق الدعاء ... ان ابراهيم يشير الى أن اسماعيل سوف تسكون حقيقته ... أنه نبى ... أنه قلب لا يسكن الا عند الله ..

ثم ماذا ؟ ... ثم نأخذ خطوة الى الخلف ... مخافة أن نحترق !!!

ربنا ليقيموا الصلاة ؟!

أى أسكنت من ذريتى هنا ، ليسكون منه أمة تقيم الصلاة ... أى أمة تعبدك وحدك...

فاجعل أفئدة من الناس ... وهذا يشير الى عظيم معرفة ابراهيم بالنواميس الإلهية ...

انه يعلم أن نسبة من الناس سوف تؤمن ... وليس كل الناس ...

فـكان دعاؤه دعاء العالم بالنواميس ... فطلب ما يطابق تلك النواميس ...

تهوى اليهم ؟... أى تتجه اليهم ، وتسكن اليهم ...

وارزقهم من الثمرات ... دعاء مطلق غير محدود ...

كأن ابراهيم يطلب الى ربه أن يكفل لهم وللأمة التى تهوى اليهم رزقا واسعا ، فيه من الثمرات التي تـكفل الحياة وتضمنها ... لعلهم يشكرون ؟...

وإنى لأرجو يارب أن يكونوا لك شاكرين على تلك النعم ...

لأن ابراهيم يعلم أن منهم من سوف يكفر نعم الله عليه ...

هناك إذاً هدف من العملية ... إنها لم تكن مجرد حل لمشكلة الضرتين ... سارة وهاجر ...

وإنما كانت تدبيراً إلهياً ... ليتحقق بناء بيت الله المحرم ... فى ذلك المكان ...

ويتحقق وجود نبوة اسماعيل ...

ثم يتحقق وجود تلك الأمة العربية العظيمة من حوله ...

ثم تتوج تلك السلسلة المباركة فى نهاية أمرها ... بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ...

ثم يكون من وراء ذلك تلك الأمة المحمدية الرائعة ... التى حملت لواء التوحيد بعد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ...

والتى ما زالت موجاتها تتباعد فى آفاق الحياة البشرية كلها ... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !!!

إن ابراهيم قد كشف الله تعالى له كل ذلك ... وأكثر من ذلك ... مما يعلمه الله وحده ... وابراهيم وحده ...

وان ابراهيم وهو يرى القصة فى ذلك المقام من أولها إلى آخرها ...

كان يرى القدر المرسوم ... والقضاء المحتوم ...

فكان يدعو ربه بما يقرأ من قدره ، وما يرى من قضائه ...

فتطابق الدعاء والقدر ... وتلك أعلى مراتب الدعاء ...

فاستجيب لإبراهيم فى كل شىء دعا ربه به ... بلا استثناء ...

قال ابراهيم : أسكنت من ذريتى ... وكانت استجابتها أن ذرية اسماعيل ظلت تنمو بمكة حتى صارت أمة عظيمة !

وقال : بواد غير ذى زرع ... وكانت استجابتها أن ظلت مكة هكذا إلى يومنا هذا ... وادٍ غير ذي زرع ؟!!

وقال : عند بيتك المحرم .. كانت استجابتها أن بنى البيت ... وحفظه الله الى الآن!

وقال : ليقيموا الصلاة ... وقد كان من اسماعيل هذا أمة أقامت الصلاة ، قرونا وقرونا ... ويكفى ان كان منه ذلك النبى العربى العظيم ... الذى صلى بأصحابه ... وشرع للناس الصلاة ... وما زالوا يصلون بصلاته الى يومنا هذا !!

وقال : اجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ... وكانت استجابتها تلك الأمة التى سكنت من حول البيت ... وتلك القلوب التى لا يحصيها إلا الله التى تهوى الى حج بيت الله الحرام كل عام !!

وقال : وارزقهم من الثمرات .. وكانت استجابتها أن مكة يتوافر فيها أصناف الثمرات الى يومنا هذا مما لا وجود له أصلا فى أرضها ..

وهكذا ... ان الله استجاب لكلمات ابراهيم بتمامها !!!

عطشت ... وعطش ابنها ؟!

« ... وجَعَلَتْ أمُّ اسماعيلَ تُرْضِعُ اسماعيلَ

« وتشرَبُ من ذلكَ الماءِ

« حتى إذا نفِدَ ما فى السِّقاءِ عَطِشَتْ ، وعطِش ابنها

« وجَعَلتْ تنظُرُ إليه يتلوَّى

« أو قال : يتَلبَّطُ

« فانطَلَقَتْ ، كراهيَةَ أن تنظُرَ إليهِ

« فوجَدَت الصّفا ، أقرَبَ جبلٍ فى الأرض يليها

« فقامت عليه ، ثم استَقْبَلتْ الوادى ، تنظرُ هل ترى أحداً ؟

« فلم ترَ أحداً

« فهبطت من الصفا

« حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرفَ درعها

« ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ

« حتى جاوَزَتِ الوادى

« ثم أتتِ المَرْوَةَ ، فقامتْ عليها ، ونَظَرتْ هلْ ترى أحدا ؟

« فلم ترَ أحداً

« ففعلَتْ ذلك سبْعَ مرّاتٍ

« قال ابن عباسٍ : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فذلِكَ سَعْيُ الناس بَيْنَهُما ...»

[البخارى]

« حتى اذا نفد مافى السقاء » أى حتى اذا فرغ الماء الذى فى السقاء

« وعطش ابنها » أى اسماعيل

قيل : كان عمره فى ذلك الوقت سنتين

وقيل : كان لبنها انقطع

« يتلوى » اى يتمرغ ، ويتقلب ظهرا لبطن ، ويمينا وشمالا

« أويتلبط » اى يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض

وقيل : هو أن يحرك لسانه وشفتيه كأنه يموت

وقيل : اللبط باليد ، والخبط بالرجل

وفى رواية : فلما ظمأ اسماعيل جعل يضرب الأرض بعقبيه

وفى رواية : يتلمظ .

« ثم استقبلت الوادى » وفى رواية : والوادى يومئذ عميق

« ثم سعت سعى الإنسان المجهود » اى أصابه الجهد ، وهو الأمر المشق

«سبع مرات» وفى حديث ابى جهم: وكان ذلك أول من سعي بين الصفا والمزوة ...

ماهذا ؟

هذا منظر رهيب ...

إنه لوحة فنية رائعة حية... متحركة ...

ذهب ابراهيم ... واختفى شبحه ...

وهاهى ام اسماعيل ، ورضيعها بين يديها يواجهان المصير الرهيب ...

ودخل الليل بظلامه ...

وما أدراك ما الليل فى صحراء لا أحد فيها !!!

وأم اسماعيل وحدها

إلا هذا الرضيع ... الذى لايملك من أمره شيئا ... ولايدرى شيئا ... ولا يزيدها الا خوفا ورهقا ...

وضمته إلى صدرها فى حنان الأم التى تخشى على طفلها الهلاك ...

من يدرى ؟ ... ربما جاء وحش فى هذا الليل فافترس الطفل بين يديها ... وافترسها هى الأخرى ...

أوربما فوجئت بشرير يدهمها هى وابنها ، ولم يرع لهما حرمة ...

ومر الليل بسلام ...

وأشرقت الأرض بنور ربها ...

فأنست المرأة الوحيدة بنور النهار ...

وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل ؟

وتشرب من ذلك الماء ؟

ثم واجهتها المشكلة الرهيبة ... لقد نفد المـاء الذى فى السقاء ... كما نفد من قبل التمر الذى كان فى الجراب ...

إلا أن المرأة لم تشعر بوطأة الجوع إلا حين نفد المـاء ...

إنه لم يعد أمامها إلا أن تموت !!

وقديكون موتها سهلا على نفسها ... ولـكن هذا الرضيع هل تتركه يموت أمامها ؟!

واهتزت هاجر من أعماقها ...

وفزعت من أصولها ... ان رضيعها يموت أمام عينيها ... ولاتملك له شيئا !!!

« حتى إذا نفد مافى السقاء ، عطشت ، وعطش ابنها » ... ياللهول !! انتهى الماء ... وأخذ جوفها يحترق عطشا كأنه الجحيم ...

وجعلت تعطى ثديها لابنها فلا يجد شيئا يمصه ...

تجربة رهيبة ... رهيبة جدا ...

وجعلت تنظر إليه يتلوى ؟!!

إن الرضيع يتمرغ من العطش والجوع ... ويتقلب ظهرا لبطن ... ويمينا وشمالا ...

إنه يصرخ صراخا يقاوم فيه الفناء ...

فكأن صرخته تنبع من فؤاد أم اسماعيل ... وينشق لها كيانها !!

أم ؟ ... تشهد موت رضيعها ... بسبب جفاف ثديها !!!

ماذا تفعل ؟

وجعل يتلبط ... يضرب بنفسه الأرض ...

وكلما نظرت إليه ازدادت رعبا وفزعا وهلعا ...

ثم ماذا ؟

ثم خفت صوت الرضيع ... وضعفت انفاسه ... وجعل يقترب من الموت ...

هنالك استبد الفزع بأمه ... ولم تستطع أن تنظر إليه يموت بين يديها ...

« فانطلقت » ... « كراهية » ... « أن تنظر إليه » ...

انطلقت كالمجنونة أو أشد جنونا ...

ان ابنها يعانى سكرات الموت ... ولاتستطيع أن تراه وهو يموت !!!

ثم ماذا ؟

وبالاوعى ... وفى حركة لاارادية ... كانت قد ارتفعت على أعلى مكان وأقربه إليها ...

« فوجدت الصفا ، أقرب جبل فى الأرض يليها » ...

انها متلهفة ... انها تريد أن تأتيه بما ينقذه من الموت فورا ...

« فقامت عليه » ... فوقفت على الصفا ...

« ثم استقبلت الوادى » ثم نظرت إلى الوادى العميق ...

« تنظر هل ترى أحدا ؟ » كيف كانت أم اسماعيل فى تلك اللحظة ؟

الله وحده ... هو الذى يعلم حقيقة احساسها ... وهى ترجو ان ترى أحدا يأتيها ولو بقطرة ماء واحدة ...

« فلم تر أحدا » ... كان الوادى من جميع جهاته خاليا ...

وانطفأ الأمل الذى أشرق فى وجودها ...

« فهبطت من الصفا ... حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها » ... لماذا ؟... مخافة ان يمنعها الملبس من سرعه الحركة ...

انها تريد أن تلغى الزمان والمكان ... لتنقذ طفلها من الموت !!

ثم ماذا ؟

ثم ... « ثم سعت سعى الإنسان المجهود » ... انها متعبة ... قد اعياها التعب .. والجوع ... والخوف ... والفزع ... ان كيانها يوشك أن ينهد وينهار ...

ولكن شدة فزعها على طفلها هو الذى يحركها ويدفعها ...

وباللاوعى ... وباللاإراده ... وجدت نفسها ترتفع على المروة ... وتقوم عليها ... وتنظر هل ترى أحدا ؟ ...

فلم تر أحدا ؟ ...

يأس تام من الخلق ... لاوجود لأحد من الإنس ... أوغير الإنس ...

لقد تقطعت الاسباب كلها ...

ثم ماذا ؟ ...

« ففعلت ذلك سبع مرات » ... تسعى إلى الصفا ... ثم ترتفع عليه ... ثم تنظر ... ثم لاترى أحدا ... ثم تهبط إلى الوادى وتسعى ... ثم ترتفع على المروة .. ثم تنظر ... ثم لاترى أحدا ...

لقد بلغ بها الاعياء اقصاه ...

وبلغ الفزع اقصاه ...

وكان الاعياء يشدها الى التوقف ....

بينما الفزع يرغمها على الحركة والبحث ...

فكانت تتحرك باللاوعى ... وتسعى باللاارادة ...

خلود مافعلته أم اسماعيل ؟!

وكانت تجربة ... عليا ... من تلك التجارب ... الرهيبة ... التى يختبر الله تبارك وتعالى بها من اصطفى من عباده ...

تجربة عاشتها أم اسماعيل... وانصهرت فيها ...

ورأت من اعماقها كيف تتقطع الاسباب كلها ... وكيف تنهار القوى البشرية من اساسها ... وكيف ترى الحياة تزول عن ابنها بعينيها !!.

وتعظيما لتلك التجربة ...

واجلالا لها ...

وتخليدا لرموزها ...

وتكريما لأم اسماعيل ... فرض الله تبارك وتعالى على الناس جميعا أن يفعلوا مثل مافعلت ام اسماعيل ... فيسعوا مثل سعيها ...

فقال جل جلاله : « إنَّ الصَّفا والمروَةَ منشعائر اللهِ ، فمن حجَّ البيتَ ، أواعتَمَرَ ، فلا جُناحَ عليهِ أن يطَّوَّفَ بهما، ومن تطوَّعَ خيراً فإن اللهَ شاكِرٌ عليمٌ » [البقرة ١٥٨]

« من شعائر الله » جمع شعيرة وهي العلامة .

والمراد بهما أعلام المتعبدات أو العبادات .

والمعنى . إن الطواف بين هذين الجبلين من علامات دين الله تعالى .

« فمن حج البيت أو اعتمر » الحج لغة القصد مطلقا ، والعمرة الزيارة كان الزائر يعمر المكان بزيارته .

« فلاجناح عليه أن يطوف بهما » أى لاإثم عليه فى أن يطوف بهما

وقيل : ان الطواف سنة .

وقيل : ركن

وسبب النزول : « أنه كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له أساف .

وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة .

زعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما .

فلما طالت المدة عبدا من دون الله تعالى ، فكان اهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين .

فلما جاء الاسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية »

« ومن تطوع خيرا » من فعل خيرا أى خير كان يثاب عليه .

« فإن الله شاكر » أى يجاز على الطاعة بالثواب ، وفى التعبير به مبالغة فى الإحسان إلى العباد ...

« عليم » مبالغ فى العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئا .

وهكذا ... جعل الله تعالى الصفا والمروة والسعى بينهما سبعا ... كما فعلت هاجر ... من شعائر الله ...

من علامات دينه ...

وطلب من كل من حج البيت أو اعتمر أن يفعل مثل ما فعلت !!!

فأى خلود ، وأى تعظيم ... وأى اكبار أكبر من ذلك ؟

« قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فذلِكَ سَعْىُ الناسِ بينهما . . »

[البخارى]

إن الله يخلد فعلة أم اسماعيل ...

وإن رسوله يخلد فعلتها ...

وإن الناس جميعا مازالوا يخلدون تلك الفعلة ، كلما حجوا البيت أو اعتمروا !

كيف ظهر الماء ؟!

« فلمَّا أشْرَفتْ على المرْوةِ سمِعَتْ صوْتاً

« فقالَتْ : صَه

« تُريدُ نفسَها

« ثمَّ تَسَمَّعَتْ

« فسَمِعَتْ أيْضاً

« فقالَتْ : قدْ أسْمَعْتَ إنْ كانَ عِنْدكَ غُواثٌ

« فإذا هي بالمَلَكِ ، عندَ موضِعِ زَمْزَمَ

« فبَحثَ بعَقبهِ

« أو قال : بجَناحِهِ

« حتى ظَهرَ الماءُ

« فجَعَلَتْ تحَوِّضُهُ ، وتقولُ بيَدِها هكذا

« وجعلَتْ تَغْرِفُ من الماءِ في سِقائِها

« وهْوَ يَفورُ بَعْدَ ما تَغْرِفُ

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يَرْحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ لو تَرَكَتْ زمزَمَ

« أو قال : لو لَمْ تَغْرِفْ منَ الماءِ لـكانَتْ زَمزَمُ عيْناً مَعيناً ... »

[البخاري]

«فقالت :صه » والمعنى لما سمعت الصوت قالت لنفسها صه ، أي اسكتي .

وفى رواية : فقالت : أغثنى ان كان عندك خير .

« ثم تسمعت » أى تكلفت فى السماع واجتهدت فيه .

« قد أسمعت » من الاسماع .

« غواث » ان كان عندك غواث أغثنى .

« فاذا هى بالملك » وفى رواية : فاذا جبريل .

وفى حديث : فناداها جبريل ، فقال : من أنت ؟ . قالت : أنا هاجر : أم ولد ابراهيم .

قال : فالى من وكلكما ؟ . قالت : إلى الله .

قال : وكلكما إلى كاف .

« فبحث بعقبه » البحث طلب الشيء فى التراب ، وكأنه حفر بطرف رجله .

« أو قال بجناحه » شك من الراوى ، ومعنى قال بجناحه أشار به .

وفى رواية : فقال بعقبه هكذا ، وغمز عقبه على الأرض

وفى رواية : فركض جبريل برجله

وفى حديث على : ففحص الأرض باصبعه فنبعت زمزم .

« حتى ظهر الماء » وفى رواية : ففاض الماء .

وفى رواية : فانبثق أى تفجر

« وجعلت تحوضه » أى تجعله كالحوض لئلا يذهب الماء

وفى رواية : فدهشت أم اسماعيل ، فجعلت تحفر

وفى رواية : تحفن

وفى رواية : فجعلت تفحص الأرض بيدها

« وتقول بيدها » هكذا ، هو حكاية فعلها ، وهذا من اطلاق القول على الفعل

« عينا معينا » عينا جارية ، وهو الماء الذى يجرى على وجه الأرض .

«وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يرحمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ ، لولا أنها عجِلت ، لكانَ زمزَمُ عيناً معيناً .» [البخارى]

« رحم الله أم إسماعيل » هى هاجر وقصتها ملخصة ...

« أن سارة زوج ابراهيم عليهما الصلاة والسلام حلفت أن لا تساكن هاجر .

« فحملها ابراهيم واسماعيل معها إلى مكة ...

« وموضع البيت يومئذ ربوة

« فوضعهما موضع الحجر ، ثم انصرف

« فاتبعته هاجر فقالت : إلى من تكلنا ؟ فالله أمرك بهذا ؟

« قال : نعم

« فقالت : اذن لا يضيعنا

« ثم انصرف راجعا إلى الشام

« وكان مع هاجر شنة ماء ، وقد نفد ، فعطشت وعطش الصبى

« فقامت وصعدت الصفا فتسمعت هل تسمع صوتا ، أو ترى إنسانا ، فلم تسمع صوتا ولم تر أحدا ،

« ثم ذهبت إلى المروة ، فصعدت عليها ، وفعلت مثل ذلك فلم تزل تسع بينهما حتى سعت سبع مرات

« وأصل السعى من هذا

« ثم سمعت صوتا ، فجعلت تدعو : اسمع ايل ، يعنى اسمع يا الله ، قد هلكت ، وهلك من معى

« فإذا هى بجبريل — عليه السلام — فقال لها : من أنت ؟

« قالت : سرية ابراهيم ، تركنى وابنى ههنا

« قال : إلى من وكلكما ؟

« قالت : إلى الله تعالى

« قال : وكلكما إلى كاف

« ثم جاء بهما إلى موضع زمزم ، فضرب بعقبه ، ففارت عينا

« فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل — عليه السلام —

« فلما نبع الماء أخذت هاجر شنتها ، وجعلت تستقى فيها ، تدخره ، وهى تفور

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل ، لولا أنها عجلت لكانت زمزم عينا معينا » أى سائلا جاريا على وجه الأرض .

تلك هى الأقصوصة الرائعة التى خلدها الله تبارك وتعالى ... وجعلها آية للعالمين ...

فلما بلغت هاجر آخر مدى من فقد الأمل ... فلما أشرفت على المروة ... وقد انتهت من السعى سبعا ...

سمعت صوتا ؟ ... أى صوت هذا ؟ ... إنه صوت الملاك ...

فقالت لنفسها : اسكتى

ثم جعلت تتكلف السماع والإنصات فى لهفة ...

فسمعت أيضا ... أى سمعت نفس الصوت الذى سمعته أول مرة ...

فقالت : قد أسمعت ... إن كان عندك غوات أغثنى ...

إنها لاتريد من هذا الصوت إلا أن يغيثها ... ويغيث ابنها ...

ثم فوجئت بجبريل — عليه السلام — عند موضع زمزم ...

ثم كانت المفاجأة الكبرى أن جبريل مس الأرض بجناحه ... فتفجر الماء !!!

فدهشت أم اسماعيل ... حيث كان هذا آخر ماتفكر فيه ...

واندفعت نحو الماء المتفجر ... تضنع من حوله حوضا ... مخافة أن يذهب سدى فى الرمال !!!

وجعلت تملأ سقاءها الصغير !!

وشربت أم إسماعيل ... وعادت إليها الحياة من جديد ...

وجرى اللبن فى ثديها ... وجعلت تلقمهما صغيرها ...

وهو يمصهما ... فرحا بعودة الحياة إلى شرايينه !!!

وكان أشد ماأثار عجبها أن الماء لم ينفد ...

وأن العين استمرت تعطى ماءها الحلو ... الجميل !!!

إن الله لا يضيع أهله ؟!

« ... قال ... فشَرِبَتْ ، وأرْضَعَتْ ولدَها

« فقال لها المَلَكُ : لاتخافوا الضَّيعةَ

« فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ ، يبْنيهِ هذا الغلامُ

« وأبوهُ

« وإنَّ اللهَ لا يُضَيِّعُ أهلَهُ

« وكانَ البيتُ مُرْتَفِعاً من الأرضِ ، كالرَّابيةِ ، تأتيه السيولُ ، فتأْخُذُ عنْ يمينه وشمالِهِ ... » [البخارى]

« لاتخافوا الضيعة » أى الهلاك ويروى : لا تخافى

وفى حديث أبى جهم ، فقالت : بشرك الله بخير

وفيه أن الملك يتكلم مع غير الأنبياء — عليهم السلام —

« يبنى هذا الغلام » وفى رواية : يبنيه

« كالرابية » وهو المكان المرتفع

لقد كان منظرا عظيما ...

أن جلست أم اسماعيل وقد بلغ بها السرور أقصى غاياته ... بعد أن بلغ بها الحزن أقصى غاياته ...

جلست هادئة ... بعد أن كانت فزعة مذعورة ... ترضع ولدها ...

وكان أجمل مافى هذا الموقف أن جبريل — عليه السلام — انطلق يطمئنها ... ويحدثها ...

فقال : لا تخافوا الضيعة ... لا تخافوا الهلاك ....

ثم نبأها بماسيكون فقال : فإن هاهنا بيت الله ...

« يبنيه هذا الغلام » ... فكان ذلك لها عجبا !!

هذا الرضيع يبنى هاهنا بيتا لله ؟!

ولكن هاهو جبريل — عليه السلام — يؤكد ذلك ، ويشير إلى الرضيع !!!

ثم حدد جبريل القضية ... حين قال ... « وأبوه » ...

إن ابراهيم ، وإسماعيل ، سوف يبنيان بيتا لله !!!

إذن هذا الرضيع سوف يكبر ، حتى يستطيع أن يبنى ذلك البيت مع أبيه !!!

ثم أعلن إليها جبريل — عليه السلام — أجمل بشرى يمكن أن تسمعها ... « وإن الله لا يضيع أهله » !!!

ناموس الهى يذيعه جبريل ... إن الله لايهلك أهله ... لا يضيع الذين يعملون له ومن أجله وحده ... كما حفظوه يحفظهم ... وكما صدقوه يصدقهم ...

ونزلت كلمات جبريل عليه — عليه السلام — على فؤاد أم اسماعيل بردا وسلاما ...

إن لها أن تطمئن ... إلى حياتها ، وحياة رضيعها ...

وإن لها أن تأمل فى ذلك اليوم الذى سوف ترى فيه اسماعيل شابا يعين أباه على بناء البيت ...

وإن لها أن تدع شأنها كله لله .... يدبره ... ويحكمه كيف يشاء ...

أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟!

« فكانت كذلك

« حتى مرّتْ بهم رُفْقةٌ من جُرْهُمَ

« أو أهلُ بيت من جُرْهُمَ

« مُقبلينَ من طريق كَدَاء

« فنزلوا فى أسفَل مكةَ ، فرأوْا طائراً عائفاً

« فقالوا : إنَّ هذا الطائِرَ ليدورُ على ماء

« لَعَهْدُنا بهذا الوادى ومافيه ماء

« فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَيْنِ

« فإذا هم بالماء

« فرجعوا فأخبرُوهُمْ بالماء

« فأقبلوا

« قال : وأمُّ إسماعيلَ عندَ الماء

« فقالوا : أتأذَنينَ لنا أن ننزلَ عندَك ؟

« فقالت : نَعَمْ ، ولكن لا حَقَّ لكمْ فى الماء

« قالوا : نَعَمْ

« قال ابن عباسٍ : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فألْفَى ذلِكَ أم اسماعيلَ ، وهيَ تحِبُّ الإُنسَ

« فنزلوا . وأرسلوا الى أهْلِيهِمْ ، فنزلوا معهُمْ

« حتى اذا كان بها أهلُ أبْياتٍ منهُمْ

« وشبَّ الغُلامُ

« وتعلَّمَ العربية منهم

« وأنفَسَهُمْ وأعْجَبَهُمْ ، حين شبَّ ... » [البخارى]

« من جرهم » حى من اليمن . وهو ابن قحطان ، بن عابر ، بن شالخ ، بن ارفخشذ ، بن سام ، بن نوح — عليه السلام —

وكانت جرهم يومئذ بواد قريب من مكة .

« أو أهل بيت من جرهم » شك من الراوى

« مقبلين » متوجهين

« من طريق كداء » محل فى أعلى مكة أى داخلين من الجهة العليا

« عائفاً » هو الذي يتردد على الماء ، ويحوم حوله ، ولا يمضي عنه

« عهدنا » اللام للتأكيد

« فأرسلوا جريا » أى رسولا

« أوجريين » شك من الراوي ، هل أرسلوا واحدا أو اثنين ؟

« فإذاهم بالماء » كلمة إذا للمفاجأة

« فأقبلوا » أى جرهم ، اقبلوا إلى جهة الماء

« وام اسماعيل عند الماء » أى كائنة عند الماء مستقرة

« فقالت : نعم » أى قالت أم اسماعيل : نعم أذنت لكم بالنزول

« فالفى ذلك » أى وجد ذلك الجرهمى أم اسماعيل محبة للمؤانسة بالناس

وقال بعضهم : فألفى استئذان جرهم بالنزول أم اسماعيل والحال أنها تحب الانس ، لأنها كانت وحدها ، واسماعيل صغير ، والوحشة متمكنة

وشب الغلام » اى اسماعيل — عليه الصلاة والسلام —

وفى حديث ابى جهم : ونشأ اسماعيل بين ولدانهم اى ولدان جرهم

« وتعلم العربية منهم » اى من جرهم

ومن حديث ابن عباس : « أول من نطق بالعربية اسماعيل » ...

أى أول من تكلم بالعربية من أولادابراهيم اسماعيل — عليهما السلام — لان ابراهيم وأهله كلهم لم يكونوا يتكلمون بالعربية .

« وانفسهم » أى رغبهم فيه وفى مصاهرته

واعجبهم » اى اعجبهم فى نفاسته ، وصار عندهم نفيسا .

وهكذا ... كانت تلك هى البداية ... بداية المجتمع حول زمزم ...

وبداية تلك الافئدة من الناس تهوى اليهم ...

لقد اجتذب الماء إليه أولئك الناس ...

ليكونوا لأم اسماعيل أنسا ولابنها مجتمعا ينشأ فيه !!!

إنى أرى أنى أذبحك؟!

وشب اسماعيل ... غلاما فيه كل مافى ابراهيم من امتياز ...

ومافى الصحراء من فتوة وصفاء ...

يشير إلى ذلك ماجاء فى الحديث السابق « وشب الغلام ، وأنفسهم ، وأعجبهم » ...

أى انه أثار اعجابهم ، ورغبوا فى مصاهرته ... رغبة شديدة ؟ .

لماذا ؟ ...

لأن اسماعيل فيه سر أبيه ... سر ابراهيم ...

فيه الحقيقة الأبراهيمية تتلألأ ...

ثم هو رضيع تربى فى الصحراء ...

ثم هو خلق ليكون نبيا رسولا ... فمن الحتم أن يكون ممتازا ...

غلام لايراه أحد إلا أحبه كأنما كان فيه تحقيق قوله تعالى « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى »

ثم هو وحيد أبيه ... ابراهيم ... منّ الله عليه به استجابة لدعائه « رب هب لى من الصالحين » ...

ثم هو عند أبيه قرة عين له ...

ثم هو يحبه حبا شديدا ، لما يرى فيه من انوار النبوة ، وجمال الرسالة ...

فهو يراه تحقيقا لآماله ، يحمل صفاته ، ويحمل رسالته ...

وحين يرى الأب فى ابنه تحقيق آمانيه يزداد له حبا ، ويزداد فيه رغبة ...

وترعرع الغلام ... حتى بلغ مبلغ السعى ...

ولنسمع الآن إلى الله تعالى يسجل الواقعة ...

قال تعالى : « فلما بلغَ معهُ السَّعْيَ قالَ : يابنيَّ إنِّي أرى في المنام أنِّي أذبحك

فانظرْ ماذا ترى؟ قالَ : ياأَبت افعَلْ ماتؤمَرُ، ستجدُنى إن شاء الله من الصابرين».

[الصافات ١٠٢]

« فلما بلغ معه السعى » أى فوهبناه له ، ونشأ ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه فى أشغاله وحوائجه .

ويكون حاصل المعنى بلغ عند أبيه ، وفى صحبته ، متخلقا بأخلاقه ، متطبعا بطباعه ، ويستدعى ذلك كمال محبة الأب أياه

وفيه بيان استجابة دعائه

وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنة ...

والولد أحب مايكون عند أبيه فى سن يقدر فيه على اغاثة الأب ، وقضاء حاجه ، ولا يقدر فيه على العصيان

« قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » ... .

رأى ليلا ... كأن قائلا يقول : إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك ...

ولعل السر فى كونه مناما لايقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والاخلاص .

وقيل : كان ذلك فى المنام دون اليقظة ليدل على أن حالتى الأنبياء يقظة ومناما سواء فى الصدق .

« فانظر ماذا ترى ؟ » من الرأى .

وإنما شاوره فى ذلك وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل ...

فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه ، ، فيهون عليه ، ويكتسب المثوبة بالإنقياد لأمر الله تعالى عند نزوله ، وليكون سنة فى المشاورة ...

« قال : ياأبت افعل ماتؤمر » أى الذى تؤمر به ...

ولما كان خطاب الأب (يابنى) على سبيل الترحم ...

قال هو (ياأبتِ) على سبيل التوقير والتعظيم...

« ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » على قضاء الله تعالى ذبحا كان أوغيره .

وقيل : على الذبح

وقوله « من الصابرين » فيه من التواضع مافيه .

وفيه أيضا إغراء لأبيه على الصبر ، لما يعلم من شفقته عليه مع عظيم البلاء ، حيث أشار إلى أن لله تعالى عبادا صابرين .

ما هذا ؟!!!

لا يستطيع إلا الله ... أن يقدر ابراهيم فى هذا المقام ...

ولا يستطيع إلا الله ... أن يقدر اسماعيل فى هذا المقام ...

إنه شيء فوق طاقاتنا جميعا ... مهما أوتينا من ايمان ... أو إدراك ... أو فهم ... أوعلم ... أوارتفاع ... أو الهام ...

لن نستطيع أن نصل إلى شيء من مقامهما ... وهما يختبران ...

أب ... كبير السن ... رزقه الله غلاما ... بعد يأس من النسل ...

ولم يرزقه غيره ... فهو كل أمله فى حياته ...

ليس هذا وحده ...

بل جاء الغلام وفيه كل الصفات العليا الظاهرة ... والباطنة ... التى يمكن أن يرتفع إليها إنسان ...

فهو عظيم فى صورته ...

عظيم فى صفاته ...

عظيم فى حقيقته ...

وما ظنك بغلام فيه صفات خليل الرحمن ... ابراهيم ؟!

أو ماظنك بغلام كان من ابراهيم ...

بعدما اعتزل كل شيء ... وآوى إلى الله ؟!

وإلى ذلك المعنى تشير الآيات « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام انى أذبحك ... »

إنى ذاهب إلى ربى ؟!

بعد أن ارتفع ابراهيم إلى أعلى مقام يمكن أن يرتفع إليه نبى إلى ربه ...

دعاه : هب لى من الصالحين ...

كان ابراهيم فى قمة قربه من الله ...

دعاه ... وهو أقرب مايكون منه تعالى ...

هب لى من الصالحين .

فبشرناه ؟! ... بغلام ... حليم ؟!

فآتاه غلاما ... فيه نفس الصفات التى كانت متقررة فى ابراهيم وقت دعائه لله !!!

هذا هو سر إسماعيل ...

لقد جاء يحمل الحقيقة الإبراهيمية فى أعلى مقاماتها ... فى أعلى قمم ذهابها إلى ربها ...

فكيف يكون هذا الغلام ؟!!

ثم ماذا ؟

ثم يأتى البلاء !!!

فماذا حدث ؟!

يرى ابراهيم فى منامه أن الله يأمره أن يذبح ابنه ...

ويفكر ابراهيم فى الأمر ...

ثم يعود فيرى أن الله يأمره أن يذبح ابنه ...

ويفكر ابراهيم فى الأمر ...

ثم يعود فيرى أن الله يأمره أن يذبح ابنه ...

اذن الأمر يراد به هذا الغلام الوحيد ...
هذا الـ « اسماعيل » ...
ويتجه ابراهيم إلى حيث يقيم إسماعيل مع أمه ...
فى وادى مكة ...
ثم يكون حوار ... بين أب وابن ...
لم ... وان . . تشهد البشرية ... مثله قط !!!

افعل ما تؤمر ؟!

لم يكن ذلك الحوار ... طويلا ... ولا كلاما كثيرا ...
كلا ... ولا يشهده أحد من الناس ...
وإنما ... كانا وحدهما ... يعانيان تجربتهما ... وحدهما ...
وكما ارتفعا إلى مقامهما ... وحدهما وتركا الناس بعيدا ...
فانهما باشرا تجربتهما وحدهما ... وتركا الناس بعيدا ...
وهاهو أقصر حوار ...
وأخطر حوار ...
فى تاريخ البشر ...

ابراهيم — يابنى ... إنى أرى فى المنام ... أنى أذبحك — فانظر ماذا ترى ؟
إسماعيل — ياأبت ... افعل ... ما تؤمر ... ستجدنى ... ان شاء الله ... من الصابرين .

هذا هو أقصر ، وأخطر ، وأكبر حوار فى تاريخ الإنسان ...
إنه أقصر ... لأنه من جوامع الكلم التى لايستطيعها الا الأنبياء .
وأخطر ... لأنه حقيقة ابراهيم ، خليل الرحمن ، تتحدث الى حقيقة اسماعيل ... التى هى امتداد الحقيقة الأولى !!!

انه نور يتحدث الى نور !!!

وانه أكبر ... لأن فيه من كبريات المعانى ، وعظائم الأسرار مالا يعلمه الا الله تعالى !!!

ثم ماذا ؟

ثم يكون ذلك الحوار ... فى وحدة ... بعيدا عن أعين الناس جميعا ...

ليجتمع له شرف الاخلاص الظاهر ... كما تحقق فيه من قبل شرف الاخلاص الباطن ...

قال الأب : يابنى ...

فنظر الغلام الى أبيه نظرة كلها حب ورحمة وتوقير ...

وانتظر ماذا يقول له أبوه ...

قال الأب : انى أرى فى المنام أنى أذبحك !!!

شيء لايتصوره العقل ... أب يقول لابنه انى أرى فى نومى أن أذبحك !!!

ولمن ؟ ... لابنه ...

وفى أى سن كان ذلك الإبن ؟ ... فى الثالثة عشر ... سن الاشتغال بحب الدنيا والرغبة فى الاستمتاع بها ...

فلو أن أبا ... أياما كان ذلك الأب ... قال ذلك لابنه ... تعال يابنى لأقتلك ذبحا ... لرمى الإبن أباه بالجنون ... أوسارع إلى أبيه إذا أصر على قتله ليقتله قبل أن أن يمد إليه يده !!

ولقال الناس : دفاع عن النفس مشروع !!

ولكن إسماعيل ... الغلام الحليم ... كان له رد عظيم ...

يخالف كل مايمكن أن يصدر عن غلام فى مثل ذلك الموقف الرهيب ...

قال — يا أبت ...

عظم أباه ... ووقره ... لم يرمه بجنون ، ولا خبال ... وإنما عظمه وأكبره !!!

افعل ما تؤمر !!

لا تتردد ياأبتى ... نفذ ماأمرك الله ...

غلام ... صغير ... لم يكتمل عقله بعد ... يكون منه هذا الرد العجيب ...

وفيمن ؟... فى شيء من أخص خصائصه ...

فى شيء يتعلق بوجوده ...

انه يوافق على أن يذبح ... بل ويدفع أباه دفعا إلى التنفيذ ...

بل ويرتفع أكثر فأكثر ... فيقول : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ؟!!

هل هذا المنطق المحكم فى طاقة طفل ؟!

كلا ... ولكنها النبوة تتكلم ...

إنه يغلق كل مداخل التردد على أبيه ... ان كنت ياابتى تأخذك الشفقة علىّ ، فسوف تجدنى عند الذبح من الصابرين عليه ...

إن شاء الله ؟ ... كلة العارفين بالله ...

فكيف بالنبوة .. أعلى مقامات المعرفة بالله ؟!

وما كان بابراهيم تردد ... وحاشاه ...

وإنما يردد إسماعيل عليه ذلك التأكيد من نفسه ، عن نفسه ، ليدفعه دفعا إلى تنفيد أمر ربه !!!

ذلك هو الحوار القصير ، الخطير ، الكبير ...

الذى كان بين ابراهيم وإسماعيل ...

ولا استطيع أن أقول فيه ... إلا أن أكرر مقالى ...

ذلك مقامهما وحدهما ... لايستطيعه أحد سواهما ...

ولا يعلمه إلا الله الذى خلقهما وأرسلهما ...

ولا أقول فيه إلا أن أدعو البشر جميعا ... أولئك الذين غشاهم الظلام طويلا ...

ليتأملوا ... ويتفكروا ... ويتدبروا ... ثم يخروا سجدا ... وبكيا ... وهم يرددون ..
سلام على ابراهيم ... سلام على إسماعيل ...

فلما أسلما ؟!

ثم يقول تعالى : « فلمَّا أسْلَمَا ، وتَلَّهُ للجَبينِ . » [الصافات ١٠٣]

« فلما أسلما » أى فوضا إليه تعالى ، فى قضائه وقدره .

« وتله للجبين » صرعه على شقه ، فوقع جبينه على الأرض

وقيل : المراد كبه على وجهه ، وكان ذلك باشارة منه .

عن مجاهد : انه قال لأبيه : لاتذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى عسى أن ترحمنى ، فلا تجهز على ، اربط يدى إلى رقبتى ، ثم ضع وجهى للارض ، ففعل ، فكان ما كان .

وفى خبر للسدى ... انه قال لأبيه — عليهما السلام — ياأبت اشدد رباطى حتى لا اضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لاينتضح عليها من دمى شىء ، فتراه أمى ؛ فتحزن . وأسرع مر السكين على حلقى ، فيكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمى ، فاقرأ عليها السلام منى ، فأقبل عليه ابراهيم يقبله ، وكل منهما يبكى ...

وعن ابن عباس : انه قال لابيه ، وكان عليه قميص ابيض : ياأبت ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه ، فعالجه ليخلعه ، فكان ماقص الله عزوجل.

وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى .

وقيل : فى المنحر الذى ينحر فيه اليوم .

ماهذا ؟!!

هذا شىء لايستطيع انسان حين يفكر فيه أن يحبس عينيه عن البكاء ... طويلا ...

فلما اسلما ؟ !!!

فلما اسلم ابراهيم لربه ... ولما اسلم اسماعيل لربه ...

الاثنان ... الأب ... والابن ... اسلما لربهما ...

استسلم ابراهيم لأمر ربه ... وايقن أن ذبح ابنه ... ووحيده ... أمر حتمى ... لابد من تنفيذه ...

واستعد لتنفيذ ماأُمر ...

فلما عرض ابراهيم الأمر على ابنه ... الذى هو موضوع التجربة : فانظر ماذا ترى ؟

كان استسلام الابن لأمر الله اعجب من استسلام الأب لأمره : افعل ما تؤمر ...

فلما أسلما ؟!

ألقيا بنفسيهما إلى الله ... يفعل بهما مايشاء ...

الأب هو الذابح ...

والابن هو المذبوح ...

وكلاهما استسلم لله !!!!

لاتردد ، ولاخوف ، ولا ريبة ، ولا شك ...

وإنما استسلام مطلق ...لله ...

قال تعالى: « إذ قالَ لهُ ربُّهُ : أسْلِمْ ، قال : أسلَمْتُ لربِّ العالمينَ » [البقر ١٣١]

وقال تعالى : « وإبراهيمَ الذى وَفّى » [النجم ٣٧]

وأى توفية اكبر من هذا ؟!

وأى اسلام اعظم من هذا ؟!

الله يقول : اذبح ابنك ياابراهيم ...

وابراهيم يقول : نعم نعم ... اذبح ابنى !!!

لعل هذا من معنى قوله : أسلم ، قال أسلمت ...

اذبح ... قال : ذبحت !!!

وتله للجبين ؟!

نحن الآن فى اصدق عمل يمكن أن يقدمه انسان لربه ...

نحن الآن فى أشق تجربة مرت على انسان فى الوجود ...

نحن الآن أمام ابراهيم يخرج من وادى مكة ... حيث زمزم ... حيث يقيم اسماعيل الغلام العظيم ... مع أمه ... هاجر ...

يخرج ابراهيم ... وفى صحبته ابنه اسماعيل ...

وتلك الأم الطيبة ... الطاهرة ... تنظر إلى زوجها وابنها فى يده نظرة كلها اعجاب وحنان وأمل ...

ولاتظن الا أن ابراهيم قد خرج بابنه كما يخرج الآباء بابنائهم ... لقضاء شأن من شئون الحياة ...

ثم لا يلبثا أن يعودا اليها لتقر بهما عينا ... ويملآ حياتها بهجة وسرورا ...

خرج ابراهيم ... ومعه اسماعيل ...

وكلاهما يعلم لماذا خرج ؟

واسماعيل يعلم أنه خرج مع ابنه ليقوم ابوه بذبحه !!!

وهنا نردد قوله تعالى : فلما أسلما ...

نرددها كثيرا ... لعلنا نرتفع إلى مستوى يسمح لنا أن ندرك شيئا عن التجربة ...

ومشى الأب ومعه الابن ...

ومازالا يمشيان ... حتى جاوزا مكة ... نزلا بمنى ...

كيف كان شعور ابراهيم فى تلك اللحظات الأخيرة التى يصطحب فيها ابنه ؟

وكيف كان شعور اسماعيل فى تلك اللحظات الأخيرة التى يصطحب فيها أباه ؟!

الله وحده ... هو الذى يعلم ما كان فى فؤادهما ...

وهنا نردد قوله تعالى : « وكنابه عالمين » ...

هو وحده الذى كان يعلم مافى قلبه ، وما فى قلب اسماعيل !!!

ولوانفتح لنا ادنى اشعاع مما كان يتذبذب من فؤادهما ، ويتموج مرتفعا إلى ربهما ...

لاحترقت قلوبنا جميعا ... مما فيه من نور شديد ...

وفى منى ...

فى تلك الصحراء الخالية ... حيث لا انسان ... ولا ماء ... ولا شيء ... فى ذلك المكان ... وقع قوله تعالى «وتلّهُ للجبين» ؟!

أى صرع ابراهيم ابنه اسماعيل على شقه ، فوقع جبينه على الأرض

أو كبه على وجهه ، وكان ذلك باشارة من اسماعيل !!!

ان ابراهيم الآن يباشر التجربة ... انها لحظة التنفيذ ... ان الأب قد اضجع ابنه للذبح ... اضجعه وجبينه للأرض ...

وأخرج ابراهيم السكين ، وهوى بها على عنق اسماعيل يذبحه ... !!!!!!!

ونادیناه ... أن ... یاابراهیم ؟!

قال تعالى : « ونادَيْنَاهُ أنْ ياابراهيمُ . قد صدَّقتَ الرُّؤيا ، إنَّا كذلك نجزى المحسنينَ . إنَّ هذا لهُوَ البلاءُ المبينُ ». [الصافات ١٠٤ — ١٠٦]

« وناديناه أن ياإبراهيم » أن بمعنى أى .

وقرى : صَدَقْتَ

عن ابن عباس : لما أخذ الشفرة وأراد ان يذبحه . نودى من خلفه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا .

وروى : فلما أدخل يده ليذبحه ، فلم يحمل المدية حتى نودى ان ياابراهيم ، قدصدقت الرؤيا ، فأمسك يده .

وروى : فلما أدخل يده ليذبحه ، نودى أن ياابراهيم ، قدصدقت الرؤيا ، فأمسك يده ، ورفع رأسه فرأى الكبش ينحط اليه ، حتى وقع عليه فذبحه .

وروى أنه أمر السكين فانقلبت .

« قد صدقت الرؤيا » وتصديقه الرؤيا توفيته حقها من العمل ، وبذل وسعه فى إيقاعها ، وذلك بالعزم ، والاتيان بالمقدمات

وقيل : الاعتراف بوجوب العمل بها

وجواب « لما » محذوف مقدر ... أى كان ما كان ، مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به المقال من استبشارهما ، وشكرهما الله تعالى على ماأنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله ، والتوفيق لمالم يوفق غيرهما لمثله ، واظهار فضلهما ،مع احراز الثواب العظيم ، إلى غير ذلك .

« انا كذلك نجزى المحسنين » تعليل لافراج تلك الشدة ، المفهوم من الجواب المقدر

«إن هذا لهو البلاء المبين» اى الابتلاء والاختبار البين، الذى يتميز فيه المخلص من غيره.

أو المحنة البينة ، وهى المحنة الظاهرة صعوبتها ، وماوقع لاشىء أصعب منه ،ولا تكاد تخفى صعوبته على أحد .

ولله عز وجل أن يبتلى من شاء بما شاء ، وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد .

وفديناه ... بذبح عظيم ؟!

قال تعالى : « وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عظيم » . [الصافات ١٠٧]

« وفديناه بذبح » بحيوان يذبح بدله .

« عظيم » أى عظيم الجثة ، سمين ، وهو كبش أبيض أقرن ، أعين

وقيل : وصف بالعظم لأنه متقبل يقينا

وقال الحسن : لأنه كان من عند الله عز وجل .

وقيل : لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين .

وقيل : لأنه جرت السنة به ، وصار دينا باقيا آخر الدهر .

عن ابن عباس : أنه خرج عليه كبش من الجنة ... فارسل ابراهيم عليه السلام ابنه ، واتبعه ، فرماه بسبع حصيات ، وأحرجه عند الجمرة الأولى ، فافلته ، ورماه بسبع حصيات ، وأحرجه عن الجمرة الوسطى ، فافلت، ورماه بسبع حصيات ، وأحرجه عند الجمرة الكبرى، فأتى به المنحر من منى فذبح .

وقيل هذا أصل سنية رمى الجمار

والمشهور أن أصل السنية رمى الشيطان هنالك .

فى خبر ، عن قتادة : أن الشيطان أراد أن يصيب حاجة من ابراهيم وابنه يوم أمر بذبحه ، فتمثل بصديق له ، فأراد أن يصده عن ذلك ، فلم يتمكن . فأتى الجمرة فانتفخ حتى سد الوادى ، ومع ابراهيم ملك فقال له : ارم ياابراهيم . فرى بسبع حصيات ، يكبر فى أثر كل حصاة. فافرج له عن الطريق . ثم انطلق حتى أتى الجمرة الثانية ،فسد الوادى أيضا ، فقال الملك : ارم ياابراهيم ، فرمى كما فى الأولى . وهكذا فى الثالثة » .

وتركنا عليه فى الآخرين؟!

قال تعالى : « وَتَرَكْنَا عليْهِ فى الآخِرِينَ » [الصافات ١٠٨]

تلك هى التجربة العظمى ...

ابراهيم يضجع ابنه ...

واسماعيل يستسلم ... ولا يقاوم ... وينتظر وقع السكين ... يحز عنقه ...

ابراهيم يمد يده بالسكين ويهوى بها على عنقه ...

فى تلك اللحظة الفاصلة ... التى تحقق فيها صدق ابراهيم ... وصدق اسماعيل ...

فى تلك اللحظة الرهيبة ...

ناديناه ... ناداه الله بنفسه ...

ياإبراهيم ... ياإبراهيم ...

صوت الله ينادى ابراهيم ... فدوى فى أعماقه ...

فالتفت ... فرفع يده عن ذبح الغلام ...

ودوى فى أعماقه فأصغى إلى الصوت الذى لايقاوم وهو يقول له: قد صدقت الرؤيا ...

قد ثبت الآن صدقك ياابراهيم ...

ثم أصغى فسمع الصوت يقول : إنا كذلك نجزى المحسنين ...

ثم أصغى فسمع الصوت يقول : إن هذا لهو البلاء المبين ...

ثم نظر فرأى المعجزة ... رأى كبشا عظيما ... قادما اليه ... من عند الله ...

فنهض الغلام لم يمسسه سوء ...

وأخذ ابراهيم الكبش العظيم ... وذبحه فداء لاسماعيل ...
ونحر ابراهيم ذلك الكبش بيده فى منى ...
فكان انفراجا للأزمة ... ودفعا للبلاء ...
وتتابعت المكافآت الالهية على ابراهيم ...
جزاء احسانه ... انا كذلك نجزى المحسنين ...
« وتركنا عليه فى الآخرين » أى ابقينا ذكره الجميل بين الأمم ...
أى خلدنا فعلته خلودا عظيما . وجعلناه شرفا يتغنى به الاولون والآخرون .
وأى شرف أعظم مما حصل لابراهيم واسماعيل .

سلام على ابراهيم ؟!

مكافأة أخرى ...
قال تعالى : « سلامٌ على إبراهيمَ » [الصافات ١٠٩]
أمان من الله لابراهيم ...
فى الدنيا والآخرة .
لماذا ؟ ... بما فعل...
بما أحسن... بما قدم ...
لذلك يقول بعدها مباشرة : « كذلك نجزى المُحسنينَ » [الصافات ١١٠]
جزاء احسانه ... جزاء صدقه ... جزاء اخلاصه ..
جزاء ايمانه ... الذى بلغ فيه الذروة ...
ولذلك يقول تعالى بعدها مباشرة .
« إنَّهُ مِنْ عبادِنا المؤمنينَ » [الصافات ١١١]
أى الكاملين فى الإيمان ... الذين بلغوا قمة الإيمان فى العالمين .
انها مكافآت الهية متتابعة ...

الأولى ... وتركنا عليه فى الآخرين ...

الخلود ... خلود الفعلة ... والذكر الجميل ... بين الناس أجمعين ...

الثانية ... كذلك نجزى المحسنين ... حتمية مكافأة المحسن... وأن ابراهيم قمة الاحسان فى البشر ...

الثالثة ... إنه من عبادنا المؤمنين ... اذعة الهبة ... على الناس كافة ... أن ابراهيم قمة الايمان فى البشرية ...

مكافآت ... عطايا ... قل ماشئت ... إنه الله تعالى يجزى ابراهيم ... أحسن الجزاء !!

لماذا كان هذا هو البلاء المبين ؟!

قال تعالى : « إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبينُ » ... [الصافات ١٠٦]

وذلك فى شأن الأمر بذبح اسماعيل ...

وقال تعالى «وإذْ نَجَّيْنا كُمْ منْ آلِ فرعونَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب، يذَبِّحونَ أبْناءَكُمْ ، ويَسْتَحْيونَ نساءَكُمْ ، وفى ذلِكُمْ بلاءٌ من ربِّكُمْ عظيمٌ » [البقرة ٤٩]

وذلك فى شأن تذبيح فرعون للابناء الذكور من بنى اسرائيل ...

وقال تعالى : « فانطلقا ، حتى إذا لَقِيَا غُلاماً فقتَلَهُ ، قالَ : أقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّة بغَيْرِ نفْسٍ ، لقَدْ جِئْتَ شيئاً نُكْراً » [الكهف ٧٤]

وذلك فى شأن الغلام الذى قتله الخضر ذبحا . حيث قيل أنه اقتلع رقبته !!

فماذا نستنبط من هذا ؟

فى قصة اسماعيل أمر بالذبح ...

ابتلاء لإبراهيم وإسماعيل فى آن ...

وفى قصة بنى اسرائيل ، يُسلط فرعون ، فيذبح أبناءهم ...

ابتلاء لبنى إسرائيل فى أبنائهم ...

وفى قصة غلام الخضر ... أمر إلى الخضر بذبح الغلام ... ابتلاء لأبويه « وما فعلته عن أمرى »

فماذا فى هذا ؟

فيه اشارات إلى أن الصدق فى تنفيذ أوامر الله يؤدى إلى النجاة والفوز العظيم ...

فحين صدق ابراهيم الرؤيا ... وذبح ابنه ...

أعفاه الله تعالى من ذلك البلاء ... وكافأه فى الدنيا والآخرة ...

وحين صبر بنو إسرائيل على ابتلائهم بيد فرعون ...

كانت المكافأة العظمى « ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا فى الأرض ، ونجْعَلَهُمْ أئمة ونجْعَلَهُمُ الوارثينَ . ونمكِّنَ لهُمْ فى الأرض ، ونُرِىَ فرعونَ وهامانَ وجُنودهما منهمما كانوا يَحْذَرونَ . » [القصص ٥ — ٦]

وحين ذبح الخضر الغلام ، وكان ذلك بلاء لأبويه المؤمنين ، أبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رشدا ... « وأما الغلامُ فكان أبواهُ مؤمنَيْنِ ، فخشينَا أن يُرْهِقهُما طُغياناً وكُفْرا . فأردْنا ان يُبْدِلَهُما ربهما خيْرا منْهُ زكاةً وأقْربَ رُحْماً »

[الكهف ٨٠ — ٨١]

اشارات ... أسرار الهية ... فى أفعاله .. وابتلائه لعباده ...

وكما أدى ابتلاء ابراهيم بذبح ابنه ... إلى رفعته فى الدنيا والآخرة ...

« وإذ ابتلَى ابراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ ، قال : إنى جاعلكَ للناس إماماً ...»

[البقرة ١٢٤]

وأى أمر ابتلى به ابراهيم فاتمه أكبر من أمره بذبح ابنه ؟!

فكان ذلك هو سبيله إلى امامة الناس جميعا ...

كذلك بنى اسرائيل ... ابتلوا بمن يذبح أبناءهم ... فكان ذلك سبيلهم إلى ميراث مشارق الأرض ومغاربها ...

فلما بدلوا ... ذلوا وهانوا وعوقبوا ...

وفى مقام ابراهيم ... أمرهو أن يباشر ذبح ابنه بنفسه ...

لأن ذلك شيء يناسب ابراهيم ...

أما فى مقام بنى إسرائيل ... فسلط عليهم من يذبح أبناءهم ... لأنهم لا يرقون إلى مقام مباشرة الذبح بأنفسهم ...

كما أن أبوى الغلام فى قصة الخضر ، سلط الخضر على الغلام فذبحه ، لأن أبويه لا يستطيعان ذبح ابنهما بأيديهما ...

وهنا يرتفع ابراهيم فوق البشر جميعا ... مقاماً عليا ...

فلا نعلم أن أحدا فى الناس ابتلاه الله بمثل ما ابتلى به ابراهيم ...

ولا نعلم أحدا أمر بذبح ابنه فامتثل وذبح غير ابراهيم ...

ومن هنا قال ابراهيم : انى جاعلك للناس إماما ...

ومن هنا نال ابراهيم : واتخذ الله ابراهيم خليلا ...

ومن هنا نال ابراهيم : وابراهيمَ الذى وَفى .

ومن هنا نال ابراهيم : وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن

ومن هنا نال ابراهيم : وتركنا عليه فى الآخرين .

ومن هنا نال ابراهيم : إنا كذلك المحسنين .

ومن هنا نال ابراهيم : إن هذا لهو البلاء المبين

ومن هنا نال ابراهيم : كذلك نجزى المحسنين ...

تأكيد بعد تأكيد بأنه سيجزى جزاء المحسنين .

ومن هنا نال : سلام على ابراهيم .

ومن هنا نال ابراهيم : إنه من عبادنا المؤمنين .

ومن هنا نال ابراهيم : وكنا به عالمين .

ونال ... ونال ... ونال ... وكان مما كافأه الله به بعد أن استبان صدقه ... فى ذلك البلاء المبين ...

وبعد أن وضح صدقه في التضحية بابنه ... ووحيده ... ليذبحه لله ...

كافأه بغلام ثان ... عظيم كعظمة الغلام الأول ...

فحفظ له غلامه الاول ... اسماعيل ... الذبيح ...

ليكون نبيا ورسولا إلى أمته ...

وليكون أصلا يتفرع منه فى نهاية أمره ...ذلك الذى هو خير الاولين والآخرين...

ذلك الذى نسميه محمدا ... صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ...

حفظ له غلامه الأول اسماعيل ...

وكافأه بغلام آخر ... اسمه ...

وبشرناه باسحاق ؟!

ولننظر إلى تسلسل الآيات الكريمة كيف تمضى ترتب الأمر على الأمر ، والسبب على المسبب : « إنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبينُ . وفدَيناهُ بِذِبحٍ عظيمٍ . وتَرَكنا عليهِ فى الآخِرينَ . سلامٌ على إبراهيمَ . كذلك نجزى المحسنينَ . إنَّهُ مِنْ عبادِنا المؤمنينَ . وبشرناهُ بإسحاقَ نبيّاً مِنَ الصالحينَ . وبَارَكْنا عليهِ ، وعَلَى اسحاقَ ، ومن ذريتهما مُحسِنٌ ، وظالمٌ لنفسِهِ مُبينٌ » .

[الصافات ١٠٦ — ١١٣]

« وبشرناه باسحاق نبيا » أى مقضيا كونه نبيا ، مقضيا كونه من الصالحين .

« من الصالحين » تعظيم شأن الصلاح ، وفى تأخيره إيماء الى أنه الغاية لها ، لتضمنها معنى الكمال والتكميل .

« وباركنا عليه » أى على ابراهيم عليه السلام .

« وعلى إسحاق » أى افضنا عليهما بركات الدين والدنيا بأن كثرنا نسلهما ، وجعلنا منهم أنبياء ورسلا .

« ومن ذريتهما محسن » فى عمله ، أو فى نفسه بالايمان والطاعة ،

« وظالم لنفسه » بالكفر والمعاصى ، ويدخل فيها ظلم الغير .

« مبين » ظاهر ظلمه

وفى ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال ، وأن الظلم فى الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب .

وهكذا ... تنطق الآيات فى اطرادها المحكم ... بأن اسحاق كان بشرى ... كان مكافأة ... لابراهيم على صدقه واخلاصه فى اسماعيل ...

ان ابرهيم دعا ربه « هب لى من الصالحين »

فبشرناه بغلام حليم ...

فاعطاه اسماعيل ...

فلما اثبت ابراهيم أن اسماعيل لا يشغله عن ربه ، لا يشغله شاغل من ولد أو غيره ...

بشر بغلام عليم ... واعطاه اسحاق ... زيادة منه وفضلا ...

وجعل كلا منهما أصلا من أصول النبوة والكتاب فى العالمين ...

اسماعيل أصل الفرع الذى تناهى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ...

واسحاق اصل تلك السلسلة المباركة من أنبياء بنى اسرائيل الذى تناهى إلى المسيح ... صلى الله عليه وسلم ...

ووهبنا ... له ... ؟!

قال تعالى : « ووَهَبْنا لهُ إسحاقَ ، ويَعقوبَ ، كُلاً هَدَيْنا ... » [الأنعام ٨٤]

« ووهبنا له » أى لابراهيم — عليه السلام —

« إسحاق » وهو ولده من سارة ، عاش مائة وثمانين سنة .

« ويعقوب » وهو ابن اسحاق ، عاش مائة وسبعا واربعين سنة .

« كلا » اى كل واحد منهما

« هدينا » لا أحدهما ، دون الآخر .

وقال تعالى : « ووهَبْنا له إسحاق ، ويعقوبَ نافِلةً ، وكلاً جَعلْنَا صالِحينَ ، وجعلناهمْ

أئمةً يهدونَ بأمرِنا ، وأوحَيْنا إليهِم فِعْلَ الخيرات ، وإقام الصلاةِ ، وإيتاء الزكاةِ وكانوا لنا عابدينَ » . [الأنبياء ٧٢ — ٧٣]

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة » أي عطية .

وعطاء من نفله بمعنى أعطاه .

أو ولد ولد ، أوزيادة على ماسأل عليه السلام .

« وكلا » من المذكورين ، وهم ابراهيم ، ولوط ، واسحاق ، ويعقوب ، عليهم السلام لا بعضهم دون البعض .

« جعلنا صالحين » وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا ، فصاروا كاملين .

« وجعلناهم أئمة » يقتدى بهم فى أمور الدين

« يهدون » الأمة إلى الحق

« بأمرنا » لهم بذلك وإرسالنا اياهم حتى صاروا مكملين

« وأوحينا إليهم فعل الخيرات » ليتم الكمال بانضمام العمل إلى العلم .

أى شرعنا لهم ذلك

« وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » والآية ظاهرة فى أنه كان فى الأمم السالفة صلاة وزكاة وهو مما تضافرت عليه النصوص إلا أنهما ليسا كالصلاة والزكاة المفروضتين على هذه الأمة .

« وكانوا لنا » خاصة دون غيرنا

« عابدين » لايخطر ببالهم غير عبادتنا كأنه تعالى أشار بذلك إلى أنهم وفوا بعهد العبودية ، بعد أن أشار إلى أنه سبحانه وفى لهم بعهد الربوبية .

وقال تعالى « ووهَبْنا لهُ إسحاق ، ويعقوبَ وجعلْنا فى ذرِّيتهِ النبوةَ والكتابَ ، وآتيناهُ أجرَهُ فى الدُّنيا ، وإنهُ فى الآخرةِ لمن الصالحين » . [العنكبوت ٢٧]

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب » ولدا : ونافلة ، حين أيس من عجوز عاقر

« وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » في سلالته الانبياء ، والكتب السماوية كلها ، ومنها الاربعة

« وآتيناه أجره » على ماعمل لنا

« في الدنيا » المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته الينا

ويعد اعطاء الولد . والذرية الطيبة . واستمرار النبوة فيهم ، ونحو ذلك ، مما كان له عليه السلام ، بعد الهجرة من الأجر .

قال مجاهد : بانجائه من النار ، والملك الجبار ، والثناء الحسن عليه ، بحيث يتولاه كل أمة .

وقيل : الولد الذى قرت به عينه ، وقد يضم إلى ذلك استمرار النبوة في ذريته .

وقيل : هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر .

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » أى لفى عداد الكاملين فى الصلاح .

ماذا نلاحظ فى تلك النصوص جميعا ؟

نلاحظ أن الله تعالى يعبر بقوله « ووهبنا له إسحاق ...» ...

ذكره فى سورة الانعام ...

ثم ذكره تارة أخرى فى سورة الأنبياء ...

ثم ذكره مرة ثالثة في سورة العنكبوت ...!!

لماذا ؟ ...

إشارة الى حقيقة كبرى ... أن اسحاق كان هبة من الوهاب سبحانه وتعالى ...

ما كان ابراهيم يرجو أن يتفضل الله تعالى عليه باسحاق ، بعد اسماعيل ...

وانما كان يظن أن اسماعيل هو آخر مايعطيه الله تعالى ... وليس بعده شيء آخر...

فلما نجح ابراهيم فى تجربة التضحية باسماعيل وذبحه لله ...

كافأه الله تعالى باسحاق ، ولذلك يقول« ووهبنا له إسحاق » ...

محض تفضل من الله ... محض هبة من الوهاب ...

وسوف نلمس دهشة ابراهيم حين بشر باسحاق ... واستغرابه وتعبيراته التى تدل دلالة قاطعة على أن آخر ما كان يفكر فيه أن يرزقه الله غلاما آخر غير اسماعيل !!

ووهبنا ؟!!

وتفضل الله على ابراهيم ، فوهبه غلاما آخر ...

ولعل قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ، ويعقوب ، نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ... »

لعل قوله تعالى : « نافلة » يشير إلى ذلك المعنى ...

أي وهبناه اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ...

وكانت هبتنا اسحاق نافلة ... أي زيادة من عندنا ...

كما كانت هبتنا يعقوب نافلة ... أي زيادة من عندنا ...

« وكلا جعلنا صالحين » وكلا من اسحاق ويعقوب جعلناه نبيا ...

زيادة فضل من عندنا ... ما كان ابراهيم يرجو أن ينبأ اسحاق ، وأن ينبأ يعقوب من بعده ...

ولكنه فضل الله تعالى على ابراهيم ... وكان فضل الله تعالى عليه عظيما ...

كيف كانت المفاجأة ؟!

قال تعالى : « ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما ، قال : إنا منكم وجلون . قالوا : لا توجل ، إنا نبشرك بغلام عليم . قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر ، فبم تبشرون ؟! . قالوا : بشرناك بالحق . فلا تكن من القانطين . قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟ . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ . قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط ، إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين . » [الحجر ٥١ — ٦٠]

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم » والمراد بضيفه الملائكة — عليهم السلام — الذين بشروه بالولد ، وبهلاك قوم لوط — عليه السلام —

وسموا ضيفا لأنهم فى صورة من كان ينزل به — عليه السلام — من الأضياف . وكان لا ينزل به أحد إلا أضافه .

« إذ دخلوا عليه » اذكر وقت دخولهم عليه .

« فقالوا » عند ذلك

« سلاما » أى سلمت سلاما من السلامة . أو سلمنا سلاما ، من التحية ،

« قال : إنا منكم وجلون » أى خائفون . فإن الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه، وقوله — عليه السلام — هذا كان بعد أن قرب اليهم العجل الحنيذ ، فلم يأكلوا منه .

وكان العادة أن الضيف إذا لم يأكل مما يقدم ظنوا أنه لم يجيء بخير .

« قالوا : لا توجل » لا تخف

« إنا نبشرك » فى معنى التعليل للنهى عن الوجل

فإن المبشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن .

كيف لا ، وهى بشارة ببقائه ، وبقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا ؟

« بغلام » هو اسحاق — عليه السلام — والتنوين للتعظيم : أى بغلام عظيم القدر ،

« عليم » ذى علم كثير .

أريد بذلك الاشارة إلى أنه يكون نبيا .

« قال : أبشرتمونى » بذلك

« على أن مسنى الكبر » أى مع أن مسنى الكبر

قد تعجب — عليه السلام — من بشارتهم إياه مع هذه الحال المنافية لذلك ...

قلت : إنه عليه السلام لم يكن يخطر بباله هذا الأمر ...

أن يرزقه الله ولدا غير اسماعيل ... وممن ؟

من سارة ... العقيم ... العجوز !!

« فبم تبشرون » أى فبأى أعجوبة تبشرون ، أو بأى شيء تبشرون ؟!

« قالوا : بشرناك بالحق » أى بالأمر المحقق ، لا محالة .

أو : باليقين الذى لا لبس فيه

أو : بطريقة هى حق .

وهو أمر من له الأمر ، القادر على خلق الولد من غير أبوين ، فكيف بإيجاده من شيخ وعجوز ؟

« فلا تكن من القانطين » أى الآيسين من خرق العادة لك

فإن ظهور الخوارق على يد الأنبياء — عليهم السلام — كثير ، حتى لا يعد بالنسبة اليهم مخالفا للعادة .

« قال : ومن يقنط » أى لا يقنط

« من رحمة ربه إلا الضالون » أى الكفرة ، المخطئون طريق معرفة الله تعالى ، فلا يعرفون سعة رحمته ، وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى

ومراده — عليه السلام — نفى القنوط عن نفسه بأبلغ وجه ، أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى ... وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لتلك النعمة الجليلة على

وهو كما قيل : اليأس من الخير كفر .

قلت : هذا يؤكد ماذهبت اليه من ان ابراهيم لم يكن يفكر ، ولا يرجو ، أن يهبه الله ولدا بعد اسماعيل ... فكانت المفاجأة الكبرى له أن يبشره هؤلاء الملائكة بغلام عليم ... غير اسماعيل !!

ومن هنا كان استغرابه عليه السلام

وانك لتلمح ذلك فى ثنايا رده على الملائكة : «ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون» . أى انى لست من القانطين ، ولا من المستغربين أن يحدث هذا ، لانى أعرف أن الله يفعل مايشاء ...

وانما وجه المفاجأة لى أنى لم أكن أطمع أن ارزق ولدا غير اسماعيل ... ولكن الوهاب أراد أن يزيدنى فضلا على فضل !!

وهذا يؤكد ماذهبنا إليه من أن ابراهيم عليه السلام ، كان قانعا ، راضيا ، أن وهبه الله إسماعيل ، استجابة لدعائه « هب لى من الصالحين » ... ولم يخطر بباله يوما أن يهب له الله غلاما آخر ... دون أن يطلب ذلك من الله ... فكانت المفاجأة بالنسبة اليه ، أن يأتى الملائكة يبشروه بغلام آخر ... لم يفكر فيه يوما ما !!

« قال فما خطبكم » أى أمركم ، وشأنكم الخطير ، الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ؟

« أيها المرسلون » لعله — عليه السلام — علم أن كمال المقصود ليس البشارة من مقالة لهم فى أثناء المحاورة مطوية هنا

وكانوا ذوى عدد ، والبشارة لاتحتاج إلى عدد ،

إذا تحقق هذا فأخبرونى ما أمركم الذى جئتم له سوى البشرى ؟

« قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » هم قوم لوط — عليه السلام — ووصفوا بالاجرام استهانة بهم ، وذمالهم

« إلا آل لوط » لأنهم ليسوا مجرمين

« إنا لمنجوهم أجمعين » ...

« إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » أى الباقين فى عذاب الله تعالى

أو : الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وهو من كلام الله تعالى ...

لقد كانت مفاجأة أى مفاجأة لابراهيم !

لقد دعا الله تعالى « هب لى من الصالحين » ...

فاستجاب له ، وبشره بغلام حليم ... فكان اسماعيل ...

ومضت سنون طويلة ... وترعرع الغلام ... وأمر بذبحه ... فذهب ليذبحه ... ثم فداه الله بذبح عظيم ...

وعاد ابراهيم إلى فلسطين بعد تلك الحادثة الخطيرة ...

وعاش بها أياما ، يحمد الله أن نجا وحيده ... واعفاه من الذبح ...

ولا يخطر بباله أن يرزق بعد هذا نسلا ...

وإنما حسبه اسماعيل ... فهو قرة عين له ... ولأمه ...

أماهذه الزوجة .. سارة ... فقد أشرفت على المائة ...

فهى عجوز ، قد بلغ بها الكبر عتيا ... فهى آخر امرأة تفكر أن تلد ...

وهناك استحالة أخرى ... أنها عاشت عمرها كله عقيما ...

فلا هي أصلا صالحة للنسل ، ولا سنها سن التناسل ...

وابراهيم بعد هذا وذاك شيخ كبير ... جاوز المائة بعشر سنين ...

فحسبه اذا أن يقنع بما أعطاه الله تعالى ...

وحسب سارة أن تنعم برفقة زوجها خليل الرحمن ...

حتى كانت المفاجأة ... فأخذت على ابراهيم تفكيره حتى قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ؟!

وأخذت على سارة تفكيرها .. حتى قالت ...

ياويلتي ... أألد وأنا عجوز ؟!

قال تعالى : « ولقدْ جاءتْ رسُلنا إبراهيمَ بالبُشرى ، قالوا : سلاماً ، قال : سلامٌ ، فما لبثَ أن جاءَ بعجْلٍ حَنيذٍ . فلمَّا رَأى أيديَهُمْ لاتصلُ إليه نكِرَهُمْ ، وأوْجَسَ منهُمْ خِيفَة ، قالوا : لاتَخَفْ ، إنا أُرْسِلْنا إلى قومِ لوطٍ . وامرأتُهُ قائمةٌ ، فضحكتْ ، فبشرْناها ، بإسحاقَ ، ومن وراءِ إسحاق يعقوبَ . قالتْ : يا وَيْلَتى أألِدُ وأنا عجوزٌ ، وهذا بعْلي شيْخاً ، إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ ! . قالوا : أتعجبينَ من أمرِ اللهِ ؟! رحمتُ اللهِ وبركاتُهُ عليْكُمْ ، أهلَ البيتِ ، إنه حميدٌ مجيدٌ . فلما ذهبَ عن ابراهيم الرَّوْعُ ، وجاءتْهُ البُشْرَى ، يُجادِلنا في قومِ لوطٍ . إنَّ ابراهيمَ لحليمٌ أوَّاهٌ منيبٌ . ياإبراهيمُ أعْرِضْ عنْ هذا ، إنهُ قدْ جاءَ أمْرُ ربِّكَ ، وإنهم آتِيهِمْ عذابٌ غيرُ مردودٍ . »

[هود ٦٩ — ٧٦]

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » أي بالولد ، وقيل : باهلاك قوم لوط

وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه ،

« قالوا : سلاما » دعوا له . والمعنى سلمت سلاما .

« قال : سلام » أي هو سلام ...

وقيل : بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية

« فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » فما لبث حتى جاء بعجل مشوى . وقيل هو المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار .

«فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم» أى أنكرهم ، حيث وجدهم على غير ماعهد.

« وأوجس منهم خيفة » حيث ظن أنهم يريدون به شراً . « وامرأته قائمة » أى قائمة بحيث ترى الملائكة . « فضحكت » فحاضت ، وكانت آية ، تحقيقاً للبشارة .

وقيل : هو ضحك التعجب .

« فبشرناها باسحاق » لما ولد لابراهيم اسماعيل من هاجر ، تمنت سارة أن يكون لها ابن ، وأيست لكبر سنها ، فبشرت بولد يكون نبيا ، ويلد نبيا فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

« ومن وراء إسحاق يعقوب » ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوب .

« قالت : ياويلتا » ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخف على أفواه النساء اذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخاً لخروجه عن العادة .

وماخرج عن العادة مستغرب ومستنكر .

« أألد » استفهام معناه التعجب .

« وأنا عجوز » أى شيخة .

قال مجاهد : كانت بنت تسعين سنة .

« وهذا بعلى » أى زوجى

« شيخا » كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

وسارة هذه امرأة ابراهيم بنت هاران ... وهى بنت عم إبراهيم .

« إن هذا لشىء عجيب » أى الذى بشرتمونى به لشىء عجيب .

«قالوا : أتعجبين من أمرالله» أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله ، أى من قضائه وقدره .

أى : لاتعجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحاق ،

« رحمة الله وبركاته عليكم » أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت .

والبركة النمو والزيادة ، ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد ابراهيم وسارة .

« إنه حميد مجيد » أى محمود ماجد .

« فلما ذهب عن إبراهيم الروع » أى الخوف . « وجاءته البشرى » أى بإسحاق ويعقوب . وإنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . « يجادلنا » أى يجادل رسلنا « إن ابراهيم لحليم أواه منيب » المنيب الراجع . يقال : أناب إذا رجع . وابراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعاً إلى الله تعالى فى أمره كله . وقيل الأواه المتأوه أسفا على ماقد فات قوم لوط من الإيمان : « ياابراهيم أعرض عن هذا » أى دع عنك الجدال فى قوم لوط . « إنه قد جاء أمر ربك» أى عذابه لهم « وإنهم آتيهم » أى نازل بهم . « عذاب غير مردود » غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

هناك إذا ...مناظر سريعة ... متتابعة... كلها تثير أعنف الانفعالات فى نفس ابراهيم وفى نفس زوجه سارة ... اللذين هما موضوع التجربة الجديدة ... وموضع تنفيذ المفاجأة وقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ... مجموعة من الرجال نزلوا على ابراهيم ... قالوا سلاما اقرءوه السلام ... السلام عليكم يا ابراهيم ... قال سلام ... قال ابراهيم وعليكم السلام إذا ليس هناك ادنى شك فى كونهم ضيوف نزلوا على ابراهيم فى أمان وسلام ... وليس هناك أدنى شك فى كونهم بشر رجال ... ولذلك كان التصرف الطبيعى من ابراهيم ،الذى اشتهر بالكرم ... فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ... سارع فذبح عجلا بقرا سمينا ... وشواه وقدمه إليهم ...، ودعاهم إلى الطعام ... فكانت المفاجأة الأولى ... فلما رأى أيديهم لا تصل اليه ... أن رأى أيديهم لا تمتد الى طعامه ولا تقربه !! وكانت المفاجأة النفسية الثانية ... نكرهم أنكر فعلهم ... وأوجس منهم خيفة ... واشتد خوفه منهم ... فبعد أن كان يحس نحوهم بالسرور لمقدمهم أصبح ينكرهم ... وبعد أن كان يحس نحوهم بالسلام

والأمن أصبح يخافهم ويظن بهم ومنهم السوء!! مفاجآت متلاحقة .... وابراهيم هو موضعها ومجالها !! ثم طمأنوه ... قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط ... فعاد الى هدوءه .. وهذا انفعال جديد ... أما امرأته ... سارة ... فكانت هى الأخرى موضع انفعالات أشد وأعنف ... دفعتها أن تصك وجهها ... وتصيح صياحا ... وامرأته قائمة ... واقفة تسمع للملائكة وهم يبشرون ابراهيم باسحاق ... غلاما ... عليما ... من سارة ... فماذا كان منها ... فضحكت ... شيء مضحك حقا ... امرأة فى المائة تلد ؟ ! وليتها كانت قبل ذلك تلد فى شبابها ... ولكنها أصلا كانت عقيما عاقراً ؟! فما أن سمعت سارة ما يتحدث به الملائكة الى ابراهيم حتى اندفعت تضحك وتضحك !!! وما لها لا تضحك ... والأمر يثير الضحك حقا !!! وهى التى سوف تكون موضع التجربة العنيفة التى هزتها هزاً عنيفا انفعال شديد جدا وقع بنفسها دفعها الى مواصلة الضحك !!!

ثم ماذا ؟ ! ...

ثم مفاجأة أخرى ... فبشرناها باسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ؟! ليس فقط تلدين إسحاق ، بل سيولد لإسحاق يعقوب ... أى انك ستلدين غلاما يكون منه نسل عظيم ... مفاجأة مذهلة ... امرأة عجوز خلقت عاقرا ... لم تكن تطمع أن يكون لها نسل تبشر فى سن الاستحالة أنها ستلد ، وأن غلامها سوف يولد له يعقوب !!! آمال عريضة فتحت لها فجأة بعد أن كانت كل الاتجاهات فى وجهها استحالات !!! مفاجآت سيقت اليها فجأة فأذهلتها حتى قالت ... ياويلتى ... أ ألد وأنا عجوز ؟!

وهذا بعلى شيخا ؟! ان هذا لشيء عجيب ؟!!

وأشارت اليه ... إلى ابراهيم ... وهى تردد ... وهذا بعلى شيخا ... شيء عجيب حقا ... إن هنالك دوامة عاتية من الانفعالات تتصارع فى نفسها ، وكانت المفاجأة الأخرى لها أن الملائكة قالوا لها : أتعجبين من أمر الله ؟! كيف تعجبين من هذا ... وهو أمر الله وهو عليه هين ؟! هذا كلام صحيح ... ولكن الانسان الذى هو موضع التجربة يشعر

بغير هذا ... انه يشعر بكل العجب، وكل الغرابة ... أن تتحول امرأة عجوز الى امرأة شابة ... وأن تتحول امرأة عاقر إلى امرأة ولود ... وأن يكون ذلك شيئا يجرى فيها هى نفسها ...

هناك معجزتان ...

الأولى عودة الشباب الى سارة بكل ما يحمل الشباب من نضارة وجمال وتفتح وانطلاق ... والمعجزة الثانيه عودة الحمل الى سارة وما يصاحب ذلك من تغير فى جهازها التناسلى كله ... بعد ضمور وانغلاق !!! معجزتان ... عجيبتان ... كلاهما أعجب من أختها ومع هذا يطالبها الملائكة أن لا تعجب من أمر الله ؟! هذا فوق طاقتها !! انها بشر ... تألم وتفرح وتنفعل . ثم المفاجأة الأخرى أن قال لها الملائكة رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ... رحمة الله الواسعة تمسكم أهل بيت ابراهيم ... وبركاته ... وخيراته ... تنزل عليكم فلا تعجبى ... فزادوها بذلك انفعالا الى انفعالاتها .. وزادوها عجبا وسرورا ... انفعالات عارمة ... جارفة ... قامت بنفس زوجه ... وكان ذلك كله تمهيدا للتحول العظيم الذى قدر الله أن يحدث فى ذلك البيت العظيم ... بيت ابراهيم ... كما تكون العواصف والاعاصير ... تمهيدا لنزول رحمة الله ... لنزول المطر العزيز ... ولذلك يسجل الله تعالى تلك الانفعالات التى كانت بنفس ابراهيم وزوجه فيقول : «فلما ذهب عن ابراهيم الروع » ... هناك اذا روع ... هناك خوف كان بنفس ابراهيم ... « وجاءته البشرى » ولم يذهب عنه ذلك الخوف الا بعد أن بشرته الملائكة بالغلام ، واخبروه أنهم رسل ربهم ... أمام هذا كله وأمام تلك الانفعالات ... ترك ابراهيم احاسيسه الخاصة ... وأخذ يجادل فى قوم لوط ويطلب لهم النجاة من العذاب ؟! لماذا ؟! ... إن ابراهيم لحليم ... شديد الحلم ... لايحب أن يعاجل أحدا بعقوبة ... ياابراهيم أعرض عن هذا ... إنه قدجاء أمر ربك ... وانهم آتيهم عذاب غير مردود ... ليس الأمر أمر عواطف يا ابراهيم ... انه أمر احقاق الحق ، وازهاق الباطل ... وهذا شيء مقرر لايرد ...

فصكت وجهها ؟!

قال تعالى : « هلْ أتاكَ حديثُ ضيفِ ابراهيمَ المُكْرَمينَ . إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاماً ، قال : سلامٌ قومٌ مُنْكَرونَ . فراغَ إلى أهلِهِ ، فجاءَ بعجلٍ سمينٍ . فقرَّبَهُ إليهم، قال : ألا تأكلون ؟. فأوْجَسَ منهم خيفة ، قالوا : لا تَخَفْ ، وبشروهُ بغلامٍ عليم . فأقبلت امرأتهُ فى صَرَّةٍ ، فصكتْ وجهها ، وقالت : عجوزٌ عقيمٌ . قالوا : كذلكِ قالَ رَبُّكِ ، إنَّهُ هو الحكيمُ العليمُ . قال : فما خَطْبُكم أيها المرسلونَ ؟ قالوا: إنّا أُرْسِلْنا إلى قومٍ مجرمينَ . لنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طينٍ . مُسَوَّمةً عند ربك المسرفينَ . فأخرَجْنا من كانَ فيها من المؤمنينَ . فما وَجدْنا فيها غيرَ بيْتٍ من المسلمينَ . وتركْنا فيها آيةً للذين يخافونَ العذابَ الأليمَ » [الذاريات ٢٤ — ٣٧]

« وهل أتاكَ حديث ضيف ابراهيم ؟» تفخيم لشأن الحديث . كانوا اثنى عشر ملكا. وقيل : ثلاثة ، جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل — عليهم السلام —. وسموا ضيفا لأنهم كانوا فى صورة الضيف « المكرمين » أى عند الله عز وجل . « فقالوا سلاما » أى نسلم عليك سلاما « قال : سلامٌ » أى عليكم سلام « قوم منكرون » هؤلاء قوم منكرون . قاله فى نفسه ، أو لمن كان معه أو : يريد التعرف عليهم أى : أنتم لستم ممن أعرف ، فمن أنتم؟ « فراغ إلى أهله » أى ذهب اليهم على خفية من ضيفه أى ذهب إلى زوجته سارة ، بحيث لايشعر به ضيوفه « فجاء بعجل » وهو ولد البقرة . « سمين » ممتلىء الجسد بالشحم واللحم. « فقربه اليهم » بأن وضعه لديهم « فقالَ : ألا تأكلون ؟!» عرض للأكل ، فإن فى ذلك تأنيس للضيف « فأوجس منهم خيفة » أضمر فى نفسه منهم خوفا ، لاعراضهم عن الطعام ، وظن أن ذلك لشر يريدونه « قالوا : لاتخف » إنا رسل الله تعالى « وبشروه » أى بواسطتهم « بغلام » عظيم الشأن ، هو إسحاق بن سارة « عليمٍ » عند بلوغه واستوائه ووصفه بالعلم لانها الصفة التى يختص بها الانسان الكامل . « فأقبلت امرأته » سارة ، لما سمعت بشارتهم . وكانت فى زاوية تنظر إليهم « فى صرة » فى صيحة من الصرير . أى أقبلت وهى تصيح من ذهول المفاجأة ! وقيل : قولها ياويلتى .

« فصكت وجهها » ضربت بيدها على جبهتها ، وقالت : ياويلتاه . وقيل : انها وجدت حرارة الدم ، فلطمت وجهها من الحياء . وقيل : انها لطمته تعجبا وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء . « وقالت : عجوز » أى أنا عجوز « عقيم » عاقر ، فكيف ألد ؟!! « قالوا : كذلك » أى مثل ذلك القول الكريم الذى أخبرنا به .

« قال ربك » وإنما نحن معبرون ، نخبرك به عنه عز وجل ، لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا « إنه هو الحكيم العليم » فيكون قوله عز وجل حقا ، وفعله سبحانه متقنا لا محالة .

« قال » أى ابراهيم — عليه السلام — « فما خطبكم أيها المرسلون » أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة ؟! « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » يعنون قوم لوط — عليه السلام — « لنرسل عليهم » أى بعد قلب قراهم عاليها سافلها — حسبما فصل فى سائر السور الكريمة — « حجارة من طين » أى طين متحجر ، وهو السجيل « مسومة » معلمة ، أعلمت بانها حجارة من العذاب ، أى ليست من حجارة الدنيا . « عند ربك » فى محل ظهور قدرته سبحانه ، وعظمته والمراد أنها فى علم الله تعالى معدة . « للمسرفين » المجاوزين الحد فى الفجور ، أى لهؤلاء المسرفين . «فأخرجنا من كان فيها» أى فى قرى قوم لوط «من المؤمنين » ممن آمن بلوط — عليه السلام — «فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » أى أهل بيت والمراد لوط وابنتاه !!!

وقيل : كانوا ثلاثة عشر «وتركنا فيها» أى فى القرى « آية» علامة دالة على ما أصابهم من العذاب « للذين يخافون العذاب الأليم » أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ، ورقة قلوبهم .

* * *

وهكذا ... أعاصير عاتية اجتاحت باطن سارة فقلبته رأسا على عقب ... حتى أقبلت فى صرة ... فى صياح وولولة ... وصكت وجهها ... وهى تردد : ياويلتى ... عجوز ؟ عقيم ؟ ... أألد وأنا عجوز عقيم ؟! ... وهذا بعلى شيخا ... إن هذا لشىء عجيب !!! ودائما وأبدا ... هى سنة الله التى لا تبديل لها ولا تغيير ... ما من شىء عظيم ... فيه رحمة

وفضل من الله ... إلا كانت مقدماته عاصفة ... حتى إذا ولد المولود فى العاصفة ، كان صاحبه حريصا عليه ... شاكرا لنعمة الله تعالى عليه ... أما هذه الأشياء التى تأتى إلى الناس سهلة ، فانها تذهب عنهم سهلة ... لا يشعرون لها بقيمة ، ... ولا يحرصون عليها ...

ومن هنا جاءت ابراهيم وسارة البشرى باسحاق ... فى عاصفة من الانفعالات والخوارق ... ليكون ذلك تعظيما لنعمة الله عليهما ... ودافعا يدفعهما إلى تقدير النعمة حق قدرها ... ومن كابراهيم شكرا ؟! ومن كسارة فى النساء شكرا ؟!

ان فيها لوطا ؟!

قال تعالى : «ولمَّا جاءَتْ رسُلنا إبراهيمَ بالبُشْرى قالوا : إنا مُهْلِكُوا أهْلِ هذهِ القريةِ ، إنَّ أهْلَها كانوا ظالمِينَ . قالَ : إنَّ فيها لوطاً ؟! قالوا : نحنُ أعلَم بمن فيها ، لَننَجِّيَنهُ وأهْلَهُ ، إلا امرَأتَهُ كانَتْ منَ الغابرينَ .» [العنكبوت ٣١ — ٣٢]

« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » أى بالبشارة بالولد ، والنافلة « قالوا » أى لابراهيم — عليه السلام — فى تضاعيف الكلام «إنا مهلكوا أهل هذه القرية» أى قرية سدوم ، وهى أكبر قرى قوم لوط ، وفيها نشأت الفاحشة . وفى الاشارة بهذه اشارة إلى أنها كانت قريبة من محل ابراهيم — عليه السلام — « إن أهلها كانوا ظالمين » تعليل للاهلاك باصرارهم على الفساد ، وأنواع المعاصى . « قال : إن فيها لوطا » اعتراض على الرسل بأن فى القرية من لم يظلم .

« قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله » تسليم لقوله فى لوط مع ادعائه مزيد العلم به ، وأنهم ما كانوا غافلين عنه « إلا امرأته كانت من الغابرين» أى من الباقين فى القرية وفسر الأهل هنا بأتباع لوط — عليه السلام — المؤمنين .

ماذا فى سادوم ؟!

فى الوقت الذى كان ابراهيم وزوجه يتلقى البشرى بغلام عليم ... فى الوقت الذى كان الزوجان الكريمان يستعدان لاستقبال رحمة الله وبركاته عليهم ... ليخرج منهما غلام ...

يكون بداية شجرة طيبة ... مباركة ... من الأنبياء والمرسلين ... تتسلسل حتى تنتهى بالمسيح — عليه السلام — ...

فى نفس الوقت تلقى ابراهيم — عليه السلام — البشرى باهلاك قوم لوط ... إنا مهلكو أهل هذه القرية ... إن أهلها كانوا ظالمين !!! البشرى الأولى ... تعلن أن قد بدأ عهد من النور والعدل فى الأرض ... سوف يولد اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب، ومن وراء يعقوب أنبياء وأنبياء ... والبشرى الثانية ... تعلن أن قد حقت كلمة ربك على اولئك المجرمين الذين جاوزوا كل حد فى الفساد ... انهم آتيهم عذاب غير مردود ... ولا يقل اهلاك المجرمين رحمة بالبشرية ، عن بعث النبيين ...

فإن الحق لا يقوم فى الأرض إلا اذا زهق الباطل ... والى هذا يشير قوله تعالى :«ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا :إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين» . بشرى بكينونة اسحاق ... ببعث النور . . وبشرى بازهاق الباطل... بتدمير المجرمين... واعلاء الحق ... وتدمير الباطل ... هما جناحا العدل فى الارض ... فما هى قصة هؤلاء القوم المجرمين ؟ !

إنها قصة فاحشة ماسبقهم بها من أحد من العالمين ...

قال تعالى :«ولُوطًا إذْ قالَ لقومِهِ: أتأتُونَ الفاحِشةَ وأنتُمْ تبصرونَ ؟!... أئِنَّكُمْ لتَأتونَ الرِّجالَ شهْوَةً مِنْ دونِ النساء ، بلْ أنتُمْ قومٌ تجْهلونَ . فما كانَ جَوَابَ قومِهِ إلا أن قالوا : أخْرِجُوا آلَ لوطٍ من قرْيَتِكُمْ إنهُمْ أُناسٌ يَتطهَّرُونَ . فأنجيْناهُ وأهلَهُ ، إلا امْرَأَتَهُ ، قدَّرْناها مِنَ الغابِرينَ . وأمْطَرْنا عَليْهِم مَطَراً فساء مطَرُ المنذَرينَ » . [النمل ٥٤ — ٥٨]

« اتأتون الفاحشة » أى الفعلة القبيحة الشنيعة وهى اللواطة « وانتم تبصرون » والحال انكم تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا إليها ؟! وتبصرون من بصر القلب . والله تعالى انما خلق الانثى للذكر ، ولم يخلق الذكر للذكر ولا الانثى للانثى. وقيل : وانتم تبصرون أى يبصر بعضكم بعضا ... لأنهم كانوا فى ناديهم يرتكبونها مجاهرين بها ، لا يستترون ،

عتوامهم ، وتمردا ، وخلاعة ، ومجانة ! « أئنكم لتأتون الرجال » الهمزة فيه للاستفهام على سبيل الانكار .

« شهوة» أى لاجل الشهوة «تجهلون» أى عاقبة العصيان ويوم الجزاء وقيل: تجهلون موضوع قضاء الشهوة «يتطهرون» من ادبار الرجال، يقولونه استهزاء بهم وتهكما «فانجيناه» أى انجينا لوطا من العذاب وانجينا أهله « الا امرأته قدرناها» أى جعلناها بتقديرنا وقضائنا عليها « من الغابرين » أى الباقين فى العذاب « وامطرنا عليهم مطرا » أى الحجارة « فساء مطر المنذرين» الذين أنذروا بالعذاب ...

قيل: اينما كان المطر فى كتاب الله فهو العقاب ! ألا سحقا لتلك المدينة المسماة «سادوم» كبرى مدن قوم لوط ... لقد بدأت تلك الفاحشة تظهر فيها ... ومنها انتقلت إلى غيرها من القرى كعامورة وغيرها مما حولها ... إنها جريمة الشذوذ الجنسى ... انتشرت فى تلك القرى ، حتى عمتها كلها ... وأصبحت فيهم شيئا مألوفا ... يجاهرون بها ... ولا يستحون من اتيانها فى النوادى ، والطرقات ... ويوم تصاب الأمة فى أخلاقها ، فقد تودع منها ...

وان كانت تلك الآفة التى انتشرت فى قوم لوط تثير العجب ... فان الاعجب منها أن نسمع عنها فى مجتمع كالمجتمع الانجليزى ... ذلك الذى يزعمون فى رقيه المزاعم ... حتى قرأنا أن مجلس العموم البريطانى يريد أن يعتبر الشذوذ الجنسى شيئا مشروعا وليس بجريمة يعاقب عليها القانون !!!

أنهم أناس يتطهرون ؟!

وقال تعالى : « ولوطا إذْ قالَ لقومِه : أتأتونَ الفاحشة ما سَبَقَكُمْ بها من أحدٍ من العالمينَ ؟!. إنَّكُمْ لتأتُونَ الرجالَ شهوةً من دونِ النساء بل أنتمْ قومٌ مسرفونَ . وما كانَ جوابَ قومِه إلا أن قالوا : أخْرجُوهُم من قريَتكمْ إنَّهُمْ أناسٌ يتطهَّرونَ . فأنجيْناه وأهْلَهُ إلا امرأتَه كانَتْ من الغابرينَ . وأمْطَرْنا عليْهم مطَراً ، فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُجْرِمينَ » . [الأعراف ٨٠ — ٨٤]

ماذا كان جواب قوم لوط ؟

أخرجوهم من قريتكم ... عليكم باخراج لوط هذا وابنتيه من سادوم ... لماذا ؟ إنهم أناس يتطهرون ؟ ! هذه هى الجريمة !!! أنهم يتطهرون ... يتنزهون عن تلك الفعلة الشنيعة ... لا يقربونها ... ولا يفعلونها ... بل ويدعوننا الى الانتهاء عنها !! هكذا ؟! ... مجتمع اصبح يرى المنكر معروفا ... والمعروف منكراً !!

فالشذوذ الجنسى شىء طبيعى ... والذين يتنزهون عنه ، ويدعونهم إلى الابتعاد عنه قوم يجب اخراجهم من المدينة !!

وحين تجمع الشعوب على باطل تكون مصيبة عامة تستوجب دمار تلك الشعوب !! تماما كتلك الصيحات المنكرة التى نسمعها الآن من المجتمع الانجليزى باعتبار الشذوذ الجنسى أمرا طبيعيا لا يعاقب عليه القانون !!!

ولما جاءت رسلنا لوطا ؟!

«ولمَّا جاءتْ رسُلُنَا لوطاً سِيءَ بِهِم وضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وقالَ : هذا يومٌ عصِيبٌ . وَجاءَهُ قومُهُ يُهرَعون إليْه ، ومِن قَبْلُ كانوا يعملونَ السيئات ، قال : ياقومِ هؤلاء بَنَاتى هُنَّ أطْهَرُ لَكُمْ ، فاتقُوا الله ولا تُخْزُونِ فى ضَيْفِى ، أليْسَ مِنكُمْ رجُلٌ رشيدٌ ؟!. قالوا : لقَدْ عَلِمْتَ مالنا فى بناتِكَ منْ حقٍّ ، وإنَّكَ لتَعْلَمُ ما نُريدُ . قال : لوْ أنَّ لى بكُمْ قوَّةً ، أوْ آوِى إلى رُكْنٍ شديد ؟!. قالوا : يالوطُ ، إنَّا رُسلُ رَبِّكَ ، لن يَصلوا إليْكَ . فَأَسْرِ بأهْلكَ بِقِطْعٍ منَ الليلِ ولا يَلْتَفِتْ مِنكمْ أحدٌ إلا امْرأتَكَ ، إنَّهُ مُصِيبها ماأصابَهُمْ ، إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُبْحُ ، أليْسَ الصُّبْحُ بقريب ؟. فلما جاءَ أمْرُنا جَعَلْنا عالِيها سافِلَها وأمطرْنا عليها حجارةً من سِجِّيلٍ مَنضُودٍ . مُسَوَّمَةً عند ربِّكَ ، وما هِيَ مِنَ الظالمينَ ببعيد .» . [هود ٧٧ — ٨٣]

« ولما جاءت رسلنا لوطا » لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم ، وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة ورأتا هيئة حسنة ، فقالتا : ماشأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا ، نريد هذه القرية .

قالتا : فإن أهلها أصحاب الفواحش ، فقالوا : أبها من يضيفنا ؟ قالتا : نعم ! هذا الشيخ، وأشارتا إلى لوط ، فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. «سيء بهم» أى ساءه مجيئهم . «وضاق بهم ذرعا » أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه . وانما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم وما يعلم من فسق قومه . «وقال : هذا يوم عصيب» أى شديد فى الشر . « وجاءه قومه يهرعون إليه » أي يسرعون ، وكان سبب إسراعهم ما روى ان امرأة لوط الـكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم: إن لوطا قد أضاف الليلة فتية ماروْى مثلهم جمالا ، وكذا وكذا ، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . « ومن قبل » أى ومن قبل مجيء الرسل « كانوا يعملون السيئات » أى كانت عادتهم إتيان الرجال .

فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم مدافعا ، وقال : « هؤلاء بناتى» ندبهم فى هذه الحالة إلى الزواج . وقيل : لم يعرض عليهم بناته ، وانما قال لهم هذا لينصرفوا «هن أطهر لـكم » أى أزوجكموهن ،فهو أطهر لـكم مما تريدون ، أى أحل ، والتطهر التنزه «فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفي» لاتهينونى ولاتذلونى « أليس منـكم رجل رشيد » يأمر بالمعروف وينهى عن المنـكر أو : أليس منكم رجل ذو رشد؟ أو : رجل مؤمن ؟

« قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق » أى ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولاهن قصدنا ولالنا عادة بطلب ذلك «وإنك لتعلم ما نريد» اشارة إلى الأضياف . قال : «لوأن لى بكم قوة » لمارأى استمرارهم فى غيهم ، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم تمنى لووجد عونا على ردهم فقال على جهة التفجع والاستـكانة . « لو أن لى بكم قوة» أى أنصارا وأعوانا .

« أوآوى إلى ركن شديد » أى ألجأ وأنضوى ، ويروى أن لوطا — عليه السلام — لمـا غلبه قومه ، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنح عن الباب ، فتنحى ، وانفتح الباب ! فضربهم جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، وعمُوا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء . وجعلوا يقولون : يالوط كما أنت حتى تصبح ، فسترى ، يتوعدونه .

« قالوا : يالوط إنا رسل ربك » لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرفوه بأنفسهم . فلما علم أنهم رسل مكّن قومه من الدخول : فأمر جبريل — عليه السلام — يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت . « لن يصلوا إليك » أى بمكروه «فأسر بأهلك» أى سر بأهلك ليلا . « بقطع من الليل » بطائفة من الليل . ببقية من الليل . بعد هدوء من الليل .

وقيل : إنه نصف الليل ، مأخوذ من قطعه نصفين « ولا يلتفت منكم أحد» لا ينظر وراءه منكم أحد . أو : لا يتخلف منكم أحد « إلا امرأتك » أى فأسر بأهلك إلا امرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام . أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ، فانها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . «إنه مصيبها» أى من العذاب «ما أصابهم إن موعدهم الصبح» لما قالت الملائكة : « إنا مهلكو أهل هذه القرية» قال لوط : الآن الآن استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ، فقالوا : « أليس الصبح بقريب » ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع .

روى : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما ، عند طلوع الفجر . « فلما جاء أمرنا » أى عذابنا « جعلنا عاليها سافلها » وذلك أن جبريل — عليه السلام — أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم — وهى العاصمة — وعامورا ، ودادوما ، وضعوه رقتم ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكهم ، لم تنكفىء لهم جرة ، ولم ينكسر لهم اناء ، ثم نكسوا على رءوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة . « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » السجيل الشديد الكثير . أى حجارة من طين شديد متحجر « منضود» متتابع . « مسومة » معلمة . أي مخصصة « عند ربك» دليل على أنها ليست من حجارة الأرض .

« وما هى من الظالمين ببعيد » يعنى قوم لوط ، أى لم تكن تخطئهم .

وجاء أهل المدينة يستبشرون ؟!

وقال تعالى : « قال : فما خَطْبُكُمْ أيها المُرسَلونَ ؟. قالوا : إنَّا أُرْسِلنا إلى قومٍ مُجرمين، إلا آلَ لوطٍ إنا لَمُنَجُّوهم أجمعينَ . إلا امرأَتَهُ قَدَّرْنا إنها لَمِنَ الغابرينَ . فلمَّا جاءَ آلَ لوطٍ المُرْسَلونَ . قالَ : إنَّكُمْ قومٌ مُنكَرُون . قالوا : بلْ جئْناكَ بما كانوا فيهِ يمْترونَ . وأتيْناكَ بالحقِّ وَإنَّا لَصادِقونَ . فأَسْرِ بأهْلكَ بقطْعٍ من الليْلِ واتبِعْ أدْبارَهمْ ولا يَلْتفِتْ مِنكم أحَدٌ وامْضُوا حيثُ تُؤْمَرونَ . وقضَيْنا إليهِ ذلكَ الأمْرَ أن دابِرَ هؤلاءِ مقطوعٌ مُصبِحينَ . وجاءَ أهْلُ المدِينةِ يَسْتبْشِرونَ . قالَ : إنَّ هؤلاءِ ضَيْفِي فلا تفْضَحونِ . واتقُوا اللهَ ولا تخزُونِ . قالوا : أوَلَمْ نَنْهَكَ عن العالَمِينَ ؟ قال : هؤلاءِ بَناتي إن كنْتمْ فاعِلينَ . لَعَمْرُكَ إنهُمْ لَفِي سَكرَتِهم يَعْمَهونَ . فأخذَتهمْ الصَّيحةُ مُشْرِقِينَ . فجعَلْنا عالِيَها سافِلَها وأمْطرْنا عَليْهمْ حجارَةً من سِجّيلٍ . إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمِينَ . وإنَّها لَبِسَبيلٍ مُقيمٍ . إنَّ في ذلك لآية للمؤمنينَ . »

[الحجر ٥٧ — ٧٧]

« فلما جاء آل لوط المرسلون» مطلق كينونتهم عند آل لوط. أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم — عليه السلام — وتوجهوا تلقاء سادوم ، ونزلوا أضيافا على آل لوط ، أى على أسرته ، على منزله ...

« قال : إنكم قوم منكرون » انكم قوم تنكركم نفسى ، وتنفر منكم ، فأخاف أن تطرقونى بشر . انما قال — عليه السلام — حين ضاقت عليه الحيل ، وعيت به العلل، ولم يشاهد من المرسلين عند مقاساة الشدائد ، ومعاناة المكائد من قومه . الذين يريدون بهم مايريدون ، ماهو المعهود من الاعانة والامداد ، وتركهم نصره في مثل المضايقة المعترية له بسببهم ، حيث لم يكونوا — عليهم السلام — مباشرين معه لأسباب المدافعة والممانعة، حتى ألجأته إلى أن قال : « لوأن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

« قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون» أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون .

ويشكون ويكذبونك فيه «وأتيناك بالحق» بالأمر المحقق، المتيقن، الذى لامجال للافتراء، والشك فيه، وهو عذابهم «وإنا لصادقون» تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق، أى المطابق للواقع، وانا الصادقون فى ذلك الخبر، أوفى كل خبر، فيكون كالدليل على صدقهم فيه «فأسر بأهلك» اذهب بهم فى الليل «بقطع من الليل» بطائفة منه، أو من آخره.

أو: بعدمامضى منه شيء صالح. «واتبع أدبارهم» وكن على أثرهم، تذودهم، وتسرع بهم، وتطلع على أحوالهم «ولا يلتفت منكم» أى منك ومنهم «أحد» فيرى ما وراءه من الهول، مالايطيقه.

أو: فيصيبه العذاب. فالالتفات على ظاهره.

أو: لاينصرف أحدكم، ولا يتخلف لغرض فيصيبه مايصيب المجرمين. ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ماينزل بقومهم فيرقوالهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة، ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ماوراءهم «وامضوا حيث تؤمرون» إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضى إليه وهو الشام. وقيل مصر. وقيل: الأردن «وقضينا» أوحينا «اليه ذلك الأمر» مقضيا مثبتا «أن دابر هؤلاء مقطوع» بأن دابر هؤلاء والدابر الآخر، وليس المراد قطع آخرهم، بل استئصالهم حتى لايبقى منهم أحد.

«مصبحين» أى داخلين فى الصباح «وجاء أهل المدينة» المرادبالمدينة سدوم، وبأهلها أولئك القوم المجرمون، ولعل التعبيرعنهم بذلك للاشارة إلى كثرتهم، مع مافيه من الاشارة إلى مزيد فظاعة فعلهم. فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء، الواردين على مدينتهم، ويحسنوا المعاملة معهم، فهم عدلوا عن هذا اللائق مع من حسبوهم غرباء واردين، إلى قصد الفاحشة التى ماسبقهم بها أحد من العالمين، وجاء وامنزل لوط — عليه السلام —.

«يستبشرون» مستبشرين مسرورين إذقيل لهم: إن عنده — عليه السلام — ضيوفا مردا فى غاية الحسن والجمال، فطمعوا — قاتلهم الله تعالى — فيهم !!

«قال: إن هؤلاء ضيفى» أى أضيافى «فلاتفضحون» عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء، فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر،

أو : لاتفضحونى بفضيحة ضيفى ، فإن من أسىء الى ضيفه فقد أسىء اليه يقال فضحته فضحا وفضيحة، إذا أظهر من أمره مايلزمه به العار . «واتقوا الله» فى مباشرتكم لمايسوءنى. «ولا تخزون» أى لاتذلونى ، ولاتهينونى ، بالتعرض بالسوء لمن أجرتهم ، فهو من الخزى بمعنى الذل والهوان .

« قالوا : أولم ننهك عن العالمين ؟ » أى عن اجارة أحد منهم ، وحيلولتك بيننا وبينه؟، أو : عن ضيافة أحدمنهم ؟ أى . ألم نتقدم إليك ، ولم ننهك عن ذلك ؟ فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء . وكان — عليه السلام — ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه ويحول بينهم وبين من يعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن تعاطى مثل ذلك ، فكأنهم قالوا : ماذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لا من قبلنا .

« قال : هؤلاء بناتى» يعنى نساء القوم ، أوبناته حقيقة ، أى فتزوجوهن « إن كنتم فاعلين » شك فى قبولهم لقوله فكأنه قال . إن فعلتم ما أقول لكم ، وما أظنكم فاعلين .

وقيل . إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله تعالى دون ماحرم . « لعمرك » قسم من الله تعالى بعمر نبينا صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عباس . ماخلق الله تعالى ، وما ذرأ ، ومابرأ نفسا ، أكرم عليه من محمد صلى الله عليه ، أو ماسمعت الله سبحانه أقسم بحياة أحد غيره ، قال تعالى : (لعمرك) الخ ؟

والعمر . بالفتح والضم البقاء والحياة « إنهم لفى سكرتهم » أى لفى غوايتهم أو : شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم ،وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذى يشار به إليهم « يعمهون» يتحيرون فكيف يسمعون النصح . وأصل العمه عمى البصيرة وهو مورث للحيرة « فأخذتهم الصيحة » يعنى صيحة هائلة .

قيل : الصيحة مثل الصاعقة . فكل شىءأهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة «مشرقين» داخلين فى وقت شروق الشمس والجمع بين مصبحين ومشرقين — باعتبار الابتداء والانتهاء — بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح ، وانتهاؤه عند الشروق أوأخذ الصيحة قهرها اياهم وتمكنها منهم .

«فجعلنا عاليها سافلها» أى المدينة وما يتبعها من قرى «وأمطرنا عليهم» فى تضاعيف ذلك « حجارة » كائنة « من سجيل » من طين متحجر. « إن فى ذلك » فيما ذكر من القصة « لآيات » لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق .

«للمتوسمين» للناظرين . أو : للمتفرسين أو : للمعتبرين «وإنها» أى المدينة المهلكة ، « لبسبيل مقيم » أى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها « إن فى ذلك » فيما ذكر من المدينة ، أو القرى « لآية » عظيمة «للمؤمنين » بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولوطا .. آتيناه حكما وعلما ؟!

قال تعالى : « وَنَجَّيْنَاهُ ، ولوطا ، إلى الأَرْضِ ، التى بارَكْنا فيها للعالمينَ . ووهَبْنا له اسحاقَ ويعقوبَ نافلةً ، وكُلاًّ جَعَلْنا صالحينَ . وجعلناهُمْ أئمةً يهدون بأمْرنا وأوحَيْنا إليهمْ فِعْلَ الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة ، وكانوا لنا عابدين . ولوطاً آتيْناهُ حُكْماً وعلماً ، ونَجَّيْناهُ مِنَ القرْيَةِ التى كانَت تَعْمَلُ الخبائِثَ ، إنَّهُم كانوا قومَ سَوْء فاسقينَ . وأدْخَلْناهُ فى رحْمَتِنا ، إنَّهُ مِنَ الصالحينَ » . [الأنبياء ٧١ — ٧٥]

« ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » يريد نجينا ابراهيم ولوطا إلى أرض الشام ، وكانا بالعراق .

وقيل لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء . « وكلا جعلنا صالحين » أى وكلا من ابراهيم واسحاق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله ، « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى «بأمرنا» أى بما أنزلنا عليهم من الوحى والامر والنهى . فكأنه قال : يهدون بكتابنا « ولوطا آتيناه حكما وعلما » أى واذكر لوطا . والحكم النبوة ، والعلم المعرفة بأمر الدين ، ومايقع به الحكم بين الخصوم .

وقيل : علما ، فهما « ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث » يريد سدوم ، وفى الخبائث التى كانوا يعملونها : اللواط على ماتقدم . والضراط ، أى كانوا يتضارطون

فى ناديهم ومجالسهم « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين» أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج . « وأدخلناه فى رحمتنا » فى النبوة . « إنه من الصالحين » من الكاملين فى الصلاح .

أتأتون الذكران من العالمين ؟!

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ قومُ لُوطٍ المرْسَلينَ . إذْ قالَ لَهُمْ أخوهُمْ لوطٌ : ألا تتَّقونَ ؟. إنِّى لكُمْ رسولٌ أمينٌ . فاتَّقُوا اللهَ وأطيعُونِ . وما أسألُكُمْ عليهِ مِنْ أجْرٍ ، إنْ أجْرِى إلا على ربِّ العَالَمِينَ . أتأتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العالَمِينَ ؟. وتذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ ربُّكُمْ منْ أزواجكُمْ ؟!، بلْ أنتمْ قومٌ عادُونَ. قالوا : لئن لمْ تَنتَهِ يالوطُ لتكونَنَّ منَ المُخْرَجِينَ . قال : إنى لِعَمَلِكُمْ منَ القالِينَ . ربِّ نَجِّنِى وأهْلِى مما يعملونَ. فنجَّيْناهُ وأهلَهُ أجمعِينَ . إلا عجُوزاً فى الغابرينَ . ثم دمَّرْنا الآخرينَ . وأمطَرنا عليهم مَطراً، فساءَ مطرُ المنذَرينَ . إنَّ فى ذلك لآيةً ، وما كان أكثرُهم مؤمنينَ . وإنَّ ربكَ لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ » . [الشعراء ١٦٠ — ١٧٥]

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله لوط — عليه السلام — وكان الله قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة ابراهيم — عليهما السلام — وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التى أهلكها الله وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال البيت المقدس (١) .

فدعاهم الى الله عزوجل ان يعبدوه وحده لاشريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قدابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله ، من اتيان الذكور دون الاناث .

ولهذا قال تعالى : « أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون» لما نهاهم نبى الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور ،

---

(١) يعنى البحر الميت .

وأرشدهم الى اتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم ، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا « لئن لم تنته يالوط » أى عما جئتنا به « لتكونن من المخرجين » أى ننفيك من بين أظهرنا .

فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه ، وانهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال « انى لعملكم من القالين» أى المبغضين لاأحبه ، ولا أرضى به ، وانى برىء منكم ثم دعا الله عليهم فقال « رب نجنى وأهلى مما يعملون » قال الله تعالى « فنجيناه وأهله أجمعين» أى كلهم « إلا عجوزا فى الغابرين » وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقى من قومها .

لوط يصارع المجتمع الخبيث ؟!

وقال تعالى : « فآمَنَ لهُ لُوطٌ وقالَ : إنى مُهاجِرٌ إلى رَبِّى، إنهُ هوالعزيزُ الحكيمُ . ووهبْنا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا فى ذرِّيَّتهِ النبوةَ والكتابَ وآتيناهُ أجْرَهُ فى الدُّنيا ، وإنهفى الآخرةِ لَمِنَ الصالحينَ . ولوطاً إذْقالَ لقومِهِ : إنَّكُمْ لتأْتُونَ الفاحِشةَ ماسَبَقَكم بها مِنْ أحَدٍ مِنَ العالَمِينَ . أئنَّكُمْ لتأْتُونَ الرِّجالَ وتَقطَعونَ السَّبيل وتأْتُونَ فى نادِيكُمُ المُنكرَ ، فما كان جوابَ قوْمِهِ إلا أن قالوا : ائْتِنا بعذاب اللهِ إن كنتَ من الصادقينَ . قال : ربِّ انصُرْنِى على القوْمِ المُفْسِدِينَ . ولَمَّا جاءتْ رُسُلنا إبراهيمَ بالبُشرَى قالوا : إنّا مهلِكُوا أهْلِ هذهِ القرْيَةِ ، إنَّ أهْلَها كانوا ظالمينَ . قالَ : إنَّ فيها لوطاً ؟! ، قالوا : نحْنُ أعلَمُ بمَن فيها ، لَننَجِّينَهُ وأهْلَهُ إلاَّ امْرأَتهُ كانَتْ مِنَ الغابرينَ . ولَمَّا أنْ جاءتْ رُسُلنا لوطاً سِيءَ بِهِمْ وضاقَ بهِمْ ذرْعاً، وقالوا : لا تخَفْ ولا تحْزَنْ ، إنّا منَجُّوكَ وأهْلَكَ إلاَ امْرأَتَكَ كانَتْ مِنَ الغابِرينَ . إنَّا منزلُونَ عَلَى أهْلِ هذهِ القريةِ رِجْزاً مِنَ السماء بما كانوا يَفسُقُونَ . ولَقدْ ترَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لقَوْمٍ يعقلونَ . » [العنكبوت ٢٦ — ٣٥]

يقول تعالى مخبرا عن ابراهيم أنه آمن له لوط ، وكان ابن أخى ابراهيم . ولم يؤمن به

من قومه سواه ، وسارة امرأة ابراهيم الخليل . وهاجر معه إلى بلاد الشام . ثم أرسل فى حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها .

ويقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط — عليه السلام — أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال فى اتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ، ويخالفون ، ويقطعون السبيل ، أى يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ، ويأخذون أموالهم .

« وتأتون فى ناديكم المنكر » أى يفعلون مالا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لاينكر بعضهم على بعض شيئا من ذلك . فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملأ . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديكة . وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شرا من ذلك .

« الا امرأته كانت من الغابرين » أى من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم « ولقد تركنا منها آية بينة » جعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد .

ولهذا قال تعالى : « ولقد تركنا منها آية بينة » أى واضحة .

« لقوم يعقلون » كما قال تعالى «وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون »!!

فكلا أخذنا بذنبه ؟!

وقال تعالى : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحةُ ومِنْهُم مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأرض ومِنْهُم مَنْ أَغْرَقنا ، وما كانَ اللهُ لِيَظْلِمهُمْ ولَكِنْ كانوا أَنفُسَهُم يَظْلِمونَ . » [العنكبوت ٤٠]

« فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » قال ابن عباس فى قوله « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » قال قوم لوط . والحاصب الريح التى تحمل الحصا ، وهى الحصا الصغار . « ومنهم

من أُخذته الصيحة » يعنى ثمود « ومنهم من خسفنا به الأرض » يعنى قارون وأصحابه ، « ومنهم من أغرقنا » يعنى قوم نوح وفرعون وقومه .

الا .. عجوزاً ؟!

وقال تعالى : « وإنَّ لُوطاً لَمِنَ المرْسَلِينَ . إذْ نَجَّيْناهُ وأهلَهُ أجْمَعِينَ . إلاَّ عجُوزاً فى الغابِرِينَ . ثمَّ دَمرْنا الآخَرِينَ . وإنَّكُمْ لتمُرُّونَ عَلَيْهِم مصْبِحِينَ . وبالَّيْلِ ، أفلاَ تعقلُونَ ؟! . » [الصافات ١٣٣ — ١٣٨]

« ثم دمرنا الآخرين » أى بالعقوبة . « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين » خاطب العرب ، أى تمرون على منازلهم وآثارهم « مصبحين » وقت الصباح « وبالليل » تمرون عليهم أيضا « أفلا تعقلون » أى تعتبرون وتتدبرون ؟

فحق عقاب ؟!

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ قبلَهُمْ قومُ نوحٍ ، وعادٌ ، وفرعوْنُ ذو الأوْتادِ . وثمودُ ، وقومُ لوطٍ ، وأصحابُ لئيْكةِ ، أولَئِكَ الأحْزابُ . إن كلٌّ إلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فحقَّ عقَابِ . » [ص ١٢ — ١٤]

« أولئك الأحزاب » أى هم الموصوفون بالقوة والكثرة أى أولئك الأمم العتيدة الكثيرة العدد . « إن كل » بمعنى ما كلّ

« إلا كذب الرسل فحق عقاب » أى فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب . أى فنزل بهم عقابى .

فحق وعيد ؟!

وقال تعالى : « كذَّبَتْ قبلَهُمْ قومُ نوحٍ ، وأصحابُ الرَّسِّ ، وثمودُ ، وعادٌ ، وفرعَوْنُ ، وإخْوَانُ لوطٍ . وأصحابُ الأيكَةِ ، وقومُ تبَّعٍ ، كلٌّ كذَّبَ الرسُلَ ، فحَقَّ وَعيدِ . » [ق ١٢ — ١٤]

« كل كذب الرسل » من هذه الأمم المكذبة « فحق وعيد » فحق عليهم وعيدى وعقابى .

بيت واحد ... من المسلمين ؟!

وقال تعالى : « قالَ : فما خطْبُكُمْ أيها المُرسَلونَ ؟ . قالوا : إنّا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمينَ . لِنرْسِلَ عَلَيْهِمْ حجارةً من طينٍ . مُسَوَّمةً عندربِّكَ للمُسْرفينَ . فأخْرَجْنا من كانَ فِيهَا مِن المؤْمِنينَ . فما وجَدْنا فيها غيْرَ بَيتٍ من المسلمِينَ . وترَكنا فيها آيةً للذين يخافونَ العذابَ الأليمَ . » [الذاريات ٣١ — ٣٧]

« قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » يريد قوم لوط « لنرسل عليهم حجارة من طين » أى لنرجمهم بها « مسومة » معروفة بأنها حجارة العذاب « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » يعنى لوطا وبنتيه . أى : فماوجدنا فيها غير أهل بيت .

والمؤتفكة أهوى ؟!

وقال تعالى : « والمُؤْتفِكَةَ أهْوَى . فغَشاها ما غَشَّى . » [النجم ٥٣ — ٥٤]

فطمسنا أعينهم ؟!

وقال تعالى : « كذَّبتْ قومُ لُوطٍ بالنُّذُرِ ، إنا أرْسَلْنا عَليْهِمْ حاصباً إلّا آلَ لوطٍ ، نجَّيْناهُم بسَحَرٍ . نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا ، كذلِكَ نجزى مَنْ شَكرَ . ولقَدْ أنذرَهم بطْشتَنا فتَمارَوْا بالنُّذُرِ . ولقَدْ راوَدُوهُ عَن ضَيفِهِ فطَمَسنا أعْينَهُم فذُوقُوا عَذابى ونُذُرِ . ولَقَدْ صَبَّحَهُم بُكرَةً عذابٌ مُسْتقرٌ . فذوقُوا عَذابى ونُذُرِ . »

[القمر ٣٣ — ٣٩]

امرأة لوط ؟!

وقال تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثلا للذين كفروا امْرأَتَ نوحٍ وامرأَتَ لُوطٍ ، كانَتا تحتَ عبْدَيْنِ منْ عبادِنا صالحَيْنِ ، فخانَتاهُما ، فلَمْ يغْنِيا عَنْهما مِنَ اللهِ شيْئاً وقِيلَ ادْخُلاَ النارَ مَعَ الداخِلينَ . » [التحريم ١٠]

كيف كانوا ... وكيف ذهبوا ؟!

والآن ... ما هي القصة ... وكيف كانوا ... ... وكيف ذهبوا ؟ انهم قصة ليست دخيلة على قصة ابراهيم ... وانما هي مشهد من حياته ... فلوط هو ذلك الشاب الذى أعجب بعمه وهو يصارع الباطل وحده ... ويحاكم وحده ... ويلقى فى النار وحده ... فيآمن له لوط ...

ثم قال لوط : انى ذاهب إلى ربى ... وهاجر مع عمه ابراهيم إلى الشام ... ثم افترقا. فاستقر لوط فى تلك القرى التى عاصمتها سدوم ... التى كانت تعمل الخبائث ... واستقر ابراهيم بفلسطين ... ولما اقحطت بلاد الشام رحل مع عمه إلى مصر ... ثم عادا إلى مستقرها ... ويعث الله لوطا نبيا رسولا إلى تلك القرية سدوم ومن حولها ...

وانتهض لوط يدعوهم إلى الله ، فلم يستجب له منهم أحد ... لا أنثى ولا ذكر !!! إلا ابنتاه ... كانتا مؤمنتين به ...

أما زوجه فكانت كافرة ... لاتؤمن به ولابرسالته !!! وكانت تلك القرية سدوم التى استقر فيها لوط رسولا تعمل الخبائث كلها .... يأتون الذكران ... ويتركون اتيان النساء ... فهم يرتكبون جريمتين ... جريمة اتيان الذكور ... وجريمة الاعراض عن زوجاتهم اللائى لهن حق فى ذلك مشروع !!

ويقطعون السبيل ... يعتدون على المارة بالطريق ... ويسرقونهم ... ويأتون الرجال منهم !! ويأتون بناديهم المنكر ... مجتمعاتهم كلها تدور على الاجرام ... يأتون فيها الذكور ، ويفعلون كل مايمكن أن يتصور إنسان من الخبائث ...

وكانوا على الغاية من الفجور والإنهيار ... فهم لايستحون أن يأتوا الذكور علانية.. جهارا ... نهارا !! الخلاصة ... شعب فاجر ... عاهر ... ممسوخ ... بلغ به الانهيار أقصاه ... وقام لوط يناديهم ... ولا حياة لمن تنادى ...

دعاهم إلى الله ...والى التنزه عن تلك الفاحشة ... وعن غيرها من الجرائم ...ولكن القوم كانوا قد بلغوا أحط درجات الانهيار ... فلم يفلح معهم نذير ولا وعيد ...

بل لم يقفوا عندحد التكذيب .. وانما بلغت بهم الوقاحة حدا .. جعلهم يستهزءون بلوط ... ويتحدونه أن يأتيهم بذلك العذاب الذى يهددهم به ...

فنادى لوط ربه : رب انصرنى على القوم الفاسقين ... فاستجاب له ربه ...

وكان ابراهيم قد بلغ مائة وعشرين عاما ... ويقيم فى بلاد فلسطين ... قريبا جدا من قرى لوط ... وكانت سارة قد بلغت تسعين عاما ... وفى ذات يوم فوجىء ابراهيم بمجموعة من الرجال يدخلون عليه ... وكانوا على أجمل صورة ... وأحسن هيئة ...

وبشروه بغلام عليم ... ثم أخبروه أنهم سوف يدمرون قرى لوط بما كانوا يفسقون ... فجادلهم ابراهيم : كيف تدمرون لوطا وهو من المؤمنين ؟!

قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله أجمعين . الا عجوزا فى الغابرين ... وخرجوا من عنده ... واتجهوا فى نفس النهار إلى سدوم ... ودخلوا ... رجالا على الغاية من جمال الخلقة ... وقصدوا بيت لوط ... فكان أعجب ما كان من رجال تلك القرية سدوم ...

انهم جاءوا جميعا اليه يهرعون ... يراودونه عن هؤلاء الرجال ... ان يخلى بينهم ليأتوهم !! فاغلق لوط بابه دونهم ...

وجعل يصدهم عن ضيوفه ... وهم يحاولون اقتحام الباب ... والهجوم على الضيوف ، ليأخذوهم ويفعلوا بهم ما يريدون ... ولما عجز لوط عن مدافعتهم ، وحار فيهم ... وخاف الفضيحة فى ضيفه ...

عرض عليهم بناته ... بدلا من هذا الخزى الذى يطالبون ... فأبوا ... وقالوا : مالنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم مانريد ... أى انهم لا يريدون النساء ، وانما يريدون هؤلاء الرجال ؟!!!

وهجموا على الباب ... يتدافعون اليه ... يريدون اقتحامه ... حتى قال لوط : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ؟!

ولما بلغت الأزمة أشدها ... وظن لوط أنهم داخلون لامحالة ... هنالك طمأنه الرسل ... وكشفوا عن حقيقتهم .... إنا رسل ربك ... إنهم لن يصلوا إليك ...

واشتد هجوم المجرمين على بيت لوط ... فانهار الباب ... ودخلوا كالوحوش الكاسرة ... يريدون أن يتخطفوا أولئك الرجال الحسان ...

هنالك وقع الحق ... فطمسنا أعينهم !!! طمس الله عيونهم جميعا ... فانقلبوا عميا لا يبصرون ... ولا يهتدون سبيلا !!! فارتدوا خاسئين ... وهم يتوعدون لوطا ...

وما أن هدأت المعركة ... وتفرق المجرمون ... حتى أخبر الرسل لوطا بكل شيء ... إن الله قرر تدمير تلك القرى ... إن الله يأمرك أن تأخذ ابنتيك وترحل عن هذه البلاد ...

عليك أن تخرج فى السحر خفية بابنتيك ... ولا تأخذ زوجك ... ان الله قرر أن تهلك مع الهالكين ... وكن على آثارها ... ولا يتخلف منكم أحد ... ولا يلتفت وراءه فيصيبه من الهول الذى سيقع بهم ...

وفى السحر ... خرج لوط باهله ... ابنتاه ... فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ... هو لوط وابنتاه ... هذه هى حصيلة دعوة رسول فى قومه ؟!! ورحل لوط وابنتاه أمامه ... فى الظلام ... ولم يلتفتوا وراءهم ... ولما كان الصباح .. عند شروق الشمس ... جاء أمر ربك ...

فحملت تلك القرى حملة واحدة إلى أعلى حتى إن أهل السماوات كانوا يسمعون صياح الديكة التى تصيح فيها ... ثم قلبت ... ودكتا دكة واحدة ... فجعلنا عاليها سافلها ...

ثم ماذا ؟ أمطر الله عليها مطرا شديدا من حجارة كبريتية ... خصصت لعذاب من شاء من عباده ... فأهلكت ما بقى فيها من آثار الحياة اهلاكا تاما ...

وتركها الله تعالى هكذا ... قرى مهلكة .... مقلوبة ... عبرة لمن يعتبر ...

هذه هى الواقعة العظمى ... التى وقعت بالقرب من ابراهيم ... وكان يعلمها قبل أن تقع ...

وجادل فيها الملائكة ... وجادل فيها ربه ... يريد أن يؤخر الله عذابهم لعلهم يرجعون ...

« يجادلنا فى قوم لوط ... يا إبراهيم أعرض عن هذا ... لقد جاء أمر ربك ... انهم آتيهم عذاب غير مردود » !!!

تحققت المعجزة ... وولدت سارة ؟!

ثم كان ما كان من تحقق أمر الله تعالى ... وعاد الشباب إلى سارة ... وحملت سارة بعد يأس وكبر ... وولد لابراهيم منها غلام عليم ... وسموه « إسحاق » ...

وترعرع اسحاق ليكون قرة عين له ولها ... ويكون بعد ذلك رسولا نبيا ...

ويكون منه ذلك الفرع المبارك المقدس ... الذى انبت تلك السلسلة الخالدة من الأنبياء من بنى اسرائيل ... حتى انتهت بالمسيح عليه السلام ...

وشب اسحاق ... وبلغ ... وتزوج زوجة جميلة ... فولدت له « يعقوب » ... ومن يعقوب كان الأسباط ...

أى وُلد ليعقوب اثنى عشر ولدا ... وكان منهم يوسف ...

ثم من هؤلاء الأسباط كانت قبائل بنى إسرائيل ... ومنهم كان فيا بعد موسى وهارون ... وداود وسليمان ... وأيوب ... حتى اختتم الفرع بزكريا ويحيى ...

وكان آخر النبوة فيه المسيح عيسى عليه السلام ...

ويشير الله تعالى إلى ذلك بقوله : « فلمَّا اعتزَلَهُمْ ومايعبدُونَ من دون اللهِ وهبْنا لهُ إسحاقَ ، ويعقوبَ ، وكُلاًّ ، جعَلْنا نبيًّا . ووهَبْنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهمْ لسانَ صِدْقٍ عَليًّا . [مريم ٤٩ — ٥٠]

« فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله » بالمهاجرة «وهبنا له إسحاق ويعقوب » بدل من فارقهم من أبيه وقومه الكفرة لكن لاعقيب المهاجرة .

المشهور أن أول ما وهب له ـ عليه السلام ـ من الأولاد اسماعيل ـ عليه السلام ـ فبشرناه بغلام حليم — أثر دعائه بقوله « رب هب لى من الصالحين » وكان من هاجر .

فغارت سارة ... فحملت باسحاق — عليه السلام — فلما كبر ... ولد له يعقوب — عليه السلام — .

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعم التى اعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والاقرباء فانهما شجرتا الأنبياء ، ولهما اولاد واحفاد أولو شأن خطير ، وذوو عدد كثير ، مع أنه سبحانه أراد أن يذكر اسماعيل — عليه السلام — بفضله على انفراد .

« وكلا » أى وكل واحد من اسحاق ويعقوب أومنهما ومن ابراهيم — عليه السلام — « جعلنا نبيا » أى كل واحدمنهم جعلنا نبيا « ووهبنالهم من رحمتنا » النبوة .

وقيل : المال والولد وقيل : هو الكتاب والأظهر أنها عامة لكل خيرديني ودنيوى أوتوه مما لم يؤت أحد من العالمين .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » يفتخر بهم الناس ، ويثنون عليهم ، استجابة لدعوته — عليه السلام — بقوله « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » وزيادة على ذلك والمراد باللسان مايوجد به من الكلام .

ووصفه بالعلو للدلالة على انهم احقاء بما يثنون عليهم ، وان محامدهم لاتخفى كأنها نار على علم ، على تباعد الأعصار ، وتبدل الدول ، وتغير الملل والنحل .

وخص بعضهم لسان الصدق ، بما يتلى فى التشهد (كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) والعموم اولى .

وقال تعالى : « ووهَبْنا له إسحاقَ ، ويعقوبَ ، نافلةً ، وكلاًّ جعلْنا صالحينَ . وجعلناهُمْ أئمةً يهدونَ بأمرنا ، وأوحَيْنا إليهمْ فِعلَ الخَيراتِ ، وإقامَ الصلاة ، وإيتاء الزكاةِ . وكانوا لنا عابدينَ » . [الأنبياء ٧٢ — ٧٣]

« وكانوا لنا عابدين » لايخطر ببالهم غير عبادتنا . وكانو لنا ؟!! خاصه دون غيرنا ...

انها سلالة ابراهيم ... انها امامة ابراهيم تتسلسل فيهم ... انها الكلمة الباقية فى عقبه ...

انا أخلصناهم !!

وقال تعالى : « واذْكُرْ عبادَنا إبراهيمَ ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ ، أولى الأيدى والأبصارِ . إنا أخْلَصْناهم بخالِصَةٍ ذِكْرى الدارِ . وإنَّهمْ عندَنا لمِنَ المصطَفَيْنَ الأخْيارِ » .
[ص ٤٥ — ٤٧]

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب » وخص بعنوان العبودية لمزيد شرفه .

« أولى الأيدى والأبصار » أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين .

الايدى : مجاز مرسل عن القوة . والأبصار : جمع بصر بمعنى بصيرة .

أو : أولى الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة . وقيل : الايدى : النعم : أى أولى النعم التى أسداها الله تعالى إليهم من النبوة والمكانة .

أو : اولى النعم والاحسانات على الناس بارشادهم ، وتعليمهم اياهم .

« إنا أخلصناهم بخالصة » وتنوينها للتفخيم « ذكرى الدار » بيان لها . بعدابهامها للتفخيم . أى الدار الأخرة .

وفيه اشعار بانها الدار فى الحقيقة . أى : جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة جليله الشأن ، لاشوب فيها ، هى تذكرهم دائما الدارالآخرة فإن خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم اياها .

وذلك لأن مطمح أنظارهم ، ومطرح أفكارهم ، فى كل مايأتون ويذرون ، جوار الله عزوجل ، والفوز بلقائه ، ولايتسنى ذلك إلا فى الآخرة .

وقيل : أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللطف بهم فى اختيارها . وقيل : إن ذكرى الدار تذكيرهم الناس الآخرة . وترغيبهم اياهم فيها ، وتزهيدهم اياهم فيها على وجه خالص من الحظوظ النفسانية ، كما هو شأن الانبياء — عليهم السلام — .

وقيل : المراد بالدار الدار الدنيا . وبذكراها ، الثناء الجميل ، ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم أى : اناخصصناهم بالذكر الجميل فى الاعقاب أى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

« وانهم عندنا لمن المصطفين » أى المختارين من بين ابناء جنسهم عنده تعالى « الأخيار » الفاضلين عليهم فى الخير وهو جمع خير مقابل شر .

إنها سلسلة ... تتوارث النبوة ... تتوارث الاخلاص ... تتوارث الكلمة الباقية ... عبادنا ... ابراهيم ... وإسحاق ... ويعقوب ...

عبادنا ؟!! مخصصوا لنا ... وحدنا ... عبادنا ؟!! فيها مالايعلمه إلا الله تعالى عنهم ... إنهم فى قمة مقام العبودية !!!

زواج اسماعيل ؟!

والآن نعود مره أخرى إلى اسماعيل — عليه السلام — وقد تركناه قليلا . واستطردنامع ابراهيم وهو يتلقى البشرى باسحاق ، ثم يتلقى البشرى باهلاك قوم لوط ، ثم استطردنا مع اسحاق ، حين ولد وحين ترعرع ، وحين بعث نبيا ...

والآن نعود ثانية إلى اسماعيل — عليه السلام — وقد تركناه عند مرحلة « وشب الغلام » التى وردت فى ذلك الحديث الذى رواه البخارى ...

والآن نعود إلى نفس الحديث ونصل ماانقطع منه هناك ...

« ... فلما أدْرَكَ زَوَّجوهُ امرأةً مِنْهُمْ ... » [البخارى]

« زوجوه امرأة منهم » وعن ابن اسحاق : ان اسماعيل خطبها إلى ابيها فزوجهامنه.

إن اسماعيل اذن قد أدرك ... قد بلغ مبلغ الرجال ... وتاقت نفسه إلى الزواج ... فتزوج امرأة من أولئك الذين وفدوا يساكنوهم حول زمزم ...

وقد رغبوا جميعا فى مصاهرته ، وتنافسوا عليه ... لمايرون من امتيازه... وكيف لا... وفيه جمال أبيه ... ونبوة أبيه ؟!

وفى رواية البخارى الأخرى : « فبَلَغَ ابْنُها ، فنَكح فيهم امرأةً »

موت أم اسماعيل ؟!

« وماتتْ أمُّ إسماعيلَ ... » [البخارى]

« وماتت أم اسماعيل » يعنى فى خلال ذلك وفى رواية عطاء بن السائب : فقدم ابراهيم وقد ماتت هاجر عليها السلام ، وكان عمرها تسعين سنة ، فدفنها اسماعيل عليه الصلاة والسلام فى الحجر .

لقد ماتت هاجر ... بعد أن أدت دورها ... وتركت اسماعيل رجلا ... له زوجة ..

لماذا طلق اسماعيل زوجته ؟!

« ... فجاء إبراهيمُ بعْدَ ما تزوَّج إسماعيلُ ، يُطالِعُ تركتهُ .

« فلم يجدْ إسماعيلَ

« فسألَ امرأتهُ عنه

« فقالتْ : خرَجَ يَبْتَغِى لنا

« ثم سألهَا عن عَيشهمْ وهيْئتهمْ

« فقالتْ : نحنُ بشرٍّ ، نحنُ فى ضيقٍ ، وشدَّةٍ

« فشكَتْ إليهِ

« قال : فإذَا جاء زوجُكِ ، فاقرَئى عَليْهِ السلامَ ، وقولى له يُغيِّرْ عَتبةَ بابِهِ

« فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنَّهُ آنسَ شَيئًا

« فقال : هل جاءكُمْ مِنْ أحدٍ ؟

« قالتْ : نَعمْ . جاءنا شيْخٌ كذا وكذا ، فسألنا عنكَ ، فأخبرتُهُ ، وسألنى كيفَ عيشُنا ، فأخبرتهُ أنا فى جَهدٍ وشدَّةٍ

« قال : فهل أوصاكِ بشىء ؟

« قالت : نعمْ أمرَنى أنْ أقرأَ عليْكَ السلامَ ، ويقولُ غيِّرْ عتَبَةَ بابِكَ

« قال : ذاكِ أبى وقدْ أمرَنى أنْ أفارقكِ الحَقِى بأهْلكِ

« فطلقها .. وتزَوَّج مِنْهم أخرَى ... » [البخارى]

« يطالع تركته » أى يتفقد حال ما تركه هناك . والتركة ، بمعنى المتروكة والمراد بها أهله ، والمطالعة النظر فى الأمور .

« خرج يبتغى لنا » أى يطلب لنا الرزق وفى روايه ابن جريج : وكان عيش اسماعيل الصيد ، يخرج فيتصيد . وفى حديث ابى جهم ، : ولكن اسماعيل يرعى ماشية ، ويخرج متنكبا قوسه ، فيرمى الصيد .

« ثم سألها عن عيشهم » وزاد فى رواية عطاء بن السائب : وقال : هل عندك من ضيافة ؟

« فقالت : نحن فى ضيق وشدة » وفى حديث أبى جهم : فقال لها : هل من منزل ؟ فقالت : لاها الله إذا . قال : فكيف عيشكم ؟ . قال : فذكرت جهدا . فقالت: أما الطعام فلاطعام ، وأما الشاء فلا نحلب الا المصر أى الشخب ، واما الماء فعلى ما ترى من الغلظ (الشخب : السيلان) .

« يغير عتبة بابه » هى ههنا كناية عن المرأة .

« جاءنا شيخ كذا وكذا » وفى رواية عطاء بن السائب : كالمستخف بشأنه.

«ذاك أبى » أى ذاك الذى هو أبى ابراهيم . « وتزوج منهم أخرى » أى تزوج من جرهم امرأة اخرى .

* * *

إنها واقعة عظيمة من وقائع ابراهيم ... وما اكثر عظائمه !

كان من دأبه أن يتردد على هاجر وابنها ... فيسافر من الشام حيث كان يقيم ، إلى وادى مكة حيث كانت هاجر تقيم ...

وقد روى أن ابراهيم كان يزور هاجر كل شهر ... ثم كان ما كان ... وتزوج اسماعيل ... وماتت هاجر ... فلم يعد هناك حاجة بابراهيم أن يتردد كل شهر على أهله ...

وانما كان يتردد بعد ذلك ... كلما رأى أن يطالع تركته هناك ... وفى ذات يوم سافر ابراهيم إلى وادى مكة ... وجاء منزل ابنه اسماعيل فلم يجده ... وسأل زوجته عنه فأخبرته أنه خرج يصيد كعادته ... ثم جعل يختبرها فسألها عن حالهم ... فانطلقت تسب

حالها . وتنعى حظها ، وتندب عيشها ... فعلم ابراهيم انها امرأة كفورة بنعم ربها ... ثم تأكد له ذلك حين سألها : هل من منزل ؟

فقالت : لا ؟!!

فكيف عيشكم ؟

فقالت : أماالطعام فلا طعام . وأما الشاء فلا نحلب إلا الشخب، وأما الماء فعلى ماترى من الغلظ ؟!!

انها امرأة كفورة ... وبلغة العصر الحاضر متشائمة ... فهى لاترى من نعم الله شيئا ...

كذلك المثل المشهور ... رجلان ... أحدهما شاكر أى متفائل ... والآخر كافر أى متشائم ... رأيا كوبا ممتلئا إلى نصفه بالماء ... أما الشاكر فإنه يقول : الكوب ممتلىء إلى نصفه بالماء ... وأما الكافر فإنه يقول : الكوب نصفه فارغ ليس به ماء !!

فهذه المرأة لم ترمن الطعام شيئا يذكر ... فقالت : أما الطعام فلا طعام !! ولم تر من لبن الشاء شيئا فقالت : أما الشاء فلا نحلب إلا الشخب ... ولم تر من الماء بزمزم شيئا فقالت : وأما الماء فعلى ماترى من الغلظ ؟!

حتى الماء عميت عنه حتى وصفته بالغلظ ؟! انها امرأة كفورة ... متشائمة ... ويصور نفسيتها قولها : نحن فى ضيق وشدة ...

إنها لاترى من حياتها الزوجية إلا أنها فى ضيق وشدة !!!

أما اسماعيل ... ذلك الشاب الرائع ... الشجاع ... القوى ... العظيم ... الذى تستمتع بشبابه ... وجماله ... وأماتلك اللحوم التى يأتيها بها من حصيلة صيده كل يوم ... كل هذا لاتراه ... وانما ترى الجانب الفارغ من حياتها ...

انها فى ضيق وشدة !! امرأة كفورة ... لاينبغى أن تكون زوجا لاسماعيل ... انها على النقيض منه ... فهو الشاكر لأنعم الله ... وهى الكافرة بأنعم الله ...

وعلى الفور صدر أمر إبراهيم إلى ابنه : غير عتبة بابك ...

وأدركها اسماعيل على الفور فقال : أنتِ ذاك ... فاذهبي إلى أهلك !!!

واقعة عظيمة ... من ابراهيم ... وواقعة أعظم ... من اسماعيل ...

أما ابراهيم ... فمنه عظيمة بأنه اختبر المرأة ... حتى رأى باشعاع النبوة أنها ليست أهلا لابنه ... وأنها كفورة بربها ... فأمره أن يفارقها ...

وأما من اسماعيل ... فطاعته لأبيه ... وسرعة امتثاله لأمره .. فما أن اتمت حديثها ... حتى كان قد سرّحها !!!

إنه اسماعيل ... لا يعصى لأبيه أمرا !!! وكيف يعصيه وهو أبوه ... فوق ما هو رسول الله اليه ؟

أو كيف يعصيه ... وهو يعلم بما أودع الله فيه من نور النبوة ... أن ابراهيم لا ينطق عن الهوى ؟!

فى ظلال الزوجة الشاكرة ؟!

« ... فلبثَ عنهُمْ إبراهيمُ ماشاءَ اللهُ ، ثم أتاهُمْ بعدُ

« فلم يجدْهُ

« فدخلَ على امرأتِهِ ، فسألها عنه

« فقالتْ خرجَ يبتغى لنا

« قال : كيفَ أنتُمْ ؟

« وسألها عن عيْشِهِمْ ، وهيئتِهِمْ

« فقالتْ : نحنُ بخيْرٍ ، وسعَةٍ

« وأثنتْ على اللهِ

« فقالَ : ما طعامُكُمْ ؟

« قالتِ : اللحْمُ

« قال : فما شرابُكُمْ ؟

« قالت : الماءُ

« قال : اللهُمَّ بارِكْ لهُمْ في اللحْمِ والماءِ

« قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولمْ يكنْ لهُم يومَئذٍ حبٌّ ، ولو كانَ لهُم دعا لهُم فيه .

« قال : فهما لا يَخلو عليْهما أحدٌ بغيرِ مكةَ إلا لم يُوافِقاهُ

« قال : فإذا جاء زَوجكِ فاقرَئي عليه السلامَ ، ومريهِ يثْبت عتبَةَ بابِهِ .

« فلمَّا جاءَ إسماعيلُ قال : هلْ أتاكُمْ مِنْ أحدٍ ؟ « قالت : نَعمْ أتانا شيخٌ ، حَسَنُ الهيئةِ

« وأثنَتْ عليهِ

« فسألني عنْكَ ، فأخْبرتُهُ

« فسألني : كيف عيْشُنا ، فأخبرتُهُ أنَّا بخيرٍ

« قالَ : فأوصاكِ بشيْءٍ ؟

« قالتْ : نَعَم . هُوَ يقرَأُ عليكَ السلامَ ، ويأمُركَ أن تُثْبِتَ عتَبةَ بابِكَ

« قال : ذاكِ أبي ، وأنتِ العَتبةُ . أمَرَني أنْ أُمسِكَكِ » . [البخارى]

« نحن بخير وسعة » وفى حديث أبى جهم : نحن فى خير عيش بحمد الله ، ونحن فى لبن كثير ، ولحم كثير ، وماء طيب .

« اللهم بارك لهم فى اللحم والماء » وفى رواية ابراهيم بن نافع : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم «فهما لا يخلو عليهما أحد» أى فاللحم والماء لا يعتمد عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه .

والغرض أن المداومة على اللحم والماء لا يوافق الامزجة ، وينحرف المزاج عنهما ، الا فى مكة فانهما يوافقانه وهذا من جملة بركاتها ، وأثر دعاء ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

وفى حديث أبى جهم : ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة الا اشتكى بطنه يقال خلوت بالشيء واختليت به اذا لم تخلط به غيره .

« هل أتاكم من أحد ؟ » وفى رواية عطاء بن السائب : فلما جاء اسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامراته : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم : شيخ أحسن الناس وجها ، وأطيب ريحا .

« ان تثبت عتبة بابك » وفى حديث أبى جهم : فإنها فلاح المنزل .

« ان امسكك » وفى حديث أبى جهم : ولقد كنت على كريمة ، ولقد ازددت على كرامة ، فولدت لاسماعيل اثنى عشر رجلا وهم : نابت . قيدار . اذميل . ميشى . مسمع . ذوما . ماش . ازر . فطور . نافش . ظميا . قيدما .

وكانت له إبنة تسمى نسمة .

* * *

وهنا يتلالأ ابراهيم نورا عظيما ... لايمكن أن يكون إلا من ابراهيم !

إنه عاد بعد مدة ... فوجد اسماعيل قد تزوج أخرى ... فقال : أين اسماعيل ؟

فقالت : ذهب يصيد ... ألا تنزِلُ فتطْعَمَ وتَشْرَبَ ؟

وهنا تفترق هذه الزوجة ... عن الأخرى ... من أول لحظة ...

إن الأولى لم تدعه إلى النزول ، ولم تدعه إلى طعام ، أو شراب ... بل ذهبت توصد الأبواب فى وجهه ... أما الطعام فلا طعام ، وأما اللبن فلا شىء إلا الشخب ... كأنها تقول له : لاضيافة ... ارجع من حيث أتيت !!!

أما هذه فتقول : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟!!

فارق كبير جدا بين نفسية ونفسية ... هذه تصد ابراهيم صدودا ... وهذه تدعوه وتدعوه ...

إنه الفارق بين نفس مظلمة ، كفورة ... وأخرى منيرة ، شكورة ...

فقال الشيخ : وماطعامكم ، وما شرابكم ؟!

قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء .

قال : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم . وسألها عن عيشهم ، وهيئتهم .

فقالت : نحن بخير ، وسعة ، وأثنت على الله ...

بل فى رواية أنها قالت : نحن فى خير عيش ... بحمد الله : ونحن فى لبن كثير ... ولحم كثير ، وماء طيب !!

وهنا تفترق النفسيتان افتراقا عظيما ... كما ينفلق الليل عن النهار ، إذا انشق الصباح ..

نفس العيشة ... لم يتغير شىء من حياة اسماعيل ... ومع هذا يكون تعبير هذه عن حالهما نحن فى خير عيش ، بحمد الله ، ونحن فى لبن كثير ، ولحم كثير ، وماء طيب...

بينما يكون تعبير الأخرى عن نفس المستوى ، ونفس العيش : نحن بشر ، نحن فى ضيق ، وشدة ...

أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاء فلا نحلب إلا الشحب ، وأما الماء فعلى ماترى من الغلظ !!!

هذه تقول : نحن فى خير عيش . والأخرى تقول : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة !!! وهذه تقول : بحمد الله ... وهذه لاتذكر الله ... ولا وجود له فى تفكيرها !!!

وهذه تقول : نحن فى لبن كثير .

والأخرى تقول : أما اللبن فلا نحلب إلا الشحب !!! وهذه تقول : ولحم كثير والأخرى تقول : أما الطعام فلاطعام . وهذه تقول : وماء طيب والأخرى تقول : أما الماء فعلى ماترى من الغلظ !!!

افتراق ... نفسيتان على النقيض ... بينهما من البعد كما بين المشرقين ... وبينهما من الاختلاف كما بين الظلام والنور ...

هذه ترى كل شىء حسنا وكثيرا وطيبا ... والأخرى ترى كل شىء رديئا وقليلا وسيئا !!! وهذا كله ناشىء عن سبب واحد ...

أن هذه شكورة ... والأخرى كفورة ... أن هذه تعرف ربها وتشكره ... والأخرى لاتعرف ربها ولاتشكره ...

وقد وضح هذا جدا ... فى أن الشاكرة أثنت على الله وقالت : بحمد الله ... بينما

الأولى لم تذكر الله اطلاقا فى حديثها ... وفى أن الشكورة دعته أن ينزل ، وأن يطعم ، وأن يشرب ... بينما القديمة دفعته دفعا بسوء حديثها أن يرحل عنهم !!!

شيخ ... أحسن الناس وجها ؟!

ثم كان من تعبير الشكورة حين سألها إسماعيل : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم ، شيخ ، أحسن الناس وجها ، وأطيب ريحا !!

بينما الأخرى حين سألها ، أجابته فى استخفاف ، كأنها تحقر من شأن ذلك الشيخ ... جاءنا شيخ كذا وكذا !!!

هذه تعظم من شأن الرجل الزائر ... وتراه أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا ... وهذه تستخف بشأنه !!!

وهذا أول الدلائل على أن هذه مؤمنة شاكرة ... وهذه كافرة ناكرة ...

أما الشاكرة المؤمنة فرأت ببصيرتها ، واحساس قلبها السليم أن هذا القادم يزورهم رجل عظيم الباطن والظاهر ... يتلألأ فيه نور النبوة ، وجلال المقام ... فكانت تعبيرها عنه : أحسن الناس وجها ، وأطيبهم ريحا ... وعن نفس الشخصية ، وعن نفس المنظر كان تعبير الأخرى : شيخ شأنه كذا وكذا ... فى استخفاف وعدم مبالاه ...

وماذا ترى هذه الكفورة من ابراهيم إلا أنه ضيف ثقيل جاء يشاركهم طعامهم القليل ولبنهم النادر ؟ انها مادية ... لاترى من نور ابراهيم شيئا ...

أما الأخرى ... ففى قلبها نور ... كشف لها من حقيقة ابراهيم ... وعظمة ابراهيم ... وجلال ابراهيم ...

هنالك ... استبان لابراهيم أن هذه هى المرأة اللائقة باسماعيل .

هنالك قال لها : مريه أن يثبت عتبة بابه !! نعم ... هذه هى المرأة التى عبر عنها ابراهيم ..

فانها فلاح المنزل ؟!

فى تلك الرواية التى تروى عن ابراهيم ... « فإنها فلاح المنزل » ... هذا رأى ابراهيم فى تلك المرأة ... وفى كل امرأة شاكرة ... ومن هنا أمره أن يثبت عتبة بابه ... أن يستمسك بها ... فإنها فلاح منزله ...

لماذا ؟ ... وماوجه الأهمية فى هذا ؟.

وجهه أن اسماعيل نبى ... ورسول ... فهو قمة فى معرفة الله ... والشكر لله ... ونفسية كهذه عبارة عن نور يتحرك ... فهى أحوج ماتكون إلى شريكة حياة منيرة مؤمنة ... أما أن تكون الشريكة مظلمة كفورة ... فهذا شىء يتناقض ... ويؤدى إلى الشقاء ...

وابراهيم قد ذاق حلاوة معاشرة المرأة المؤمنة ... حين عاشر سارة سيدة نساء زمانها ... المؤمنة ... وهو يحرص على أن ينعم ابنه اسماعيل بتلك النعمة ... الكبرى ... لتتواءم شخصيته النورانية ... مع شخصية زوجه ... فيكون بينهما الخير والسعادة ... ثم هو يرى بنور النبوة ان اسماعيل مرشح من قبل الله تعالى ليكون رأس فرع مبارك ... ينتهى بنبوة عليا ... فلابد إذا أن يصطفى له زوجة مؤمنة ... شاكرة ... مخلصة ...

فكانت هذه الزوجة ... وكان لاسماعيل منها اثنى عشر ولدا ... ثم كان من هؤلاء الاثنى عشر ذلك الشعب العربى العظيم ... الذى انبثق عنه ذلك النبى العربى العظيم ...

كما كان من اسحاق يعقوب ... وكان من يعقوب أولئك الأسباط الاثنى عشر ... حيث انبثقت منهم تلك السلسلة المباركة من أنبياء بنى اسرائيل ...

اسماعيل ... يزداد حبا لزوجته ؟!

هنالك قال اسماعيل فى حب واكبار لزوجته الشاكرة : ولقد كنت على كريمة ، ولقد ازددت على كرامة ...

لقد كان اسماعيل يحب زوجته الجديدة لما يرى فيها من شمائل الشكر والأيمان بالله ...

ولما كانت تشيعه فى حياته من جو التفاؤل والرضى والقناعة ... فلما أن جاء والده العظيم ... وأمره أن يثبت عتبة بابه ...

كان ذلك شهادة من أبيه... زادته حبا لامرأته، واكرامالها ... لقد اجتمع لتلك المرأة شهادتان ... شهادة زوجها ... نبى الله اسماعيل بأنها كانت عليه كريمة ...

وشهادة أبيه ... نبى الله وخليله ... بأنها فلاح المنزل ... وهاتان الشهادتان كانتا بمثابة وسامين رفيعين ... يؤكدان طيب معدنها ... ورفعة شأنها ... فكانا بمثابة شارة الانطلاق فى حياة اسماعيل ... فانطلقا ... هو وهى ...

وكان منهما ... ذلك الشعب العظيم ... الذى انتهى بخير البشر ... محمد ... صلى الله تعالى عليه وسلم ...

ان الله أمرنى بأمر؟!

« ... ثم لبثَ عنهمْ ما شاء اللهُ

« ثم جاءَ بعدَ ذلك

« وإسماعيلُ يَبرى لهُ نَبْلاً ، تحتَ دوْحَةٍ قريبا منْ زَمْزَم

« فلمَّا رآهُ ، قامَ إليْهِ

« فصنَعَا كما يصْنَعُ الوالد بالوَلدِ ، والوَلد بالوالدِ

« ثم قال : ياإسماعيلُ . إنَّ اللهَ أمرَنى بأمر

« قال : فاصنَعْ ما أمرَكَ ربُّكَ

« قال : وتعيننى ؟

« قال : وأعينُكَ

« قال : فانَّ اللهَ أمرَنى أنْ أبنىَ ها هنا بَيْتا

« وأشارَ إلى أكمة مُرْتفِعَة على ما حَوْلها

« قال : فعنْدَ ذلكَ ، رَفعا القواعِدَ مِنَ البيْتِ

« فجَعَلَ اسماعيل يأتى بالحجارة

« وإبراهيمُ يبنى

« حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجرِ ، فوضَعَهُ لهُ ، فقامَ عَليهِ

« وهو يَبنى ، وإسماعيلُ يناولهُ الحجارةَ

« وهما يقولانِ : ربَّنا تَقَبلْ مِنا إنك أنت السميعُ العليم » . [البخارى]

« يبرى له نبلا » النبل السهم قبل أن يركب فيه نصله وريشه وهو السهم العربى .

« دوحة » هى التى نزل اسماعيل وامه تحتها أول قدومهما . وفى رواية ابراهيم بن نافع: من وراء زمزم « كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد » يعنى من الاعتناق والمصافحة وتقبيل اليد .

« إن الله امرنى بأمر » قيل كان عمر ابراهيم فى ذلك الوقت مائة سنة وعمر اسماعيل ثلاثين سنة « وتعيننى » وفى روايه ابراهيم بن نافع : إن الله أمرنى أن تعيننى عليه قال : اذن افعل

« اكمة » هى الرابية . « رفعا القواعد » جمع قاعدة . وفى رواية عن ابن عباس : القواعد التى رفعها ابراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك . « جاء بهذا الحجر » اراد به الحجر المشهور بمقام إبراهيم عليه السلام . وفى رواية إبراهيم بن نافع : حتى ارتفع البناء ، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام « حتى يدورا » من الدوران .

وفى حديث ابى جهم : ... وجعل طوله فى السماء تسعة اذرع ، وعرضه فى الأرض يعنى دوره ثلاثين ذراعا ، كان ذلك بذراعهم .

زاد ابو جهم : وادخل الحجرة فى البيت وكان قبل ذلك زربا لغنم اسماعيل .

وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض ، ولم يجعل له سقفا ، وجعل له بابا ، وحفر له بئرا ، عند بابه خزانة للبيت يلقى فيها مايهدى للبيت .

أول بيت ... وضع للناس ؟!

قال تعالى :« قل صدَقَ اللهُ ، فاتبعُوا ملة إبراهيمَ حنيفاً ، وما كانَ من المشركينَ . إنَّ أولَ بيتٍ وُضعَ للناس لَلَّذى ببكَّةَ مُباركا وهدًى للعالمينَ . فيه آياتٌ بيناتٌ ،

مَقامُ ابراهيمَ ، ومن دخلَهُ كان آمنًا، ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاعَ إليهِ سبيلا ومن كفَرَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن العالمينَ . [آل عمران ٩٥ — ٩٧]

« قل صدق الله » أى ظهر وثبت صدقه فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم على دين ابراهيم — عليه السلام — فاتبعوا ملة ابراهيم ، وهى دين الاسلام، فانكم غير متبعين ملته ، كما تزعمون .

وقيل : اتبعوا ملته ، حتى تخلصوا عن اليهودية التى اضطرتكم إلى الكذب على الله والتشديد على انفسكم «حنيفا» مائلا عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق . أو: مستقيما على ماشرعه الله تعالى من الدين الحق فى حجه ونسكه ومآكله .

«وما كان من المشركين » فى أمر من أمور دينهم أصلا «إن أول بيت وضع للناس»

قيل : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة ، لأنه مهاجر الأنبياء ، ولأنه فى الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت إلى مقام ابراهيم. والمعنى إن أول بيت وضع لعبادة الناس ربهم ، أى هيىء وجعل متعبدا والواضع هو الله تعالى .

« للذى ببكة » لغة فى مكة عند الأكثرين ثم المراد بالأولية الأولية حسب الزمان وقيل : بحسب الشرف . ويؤيد الأول ماأخرجه الشيخان ، عن أبى ذر — رضى الله تعالى عنه — قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع للناس . « فقال : المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس « فقيل : كم بينهما ؟ فقال : أربعون سنة » .

« مباركا » أى كثير الخير ، لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة .

وقيل : لأنه يغفر فيه الذنوب لمن حجه وطاف به ، واعتكف عنده . ووجه الكرمانى كونه مباركا بأن الكعبة كالنقطة، وصفوف المتوجهين اليها فى الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز ولاشك أن فيهم اشخاصا أرواحهم علوية وقلوبهم قدسية ، وأسرارهم نورانية ، وضمائرهم ربانية .

« ومن كان فى المسجد الحرام يتصل أنوار تلك الأرواح الصافية المقدسة بنور روحه، فتزداد الأنوار الالهية فى قلبه ، وهذا غاية البركة .

« ثم إن الأرض كرية ، وكل آن يفرض فهو صبح لقوم ، ظهر لثان ، عصر لثالث ، وهلم جرا ، فليست الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها لأداء الفرائض فهو دائما كذلك » .

« وهدى للعالمين » أى هاديا لهم إلى الجنة أو : هاد اليه جل شأنه بما فيه من الآيات العجيبة « فيه آيات بينات » ظاهرات « مقام ابراهيم » أى منها ، أو أحدها مقام ابراهيم .

قيل : لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة « ومن دخله كان آمنا » بمعنى الحرم ، على ماقاله ابن عباس ..وعن الحسن : كان الرجل فى الجاهلية يقتل الرجل ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو ابوه فلا يحركه .

ويجوز ارادة العموم بأن يفسر بالامن فى الدنيا والآخرة ،ولعله الظاهر من إطلاق اللفظ « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » والتقدير من استطاع منهم اليه سبيلا فلله عليه أن يحج والمراد بالاستدعاء الإرادة وهى تقتضى القدرة .

وأطلقت على القدره مطلقا ، أو بسهولة. والقدرة إما بالبدن أو بالمال أوبهما وإلى الأول ذهب الأمام مالك : فيجب الحج عنده على من قدر على المشى والكسب فى الطريق .

والى الثانى ذهب الشافعى : ولذا أوجب الاستنابة على الزمن إذا وجد أجرة من ينوب عنه .

والى الثالث : ذهب الإمام أبى حنيفة . وعن ابن عباس أنه قال ، السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به .

واستدل الشافعى بما أخرجه الدارقطنى عن جابر بن عبدالله قال :« لما نزلت هذه الآية « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » قام رجل فقال : يارسول الله ماالسبيل ؟

« قال : الزاد والراحلة » .

« ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » يحتمل أن يراد بمن كفر من لم يحج ، وعبر عن ترك الحج بالكفر تغليظا وتشديدا على تاركه كما وقع مثل ذلك .

عن أبي أمامة من قوله صلى الله عليه وسلم . « من مات ولم يحج حجة الاسلام لم يمنعه مرض حابس ، أوسلطان جائر ، أو حاجة ظاهرة ، فليمت على أي حالة ، شاء يهوديا ، أو نصرانيا » .

وقيل : لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الملل مشركي العرب ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس ، والصابئين فقال إن الله تعالى قد فرض عليكم الحج فحجوا البيت .

فلم يقبله إلا المسلمون ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لانؤمن به ، ولا نصلي اليه ، ولا نستقبله . فأنزل الله سبحانه (ومن كفر) الخ .

وإلى ابقائه على ظاهره ذهب ابن عباس ، قال في الآية : (ومن كفر) بالحج فلم يرجه براً ولا تركه مأثما .

وروى ابن جرير أن الآية لما نزلت قام رجل من هذيل فقال : يارسول الله من تركه كفر ؟

« قال : من تركه لايخاف عقوبته ، ومن حج لايرجو ثوابه فهو ذاك . »

« غني عن العالمين » تأكيد الايذان بأن ذلك هو الإيمان على الحقيقة ، وهو النعمة العظيمة . وأن مباشره مستأهل لأن الله تعالى بجلالته ، وعظمته يرضى عنه رضا كاملا ، كما كان ساخطا على تاركه سخطا عظيما .

واستأنس بعضهم لكونه عبادة عظيمة بأنه من الشرائع القديمة .

اختيار مكان البيت ؟!

قال تعالى : « إن الذين كفروا ويصدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ، والمسجدِ الحرامِ ، الذي جعلناهُ للناسِ سواءً العاكفُ فيهِ والبادِ ، ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ نذقْهُ من عذاب

أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي للطائفين ، والقائمين ، والركع السجود » [الحج ٢٥ — ٢٦]

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام » وعيد لصنف من الكفرة .

روى أنها نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضى الله تعالى عنهم عام الحديبية عن المسجد الحرام . « الذى جعلناه للناس كائنا من كان من غير فرق بين مكى وآفاقى .

« سواء العاكف فيه والباد » أى المقيم فيه والطارىء ، فإن الإقامة لا تكون فى نفسه بل فى منازل مكة . أى جعلناه مباحا للناس أو معبداً لهم « ومن يرد فيه.» ومن يرد فيه شيئاما ، أومرادا ما . « بالحاد » عدول عن القصد ، أى الاستقامة المعنوية . « بظلم » بغير حق أى ملحداً بسبب الظلم كالاشراك واقتراف الآثام .

فيشمل سائر الآثام لأن حاصل معناه الميل عن الحق إلى الباطل ، وهو محقق فى جميع الآثام . « نذقه من عذاب أليم » الوعيد على إرادة ذلك مطلقا ، فيفيد أن من أراد سيئة فى مكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الارادة

ولذلك قيل : تضاعف السيئات بمكة ، كما تضاعف الحسنات . والظاهر ان هذه الاذاقة فى الآخرة . وأما المسجد الحرام فيطلق على الحرم كله عند عطاء . فيكون حده ما ذكر .

عن أبى هريرة : إنا لنجد فى كتاب الله تعالى أن حد المسجد الحرام إلى آخر المسعى .

«وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت» اذكر لهؤلاء الكفرة الذين يصدون عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام ، وقت جعلنا مكان البيت مباءة لجدهم ابراهيم — عليه السلام — أى مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة ، . ويقال بوأه منزلا ، إذا أنزله فيه ولما لزمه .

وقال الزجاج : المعنى بينا له مكان البيت ليبنيه ، ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون إليه ويحجونه . واراد بالبيت بيت الله عز وجل الكعبة المكرمة .

« ان لاتشرك بى شيئا » باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا ابراهيم — عليه السلام — بالعبادة . والظاهر أن الخطاب لابراهيم — عليه السلام — .

« وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » . أى وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده . والمراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية .

ويجوز أن يكون (القائمين) بمعنى المقيمين و(الطائفين) بمعنى الطارئين فيكون المراد بالركع السجود فقط المصلين .

* * *

ومن ذلك يتضح أن الله تعالى هو الذى بوّأ لابراهيم مكان البيت ... وأنه تعالى هو الذى بينه له ...

وأن هذا المكان الذى تقوم فيه الكعبة إلى يومنا هذا مكان حدده الله تعالى لابراهيم ... وهذا واضح كذلك من قول ابراهيم لإبنه اسماعيل وهو يحاوره فى أمر البيت : « فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا » ...

« وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها » ... إذن المكان محدد ... ومختار ... الله حدده لابراهيم واختاره ...

وأذن فى الناس بالحج ؟!

قال تعالى : « وأذِّن فى الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رجالاً، وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كل فجٍّ عميقٍ . ليشهَدوا منافعَ لهمْ ويذكروا اسمَ اللهِ فى أيّامٍ معلوماتٍ على مارزقهمْ من بهيمةِ الأنعامِ ، فكلوا منها وأطعِموا البائسَ الفقيرَ . ثمَّ ليقضُوا تفَثهمْ ، وليُوفُوا نذورهم ، وليَطوَّفُوا بالبيتِ العتيقِ . ذلك ومن يعظِّمْ حرماتِ اللهِ فهو خيْرٌ له عند ربه ، وأُحِلّتْ لكمُ الأنعامُ إلا مايتلى عليكم ، فاجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثانِ ، واجتنبوا قولَ الزورِ . »

[الحج ٢٧ — ٣٠]

« وأذن فى الناس « أى ناد فيهم . « بالحج » بدعوة الحج والأمر به ويصح عندي ، المعنى : وأمر الناس بالحج يأتوك من كل فج عميق .

« يأتوك » يأتوا بيتك . « رجالا » أى مشاة . جمع راجل. « وعلى كل ضامر »
وركبانا . على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة ، فهزله ، أوزاد هزاله .

وعدل عن ركبانا الأخصر للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة . « يأتين »
صفة لضامر ، كأنه قيل وركبانا على ضوامر يأتين . وقرىء : يأتون . أى الحجاج .
«من كل فج » أى طريق « عميق » بعيد . « ليشهدوا» متعلق بيأتوك . «منافع» عظيمة
الخطر ، كثيرة العدد . فتنكيرها وإن لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير .

ويجوز أن يكون للتنويع أى نوعا من المنافع الدينية والدنيوية .

قيل : منافع فى الدنيا ، ومنافع فى الآخرة . فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ،
وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات .

وخص مجاهد : منافع الدنيا بالتجارة ، فهى جائزة للحاج من غير كراهة . « لهم »
أى منافع كائنة لهم . « ويذكروا اسم الله » عند النحر . « فى أيام معلومات » أى
مخصوصات وهى أيام النحر .

وعدتها ثلاثة أيام ، يوم العيد ، ويومان بعده عند الحنفية. « على مارزقهم من بهيمة
الأنعام » الذكر على بهيمة الأنعام أو مطلقا .

وذكر أنه دل بذلك على المقصود الأصلى من النحر وما يميزه من العادات . وأومأ فيه
إلى أن الأعمال الحجية كلها شرعت للذكر .

وأنه قيل (على مارزقهم) إلى آخره تشويقا فى التقرب ببهيمة الأنعام المراد بها الإبل
والبقر والضأن والمعز إلى الرازق وتهوينا عليهم فى الأنفاق .

وقيل : المعلومات عشر ذى الحجة . « فكلوا منها ». فاذكروا اسم الله تعالى على
ضحاياكم فكلوا من لحومها . والأمر للاباحة . أو : للندب ، على مواساة الفقراء ، ومساواتهم
فى الأكل منها .

« وأطعموا البائس » أى الذى أصابه بؤس أى شدة وفسر بالذى يمد كفيه إلى
الناس يسأل . « الفقير » أى المحتاج .

وقيل : لاتحديد فيها يؤكل أو يطعم ، لاطلاق الآية ، « ثم ليقضوا تفثهم » فى الأصل الوسخ والقذر . ثم ليؤدوا نسكهم ، ثم ليزيلوا وسخهم ، بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب والعارضين ، ونتف الإبط ، وحلق الرأس ، والعانة .

« وليطوفوا » طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج ، وبه تمـام التحلل ، فإنه قرينة قضاء التفث بالمعنى السابق .

« بالبيت العتيق » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما سمى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة ، فلم يظهر عليه جبار قط . وقيل : القديم ، فانه أول بيت وضع للناس .

« ذلك » أى الأمر ، وهذا للفصل بين الـكلامين . « ومن يعظم حرمات الله » وهو ما يحترم شرعا .

المراد بها جميع التـكليفات من مناسك الحج وغيرها . جميع المناهى فى الحج فسوق وجدال وجماع وصيد . وتعظيمها أن لايحوم حولها . « فهو » أى فا لتعظيم « خيرله » من غيره « عند ربه » يثاب عليه يوم القيامة .

« وأحلت لـكم الأنعام » أى ذبحها وأكلها والمراد بها الأزواج الثمانية على الاطلاق « إلا مايتلى عليـكم » إلا مايتلى عليـكم آية تحريمه كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى .

« فاجتنبوا الرجس » أى القذر « من الأوثان » أى الذى هو الأوثان على أن من بيانية . يعنى بالرجس عبادة الأوثان .

فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة لأن المحرم منها انما هو العبادة « واجتنبوا قول الزور » فان عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من ادعاء الاستحقاق . والمراد من الزور مطلق الـكذب ، وهو من الزور بمعنى الانحراف فان الـكذب منحرف عن الواقـع .

وقيل : هو أمر باجتناب شهادة الزور . يعنى بقول الزور : الشرك بالـكلام وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويقولون فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهو قول بالتخصيص .

وأذّن فى الناس بالحج ؟!

أمر من الله إلى إبراهيم ... أن يدعو الناس جميعا إلى الحج ... أن يقصدوا بيت الله تعالى الذى بناه ...

لماذا ؟... ليشهدوا منافع لهم ... ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ...

انه دعوة للناس ... ليجتمعوا بالبيت ... فيكون من اجتماعهم هذا ، ولقائهم هذا ، منافع عظيمة لهم فى الدنيا بالتعارف والتقارب وبحث ما يصلح شئونهم ، ومنافع أخروية كبرى بتعرضهم لرحمة الله تعالى ومغفرته ...

ثم تكون فرصة طيبة يذكرون الله تعالى فيها فى أيام معلومات ...

وهكذا ... شرع الله الحج ، وأمر إبراهيم باذاعة ذلك على الناس ... ووعده أن كثيرا من الناس سوف يستجيبون لندائه ... يأتوك رجلا ... وعلى كل ضامر ... يأتين من كل فج عميق ... من كل مكان بعيد ...

حنفاء لله ؟!

قال تعالى « حُنفَاء للهِ ، غيْرَ مشركِينَ بهِ ، ومن يُشرِكْ باللهِ فكأنما خرّ من السماء، فتخْطَفهُ الطير ، أو تهْوِى بهِ الريحُ فى مكانٍ سحيقٍ . » [الحج ٣١]

« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » شبه الإيمان بالسماء لعلوه ، والاشراك بالسقوط منها ، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر .

وهذا السقوط إن كان فى حق المرتد فظاهر ، وهو فى حق غيره باعتبار الفطرة ، وجعل التمكن والقوة بمنزلة الفعل .

« فتخطفه الطير » فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وفى ذلك تشبيه الأفكار الموزعة بخطف جوارح الطير ، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة . « أو تهوى به الريح » تسقطه ، وتقذفه . « فى مكان سحيق » بعيد . فإن الشيطان قد طوح به فى الضلالة .

قيل : إن الكافر قسمان لاغير . مذبذب ، متمادى على الشك ، وعدم التصميم على

ضلالة واحدة . وهذا مشبه بمن اختطفته الطير ، وتوزعته ، فلا يستولى طائر على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر وتلك حال المذبذب ، لا يلوح له خيال إلا أتبعه ، وترك ما كان عليه .

ومشرك مصمم على معتقد باطل ولو نشر بالمناشير لم يكع ، ولم يرجع ، لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع فى نقله عما هو عليه فهو فرح ، مبتهج بضلالته .

وهذا مشبه فى قراره على الكفر باستقرار من هوت به الريح إلى وادٍ سافل هو أبعد الأحياز عن السماء فاستقر فيه .

حنفاء لله ؟ ! أى مائلين عن كل معتقد باطل ... متجهين لله وحده... وهذا هو صلب دعوة ابراهيم ... وشرعته ... ودعوة كل رسول وشرعته ...

كأن الحج كله تذكير بملة ابراهيم ... التى هى التوجه المباشر لله وحده ... والميل عما سواه ... والبعد عن اشراك غيره معه سبحانه ...

طهرا بيتى ؟!

قال تعالى : « وإذْ جَعَلنا البيْتَ مَثابةً للناسِ ، وأمْنًا ، واتَّخِذُوا مِن مَّقامِ إبراهِيمَ مُصَلّى ، وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسْماعيلَ أن طَهِّرا بَيتِى للطائفينَ . والعاكفينَ ، والرُّكّعِ السُّجودِ » [البقرة ١٢٥]

« وإذ جعلنا البيت » البيت من الأعلام الغالبة للكعبة « مثابة للناس » مجمعاً لهم ، أو معاذا ، أو ملجأ ، أو مرجعا يثوب اليه أعيان الزوار أو أمثالهم ، أو : موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره .

« وأمنا » موضع أمن . إما لسكانه من الخطف أو لحجاجه من العذاب . حيث أن الحج يزيل ويمحو ماقبله من حقوق العباد والحقوق المالية على الصحيح .

أو : للجانى الملتجىء إليه من القتل ولم يذكر للناس هنا كما ذكر من قبل اكتفاء به ، أو اشارة إلى العموم .

أى أنه أمن لكل شيء كائنا ما كان فى حق الطير والوحش ، إلا الخمس الفواسق ،

« واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » وقلنا لهم اتخذوا والمأمور به الناس ، أوابراهيم — عليه السلام — وأولاده .

وقيل الخطاب لأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو رأس الخاطبين . والمقام هو المكان ، اى مكان قيامه . وهو الحجر الذى ارتفع عليه ابراهيم — عليه السلام — حين ضعف من رفع الحجارة التى كان ولده اسماعيل يناوله إياها فى بناء البيت . وهو قول جمهور المفسرين .

وسبب النزول ما أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر : « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ بيد عمر — رضى الله تعالى عنه — فقال : ياعمر ، هذا مقام ابراهيم ، فقال عمر : أفلا نتخذه مصلى ؟ ، فقال : لم أومر بذلك . فلم تغب الشمس حتى نزلت هذه الآية » .

والأمر فيها للاستحباب ، إذ المتبادر من المصلى موضع الصلاة مطلقا .

وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما أخرجه مسلم عن جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمافرغ من طوافه عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ، وقرأ الآية . »

« وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل » أى وصينا ، أوأمرنا ، أوأوحينا ، أوقلنا . وإسماعيل علم أعجمى معناه بالعربية مطيع الله .

« أن طهرا بيتى » المراد من التطهير التنظيف من كل مالا يليق . فيدخل فيه الأوثان والانجاس وجميع الخبائث ومايمنع منه شرعا كالحائض .

«للطائفين» أى لأجلهم : والمراد كل من يطوف من حاضر وباد. وقيل : المراد الغرباء الوافدون مكة حجاجا وزوارا .

« والعاكفين » هم أهل البلد الحرام المقيمون عنده وقيل : هم الجالسون من غير طواف من بلدى وغريب . وقال مجاهد : المجاورون له من الغرباء .

وقيل : هم المعتكفون فيه . « والركع السجود » وهم المصلون . جمع راكع وساجد.

* * *

ماهذا ؟! هذا بيان الناس ...

البيت ... هذا الذى شاده ابراهيم بيديه ، وأعانه عليه اسماعيل ...

هذا الذى عين مكانه رب العالمين ... وأمر ابراهيم واسماعيل ... أن يبنياه ... وحدهما ... لايشركا معهما أحداً من الناس ... ليكون خالصا لله وحده ... لم يشترك فى بنائه غير أخلص اثنين لله تعالى فى الأرض ... ابراهيم ... وابنه ...

هذا البيت ... هذا الحرم المكى ... جعله الله للناس مثابة ... مجمعا ... وأمنا ... يجتمعون فيه وهم آمنون ... ويفدون اليه وهم آمنون ...

قطعة من الأرض جعلها الله سلاما للعالمين ... حتى الطير ... حتى الحيوان ... جعله الله آمنا فيه ... ليتحقق السلام ... والأمن ... لجميع المخلوقات على وجه الأرض ... وهذا المكان ... الذى وقف فيه ابراهيم ... يبنى البيت ، واسماعيل يناوله الحجارة ...

هذا المكان ... ينبغى أن تخلد ذكراه .. ينبغى أن يتخذه الناس مصلى ... واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ... ليذكروا جميعا ... أن ابراهيم إمامهم ... وقف فيه يبنى لله أول بيت وضع للناس فى الأرض ...

وليذكروا جميعا أن ابراهيم إمامهم جميعا .. إنى جاعلك للناس إماما ...

إمامهم لأنه إمام الحنيفية .. قائد فكرة التوجه المباشر إلى الله ... والميل عن كل شىء سواه ...

اجعل هذا بلدا آمنا ؟!

ثم يقول تعالى : « وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجْعَلْ هذا بَلداً آمِناً ، وارزُقْ أهْلَه مِنَ الثمراتِ ، مَنْ آمَنَ منهُم باللهِ واليومِ الآخِرِ ، قالَ : ومَن كَفَرَ .. فأُمتِّعُهُ قليلاً ، ثم أضطرُّهُ إلى عذابِ النارِ ، وبئسَ المصيرُ . » [البقرة ١٢٦]

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا » الاشارة إلى الوادى المذكور بقوله تعالى : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى ذرع عند بيتك المحرم) .

أى : اجعل هذا المكان القفر ، بلدا كاملا فى الأمن ، معلوم الاتصاف بالأمن ، مشهورا به . «وارزق أهله من الثمرات» أى من أنواعها . بأن تجعل قريبا منه قرى يحصل فيها ذلك ، أوتجىء اليه من الأقطار الشاسعة .

وقد حصل كلاهما . حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية ، والصيفية ، والخريفية ، فى يوم واحد !!

« من آمن منهم بالله واليوم الآخر » اقتصر بذكر المبدأ والمعاد لتضمن الإيمان بهما الايمان بجميع مايجب الايمان به .

« قال » أى الله تعالى « ومن كفر » أى وأرزق من كفر أيضا . وكأن ابراهيم — عليه السلام — قاس الرزق على الأمامة فنبهه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية لاتخص المؤمن بخلاف الامامة .

« فأمتعه قليلا » أى زمانا قليلا . «ثم أضطره إلى عذاب النار» أى أن العذاب واقعا به وقوعا محققا حتى كأنه مربوط به . « وبئس المصير » أى وبئس المصير النار .

أو : وبئست الصيرورة صيرورته إلى النار .

اذن تحريم مكة ... كان استجابة لدعاء ابراهيم « رب اجعل هذا بلدا آمنا » ... فاستجاب الله لدعائه ... وجعلها بلدا آمنا غاية الأمن ... وفرض أن تكون كذلك إلى يوم القيامة ..

وقد وقف محمد صلى الله عليه وسلم يعلن ذلك فى حجة الوداع ... وسيأتى تفصيله ...

ربنا ... تقبل منا !؟

ثم يقول تعالى : « وَإِذْ يَرفعُ إبراهيمُ القواعدَ منَ البيتِ ، وإسماعيلُ ، ربنَّا تقبَّلْ منا ، إنَّكَ أنت السميعُ العليمُ . » [البقرة ١٢٧]

« وإذ يرفع إبراهيم » آثر صيغة المضارع مع أن القصة ماضية استحضارا لهذا الأمر ، ليقتدى الناس به فى اتيان الطاعات الشاقة ، مع الابتهال فى قبولها . وليعلموا عظمة البيت المبنى فيعظموه .

« القواعد من البيت » جمع قاعدة وهى الأساس وقيل : المراد بناؤها نفسها « وإسماعيل » وقد ورد انه كان يناوله الحجارة . وقيل : كانا يبنيان فى طرفين أو : على التناوب .

« ربنا تقبل منا » أى يقولان : ربنا والمراد من التقبل الرضا فقط دون الإثابة وليس الإثابة مما يخطرلهم ببال !!

« إنك أنت السميع العليم » السميع لدعائنا ، والعليم بنياتنا .

صورة عظيمة ... عظيمة ... عظيمة ... ينبغى أن يستحضرها كل مؤمن وهو يعمل لله ... او يتجه إلى الله ...

شيخ عجوز ... وابن شاب قوى ... رجلان ... اثنان ... لا ثالث لهما ... يبنيان الكعبة وحدها ... ومع مافى ذلك العمل من مجهود شاق ... وتعب ... وارهاق ... فانهما يتوجهان فى وجل ... وخوف ... إلى الله ... ويردداان : ربنا ... تقبل منا ... ثم يردفان : إنك ... أنت السميع ... العليم ...

كلمات تتموج من أفواههما الشريفة ... بل من قلوبهما السليمة ... على أعلى ما يكون التصعيد ... والتوجه ... وإرادة الله ... وحده لاشريك له ...

فهل تقبل الله منهما ؟! نعم ... نعم ... ثم نعم ... نعم ...

وأى بيت فى الأرض أعظم عند الله إلى يوم القيامة من هذا البيت الذى يبنيان ؟! أو أى بيت يرجى فيه قبول الدعاء والتوجه إلى الله من هذا الذى يدعو ان ؟ !

لقد قبل الله منكما ... ياإبراهيم .. ياإسماعيل .. لأن قلوبكما كانت وانتما تتجهان إليه.. خالصة له وحده ...

فهذا خليله يدعوه ... وذاك ابن خليله ونبيه يرجوه !!

إن القلب السليم ... قلب ابراهيم يتجه إلى ربه ... إذ جاء ربه بقلب سليم ... وان القلب السليم ... قلب اسماعيل ... الذى قدم نفسه من قبل راضيا ليذبح لله ... يتجه إلى ربه ...

انها لحظة نور انشق من الأرض إلى السماء ... فانشقت له السماوات... وانزاحت... لترفعه إلى ربها ... لقد تقبل منك ربك ... ياابراهيم ... ياخليله ... ياأسلم قلب على أرضه ... ياصفوته من خلقه ...

ولقد تقبل الله منك ... ياإسماعيل ... ياذبيحه ... ياصادق الوعد ... ياصاحب مقام « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

وهكذا ... يفعل الاخلاص مايشاء ... ويرفع الحجب بين العبد وبين ربه ... ويجعل له مايشاء ...

واجعلنا .. مسلمين .. لك ؟!

ثم يقول تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمَين لكَ ، ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لكَ ، وأرِنا مناسكَنا ، وتُبْ علينا ، إنكَ أنت التوابُ الرحيمُ » [البقرة ١٢٨]

« ربنا واجعلنا مسلمين لك » أى منقادين ، قائمين بشرائع الاسلام أو : مخلصين ، موحدين لك فمسلمين امامن استسلم إذ انقاد أو : من أسلم وجهه ، إذا أخلص نفسه ، أوقصده .

« ومن ذريتنا» واجعل من ذريتنا «أمة مسلمة لك» والمراد من الأمة الجماعة اوالجيل وخصها بعضهم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« وأرنا مناسكنا » معالم الحج وقيل : مواضع الذبح وقيل : أعمالنا التى نعملها إذا حججنا .

والنُسُك غاية العبادة ثم شاع فى الحج لما فيه من الكلفه غالبا ، والبعدعن العادة «وتب علينا » اى وفقنا للتوبة أو اقبلها منا .

والتوبة تختلف باختلاف التائبين فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم على عدم العود ورد المظالم إذا أمكن وبنية الرد إذا لم يمكن .

وتوبة الخواص : الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور فى الاعمال،

والاتيان بالعبادة على غيروجه الكمال. وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات ، والترقى فى المقامات .

فان كان ابراهيم واسماعيل — عليهما السلام — طلبا التوبة لأنفسهما خاصة . فالمراد ماهو من توبة القسم الأخير .

وإن كان الضمير شاملالهما وللذرية كان الدعاء بها منصرفا لمن هو أهلها ممن يصح صدور الذنب المخل بمرتبة النبوة منه « إنك أنت التواب الرحيم » تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للاجابة .

* * *

واجعلنا ؟ ! انهما يرجوان الله تعالى ... مسلمَيْن ؟ ! كاملى الاستسلام ... كاملى الانقياد ... فى القمة من الإسلام ...

لك ؟ ! لك وحدك ... نسلم أنفسنا لك أنت وحدك ...

إنه لمقام عظيم ... مقام ابراهيم ... من هنا ... يكون المرتقى ... إلى الله ...

وان قوله تعالى : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ... ليرمز إلى ذلك المعنى الرفيع أى أسلموا كما أسلم ابراهيم لى ... وانقادوا كما انقاد لى ... واتجهوا إلىّ كما اتجه إلىّ مباشرة ... وميلوا عن كل شىء ... واستقيموا إلىَّ ... أنا ... وحدى ...

إذا تم لكم الارتفاع إلى ذلك المقام ... مقام ابراهيم ... استطعتم أن ترتفعوا إلى بدعائكم ... وصلاتكم ... وكان دعاؤكم واصلا إلى ... وصلاتكم صاعدة إلى ...

وهكذا ... اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ... إذا ارتفعتم إلى مقامه ... فصلوا لى ، وادعونى ... استجب لكم ... ومن أجل ذلك جعلناه للناس إماما ...

لأن طريقته هى المثلى ... وهى التى تمكنكم من الاتصال بنا اتصالا سليما ..

وابعث فيهم رسولا ؟ !

ثم يقول تعالى : « ربَّنا وابعَثْ فيهمْ رسولاً منهمْ ، يتلوُ عليهمْ آياتكَ ، ويُعلِّمهمُ الكتابَ والحكمةَ ، ويزكيهمْ ، إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ » [البقرة ١٢٩]

« ربنا وابعث فيهم » أى أرسل فى الأمة المسلمة . « رسولا منهم » أى من أنفسهم ولم يبعث من ذرية كليهما سوى محمد صلى الله عليه وسلم . وجميع أنبياء بنى اسرائيل من ذرية ابراهيم — عليه الصلاة والسلام —

روى الإمام أحمد ، وشارح السنة ، عن العرباض ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « سأخبركم بأول أمرى ، أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى » .

(وفى الأثر) أنه لما دعا إبراهيم قيل له : قد استجيب لك ، وهو يكون فى آخر الزمان « يتلو عليهم آياتك » يقرأ عليهم ما يوحى اليه من العلامات الدالة على التوحيد والنبوة وغيرها .

وقيل : خبر من مضى ومن يأتى إلى يوم القيامة . « ويعلمهم الكتاب » بأن يفهمهم ألفاظه ويبين لهم كيفية أدائه ، ويوقفهم على حقائقه وأسراره .

والظاهر أن مقصودها من هذه الدعوة أن يكون الرسول صاحب كتاب يخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . وقد أجاب سبحانه هذه الدعوة بالقرآن « والحكمة » أى وضع الأشياء مواضعها ،

أو : ما يزيل من القلوب وهج حب الدنيا ، أو الفقه فى الدين ، أو السنة المبينة للكتاب ، أو الكتاب نفسه .

وقيل : المراد بها حقائق الكتاب ودقائقه ، وسائر ما أودع فيه . ويكون تعليم الكتاب عبارة عن تفهيم ألفاظه ، وبيان كيفية أدائه ، وتعليم الحكمة الايقاف على ما أودع فيه . وفسرها بعضهم بما تكمل به النفوس من المعارف والأحكام فتشمل الحكمة النظرية والعملية .

أى يعلمهم التطبيق ، كيف يطبقون مافى الكتاب فى حياتهم العملية . « ويزكيهم » أى يطهرهم من أرجاس الشرك ، وأنجاس الشك ، وقاذورات المعاصى .. وهو اشارة إلى التخلية .

« إنك أنت العزيز الحكيم » أى الغالب المحكم لما يريد .

وهكذا ... كان محمد ...

صلى الله عليه وسلم ... هو استجابة دعوة أبويه إبراهيم ... وإسماعيل ... عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ...

فجاء وقرأ عليهم آياته ... وعلمهم الكتاب ... والحكمة ... وزكاهم ... كما طلب إبراهيم وإسماعيل ... وأكثر مما طلبا ...

فكان خاتم النبيين ... وسيد البشر ... وإمام المرسلين ... وصاحب أكبر رسالة ... وأعظم كتاب ... وأشمل منهج ... وأوضح سنة ... وترك من ورائه خير أمة أخرجت للناس ... صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ...

إبراهيم ... يطلب تحريم مكة ؟!

قال تعالى : « وإذْ قالَ إبراهيمُ : ربِّ اجْعَلْ هذا البلدَ آمناً ، واجنبْنِي وبَنِيَّ أن نعبدَ الأصنامَ . ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناسِ ، فمن تبِعَني فإنَّهُ مني ، ومن عصاني فإنَّك غفورٌ رحيمٌ » [ابراهيم ٣٥ — ٣٦]

« وإذْ قال إبراهيم » اذكر ذلك الوقت « رب اجعل هذا البلد » يعني مكة ، شرفها الله تعالى « آمنا » ذا أمن .

والمسئول أولا صلوحه للسكنى ، بأن يؤمن فيه أهله في أكثر الاحوال على المستمر في البلاد .

وقيل : ان المراد منها تأكيد ماسلف من تعجيبه صلى الله عليه وسلم ببيان فن آخر من جنايات القوم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم — عليه السلام — حيث أسكنهم مكة لاقامة الصلاة ، والاجتناب عن عبادة الأصنام ، والشكر لنعم الله تعالى ، وسأله أن يجعله بلدا آمنا ، ويرزقهم من الثمرات ، ويهوى قلوب الناس إليهم ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وجعله حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شيء ، فكفروا بتلك النعم العظام ، واستبدلوا دار البوار بالبلد الحرام ، وجعلوا لله تعالى أندادا ، وفعلوا مافعلوا من القبائح الجسام .

« واجنبني وبنى » أى بعدى وإياهم « أن نعبد الأصنام » أى عن عبادتها أى ثبتنا على مانحن عليه من التوحيد ، وملة الاسلام . والبعد عن عباده الأصنام .

والصوفية يقولون : الشرك نوعان ظاهر ، وهو الذى يقول به المشركون وخفى ، وهو تعلق القلب بالوسائط ، والاسباب الظاهرة والتوحيد المحض قطع النظر عما سوى الله تعالى فيحتمل أن يكون مراده — عليه السلام — من هذا الدعاء العصمة عن هذا الشرك.

ولاشك أن دعوته — عليه السلام — مجابة فيهم . أو بان دعاءه استجيب فى بعض دون بعض .

« رب انهن » اى الاصنام « أضللن كثيرا من الناس » أى تسببن له فى الضلال « فمن تبعنى » منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام « ومن عصانى » أى لم يتبعنى « فانك غفور رحيم » أى قادر على أن تغفر له وترحمه ومن عصانى فلا أدعو عليه ... فانك الخ .

وهكذا طلب ابراهيم تحريم مكة ... فحرمها الله تعالى إلى يوم القيامة !!!

ثم ماذا ؟ ... ثم يسترسل ابراهيم فى دعائه ...

عند بيتك المحرم ؟!

قال تعالى : « ربَّنا إنى أسكنتُ من ذريّتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عندَ بيتكَ المحرَّم . ربنا ليقيموا الصلاةَ ، فاجعَل أفئدَةً منَ الناسِ تهوى إليهم ، وارزُقهم مِّنَ الثمراتِ ، لعلهم يشكرونَ . رَبَّنا إنكَ تعلَمُ مانخفى ومانعلِنُ ، وما يخفى على اللهِ من شىءٍ فى الأرض ولا فى السماء . الحمدُ للهِ الذى وَهَبَ لى على الكبر إسماعيلَ ، وإسحاقَ ، إنَّ ربى لسميعُ الدعاء . ربِّ اجعَلنى مُقيم الصلاةِ ومن ذُرِّيتى ، ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفِر لى ولوالدَىَّ ، وللمُؤمنينَ يومَ يقومُ الحساب » . [ابراهيم ٣٧ — ٤١]

« ربنا » كرر النداء رغبة فى الاجابة والالتجاء اليه تعالى « من ذريتى» بعض ذريتى والمراد بالمسكن اسماعيل — عليه السلام — ومن سيولد له . فان اسكانه حيث كان على

وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم . « بواد غير ذى زرع » وهى وادى مكة شرفها الله تعالى . والمعنى ليس صالحا للزرع .

« عند بيتك المحرم » معنى كون البيت محرما أن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به « ربنا ليقيموا الصلاة » أى لأن يقيموا أى ماأسكنتهم بهذا الوادى الخالى من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك ، بماتعمر به مساجدك ومتعبداتك .

متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع متعبدين بجوارك الكريم ، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك ، والطواف به مستنزلين رحمتك التى آثرت بها سكان حرمك .

« فاجعل افئدة من الناس » أى افئدة من إفئدتهم « تهوى إليهم » تسرع إليهم شوقا ووددا وقيل : هذا دعاء بتوجيه القلوب إلى البيت .

والافئدة جمع فؤاد ، وفسروه بالقلب ، لكن يقال له فؤاد اذا اعتبر فيه معنى التفؤد أى التوقد أى قلوبا تتوقد شوقا إليه « وارزقهم » اى ذريتى الذى اسكنتهم هناك .

وجوز أن يريدهم والذين ينحازون اليهم من الناس . « من الثمرات » من أنواعها بأن تجبى إليهم من الأقطار الشاسعة . وقد يصل كلا الأمرين حتى إنه يجتمع فى مكة المكرمة البواكير ، والفواكه المختلفة الازمان من الربيعية ، والصيفية ، والخريفية فى يوم واحد !

« لعلهم يشكرون » تلك النعمة ، باقامة الصلاة ، واداء سائر مراسم العبودية . واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هى ليستعان بها على أداء العبادات واقامة الطاعات . « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن » من الحاجات وغيرها .

وقيل : ما نخفى من حب اسماعيل وأمه ، وما نعلن لسارة من الجفاء عليهما . وقيل : ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة ، وما نعلن من البكاء والدعاء . وقيل : ما نخفى من كآبة الإفتراق ، ومانعلن مما جرى بيننا وبين هاجر عند الوداع من قولها : إلى من تكلنا ؟ وقولى لها : إلى الله تعالى .

أى تعلم سرنا كما تعلم علننا والمقصود من فحوى كلامه — عليه السلام — ان اظهار

هذه الحاجات وما هو من مباديها وتمامها ليس لكونها غير معلومة لك بل إنما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك ، والتذلل لعزتك ، وعرض الافتقار لما عندك ، والاستعجال لنيل أياديك .

وقيل : أراد عليه السلام : إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا بنا من أنفسنا ، فلاحاجة لنا إلى الطلب ، لكن ندعوك لأظهار العبودية إلى آخره .

وقد أشاروا إلى أن ظهور الحال يغنى عن السؤال بقولهم :

ويمنعني الشكوى إلى الناس انى   عليل ومن أشكو إليه عليل
ويمنعني الشكوى إلى الله انه   عليم بما أشكوه قبل أقول

لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن ، بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه — عليه السلام — بقوله على وجه الاعتراض .

«وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء » لما أن علمه تعالى ذاتى ، فلا يتفاوت بالنسبة اليه معلوم دون معلوم .

«الحمد لله الذى وهب لى على الكبر» أى مع كبر سنى ويأسى عن الولد والتقييد بذلك استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها .

« اسماعيل واسحاق » روى انه وهب له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، ووهب له اسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة « إن ربى » ومالك أمرى « لسميع الدعاء » أى لمجيبه . فالسمع بمعنى القبول والاجابة مجاز كما فى سمع الله لمن حمده .

يتوسل اليه سبحانه بسابق نعمته تعالى فى شأنه ، كأنه عليه السلام يقول : اللهم استجبت دعائى فى حق ذريتى فى هذا المقام ، فانك لم تزل سميع الدعاء ، وقد دعوتك على الكبر أن تهب لى ولدا فأجبت دعائى ووهبت لى اسماعيل واسحاق .

« رب اجعلنى مقيم الصلاة » وأراد بهذا الدعاء الديمومة على ذلك . أى مواظبا عليها ، « ومن ذريتى » للاشعار بانه المقتدى فى ذلك ، وذريته أتباع له ، فإن ذكرهم بطريق الاستطراد .

وإنما خص — عليه السلام — هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهته تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة ، بأن يكون كافرا ، أو مؤمنا لا يصلى .

« ربنا وتقبل دعاء » ظاهره دعائى وقيل : الدعاء بمعنى العبادة أى تقبل عبادتى « ربنا اغفرلى » أى ما فرط منى مما أعده ذنبا .

« ولوالدى » أى لأمى وأبى وكانت أمه — على ماروى — مؤمنة فلا اشكال فى الاستغفار لها .

وأما استغفاره لأبيه فقد قيل فى الاعتذار عنه : انه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه ، والله تعالى قد جلى ما قاله — عليه السلام — فى أحايين مختلفة .

وفى قراءة : ولولدىَّ ، يعنى بهما اسماعيل واسحاق . ويكون قد دعا — عليه السلام — لذريته « والمؤمنين » كافة من ذريته وغيرهم « يوم يقوم الحساب » أى يثبت ويتحقق .

ابراهيم ... يحدد حدود الحرم ؟!

« عن ابن عباس : ان جبريل — عليه الصلاة والسلام — ارى ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — موضع انصاب الحرم ، فنصبها .

« ثم جددها اسماعيل — عليه الصلاة والسلام — ثم جددها قصى بن كلاب .. ثم جددها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

« فلما ولى عمر — رضى الله تعالى عنه — بعث اربعة من قريش ، فنصبوا انصاب الحرم » . قالوا : « وحرم مكة هو ما احاطها من جوانبها .

. جعل الله حكمه فى الحرمة تشريفا لها . وحده من المدينة على ثلاثة أميال . ومن اليمن والعراق على سبعة .

« ومن الجدة على عشرة » .

وهكذا .. حدد ابراهيم حدود الحرم .. وجعله شيئا معلوما للجميع ... وأصبح هناك مكان معين من الأرض محرما إلى يوم القيامة ... مكان يترسطه بيت الله ... ويأمن فيه جميع الناس .. وجميع المخلوقات ...

من الذى حرمها ؟!

من الذى حرم هذا المكان ؟ هل هو ابراهيم ؟

كلا .. فان ابراهيم لايملك ذلك .. انما هو رجل يرجو ذلك .. ليس إلا ...

اذن من الذى حرمها ؟! قال تعالى : « إنما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ ربَّ هذهِ البَلْدَةِ ، الذى حَرَّمَها ، ولهُ كلُّ شىْءٍ ، وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المسلمينَ . »

[النمل ٩١]

اختص الله تعالى مكة من بين جميع البلاد باضافة اسمه إليها . لأنها أحب بلاده اليه ، وأكرمها عليه ، وأعظمها عنده حيث أن حرمها لايسفك فيها دم حرام . ولايظلم فيها أحد. ولا يهاج صيدها . ولا يختلى خلاها .

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة » أى انى أخص رب هذه البلدة بالعبادة ، ولا اتخذ له شريكا . والبلدة مكة .

وأشار إليها إشارة تعظيما لها، وتقريبا ، دالا على انها موطن نبيه ، ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذى هو خاص وصفها ، فاجزل بذلك قسمها فى الشرف والعلو .

ووصفها بأنها محرمة ، لاينتهك حرمتها إلا ظالم ، مضاد لربه . « وله كل شىء » خلقا وملكا . وجعل دخول كل شىء تحت ربوبيته وملكوته «وأمرت» أن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ..

إن الله تعالى هو الذى حرم مكة .. وليس ابراهيم .. وانما ابراهيم دعا .. وطلب .. والله تعالى استجاب .. وأمر .. فكانت حراما إلى يوم القيامة !!

أولم نمكن لهم حرما آمنا ؟!

وقال تعالى : « .. أوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ، يُجْبَى إليْهِ ثمراتُ كلِّ شىءٍ ، رزقًا مِنْ لَدُنا ، ولكنَّ أكثَرَهُمْ لايعلمونَ . » [القصص ٥٧]

وصف الله تعالى الحرم بالأمن ، ومن على عباده بأن مكن لهم هذا الحرم .

وروى النسائى فى التفسير « ان الحارث بن عامر بن نوفل قال للنبى صلى الله عليه وسلم (ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فانزل الله عز وجل ردا عليه (أولم نمكن لهم حرما آمنا) الآية معناه جعلهم الله فى بلد أمين ، وهم منه فى أمان فى حال كفرهم . فكيف لايكون لهم أمن بعد أن اسلموا وتابعوا الحق ؟

« آمنا » ذو أمن يأمن الناس فيه وذلك أن العرب فى الجاهلية كانت يغير بعضهم على بعض وأهل مكة آمنون فى الحرم من السبى والقتل والغارة . أى : فكيف يخافون إذا أسلموا وهم فى حرم آمن .

« يجبى اليه » أى إلى الحرم ، أى تجلب وتحمل من النواحى . « ثمرات كل شئ رزقا من لدنا » أى من عندنا ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون ان الله تعالى هو الذى فعل بهم فيشكرونه .

رسول الله يعلن ... أن هذا البلد حرمه الله ؟!

« عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ فتحِ مكَّةَ

« إنَّ هذا البلدَ حرَّمَهُ اللهُ

« لا يعضَدُ شوْكُهُ

« ولا ينفَّرُ صيْدُهُ

« ولا يَلْتقِطُ لقْطَتَهُ إلا منْ عرَّفها . » [البخارى]

« إن هذا البلد حرمه الله » فيه تعظيم له ، وتعظيمه يدل على فضله ، واختصاصه من بين سائر البلاد . حرمه الله ، أى جعله حراما .

ولفظ البخارى فى باب غزوة الفتح « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يوم الفتح فقال : ان الله حرم مكة ، يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام بحرام الله تعالى إلى يوم القيامة » الحديث .

فان قلت : ان قوله صلى الله عليه وسلم « ان ابراهيم عليه السلام حرم مكة وانا احرم مابين لابتيها » أى لابتى المدينة يعارض هذا الحديث .

قلت : ليس الأمر كذلك ، لان معنى قوله «ان ابراهيم حرم مكة » أعلن بتحريمها، وعرف الناس بانها حرام بتحريم الله اياها ، فلمالم يعرف تحريمها إلا فى زمانه على لسانه أضيف اليه ، وذلك كما فى قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس) فانه أضاف اليه التوفى ، وفى آية أخرى (قل يتوفاكم ملك الموت) أضاف اليه التوفى ، وقال فى آية أخرى (الذين تتوفاهم الملائكة) فاضاف اليهم التوفى ، وفى الحقيقة المتوفى هو الله عزوجل ، وأضاف إلى غيره لأنه ظهر على أيديهم .

« لايعضد شجرها » أى لا يقطع « ولا ينفر صيده » أى لايزعج من مكانه ، وهو تنبيه من الأدنى إلى الأعلى ، فلا يضرب ولا يقتل بالطريق الأولى . « ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها انها لقطة فيلتقطها ليردها إلى صاحبها ولا يتملكها .

والآن ... ماذا فى هذا الحديث ؟ فيه ان مكة حرام ، فلا يجوز لأحد ان يدخلها إلا بالاحرام . وهو قول الجمهور من الفقهاء . وفيه انه لا يجوز قطع شوكه ولا قطع شجره .

وقال ابن المنذر : أجمع العلماء على تحريم قطع شجر الحرم وفيه أنه لايجوز رفع لقطتها إلا لمنشد ، أى لا تحل إلا لمن يعرفها .

لماذا جعل الله الكعبة ... قياما للناس ؟!

قال تعالى : « جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ ، البَيْتَ الحَرامَ ، قِياماً للناسِ ... »

[المائدة ٩٧]

أشار فيه ألى أن قوام أمور الناس ، وانتعاش أمر دينهم ودنياهم ، بالكعبة المشرفة يدل عليه قوله (قياما للناس) .

فإذا زالت الكعبة تختل أمورهم وأشار به إلى تعظيم الكعبة وتوقيرها يدل عليه قوله (البيت الحرام) حيث وصفها بالحرمة . كاأشار به إلى أن الكعبة لاتنقطع الزوار عنها .

« البيت الحرام » نصب على أنه عطف بيان على جهة المدح لاعلى التوضيح « قياما »

أى عمادا للناس فى أمر دينهم ودنياهم . ونهوضا إلى اغراضهم ومقاصدهم ، فى معاشهم ومعادهم . لمايتم لهم أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم .

وعن عطاء : لو تركوها عاما واحدا لم ينظروا ولم يتجروا . وقيل : قياما أى معالم للحق. وقيل : يعنى علما لقبلتهم يصلون إليها . وقيل : صلاحا لدينهم .

والآن ... لماذا كل هذا ؟ .

لأن الكعبة هى النقطة ... هى مركز الدائرة ... الذى فرض الله تعالى على الناس جميعا أن يتوجهوا اليه . ولكن لماذا يتجه الناس جميعا إلى هذه النقطة ؟. وما وجه الأهمية فى ذلك ؟! ليكون رمزا إلى توجههم جميعا ... إلى الله ... إلى الذى خلقهم ... وإلى تلك المعانى البعيدة .. العزيزة .. الرفيعة .. يشير قوله تعالى .

حيث ما كنتم .. فولوا وجوهكم شطره ؟!

قال تعالى : « ومنْ حيثُ خرجتَ فولِّ وجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحرامِ ، وحيثُ ما كنتمْ فوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، لِئلا يكونَ للناسِ عليكمْ حُجَّةٌ ، إلا للذين ظلموا منهُمْ . فلا تخشَوْهُمْ واخشَوْنِى ، ولأُتِمَّ نِعْمَتى عليكمْ ، ولعلَّكمْ تهتدُونَ . »

[البقرة ١٥٠]

« ومن حيث خرجت » أى ومن أى بلد خرجت للسفر فول وجهك شطر المسجد الحرام إذا صليت . « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

أمر إلى الجميع أن يتوجهوا إلى المسجد الحرام حيث ما كانوا ... فى أى مكان كانوا ... غليهم أن يتجهوا اليه .

لماذا ؟ ... رمزا للاتجاه إلى رب ذلك البيت ؟ لماذا ؟ . ان السر كامن فى نفس قوله تعالى « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فى أى مكان تكونون فيه ... وفى أى زمان تكونون فيه ... عليكم أن تتجهوا بوجوهكم شطره .

شطر من ؟ ... شطر الله .

إذن هناك تربية عالية جدا ... إن الله يأمر كل مؤمن أن يتجه فى صلاته إلى الكعبة . وأن يوجه وجهه اليها ... مهما كان مكانه فى الأرض وزمانه ... وهو يصلى .

ليركز فى أعماق كل مؤمن ومؤمنة ان الاتجاه ينبغى أن يكون إلى رب ذلك البيت.. إلى الله ... انها نقطة ... يتجه اليها الجميع .. لتعلمهم .. وتركز فى نفوسهم أن عليهم أن يتجهوا إلى الله وحده .. جميعا .

فما أجمل التربية .. وما أعظم التوجية .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون !!

لماذا التحول الى قبلة ابراهيم ؟!

قال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعلنا كُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، لِتَكُونُوا شُهداء على النَّاسِ ، ويَكونَ الرسولُ عليْكُمْ شهيداً .. » [البقرة ١٤٣]

« وكذلك جعلنا كم أمة وسطا » أى كما اخترنا ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — وأولاده ، وأنعمنا عليهم بالحنيفية جعلنا كم أمة وسطا . وقال ابن كثير فى تفسيره يقول الله تعالى : إنما حولنا كم إلى قبلة ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم ، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل .

والوَسط العَدْل أى كذلك جعلنا كم أمة عدولا ، أمة عدلا .

وروى ان الرب عز وجل وصفهم بذلك لتوسطهم فى الدين فلاهم أهل غلو فيه كالنصارى ، ولاهم أهل تقصير فيه كاليهود . قلت : انما حول الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة ابراهيم ..

إلى الكعبة ... ليعلم الجميع أن ابراهيم امامهم ... وان طريقته ... واسلوبه .. وهى الحنيفية .. هى الطريقة .. وهو الاسلوب المأمورون جميعا باتباعه .. بل التى لا يرضى الله سواها للناس ديناً .

ورضيت لكم الاسلام دينا .. لقد شرع ابراهيم للناس جميعا الحنيفية ... وجاء محمد

صلى الله عليه وسلم .. يجدد دعوة ابيه ابراهيم ... ويدعوهم إلى الحنيفية السمحة ... ملة أبيكم ابراهيم .

فكان أمرا طبيعيا .. وحكما منطقيا .. أن يُؤمر محمد صلى الله عليه وسلم . . وتؤمر أمته .. أن يتجهوا إلى الكعبة .. إلى قبلة ابراهيم .. اشارة إلى اتحاد الاتجاه .. وإلى وحدة الطريق .

والى أن هذا الأسلوب ، الذى جاء به ابراهيم .. والذى بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليجدده ويدعو الناس جميعا اليه .. هو العدل .. وهو وحده المرضى عند الله .

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » أى من يعبد الله على أسلوب غير أسلوب ابراهيم .. غير ملة ابراهيم .. وهى نفسها ملة محمد .. التى سماها الاسلام .. فلن يقبل منه .

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ؟! » . « فاتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

إذن هذه الملة .. أوهذا الاسلوب .. هو العدل .. الذى يرتضيه الله .. وكذلك جعلنا كم أمة وسطا .

هكذا جعلنا كم يامن اتبعتم محمدا صلى الله عليه وسلم .. أمة عدلا .

لماذا ؟ .. لانكم اتبعتم ملة ابراهيم .. اتبعتم الحنيفية .. حنفاء لله .. غير مشركين به . فانتم شهود على غيركم .. انتم الميزان الذى يقيس الناس جميعا عليه أنفسهم .. فيتبين لهم ان كانوا على هدى . أم فى ضلال مبين ..

ومن أجل ذلك حولنا كم إلى قبلة ابراهيم .. اعلانا لاتحادكم معه فى الأسلوب !!!

جميع مناسك الحج تخليدا لذكرى مواقف ابراهيم ؟!

هل هذا صحيح ؟! هل هذه القضية على اطلاقها ؟

هل صحيح ... أن فريضة الحج انما فرضها الله علينا ... وأن جميع مافيها من مناسك... إنما كانت تخليدا لذكرى مواقف ابراهيم ؟!

لقد تأكدلى ذلك ... وأنا أجوس خلال تلك المباحث عن ابراهيم ... بما يدع إلى الشك ادنى سبيل .

واليكم البيان ... أولا ... ماهو الحج ؟

الحج فريضة افترضها الله علىعباده من استطاع اليه سبيلا .. واعتبر من قعد عنها بغير عذر كافرا .

فما هو هذا الحج ؟ الذى وعد الله ورسوله عليه غفران الذنوب جميعا ؟ ... «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ؟

هو أن يتوجه الانسان فى ايام معلومة من السنة إلى بيت الله الحرام ... حتى اذا كان يوم التروية خرج من مكة حتى إذا كان اليوم التاسع وقف بعرفة ملبيا ... ثم يعود نيرمى الجمرات ... وينحر ضحاياه ... ثم يعود إلى مكة ... ثم يتحلل .

فما هذا ؟ ... اولا ... تجرى المناسك كلها فى الحرم ... هذا من حيث المكان .
ثانيا ... يلبس الإنسان ملابس الأحرام ... وينخلع من زينته ... وهذا اشارة إلى خلعه للدنيا ... واقباله على الله ... ثم طواف القدوم حول الكعبة ... فيه تجديد العهد مع الله ... صاحب هذا البيت ... ثم السعى بين الصفا والمروة ...

فيه تخليد لذكرى سعى هاجر بينهما بحثا عن الماء ... ثم الخروج إلى عرفات للجؤار الى الله .

فيه التوجه الصادق إلى الله ... فيه الحنيفية التى هى صلب ملة ابراهيم ... ومخها .

امواج من البشر الحفاة العراة ... يتدافعون إلى جبل ... إلى صحراء ... يبتهلون الى الله ... ويلبون ... فما معنى هذا ؟ !

هذه هى الحنيفية التى يريدها ابراهيم ... والتى بعث بها محمدا صلى الله عليه وسلم .
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ! « الحج عرفة » ... لأنه المقام الذى تتحقق فيه

الحنيفية ... حيث يسقط الإنسان كل الوسائط ... وكل الاسباب ... وكل الحجب ... ويتجه إلى الله مباشرة ... مائلا عن كل شيء ... حنيفا لله وحده .

ومتى تم ذلك منه .. فقد حج .. فقد قصد ربه ... فقد استحق أن يغفر له ... فقد عاد كيوم ولدته أمه ... فقد اسقط كل ماضيه بعفوناته ، وقاذوراته ، ونجاساته . . وفتح صفحة جديدة فى علاقاته بربه .. تماما كما يبدأ الطفل المولود حياة جديدة لا ماضى لها .. تماما كما قال صلى الله عليه وسلم « رجع كيوم ولدته أمه »

ثم ماذا ؟ .. ثم رمى الجمار .. تمجيد لذكرى ابراهيم .. والشيطان يعرض له ليصده عن ذبح ابنه . . عن طاعة أمر ربه . . وابراهيم يرميه بالحجارة تأكيدا لاعراضه عن وسوسته .

وكما يعاود الشيطان ويكرر وسوسته للانسان .. والانسان لا ييأس . . فان الله فرض أن نرمى الجمار . . ونكررها فى يومين .. أوثلاثة . . ليعلمنا المثابرة . . ومصابرة جهاد الشيطان . . حتى ييأس أن نعبده .. أونطيعه فى أمر من أمورنا .

ثم ماذا ؟ ثم ذبح الاضاحى والهدى .. تذكيرا بذبح اسماعيل . . وفداء الله له بذبح عظيم .. وكيف أن الاخلاص ارتفع فى الأب والإبن إلى مستوى جعلهما يستسلمان فى أشق أمر ... أن يذبح الأب ابنه بيده .. وأن يصبر الابن على الذبح !!!

ثم ماذا ؟ .. ثم طواف الافاضة .. حول الكعبة . . تجديد للعهد مع رب البيت .. وتجديد تخليد ذكرى مؤسس هذا البيت .. ثم طواف الوداع عند مغادرة مكة .

كأن الانسان يؤكد لله أنه على العهد سوف يكون .. وعلى الحنيفية سوف يستقيم !!!

أليس هذا هو الحج ؟ فماذا فيه ؟

فيه أنه لايخرج عن كونه تخليدا لسلسلة الأفاعيل التى صدرت عن ابراهيم ، أو اشتقت عنه .. وهو ينفذ أوامر ربه .. كلمات ربه ..

وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : انى جاعلك للناس اماما .. من اجل

انك ياابراهيم على خير اسلوب احبه وارتضيه .. اسلوب الحنيفية .. اسلوب الاتجاه المباشر الىّ .. اسلوب اسقاط كل شىء من قلبك .. وتخصيصه لى أنا وحدى .

ومن أجل أنى أمرتك فأطعت .. وسلمت تسليما .. من أجل أنى أمرتك أن تدع طفلا وأمه فى صحراء لاماء فيها ولا غذاء .. فأطعت .. ومن أجل أنى امرتك حين بلغ ذلك الطفل معك السعى أن تذبحه ، فأطعت .. وشرعت فى ذبحه .

ومن أجل أنّا أمرناك أن تقيم لنا بيتنا .. ويعينك على اقامته اسماعيل .. فأقمته .. وأنت فى أعلى مقامات الاخلاص لنا ،، وسألتنا أن نتقبل منك .. ودعوتنا أن نجعل افئدة من الناس تهوى اليه .

ومن أجل أنا أمرناك أن تؤذن فى الناس بالحج فأذنت ، ومن أجل أن سألتنا أن نجعل هذه البلدة حرما آمنا .. فاستجبنا لك .. ومن أجل انك وفيت فى كل ما أمرناك به .. وفى كل مقامات قلبك .. وانت تتجه الينا .. من أجل ذلك كله جعلناك للناس إماما ..

وأمرناهم جميعا أن يتبعوا ملتك .. ووجهناهم جميعا الى قبلتك .. وأمرنا خيرهم جميعا .. محمدا صلى الله عليه وسلم .. أن يتبع ملتك .. ثم فرضنا عليهم جميعا أن يحجوا .. أن يقصدوا تلك الأماكن التى باشرت فيها تنفيذ أوامرنا .. واخلصت فيها الإخلاص كله لنا .

وفرضنا عليهم فيها شعائر ومناسك .. لتذكرهم مواقفك .. ولعلها ترفعهم إلى ادراك مقاماتك وانت تباشر الاسلام لنا .. وتأتى طاعاتنا ..

وفرضنا عليهم العمرة .. زيارة البيت الحرام .. ليذكروا فى أوقات غير الحج عظائم تلك الأمور .

وجعلنا تلك الشعائر .. رموزا تربطهم بافعالك .. لعلها ترفعهم إلى حالك .. لعلك تمكنهم من ادراك حقوقنا عليهم .. وكيف يسلكون السبيل الينا .

ثم اجزلنا لهم العطاء .. لقاء ما يقومون به فى تلك المناسك .. ووعدناهم أن يعودوا كيوم ولدتهم امهاتهم إذا أدوا ما عليهم فيها .

ليبدءوا صفحة جديدة .. حياة جديدة .. بقلوب سليمة كقلبك .. وحنيفية سمحة كملتك .

تلك اشارات إلى مافى تلك الفريضة العظمى .. فريضة الحج .. وكأنها كلها تؤكد .. أنها من أولها إلى آخرها .. كانت تمجيدا لما فعل إبراهيم .. وما صدر عن ابراهيم .

ومتى مجد الانسان اخلاص ابراهيم .. فقد ادرك طريقه إلى ربه .

أدرك الحنيفية التى دعا اليها ابراهيم .. أدرك معنى قوله وهو يؤدى تلك الفريضة « لبيك اللهم لبيك » ومتى المنتقام كل ذلك فى قلب الانسان .. فقد اصبح اهلا لأن يغفرله .. وأن يسقط عنه ماضيه كله بظلماته .

والآن انادى باعلى صوت يستطيعه انسان : اى اخلاص كان بقلبك .. ياابراهيم فانشقت عنه تلك الأنوار السرمدية ؟ ! !

شخصية ابراهيم ؟

ادخل إلى هذا الباب . . وأنا شديد الخوف . . أن يعاقبنى الله أشد العقاب . . أن سمحت لنفسى.. المظلمة .. الشديدة الظلمة .. أن تدخل إلى شخصية ابراهيم.. ذلك النور .. أو ذلك القمر المنير ..

الا انى أطمع حين ادخل اليه بظلمتى . . أن يشرق هو علىَّ بنوره . . فأضىء . . ولوشيئا قليلا .. يمكننى من رؤية .. ولوأدنى ملامح من شخصية .. ذلك المسمى ابراهيم.. ذلك الذى اثنى عليه ربه .. فا كثر الثناء .. وحين يثنى الله عز وجل على انسان فهو الإنسان .. أو على صفات فهى الصفات .. فلندخل إذا .. ذلك الحرم المقدس . . باذنه تعالى .. وبأسمه سبحانه .

فاتمهن ؟!

ليست النبوة شيئا جزافا . . ولا الرسالة شيئا يسيرا .. كلا . . وإنما أعلى مقامات البشر . . عندرب العالمين . . لايرقى إليهما الا من هو أهل لأن يرقى .. ولننظر الآن ماذا دفع ابراهيم من ثمن .. أهله لذلك المقام الذى ارتفع اليه ..

قال تعالى : « وإذ ابْتَلَى إبراهيمَ رَبُّهُ بكلمات فأَتمَّهُنَّ ، قالَ : إنى جاعلكَ للناسِ إماماً ، قالَ : ومن ذُرِّيَتى ، قالَ : لاينالُ عَهْدى الظالمينَ [البقرة ١٢٤]

فى هذه الآية .. مراحل ثلاث ،

مرحلة البلاء .. الاختبار .

مرحلة المكافأة . . أو الامامة

مرحلة الذرية .. اوتحريم الإمامة على من ظلم منهم .

والآن نبدأ بالأولى .. مرحلة الاختبار .. « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات » ... ماهى هذه الكلمات ؟ الكلمات هى الأوامر فالمعنى وإذ أمر الله ابراهيم باوامر . فما هى تلك الأوامر ؟

هل هى سر بين ابراهيم وربه ؟ يحتمل .. فمن اتخذه الله خليلا .. يحتمل جداأن يكون بينهما ما لا يعلمه الا اياها .

ولنطرح الآن . . ذلك الذى كان بينهما .. مما لاسبيل إلى الرقى اليه . . ولندخل إلى ماظهر منها .. وما أعلنه الله تعالى فى كتابه .. أو أعلنه رسوله صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه .

« وإذ ابتلى » وإذ اختبر والمراد به هنا التكليف ، أو المعاملة معاملة الاختبار .

« إبراهيم » وقرأ ابن عامر ، وابن الزبير ، وغيرهما (إبراهام) .

« ربه » التعرض لعنوان الربوبية تشريف له — عليه السلام — وإيذان بان ذلك الابتلاء تربية ، وترشيح لأمر خطير « بكلمات » بأوامر .

عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : إنها العشرة التى من الفطرة ..

« المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والأستطابة ، والختان » .

وقال عكرمة — رواية عنه — أيضا : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله الا ابراهيم .

« ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الاسلام .

« عشر منها فى سورة براءة (التائبون) الخ « وعشر فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الخ « وعشر فى (المؤمنين) و (سأل سائل) إلى (والذين هم على صلاتهم يحافظون) .

فالذى فى براءة التوبة . والعبادة . والحمد . والسياحة . والركوع . والسجود . والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحفظ لحدود الله تعالى ، والإيمان المستفاد من (وبشر المؤمنين) أومن (إن الله اشترى من المؤمنين) وفى الأحزاب ، الاسلام ، والايمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصيام ، والحفظ للفروج ، والذكر ، والذى فى المؤمنين ، الايمان . والخشوع . والاعراض عن اللغو . والزكاة . والحفظ

للفروج . — الاعلى الازواج أو الاماء ثلاثة — والرعاية للعهد . والامانة — اثنين — ، والمحافظة على الصلاة .

وهذا مبنى على أن لزوم التكرار فى بعض الخصال بعد جمع العشرات المذكورة كالايمان والحفظ للفروج لا ينافى كونها ثلاثين تعدادا ، إنما ينا فى تغايرها ذاتا .

وقيل : ابتلاه الله تعالى بسبعة أشياء : الكوكب . والقمرين . والختان على الكبر والنار . وذبح الولد . والهجرة من كوثى إلى الشام .

وقيل : هى ما تضمنته الآيات بعد من الأمامة ، وتطهير البيت ، ورفع قواعده ، والإسلام .

« فأتمهن » أتى بهن على الوجه الأتم ، وأداهن كما يليق .

* * *

هذه هى المرحلة الأولى .. مرحلة الاختبار .. وإذ ابتلى .وإذ وضع الله تعالى إبراهيم موضع التجربة . بكلمات ؟ ! ! بأوامر .. منها مالا يعلمه إلا الله تعالى وإبراهيم .

شىء باطن .. خاص به وبمقامه .. يرقى عليه إلى حيث شاء الله تعالى له أن يرقى .. وشىء ظاهر .. هو هذا الذى توسع فيه العلماء والمفسرون .

فمنهم من حصرها فى خصال الفطرة كالمضمضة ونتف الابط .. إلا أن هذه الخصال وإن كانت من كمالات الإنسان الا انها ليست شيئا ذا بال .. يميز ابراهيم على سائر الناس فليس كل من تمضمض واستنشق ونتف الإبط وحلق العانة .. الخ .. برجل يستحق أن يكون اماما للناس !

ومنهم من قال انه ابتلى بتلك الخصال الثلاثين التى ذكرناها . إلا أن هذه الخصال وإن كانت هى الأخرى صفات يجب أن يتميز بها ابراهيم .. الا أنها ليست هى التى تؤهله لأن يرتفع إلى مقام « جاعلك للناس اماما » ..

ومنهم من قال ، وقال .. إلا أن الرأى الجامع .. الذى يليق بمقام ابراهيم .. هو قولهم لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا ابراهيم .

هذا رأى قد يكون اقرب الآراء إلى مقام إبراهيم .. واوسعها .. واشملها .. فأتمهن .. فأتى بهن على أكمل ما يتصور من التمام .. أى فنجح إبراهيم فى الاختبار .. وبلغ ذروة النجاح المستطاع لانسان .. ابتلى ان يعتقد أن لا إله إلا الله .. فى عالم يعبد الاصنام والنجوم .. فاعتقد ذلك وحده .. ولم يبال الناس جميعا .

فأى نجاح بعد أن تكون وحدك موحدا والناس جميعا كفارا ؟ وابتلى ان يعلن ذلك إلى أبيه .. فأعلنه .. وصادمه .. حتى طرده من أجل ذلك .. وابتلى أن يعلن ذلك إلى قومه .. وعلى رأسهم النمروذ .. فأعلنه .. وسخر منهم .. وهزأ بآلهتهم .. فأى نجاح بعد هذا ؟

وابتلى أن يدمر عليهم أصنامهم .. فحطمها .. فحاكموه .. فحكموا باعدامه حرقا .. فجاءه جبريل : ألك حاجة .. فأبى .. فقذفوه فيها ليصلاها .

فأى نجاح يتصور فوق هذا النجاح ؟ من أجل ذلك كانت المكافأة: يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ؟ وابتلى ان يعالن قومه وأباه مرة أخرى بالحق .

فمازال يعالنهم .. حتى اضطروه إلى الهجرة عن أبيه .. وأسرته .. وعشيرته .. ووطنه إلى الشام .. فاجتمع لأبراهيم غربتان .. غربة العقيدة من قبل .. وغربة الأوطان .. فاحتملها وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين .. فأى نجاح بعده يتصورون ؟

وابتلى أن يذبح بيده ابنه ووحيده .. فأسلم .. وتله للجبين .. وذبح .. فأى نجاح بعد ذلك يكون ؟ فكانت المكافأة : وناديناه أن يا إبراهيم .

وابتلى .. وابتلى .. مما لا يعلمه الا الله .. ومما يناسب مقام إبراهيم .. وكان فى كل بلاء .. « الذى وفّى » فاستحق إبراهيم بذلك كله ..

انى جاعلك للناس اماما ؟!

هذه هى المرحلة الثانية من الآية .. مرحلة المكافأة .. مرحلة الإمامة ، المترتبة على الفوز فى الامتحان .. على النجاح فى البلاء .. على دفع الثمن .

قال تعالى : « قالَ : إنى جاعلك للناس إماماً » الامام اسم للقدوة الذى يؤتم به والمراد به هاهنا النبى المقتدى به . وهذه الامامة إما مؤبدة . كما هو مقتضى تعريف الناس، وصيغة اسم الفاعل الدال على الاستمرار . ولايضر مجىء الأنبياء بعده ، لأنه لم يبعث نبى إلا وكان من ذريته . ومأمور باتباعه فى الجملة . لافى جميع الأحكام ، لعدم اتفاق الشرائع التى بعده فى الكل .

فتكون امامته باقية بامامة أولاده التى هى ابعاضه علَى التناوب . والامتنان على ابراهيم — عليه السلام — بذلك دون غيره لخصوصية اقتضت ذلك لاتكاد تخفى فتدبر. وظاهر الآية يشير إلى أن الابتلاء كان قبل النبوة ، لأنه تعالى جعل القيام بتلك الكلمات سببا لجعله اماما .

ماهذا ؟ هذا أخطر جانب من شخصية ابراهيم . . إنه الجانب الذى ينبغى أن يصغى اليه الناس جميعا .. على اختلاف أديانهم .. ومللهم . . ونحلهم .. ومذاهبهم الفكرية . . أو الفلسفية .. أو العقائدية .. سواء كانوا دينيين .. أو لا دينيين .. متفلسفين .. أو غلفا لايفكرون .. الجميع .. كل الناس .. مدعوون أن يستمعوا إلى هذا الأمر .

إنى جاعلك للناس إماما ؟!! إنى .. أنا الله لا إله إلاأنا . . جاعلك .. قررت أن تكون إلى يوم القيامة ياابراهيم .. للناس .. لكل الناس .. ذكرهم وأنثاهم .. لافرق بين أحد دون أحد .. إماما.. قدوة يقتدون بها .

لقد رفع الله ابراهيم فى هذا الأمر درجات . ودرجات . . ألم يقل سبحانه : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه .. نرفع درجات من نشاء » . ؟!

رجل . . رجل واحد . . ليس اثنين . . يعطيه الله كل هذا ؟!! يجعله لجميع الناس، إماما إلى الأبد ؟! لماذا يعطى الرب تبارك وتعالى كل هذا لابراهيم دون سواه ، أهو مجرد تفضل الله تعالى عليه ؟ كلا .. إنه هو الحكيم فى أفعاله .

أوهو محض الصدفة ؟ كلا .. إنه هو القائل : « وكنا به عالمين » .. اذن هناك استحقاق فى ابراهيم .. يؤهله لكل هذا ؟

هناك استعداد .. هناك عظمة كامنة فى معدن الرجل .. فماذا فى ابراهيم رفعه إلى مقام امامة الناس أجمعين ؟ . أهو نجاحه فى تلك الكلمات التى ابتلى بها ؟ كلا .. فإن ذلك كله لايرفعه إلى ذلك المقام .

اذن ماهو هذا الشىء الذى أعطى الله تعالى من أجله ابراهيم ما أعطى ؟ .

إنه .. ؟ ! . إنه .. ؟!.

الحنيفية .. ملة ابراهيم .. طريقته فى الاتصال بالله .. أسلوبه فى الاتجاه إلى الله .. أسلوبه الذى لايستطاع الوصول إلى الله الا بسلوكه .

ان ابراهيم أول من سار إلى الله فى هذا الطريق .. طريق الحنيفية .. فعلى كل من يريد الذهاب إلى الله .. أن يسير وراءه .. إنه هو الرائد .. رائد الناس إلى ربهم .

فعليهم جميعا أن يتبعوه .. أن يسيروا وراءه .. أن يقتدوا به .. أن يتخذوه اماما .. إنى جاعلك للناس إماما ؟؟!

هل استبان الآن .. لماذا رفع الله ابراهيم ذلك المقام .. انها الحنيفية .. طريق الله الأوحد .. وانه ابراهيم .. أول من سار فيه .. فكل من جاء الله .. وجد ابراهيم أمامه .. إمامه .

إنى جاعلك للناس إماما .. والناس فى هذا سواء .. جميعا .. مأمورون باتباع ابراهيم حتى الأنبياء .. من بعده .. كلهم ..

« فاتبع ملة ابراهيم حنيفا » .. لماذا ؟ .. لأنه لاطريق إلى الله إلا هذا !! لقد قالها ابراهيم : إنى ذاهب الى ربى سيهدين . واستمر يسير إلى الله من يومها .. إلى ماشاء الله .

فأى انسان من بعده يريد أن يقول : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين .. سوف يتحتم عليه أن يسير فى نفس الطريق .. وسوف يجد أمامه ابراهيم .. أى إمامه ابراهيم .. اى : إنى جاعلك للناس إماما .. فماهى هذه الحنيفية التى جاء بها ابراهيم .. فتحتم على الناس أن يتبعوها إذا أرادوا أن يذهبوا إلى ربهم ؟

هى الاتجاه المباشر إلى الله .. هى اسقاط كل شىء من الطريق .. والتوجه إلى الله مباشرة .. هى عدم الالتفات إلى ماسواه .. حنيفا .. وما أنا من المشركين .. مائلا .. عن كل شىء .. ولاأشرك به شيئا من الأشياء !!

لا ينال عهدى الظالمين ؟!

ثم ندخل المرحلة الثالثة من الآية .. وهى قوله تعالى : « قال : ومن ذريتى ، قال : لاينالُ عهدى الظالمينَ » . انها مرحلة تحريم الامامة على من ظلم من ذريته .. فامعنى هذا؟ معناه أن الأمر ليس فوضى .. بل يجرى على نواميس محكمة ، لا خلل فيها ، ولا محاباة .

إنك ياابراهيم استحققت أن تكون اماما للناس .. لما نعلمه منك من حنيفية ..وصدق وتسليم .. وتوفية .. أما نسلك ، أماذريتك .. فلن ينالها من ظلم .. سنجعل الإمامة فى ذريتك .. سنجعل النبوة وهى أعلى مقامات الامامة فى ذريتك ..

ولكن لمن من ذريتك ؟! لمن كان على ملتك .. أمامن كان منهم ظالما فهى عليه حرام .. إنه العدل الإلهى .. يسرى فى كل شىء .

« قال » أى ابراهيم « ومن ذريتى » الذرية نسل الرجل وأصلها الأولاد الصغار ، ثم عمت الكبار والصغار ، الواحد وغيره .

« قال » الله « لاينال عهدى » لاينال الامامة . وليست هى هنا إلا النبوة . وآثر النيل على الجعل ايماء إلى أن إمامة الأنبياء من ذريته — عليه السلام — ليست بجعل مستقل بل هى حاصلة فى ضمن إمامته ، تنال كلا منهم فى وقته المقدر له .

« الظالمين » المتبادر من الظلم الكفر ، ويؤيده قوله تعالى(والكافرون هم الظالمون) أى لايكون نبيا من ذريتك من كان كافرا ، أومشركا ،أوظالما لنفسه ،أولغيره ،، هنالك تقررت الامامة للصفوة من ذرية ابراهيم ،، وعلم أنها محرمة على الظالمين منهم .

ولقد اصطفيناه ... فى الدنيا ؟!

قال تعالى : ومَن يرغَبُ عن ملّةِ إبراهيمَ إلا مَن سَفِهَ نفسهُ ، ولقد اصطفيناهُ فى الدنيا ، وإنّهُ فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحينَ . » [البقرة ١٣٠]

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم » انكار واستبعاد لأن يكون من العقلاء من يرغب عن ملة ابراهيم ! وهى الحق الواضح غاية الوضوح أى : لا يرغب عن ذلك أحد .

« إلا من سفه نفسه » أى جعلها مهانة ذليلة .

وقيل: أى جهل نفسه ، لخفة عقله ، وعدم تفكره أو : أهلكها. وسبب نزول الآية : ماروى أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه ، سلمة ومهاجرا ، إلى الاسلام . « فقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة : إنى باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو مطعون .

فأسلم سلمة ، وأبى مهاجر .. فنزلت . « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » أى اخترناه بالرسالة بتلك الملة واجتبيناه من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشىء أى خالصه .

وذلك من حيث المعنى دليل مبين لكون الراغب عن ملة إبراهيم سفيها . إذ الاصطفاء والعز فى الدنيا غاية المطالب الدنيوية . والصلاح جامع للكمالات الأخروية ولا مقصد للانسان الغير سفيه سوى خير الدارين .

* * *

ومن يرغب عن ملة إبراهيم الامن سفه نفسه ؟ لا يتصور أن يتحول عاقل عن ملة إبراهيم ولا يتحول عن أسلوب إبراهيم الا كل مجنون . أو ناقص العقل . أو سفيه . أو انسان لا يميز بين الخير والشر . أو انسان يهين نفسه ويذلها ويضيعها .

أما العاقل .. أما الذى يحسن التفكير ، فلا يتصور أن يرغب عن ملة إبراهيم . فما هى هذه الملة ، أو هذا الاسلوب الذى يعتبر المتحول عنه سفيها ؟

أما تفاصيل تلك الملة .. فسوف نقرأه فى فصل قادم .. من هذا الكتاب .. وإنما أخرناه .. لخطورته .. غاية الخطورة .. فإن معرفتك كيف تسلك الطريق الصحيح فى حياتك .. تعتبر أهم وأخطر موضوع فى حياة كل إنسان .

ولذلك أفردناله بابا مستقلا .. ولكن لماذا ارتفع ابراهيم هذا الارتفاع .. حتى اعتبر

الله تعالى الراغب عن ملته سفيها ؟ « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » . . هاهنا السر . . هاهنا المفتاح .. أن الله اصطفاه من بين الناس جميعا .

أن الله نظر إلى سكان الأرض جميعا .. فوجد ابراهيم خلاصتهم ..وذروتهم ..وقمتهم.. فاختاره لنفسه .. لأنه أسلم قلب على ظهر الأرض .. ولقد اصطفيناه ؟!!

انها جملة فيها من تشريف ابراهيم مافيها ؟!

اصطفيناه !!! نحن الله .. نحن ؟ اصطفينا إبراهيم ؟ .

نحن اخترنا ابراهيم . نحن .. الله ..؟! لايوجد تعبير بشرى يسع ادراك ذلك المعنى؟! انه شىء فخيم .. عظيم .. لقد اصطفيناه .

فى الدنيا ؟ . . فيها مطلقا . . ماوجدت حياة بشرية على الأرض . . ليس فى زمانه وحده .. ولكن ماوجدت الحياة .. وما وجد الإنسان .

ثم ماذا ؟ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .. وفوق هذا وذاك .. هو فى الحياة الآخرة قمة الصالحين . . وذروتهم . . وامامهم . . انه إذا قمة الفوز فى الحياتين . . ومن هنا كان المعرض عن اسلوبه سفيها .

إذ لو كان يعقل .. لاتبعه واقتدى به .. ليفوز فى الحياتين كما فاز . ولكن لماذا نال ابراهيم كل هذا ؟

أسلم . . . أسلمت ؟!

قال تعالى : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ » .

[البقرة ١٣١]

مانال مانال .. إلا بالمبادرة ، والانقياد إلى ماأمر به .. واخلاص سره حين دعاه ربه وقيل : أخطر بباله الدلائل المؤدية إلى المعرفة ، واستدل بها ، وأذعن بمدلولاتها إلا أنه سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بالقولين تصويرا لسرعة الانتقال بسرعة الاجابة .

فهو اشارة إلى استدلاله — عليه السلام — بالكوكب والشمس والقمر ، واطلاعه

على امارات الحدوث ، من أن ذلك قبل النبوة ، وقبل البلوغ . واضافة الرب في الجواب إلى (العالمين) للايذان بكمال قوة اسلامه ، حيث ايقن حين النظر شمول ربوبيته تعالى للعالمين قاطبة . لالنفسه فقط ، كما هو المأموربه ظاهرا .

أمن أجل هذا ارتفع ابراهيم هذا الارتفاع ؟ وماذا بقى من معارج الصعود بعد هذا ؟ !

إذ قال له ربه : أسلِمْ . قال : أسلمتُ لرب العالمين .

هذا هو المفتاح الاكبر لتلك الشخصية العظمى .. هل صدر هذا الأمر فعلا من الله إلى ابراهيم ؟ نعم .. نعم .. صدر .

إن حقيقة ابراهيم .. تدرك على اعلى مستوى من الأدراك ماهى عظمة الله ؟ تدرك مالايدرك الناس جميعا ماهى الألوهية .. تدرك أن الله هو الوجود الحق .. وأن كل شىء بعده عدم .. لأن الله هو الذى خلق كل شىء .

فهو سبحانه الوجود الحق .. وكل شىء بعده باطل .. سوف يبطل يوما ما .. سوف يفنى يوماما .. سوف يهلك .. كل شىءٌ هالك الاوجهه .. تدرك حقيقة ابراهيم .. هذا وما هو اعلى من كل هذا .. مما لا يستطيع بشر أن يدركه إلا ابراهيم .. ومن كان فى مستواه .. أو اعلى .. وهو محمد صلى الله عليه وسلم .. وحده .

تدرك حقيقة ابراهيم اذن أن الله هو الوجود الحق .. وأن كل شىء عدم ،، فهو سبحانه صاحب الأمر وحده وصاحب الخلق وحده .. ألا له الخلق والأمر .

فاذا أمر تحتم الانقياد لأمره توا .. وفورا .. إذ قال له ربه : أسلم .. قال : أسلمت .. فكانت حقيقة ابراهيم .. هى الانقياد .. فوراً لربها .

لماذا ؟ .. لأن ربها قاهر فوق كل شىء .. ومن هنا كان جواب حقيقة ابراهيم : أسلمتُ لرب العالمين .. أى أطعت فورا هذا الذى هو رب كل شىء لاربى أنا وحدى .. فلا فرار منه الا اليه .

ان حقيقة ابراهيم .. فى الذروة .. من معرفة الله .. وماله لا يبلغ ذلك المقام من معرفة ربه .. وهو ابراهيم ؟!

وتتبدى اشعاعات .. ادراكات .. حقيقة ابراهيم .. فى تلك المقامات التى ابتلى بها.. فتحققت منه تلك المعرفة الباطنة من شخصيته .. فى مقام النار .. حين عرض له جبريل ألك حاجة ؟

فكان جوابه جواب حقيقته وهى تتكلم : علمه بحالى يغنى عن سؤالى !!! انه كان فى تلك اللحظة .. يتلألأ بلألاء : أسلمت لرب العالمين .. فكان جواب رب العالمين : يانار كونى !!!

هذا مقام التسليم .. تلألأ من ابراهيم .. فى ذلك الحال .. وتلألأ منه كذلك فى مقام البلاء المبين : اذبح ابنك .. فكان جواب حقيقته ..ذبحت!! وتله للجبين .. وشرع يذبح!! هنالك .. كانت حقيقة ابراهيم تتلألأ .

وكان اشعاعها قاهرا .. فكان جواب رب العالمين : وناديناه أن ياابراهيم ، قد صدقت الرؤيا !!! وهذا مقام آخر .. من مقامات التسليم الابراهيمى !!!

وهكذا .. ماأمره ربه بأمر ظاهر .. الا استبقه .. وسارع اليه .. مستسلما بباطنه لله على أعلى مايكون الاستسلام .

أسلِمْ .. أسلَمْتُ .

أسلم .. أسلمت .

أسلم .. أسلمت .

رَدِّدوها .. تدركوها .

انها بحار من نور ،، يسبح فيها ابراهيم وحده ،، لأنه مقامه وحده !!

ووصى بها إبراهيم بنيه ؟!

قال تعالى : « ووَصَّى بها إبراهيم بنيهِ ، ويعقوبُ ، يابَنِيَّ ، إنَّ اللهَ اصْطَفَى لكمُ الدينَ ، فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمونَ » . [البقرة ١٣٢]

« ووصى بها ابراهيم بنيه» مدح له — عليه السلام — بتكميله غيره ، إثر مدحه بكماله في نفسه . وفيه توكيد لوجود الرغبة في ملته والتوصية التقدم إلى الغير لفعل فيه صلاح وقربة ، سواء كان حالة الاحتضار أولا ، وسواء كان ذلك التقدم بالقول أو الدلالة .

والضمير في (بها) إما للملة أولقوله (أسلمت) .

« ويعقوب » أي ووصى بالملة أوبأسلمت يعقوب بنيه « يابني » قال ابراهيم : يابني وقال يعقوب : يابني .

وبنو ابراهيم — اثنا عشر — (في قول) وهم اسماعيل ، واسحاق .. الخ . وبنو يعقوب أيضا كذلك ، وهم يوسف وروبيل .. الخ « إن الله اصطفى لكم الدين » أي جعل لكم الدين الذي هو صفوة الأديان ، أن شرعه لكم ، ووفقكم للأخذ به .

والمراد به دين الاسلام الذي به الاخلاص لله تعالى ، والانقياد له « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نهى عن الاتصاف بخلاف حال الاسلام وقت الموت والمراد من الأمر الذي يشير اليه ذلك النهى الثبات على الاسلام لأنه المقصود من التوصية .

ماهي هذه التوصية ؟ وما وجه الخطورة منها حتى يوصى بها ابراهيم اولاده جميعا ؟ ويوصى بها يعقوب اولاده جميعا ؟

وجه الخطورة أنها هي الطريق الصحيح الوحيد ، في الحياة ، وماسواه ضلالات وانحرافات ، ومن هنا كانت خطورتها .

ووصى بها ؟ هل هي الملة أم هي أسلمت ؟ هذه هي تلك ، وتلك هي هذه؟ فاذا وصاهم بالاسلام فقد وصاهم بملته ، وإذا وصاهم بملته فقد اوصاهم بالاسلام ، لأن ملته تدور على الحنيفية ، على التوجه المباشر إلى الله ، وعدم الالتفات إلى شيء مع الله ، وهذا الاسلوب من التوجه إلى الله ، يركز في الإنسان حتمية التسليم لله ، والاستسلام لأمره ، والمسارعة والمبادرة والانقياد له سبحانه في كل ماأمر ، لأنك إذا اتجهت مباشرة اليه فقد عرفته ، وإذا عرفته فقد ادركت حتمية انقيادك لأمره .

إن ابراهيم وصى أولاده جميعا بملته .. ووصاهم بطريقته التي تدور في كلمة واحدة :

أسلمت لرب العالمين .. وصى بها إسماعيل .. ووصى بها إسحاق .. لتتسلسل منهما إلى من ورائهما من الابناء ، والشعوب . .

ولعل يعقوب كان من الذين وصاهم ابراهيم بها كذلك .. وحضرها مع ابيه اسحاق . وسمعها من جده العظيم ابراهيم .. أولعله سمعها من اسحاق نفسه بعد ذلك .. يحتمل هذا أوذاك .. المهم أن تلك التوصية التى هى جماع ماعند ابراهيم قد بثها بثا فى بنيه ، لتكون توجيها منبثا فى الشعوب من بعدهم . . وليعلم الناس جميعا أنه لاطريق صحيح فى الحياة سواها . .

المشهد الرائع ... يعقوب يوصى بها أبناءه ؟!

قال تعالى : « أمْ كنتُمْ شهداء إذْ حضَرَ يعقوبَ الموتُ ، إذْ قالَ لبَنيهِ : ما تعبُدُونَ من بَعْدِى ؟ قالوا : نعبُدُ إلَهَكَ ، وإلهَ آبائكَ ، إبراهيمَ ، وإسماعيلَ ، وإسحاقَ ، إلهاً واحداً ، ونحنُ لهُ مسلمونَ . تلكَ أمةٌ قد خلتْ ، لها ما كسَبَتْ ولكم ما كسبتمْ ، ولاتسألونَ عما كانوا يعملونَ .» [البقرة ١٣٣ — ١٣٤]

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت » أى ما كنتم حاضرين حين احتضاره — عليه الصلاة والسلام — وسؤاله بنيه عن الدين ، فلم تدعون ماتدعون ؟ الخطاب لجنس اليهود . ذكر الواحدى : أن الآية نزلت فى اليهود حين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب لمامات أوصى بنيه باليهودية ؟ . والشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى حاضر .

« إذ قال لبنيه : ماتعبدون من بعدى ؟ »أى : أى شىء تعبدونه بعد موتى ؟ والغرض حثهم على ما كانوا عليه حال حياته من التوحيد والاسلام ، وأخذ الميثاق منهم عليه . وكان هذا بعد أن دخل — عليه السلام — مصر ، ورأى فيها من يعبد النار ، فخاف على ولده ، فحثهم على ماحثهم .

« قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ، إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق » قدم إسماعيل على اسحاق لكونه أسن منه . وعد اسماعيل من آبائه لأنه شبه العم بالأب .

« إلها واحدا » وفائدة الابدال دفع توهم التعدد الناشىء من ذكر الإله مرتين . أو نصب على المدح .

« ونحن له مسلمون » أى مذعنون ، مقرون بالعبودية . وقيل : خاضعون ، منقادون مستسلمون لنهيه ، وأمره ، قولا وعقدا . وقيل : داخلون فى الاسلام ، ثابتون عليه .

« تلك أمة قدخلت » الاشارة إلى ابراهيم وأولاده . والمراد ، بالأمة هنا الجماعة ، وخلت : أى مضت . والمعنى إن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وانما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم .

« ولا تسألون عما كانوا يعملون » والمراد تخييب المخاطبين ، وقطع أطماعهم ، من الانتفاع بحسنات من مضى منهم وقيل : لاتؤاخذون بسيئاتهم ، كما لاتثابون بحسناتهم .

هذا هو المشهد الرائع .. يعقوب .. ذلك النبى الكريم .. فى مصر .. وقد علا فيها ابنه يوسف — عليه السلام — علوا عظيما .. فصار اليه الأمر والنهى .. إنك اليوم لدينا مكين أمين .

حضرته الوفاة .. فجمع أولاده جميعا .. ومن بينهم يوسف العظيم : ماتعبدون من بعدى ؟ لقد كان يخاف عليهم أن يتأثروا بمخالطة المصريين الذين لايعبدون الله ولا يوحدونه آنذاك .

فكان جوابهم جميعا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق ، الها واحدا !! فاطمأن يعقوب على أولاده أن تفتنهم معتقدات مصر الفاسدة .. البعيدة عن ملة ابراهيم .

لقد اطمأن يعقوب أن كلمة جده العظيم ابراهيم : أسلمتُ لرب العالمين . . مازالت تدوى فى أعماقهم .. وتسرى فى كيانهم .. وهى مخ معتقداتهم !!

درجة ابراهيم ؟!

قال تعالى : « تلكَ الرسلُ ، فضَّلنا بعضَهُمْ على بعضٍ ،منهم من كَلَّمَ اللهُ ، ورَفَعَ بعضَهُمْ درجاتٍ ، وَآتَيْنا عيسى بْنَ مريَمَ البيناتِ ، وأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ . »

[البقرة ٢٥٣]

« تلك الرسل » للايذان بعلو طبقتهم ، وبعد منزلتهم « فضلنا بعضهم على بعض » بأن خصصنا بعضهم بمنقبة ليست تلك المنقبة للبعض الآخر وقيل : المراد التفضيل بالشرائع فمنهم من شرع ، ومنهم من لم يشرع .

« منهم من كلم الله » إما موسى عليه السلام . أو : كل من كلمه الله تعالى عن رضا بلا واسطة ، وهم آدم كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة . وموسى .. وهو الشهير بذلك . ونبينا صلى الله عليه وسلم وهو المخصوص بمقام قاب ، والفائز بعرائس خطاب . « ورفع بعضهم درجات» أى ومنهم من رفعه الله تعالى على غيره من الرسل بمراتب متباعدة ، ومن وجوه متعددة . وتغيير الأسلوب لتربية مابينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف . والمراد ببعضهم هنا النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد به ابراهيم حيث خصه الله تعالى بمقام الخلة . التى هى أعلى المراتب. والدرجة بمعنى الرفعة . فكأنه قيل : ورفعنا بعضهم رفعات .

« وآتينا عيسى بن مريم البينات » الآيات الباهرات ، والمعجزات الواضحات ، كابراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى .. الخ والآية ناطقة بأن الأنبياء — عليهم السلام — متفاوتة الأقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض .

وقال تعالى : « وتلكَ حُجَّتنا آتَيْناها إبراهيمَ على قومِهِ ، نرفَعُ درجاتٍ من نشاء إنَّ ربكَ حكيمٌ عليمٌ . » [الأنعام ٨٣]

« نرفع درجات » أى رتبا عظيمة ، عالية ، من العلم والحكمة « من نشاء » من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وايثار صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة فيما بين المصطفين الأخيار ، غير مختصة ، بابراهيم — عليه السلام — .

« إن ربك حكيم » أى فى كل مايفعل من رفع وخفض « عليم » أى بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة .

والآن أين درجة ابراهيم ؟ إن الذى يحددها هو قوله تعالى : « نرفع درجات من نشاء ». إن الله تعالى اذن قد رفع إبراهيم درجات عظيمة . . عالية جدا .. وفضله بذلك على جميع الرسل والأنبياء .. إلا محمدا صلى الله عليه وسلم .. فانه إمام المرسلين .

وقد نصت الأخبار على أن ابراهيم مقامه فى السماء السابعة . فهوفوق الأنبياء جميعا .. ودون درجة محمد صلى الله عليه وسلم .. فهو بذلك يعتبر أعلى الأنبياء درجة .. باستثناء إمام المرسلين .

وابراهيم فى هذا يعتبر أعظم شخصية بشرية على الاطلاق . . بعد محمد صلى الله عليه وسلم .. فهو فى درجات الأنبياء .. الرجل الثانى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم.. الرجل الأول .. فإذا استثنينا درجة محمد صلى الله عليه وسلم. مؤقتا .. برز إبراهيم على الفور .. الرجل الأول . نرفع درجات .. درجات لاحدود لها .. لايعلم قدرها إلا الله .. من نشاء .. ولقد شئنا أن نرفع إبراهيم تلك الدرجات .. وكُنَّا به عالمين ؟!

. ويكفى من كان فى أدنى شك من هذا .. أن يتابع حياة إبراهيم .. يدرك على الفور مدى عظمة ذلك الرجل .. ومن هنا .. ومن هنا وحده .. يصبح حتما على الناس جميعا أن يدرسوا حياة إبراهيم .. وشخصيته .. وكلماته .. ومذاقاته .. اجمالا وتفصيلا .. ليصلوا من خلالها إلى معرفة ربهم .. ومعرفة الطريق الصحيح اليه ..

ابراهيم فى عين اليقين ؟!

وبلغت شخصية إبراهيم مقام عين اليقين .. بعد أن كانت فى علم اليقين .. حين سأل ربه : أرنى كيف تحيي الموتى ؟

قال : أَوَ لَمْ تؤمن ؟

قال : بلى .. ولـكن ليطمئن قلبى .. وأراه الله كيف يحيى الموتى .. وشهد التجربة بعينيه .. واشترك فيها بيديه .. فارتفعت شخصيته فى هذا المقام من علم اليقين إلى عين اليقين .. إلى ذات اليقين نفسه .. حين شهد التجربة عمليا .. واشترك فيها .

ما كان بابراهيم شك .. وما كان له أن يشك .. ولـكنه يريد أن يشهد قدرة ربه شهودا ماديا .. ليطمئن قلبه اطمئنانا لايزول أبدا .. وخلدها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال ..

نحن أحق بالشك من ابراهيم ؟!

عن أَبِى هُرَيْرَةَ — رضى الله عنه — أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال :
« نحنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ منْ إبراهيمَ ، إذْ قالَ : ربِّ أَرنى كَيْفَ تحيى الموتى ؟ ، قال : أَوَلَمْ تُؤْمِن ؟ ، قالَ : بَلى ، ولـكِنْ ليَطْمَئِنَّ قلْبى
« ويَرْحَمُ اللهُ لوطاً ، لقدْ كانَ يأوِى إلى رُكْنٍ شَديدٍ
« ولَوْ لَبِثْتُ فى السِّجْنِ طولَ ما لَبِثَ يُوسُف لأَجَبْتُ الداعِىَ . » [البخارى]

« نحن أحق بالشك » معناه نحن أحق بالشك فى كيفية الأحياء لافى نفس الأحياء.
وعن الشافعى وغيره : ان الشك مستحيل فى حق إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم . ولو كان الشك متطرقا إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لـكنت أنا أحق به من ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وقد علمتم أن إبراهيم لم يشك فإذا لم أشك أنا ، ولم أرتب فى القدرة على الإحياء ، فابراهيم أولى بذلك . وقيل : معناه أن هذا الذى يظنونه شكا فليس بشك ، فلو كان شكا لـكنت أنا أولى به ، ولـكنه ليس بشك ولـكنه تطلب لمزيد اليقين .

وقال عياض : يحتمل أنه أراد أمته الذين يجوز عليهم الشك ، أو أنه قاله تواضعا مع إبراهيم .

« إذ قال » أى حين قال « ويرحم الله لوطا » ولوط صلى الله عليه وسلم هو ابن أخى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن آمن بإبراهيم ، وهاجر معه إلى مصر ، ثم عاد معه إلى

الشام ، فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلسطين ، ونزل لوط الأردن ، ثم أرسله الله إلى أهل سدوم وهى عدة قرى وكانوا يعبدون الأوثان ، ويأتون الفواحش . ويسافد بعضهم بعضا على الطريق ، وغير ذلك من المفاسد . وذكر الله لوطا فى القرآن فى سبعة عشر موضعا . ولوط .. قيل إسم عربى من لاط لأن حبه لاط بقلب إبراهيم صلى الله عليه وسلم أى تعلق ولصق .

« لقد كان يأوى الى ركن شديد » وهو إشارة الى الآية الكريمة وهى قوله تعالى (قال: لوأن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) وقال الطيبى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأن كلامه يدل على اقناط كلى ، ويأس شديد ، من أن يكون له ناصر ينصره . وكانه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم استغرب ذلك القول وعده نادرا منه ، إذ لا ركن أشد من الركن الذى كان يأوى اليه . وقيل : معناه إلى قوى استند إليه ، وامتنع به ، فيحميني منكم . وقيل : يجوز أنه نسى الإلتجاء إلى الله فى حمايته الأضياف ، أوأنه التجأ إلى الله فيما بينه وبين الله ، وأظهر للأضياف العذر وضيق الصدر .

« ولو لبثت » فى السجن مالبث يوسف .. وقد لبث سبع سنين ، وسبعة أشهر ، وسبعة أيام ، وسبع ساعات .

« لأجبت الداعى » يعنى لأسرعت إلى الإجابة إلى الخروج من السجن ، ولما قدمت العذر . قال الله تعالى (فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك) الآية . وصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام بالصبر حيث لم يبادر إلى الخروج وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعا ، لا أنه كان فى الأمر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف . والتواضع لا يصغر كبيرا ، بل يزيده اجلالا وقدرا .

ليست المسألة شكا .. وإنما ...

ولكن ليطمئن قلبى ؟!

ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام (أرنى كيف تحيى الموتى) أسبابا .. منها . إنه لما قال لنمروذ لعنه الله (ربى الذى يحيى ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين

اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرنى كيف تحيى) كما أن الإنسان يعلم الشيء ويتيقنه ولـكن يحب أن يراه عيانا .

ومنها .. انه لمابشر بالخلة سأل ذلك ليتيقن بالإجابة لصحة مابشر به .

ومنها .. إنه إنما سأل ليشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، واتصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يجمع بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين .

ومنها .. ماروى أن إبراهيم أتى على دابة توزعتها الدواب والسباع فقال : رب أرنى كيف تحيي الموتى ، ليتشاهد ذلك لأن النفوس متشوقة إلى المعاينة ، يصدقه الحديث الصحيح : ليس الخبر كالمعاينة . ومنها .. ماقيل .. مر ابراهيم بحوت نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر ، والذى فى البحر تأكله دواب البحر ، والذى فى البر تأكله دواب البر فقال إبليس الخبيث : يا إبراهيم ! متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟! فقال : رب أرنى كيف تحيي الموتى ، ليطمئن قلبى ، ليسكن ويهتدى باليقين الذى يستيقنه . وقيل .. إنما سأل الله أن يحيي الموتى على يديه ، يدل على ذلك قوله تعالى (فصرهن اليك) فأجابه على نحو ماسأل وعَلِمَ أن أحداً لايقترح على الله مثل هذا فيجيبه بعين مطلوبه إلا عن رضا واصطفاء ، بقوله (أو لم تؤمن) بانا اصطفيناك واتخذناك خليلا ؟ ، قال : بلى

« كيف تحيي الموتى ؟ » السؤال بـكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود ، متقرر الوجود عند السائل ، فـكيف هنا استفهام عن هيئة الأحياء ، وهو متقرر .

« قال : أولم تؤمن ؟ » يعنى باحياء الموتى وإنما قال : أولم تؤمن مع علمه بأنه أثبت الناس إيمانا ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين « بلى » أى آمنت .

« ولـكن ليطمئن قلبى » أى ليزيد سكونا ، وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال ، لأن ظاهر الادلة اسكن للقلوب ، وازيد للبصيرة واليقين . وعن ابن عباس والحسن وآخرين : ليطمئن قلبى للمشاهدة ، كأن نفسه طالبته برؤية ذلك فاذا رآه اطمأن . وقد يعلم المرء الشيء من جهة ثم يطالب أن يعلمه من غيرها . وقيل : المعنى ليطمئن قلبى ، بأنى إذا سألتك اجبتنى . وقيل : كان سؤاله على طريق الأدب . يعنى اقدرنى على احياء الموتى

ليطمئن قلبي عن هذه الامنية فأجابه الله إلى سؤاله . وقال : فخذ أربعة من الطير .. وهى الغرموق والطاووس والديك والحمامة . ولما أخذ إبراهيم هذه الطيور الأربعة قال الله تعالى له «فصرهن اليك» أى قطعهن ثم خلطهن ثم اجعلها أربعة أجزاء ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا . ففعل إبراهيم مثل ما امر به ، ثم امره الله أن يدعوهن فدعاهن ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طير يقصد بعضها بعضا ، حتى قام كل طير على حدته واتينه يمشين سعيا ، ليكون أبلغ فى الرؤية التى سألها قال ابن عباس : وكان إبراهيم قد أخذ رؤسهن بيــده ، وجعل كل طير يجىء ليأخذ رأسه من يد إبراهيم . فاذا قدم إبراهيم غير رأسه يأباه ، وإذا قدم رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله تعالى وقوته . ولهذا قال الله : واعلم أن الله عزيز لا يغلبه شىء ، ولا يمتنع منه شىء ، حكيم فى اقواله وافعاله ! !

أثر التجربة فى شخصيته ؟!

ماذا أفاد إبراهيم من تلك التجربة العجيبة ؟ ! أفاد كثيرا . . أيقن أن الله يجيب دعوته .. أرنى .. فأراه . . كيف تحيي الموتى ؟ .. فأحيا له الموتى وأشركه فى التجربة .. ليطمئن قلبي . . فاطمأن قلبه . . وهذا اكبر شىء أفاده ابراهيم من تلك التجربة ليطمئن قلبي .. ليزداد سكينة وطمأنينة .

وخرج إبراهيم من تلك التجربة وفى قلبه من السكينة اضعاف اضعاف ما كان به .. لقد ترقى إبراهيم مقامات كبرى حين فرغ من مشاهدة تلك التجربة .

وهذه الحادثة فى حياة ابراهيم تشبه إلى حد كبير حادثة الاسراء والمعراج فى حياة محمد.. صلى الله عليهما وسلم .

لقد اصبح محمد صلى الله عليه وسلم صبيحة حادثة الاسراء والمعراج وعليه من السكينة اضعاف اضعاف ما كان به ، وجعل يحدث الناس بما رأى ، فمن مكذب ومن مصدق . . ويومها تلألأ أبو بكر .. وصدقه .. فسمى الصديق .

كذلك إبراهيم خرج من تلك الحادثة ... حادثة احياء الموتى أكثر سكينة وأكثر طمأنينة .

لقد رأى محمد من آيات ربه الكبرى فى تلك الحادثة .. فنزل أكثر سكينة .. ولقد رأى إبراهيم آية من آيات ربه الكبرى .. آية كيف يحيي الموتى .. فأصبح أكثر سكينة .. وأكثر طمأنينة .. وهكذا تترقى قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم ماذا ؟ ثم علم إبراهيم أن له قدراً عند ربه .. قدراً عظيما .. سأله أن يمنحه القدرة على احياء الموتى .. فمنحه تلك القدرة .. أذن له فيها .. وقال له : افعل كذا وكذا يحدث كذا .. وفعل إبراهيم ماأمر .. فوجد ماقال له ربه حقا .. وجئنه سعيا !!!

هنالك ارتفع إبراهيم ارتفاعا عظيما .. وأدرك أن له عند ربه مقاما رفيعا !!

ثم ماذا ؟ ثم شيء كامن فى قوله تعالى « واعلم أن الله عزيز حكيم » .. سوف تعلم ياإبراهيم وأنت تجرى بيديك تلك التجربة أنى عزيز .. لا يمتنع منى شيء .. حكيم .. فى أقوالى وأفعالى .

ان إبراهيم شهد صفتين من صفات الله تتحقق أمامه فى عالم المادة .. صفة العزة .. وصفة الحكمة فازداد بالله علما .. على علم .

وكان هذا شيئا من تفسير قوله تعالى فى ابراهيم « وكنا به عالمين » .. أى وكنا عالمين بما فى قلبه من معرفة بالله وصفاته !! وأفاد .. وأفاد .. والله تعالى وحده الأعلم بما أفاد !!

ان الله ... اصطفى ؟!

قال تعالى : « إن اللهَ اصطفى آدمَ ، ونوحاً ، وآلَ إبراهيم ، وآلَ عمرانَ ، على العالمينَ . ذريةً بعضُها من بعضٍ ، والله سميعٌ عليمٌ ». [آل عمران ٣٣ — ٣٤]

روى عن ابن عباس — رضى الله عنه — أن اليهود قالوا : نحن أبناء ابراهيم واسحاق ويعقوب ونحن على دينهم ، فنزلت .

« إن الله اصطفى آدم » اختار آدم والاصطفاء الاختيار ، وأصله أخذ صفوة الشيء وبدأ بآدم .. لأنه أول النوع .

« ونوحا » . واختار نوحا وثنى بنوح لأنه آدم الأصغر . والأب الثانى . وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله ، لقوله سبحانه (وجعلنا ذريته هم الباقين).

« وآل ابراهيم » واختار آل ابراهيم .قيل : اسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط .

« وآل عمران » واختار آل عمران والمراد بهم : عيسى وأمه ، مريم بنت عمران ، بن ماشان ، من ولد سليمان بن داود .

« على العالمين » على أهل زمان كل واحد منهم .

أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه ، ويدخل الملك فى ذلك ومن هنا استدل بعضهم بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة ، « ذرية » نسلا .

« بعضها من بعض » فى النية ، والعمل ، والاخلاص ، والتوحيد أى سلالة منتقاة فى الصفات العليا .

« والله سميع » لاقوال العباد « عليم » بافعالهم وماتكنه صدورهم ، فيصطفى من يشاء منهم .

ووجه الاصطفاء فى جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية ،ومايليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية . حتى أنهم امتازوا كما قيل على سائر الخلق خلقا وخُلقا .

وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى ومظهرا اسمائه ، وصفاته ومحل تجليه الخاص من عباده، ومهبط وحيه ، ومبلغ أمره ونهيه . وأما اصطفاء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمفهوم بطريق الأولى وعدم التصريح به للايذان بالغنى عنه ، لكمال شهرة أمره بالخلة وكونه شيخ الأنبياء ؛ وقدوة المرسلين وأما اصطفاء نبينا صلى الله عليه وسلم فيفهم من دخوله فى آل إبراهيم .

وقيل : المراد بآل إبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه كل الآل مبالغة فى مدحه !

والآن .. ماهذا .. وماذا فى هذا ؟ فيه أمر خطير .. خطير .. جد خطير .. إن الله يعلن إلى العالمين .. إلى كل الجنس البشرى .. ثم إلى كل ماخلق من غير الجنس البشرى . .

ماذا يعلن رب العالمين .. إلى العالمين ؟ يعلن أنه اصطفى .. إن الله اصطفى.. اصطفى ماذا ؟
اصطفى آدم ؟ لماذا .. وماذا فى آدم .. يميزه عن جنسه كله حتى يصطفيه ؟

فيه ما فيه .. فيه أنه النسخة الأولى من البشر .. وضع الله فيه كل ماشاء من صفات عليا فى هذا الجنس كله .. فاختاره من أجل هذا .. وتجلى عليه بما شاء من صفاته .. ونفخ فيه من روحه .. هنا لك صدر الأمر .. اسجدوا لآدم .. أمر إلى كل الملائكة أن يسجدوا لآدم !! لماذا ؟! لأنه قمة الجنس كله .

ثم ماذا ؟ .. ثم كانت الحياة . . وتدهورت البشرية .. وشاع فيها الانحطاط وذاع .. فجاء دور الاختيار الثانى .. « ونوحا » .. استخلص الله من بين البشر جميعا .. انسانا ممتازا .. اصطفى نوحا .

لماذا ؟ .. لأنه سوف يهلك البشر جميعا .. سوف يهلك الجنس كله .. ويجعل هذا الانسان الواحد .. بداية بشرية جديدة .. وقد كان .. (وجعلنا ذريته هم الباقين) .. ثم أغرقنا الآخرين .. اهلاك تام لكل الناس .. ماعدا نوح .. وأولاده الثلاث المؤمنين .. سام ، وحام ، ويافث .. ومن هؤلاء بدأت بشرية أخرى .

لماذا هذا ؟ .. أمر غاية فى الحكمة والاحكام .. لقد أذهب الله الجنس الخبيث كله .. ليبدأ بشرية أصلها طيب .. مؤمن .. كما يقوم الزارع إلى حقله فيقتلع كل الحشائش الضارة ولايبقى منها شيئا .. الاتلك الاشجار الطيبة .. ليفسح لها المجال كى تنمو وتؤتى أكلها .. أما تلك الملايين من الطفيليات التى لا خير فيها فيذهبها !! هذا هو ما حدث للبشرية فى عهد نوح .

تجربة عظيمة جدا . . ألف سنة يدعو نوح هذه البشرية إلى الله . . فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا .. ألف سنة ؟!!! عشر مئات من السنين .. ولا فائدة !!!! هنالك كان قراره .. رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا !!! فكان الأمر .. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر .. وفجرنا الأرض عيونا .. فالتقى الماء على أمر قد قدر .

ثم ماذا ؟ .. وغيض الماء .. وقضى الأمر .. وقلنا : يانوح اهبط ببركات منا عليك ،

وعلى أمم ممن معك.. هكذا .. تمت إبادة ملايين الحشائش الضارة .. من وجه الأرض .. ليخلو وجهها لنوح وحده لتلك الشجرة الطيبة وحدها .. ومن هذه الشجرة الواحدة .. كانت البشرية كلها مرة أخرى !!!

تماما .. كعملية تنظيف الحقل من الحشائش الضارة .. ليخلو الحقل للشجرة النافعة !!!

ثم ماذا ؟ ثم العجب العجب .. ثم عادت البشرية إلى الفساد .. وكفرت وبها .. وأظلمت ظلاما بعيدا !!! فجاء الدور الثالث فكان إبراهيم .. (وآل إبراهيم على العالمين) .. وتم اصطفاء إنسان ممتاز .. وصنعه الله على عينه .. فكان إبراهيم .. وانبعث إبراهيم يعلن الدور الجديد.. ويدعو البشرية إلى ربها .. ولكن البشرية هذه المرة أيضا .. كانت شديدة الظلمة .. كسابقتها !!! ولقد مكث إبراهيم يدعوها قرنين .. فما آمن به الاقليل !! وكانت تجربة لوط مع قومه .. جزءا من تجربة إبراهيم الكبرى في البشرية .. دعاهم ونهاهم .. فلم ينفع فيهم شيء بل على العكس تدهوروا تدهورا أبعد من سابقيهم كلهم .. وابتدعوا انحطاطا جديدا ..هو اتيانهم الرجال .. ماسبقكم بها من أحد من العالمين !!!

فماذا كان الأمر ؟ فجعلنا عاليها سافلها .. نسف تام .. ابادة تامة لذلك القطاع من البشرية .. انها نفس الفكرة .. حشائش ضارة .. يجب ابادتها .. لماذا ؟ لتخلو الأرض للشجرة الطيبة .. لوط وابنتيه المؤمنتين !!! فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين !!! بيت واحد !!! .. من أمة با كملها !! وتم الدمار .. وخلت الارض للشجرة الطيبة ..

هذا قطاع صغير من التجربة .. أما القطاع الأكبر .. أما باقي البشرية فابراهيم هناك يدعوها إلى الله ولكن الاستجابة محدودة جداً .. قليل جداً قبلوا دعوته !! إذن لابد من أسلوب جديد في تعريف البشرية ربها وإلا لاستمرت أبادة الاجيال تباعا .. وهنا يأتي الدور الجديد .. الذي حددته الآية تحديداً معجزاً جداً جداً جداً .. بقولها « وآل إبراهيم » لماذا لم يقل كما قال في آدم ونوح « وإبراهيم » .. وإنما زادهنا لفظة « آل » .. لماذا ؟ .

هنا يتشعشع علينا شيء من اعجاز هذا الكتاب :. كتاب الله .. زاد إل « آل » ..

لأن هذه المرحلة مرحلة جديدة .. مرحلة سوف يقوم بها إبراهيم والأنبياء الذين سيكونون من نسله .. ليس إبراهيم وحده هو صاحب هذا الدور .. ولكن هو ومعه .. ومن بعده .. وعلى ممر اجيال كثيرة .. انبياء كثيرون .. من ذريته.. آل إبراهيم ؟!!! انه .. كتاب الله .. لا يأتيه الباطل .. من بين يديه ولا من خلفه !!!! وهذا ما كان ... وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وجعلها كلمة باقية فى عقبه . كان هذا الدور دورا عريضا بدأ بابراهيم .. ثم أتمه الأنبياء من ذريته من بعده .. لم ينفرد إبراهيم هنا بالأمر وحده .. ولكن توزع الأمر عليه وعلى آله .. على الأنبياء من ذريته .

أرأيت ؟!! إعجاز . . إعجاز .. اللهم أن كتابك حق !!! وآل ابراهيم ؟! اصطفى إبراهيم .. ثم اصطفى من ذريته كثيرين . . هم أولئك الذين اختتموا بآخرهم . . محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم ماذا ؟ . . ثم أعجب وأعجب وأعجب . . ثم عاد يقول « وآل عمران » . . وهنا يقول قائل : لماذا نص على آل عمران . . وهل هم الا بعض ذرية ابراهيم . . وآل ابراهيم ؟! والجواب : أى واصطفى أنثى من آل ابراهيم . . اصطفى أنثى من البشرية . . كما اصطفى رجالا . . وهذا هو الجديد فى الأمر . . أن الناس يظنون دائما أن الاصطفاء يكون من الرجال وحدهم دون النساء . . فنص الله على أنه يصطفى كذلك من النساء . . فنص هنا على « آل عمران » ،، اعلانا أنه سبحانه يصطفى كذلك من النساء،، ليس الأمر قاصرا على الرجال وحدهم ..

ثم ماذا ؟ ،، ثم أين دليل هذا الاتجاه من كتاب الله ؟،، هاكه ،،دليلا ،، لا يبارى،، ولا يجارى ،، قال جل ثناؤه « .. يا مريم إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين » !! [آل عمران ٤٢]

ان الله اذن اصطفاها اختارها ، كما يختار من الرجال .. انها انثى.. ولكنه اصطفاها!! هذا هو الجديد فى القضية .. ومن أجل هذا نص على آل عمران . . ولكن لماذا قال هنا «آل عمران» ولم يقل «عمران» ؟ لأن الأمر سوف يتوزع على مريم

م على ابنها المسيح ـ عليه السلام ـ ليست وحدها .. وإنما هناك ذريتها سوف تحمل الأعباء من بعدها .. هناك المسيح ـ عليه السلام ـ !!!

ثم ماذا ؟ .. ثم يتلألأ هنا إبراهيم دورا طليعيا وحده فى الأنبياء .. ومستوى رفيعا فى المرسلين .. فهو بداية المرحلة الثالثة .. مرحلة دعوة البشر إلى الله والصبر عليهم حتى يتعرفوا عليه واعطائهم الفرصة ليتفكروا .. ثم هو القدوة فى التعريف بالله .. ثم هو الصفوة المصطفاة .. والبذرة المنتقاه .. لينبت الله منها الأنبياء جميعا من بعده فلا بد وأن يكون شيئا ممتازا جدا .. فأى شخصية كان ابراهيم ؟ !

ما كان ابراهيم يهوديا ... ولا نصرانيا ؟!

قال تعالى : « ياأهل الكتابِ لِمَ تحاجُّونَ فى إبراهيمَ ، وماأُنزِلَتِ التوراةُ والإنجيلُ إلا مِن بعدهِ أفلا تعقلونَ ؟ . ها أنتمْ هؤلاءِ حاجَجتمْ فيما لكم بهِ علمٌ ، فلِمَ تحاجُّونَ فيما ليسَ لكم بهِ علمٌ ، واللهُ يعلمُ وأنتمْ لاتعلمونَ . ما كانَ إبراهيمُ يهودِيًّا ، ولا نصرانيًّا ، ولكن كانَ حنيفاً ، مُسلما ، وما كان من المشركينَ ، » -
[آل عمران ٦٥ — ٦٧]

« ياأهل الكتاب » خطاب لليهود والنصارى .

« لم تحاجون فى إبراهيم » أى تنازعون وتجادلون فيه أى : تناعون فى دين ابراهيم أوشريعته ويدعى كل منكم أنه ـ عليه السلام ـ كان على دينه ؟ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « اجتمعت نصارى نجران ، وأحباريهود ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده ، فقالت الاحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقال النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية « وما أنزلت التوراة » على موسى « والانجيل » على عيسى « إلا من بعده » حيث كان بينه وبين موسى ـ عليه السلام ـ خمسمائة وخمس وستون سنة وقيل : سبعمائة وقيل: ألف سنة . وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة وقيل :ألفاسنة «أفلاتعقلون »ألاتفكرون فلاتعقلون بطلان قولكم ؟! وهذا تجهيل لهم فى تلك الدعوى وتحميق .

« ها أنتم هؤلاء » أنتم هؤلاء الحمقى « حاججتم فيما لكم بهعلم » كأمر موسى وعيسى .

« فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » وهو أمر إبراهيم — عليه السلام — ! « والله يعلم » حال إبراهيم ، وما كان عليه « وأنتم لاتعلمون » ذلك « ما كان إبراهيم يهوديا » كما قالت اليهود أى من الطائفة اليهودية المخالفة لما جاء به موسى « ولا نصرانيا » كما قالت النصارى أى من الطائفة النصرانية المخالفة لما جاء به عيسى .

إذن ماذا كان إبراهيم ؟!

حنيفا ؟ !

« ولكن كان حنيفا » أى مائلا عن العقائد الزائغة « مسلما » منقادا لطاعة الحق ، موحدا ، لأن الاسلام يرد بمعنى التوحيد . أى على دين الإسلام الذى ليس عند الله دين مرضى سواه ، وهو دين جميع الأنبياء وفى ذلك اشارة إلى أن أولئك اليهود والنصارى ليسوا من دين الله فى شىء لمخالفتهم نفس الأمر .

« وما كان من المشركين » أى عبدة الأصنام ، كالعرب الذين كانوا يدعون انهم على دينه أو سائر المشركين .. ليعم أيضا عبدة النار كالمجوس ، أو عبدة الكواكب كالصابئة وقيل : أراد بهم اليهود والنصارى لقول اليهود (عزير بن الله) وقول النصارى (المسيح ابن الله) .

من أولى الناس بابراهيم ! ؟

ثم يقول تعالى : « إنَّ أَوْلَى النَاسِ بإبراهيمَ لَلَّذين اتبعوهُ ، وهذا النبيُّ ، والذين آمنوا ، واللهُ ولىُّ المؤمنينَ . » [آل عمران ٦٨]

« إن أولى الناس بإبراهيم » إن أقرب الناس إلى إبراهيم ، وأخصهم بإبراهيم وقيل إن أحق الناس بابراهيم « للذين اتبعوه » أى كانوا على شريعته فى زمانه أو : اتبعوه مطلقا .

« وهذا النبي » وكون نبينا صلى الله عليه وسلم أولاهم به لموافقة شريعته للشريعة الابراهيمية ، أكثر من موافقة شرائع سائر المرسلين بها « والذين آمنوا » وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيتهم نبيهم فيما جاء به « والله ولى المؤمنين » ينصرهم ، ويجازيهم بالحسنى ، كما هو شأن الولى .

قال ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — : قال رؤساء اليهود : والله يامحمد،لقدعلمت أنا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وأنه كان يهوديا ، وما بك الا الحسد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

لماذا يتنازعون ابراهيم ؟!

القضية العالمية الكبرى هى هذا .. أن أهل الأديان العالمية السماوية الثلاث .. يتنازعون إبراهيم !!! لماذا هذا ؟! ولماذا إبراهيم بالذات ؟! ولماذا ليس نبيا غيره يتنازعه هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء ؟! انها القضية الخالدة .

أن اليهود يزعمون أن إبراهيم جدهم وجد ابنائهم .. وصدقوا .. فاليهود من إسرائيل الذى هو يعقوب .. ويعقوب بن اسحاق بن إبراهيم !!! .

والمسيحيون .. النصارى .. يزعمون أن إبراهيم صاحبهم .. لأنه جد المسيح .. وصدقوا فالمسيح من سلالة اسحاق بن إبراهيم !!

والمسلمون يزعمون أن إبراهيم صاحبهم دون غيرهم لأنه جد نبيهم محمد .. وهذا صحيح محمد من نسل أسماعيل بن إبراهيم !!!

إن الرجل إذاشخصية الجميع .. فمن من هؤلاء جميعا أحق به ؟! هذه هي القضية الخالدة التى ثارت .. وتثور .. وسوف تثور .. ما بقى دين من تلك الأديان السماوية الثلاث .. ان هناك اليهود فى العالم .. نحوا من عشرين مليونا .. يزعمون أنهم أولى بابراهيم .. وهناك المسيحيون نحوا من ثمانمائة مليون أو زيادة يزعمون انهم أولى الناس بابراهيم .. وهناك المسلمون نحوا من سبعمائة مليون من البشر يزعمون نفس الزعم ...

العالم إذا كله يتنازع ابراهيم !! والعالم إذا كله سوف يظل إلى يوم القيامة يتنازع ابراهيم !! فما معنى هذا .. وأين الحق من هذا الأمر العظيم؟! ولماذا ظفرت هذه الشخصية بمالم يظفر به موسى .. أو عيسى .. أو محمد ؟!! لماذا .. ومن هؤلاء من هو أعلى منه مقاما .. وأكثر تبعا ؟! لأن ذلك كان مطلبا من مطالب ابراهيم .. فأجابه الله اليه .. ألم يقل ابراهيم : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين» ! ثم ألم يستجب له الله فقال «وتركنا عليه فى الآخرين » ! وقال : « إنا أخلصناهم بخالصة .. ذكرى الدار ! »

إن ابراهيم طلب هذا من ربه .. وإن ربه قد أجابه إلى هذا .. وان هذا الذى نراه من تنازع العالم إبراهيم .. تحقيقا لدعائه ، وتنفيذا لاستجابة ربه ! ! وما البشرية ؟! أليست أعدادا من خلق الله يفعل بها مايشاء ؟! وهكذا .. جعلهم الله جميعا .. يتنازعون ابراهيم .. ويثنون على إبراهيم .. ويريدون أن يظفروا بشرف الإنتساب إلى إبراهيم ! !

الله ... يحكم فى القضية ؟!

فأين الحق إذا من تلك القضية ؟ ومن أحق بابراهيم ؟! آليهود .. أم النصارى .. أم المسلمون ؟! فكان لزاما أن يحكم الله فى القضية بنفسه .. وأن يعلن ذلك الحكم فى آخر كتاب أنزله إلى هؤلاء الناس .. وأن يأمر آخر رسول أرسله اليهم أن يذيع هذا عليهم .. أن يبلغه اليهم .

وكان نص الحكم .. هو تلك الآيات المحكمات .. إلى يوم القيامة « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم » .. يا أيها اليهود ، ياأيها المسيحيون .. لم تجادلون فى إبراهيم ؟!! « وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده » ؟! إن كتابكم أيها اليهود وهو التوراة أنزل اليكم بعد ابراهيم .. واليهودية لم تنشأ إلا من بعد نزول التوراة ؟ وإن كتابكم أيها المسيحيون وهو الإنجيل أنزل إليكم بعد إبراهيم .. فكيف يتصور أن يكون إبراهيم مسيحيا .. والمسيحية لم تنشأ إلا بعد نزول الإنجيل ؟! « أفلا تعقلون ؟! أين عقولكم ، أين ذهبت .. أين كانت .. وأنتم تزعمون ذلك الزعم ؟! « هاأنتم هؤلاء

حاججتم فيما لـكم به علم » قد يعقل أن تجادلوا فى اليهودية أوفى المسيحية لأنـكم درستموها وقرأتم عنها .. « فلم تحاجون فيما ليس لـكم به علم » ؟! ولـكن الذى لايعقل أن تجادلوا فىأمر ابراهيم وليس لـكم به علم .. « والله يعلم وأنتم لاتعلمون » والله وحده هو الذى يعلم الحق من هذا الذى فيه تختلفون .. أما أنتم جميعا فلا تعلمون شيئا .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

إليـكم أيها المتنازعون جميعا .. اليكم أيها الناس جميعا .. الحـكم فى تلك القضية .. التى فيها تختلفون . . « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » قطعا . . وبدون أدنى شك .. ومستحيل أن يكون إبراهيم يهوديا .. ولا نصرانيا .. لأن ابراهيم وجد قبل أن توجد اليهودية والمسيحية التى أنتم عليها .. فـكيف يتأتى له أن يـكون على دين لم يـكن فى زمانه ؟!

« ولـكن كان حنيفا » وإنما الذى لاشك فيه أنه كان مائلا عن كل العقائد الزائغة الفاسدة الضالة .. كان على الحق .. على الطريق المستقيم « مسلما » . . وكان طائعا لنا فى كل ما أمرناه به .

« وما كان من المشركين » ولم يشرك فى عبادتنا أحدا .. ولا شيئا .. مما تزعمون من عقائد لفقتموها .. فإن أردتم بعد ذلك أن تعلموا من أحق الناس بابراهيم . . فاليكم البيان .. « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه » .. إن أحق الناس بإبراهيم هم أولئك الذين اتبعوه فىعقيدته .. هو كل انسان اتبعه . . هو كل من كان حنيفا كما كان . . مسلما كما كان .. غير مشرك كما كان .. هذا هو الإنسان الذى هو أحق الناس بابراهيم ..

« وهذا النبى » .. وإن أحق الأنبياء بابراهيم هو محمد . . هو هذا النبى .. لماذا ؟ لانابعثناه بالحنيفية السمحة .. كما بعثنا ابراهيم بها .. ولأنه جاء بالإسلام الذى جاء به ابراهيم .. فان تنازعتم بعد ذلك فى أمر ابراهيم ، وادعى كل منـكم أنه أحق به .. فإليـكم الحـكم النهائى فى الأمر ..

« والذين آمنوا » .. ان أحق الناس بابراهيم ... كل من آمن بالله على طريقة ابراهيم

كل من آمن برسول الله محمد .. الذى هو على ملة ابراهيم .. فكل من آمن بالله ربا وبمحمد رسولا فهو أحق الناس بابراهيم .. وإنى سوف أنصر كل من آمن هذا الإيمان . واتبع هذا الرسول .. الذى يتبع ابراهيم .. ويدعو إلى الحنيفية التى دعا إليها ابراهيم .

« والله ولى المؤمنين » دائما وأبدا .. إنها سنة الله التى لا تتبدل ولاتتحول ..

وهكذا .. فصل الله فى القضية الكبرى .. التى تشغل أهل الأديان العالمية السماوية الثلاث .

أمر لابراهيم .. أن يؤمن بمحمد ؟!

قال تعالى : « وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاقَ النبيينَ لَمَا آتيْتكُم من كتابٍ وحِكمةٍ ثم جاءَكُمْ رسولٌ مُصَدِّقٌ لما معكُمْ ، لَتُؤْمِنُنَّ به ، ولَتنصُرُنَّهُ ، قالَ : أأقررتمْ وأخذتمْ على ذلكُمْ إصْرِى ؟ قالوا : أقرَرْنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معَكُم منَ الشاهِدينَ . »

[آل عمران ٨١]

عن على : لم يبعث الله تعالى نبيا .. آدم .. فمن بعده .. إلا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله عليه وسلم ! ائن بعثه وهو حى ، ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلاالآية . والمعنى : وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه النبيون على أممهم ومن هنا .. ذهب العارفون إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى المطلق ، والرسول الحقيقى ، والمشرع الإستقلالى . وأن من سواه من الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — فى حكم التبعية له صلى الله عليه وسلم .

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » وإذ فرض على النبيين جميعا .. « قال » أى الله تعالى للنبيين ، وهو بيان لأخذ الميثاق « أأقررتم » بذلك المذكور « وأخذتم » قبلتم . أو : هل أخذتم « على ذلكم إصرى » على الأمم — والإصر العهد « قالوا : أقررنا » على ذلك إصرك « قال : فاشهدوا » أى فليشهد بعضكم على بعض بذلك الاقرار . وقيل : الخطاب فيه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام أمروا بالشهادة على أممهم « وأنا معكم من الشاهدين » أى على اقراركم وتشاهدكم .

مامعنى هذا ! معناه ان الله تعالى فرض على كل نبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بمحمد .. بالغيب .. ذلك النبي الذى سوف يأتى فى آخر الزمان .. فلماذا ! إعلانا لوحدة كلمة التوحيد ووحدة الهدف .. ووحدة الرسالة .. وانهم جميعا .. وإن تباعدوا فى الأزمنة ليسوا إلا رجالا بعثوا لإعلان كلمة واحدة هى لا إله إلا الله .. فتحتم والحالة هذه أن يؤمن كل منهم بالآخر .. رآه أولم يره .. وأن يؤمنوا جميعا بهذا الذى سوف يكون خاتمهم .. وسوف تذوب رسالاتهم جميعا فى رسالته .. لتصبح هى الرسالة الجامعة ، العالمية ، الناسخة لكل الشرائع من قبلها .. إلى يوم القيامة .. وكان طبيعيا أن يأمر الأنبياء اتباعهم بالإيمان بذلك الرسول الأخير .. ليعلموهم أن الأنبياء جميعا مقدمة له .. وأنه هو المظهر الجامع لهم جميعا .. تفرقت المحاسن فيهم .. وتبدت خلالهم .. ثم تجمعت كلها فيه .. وتجلت من خلاله .. صلى الله تعالى عليهم وسلم ..

ثم ماذا ! وكان ابراهيم .. ممن أمرهم الله تعالى بالإيمان بمحمد .. قبل أن يراه .. وممن فرض عليهم ذلك .. وفرض عليهم إذاعته فى أتباعه .. وإذاعته فى ابنيه .. اسماعيل .. وإسحاق .

وماله لا يؤمن بمحمد .. وهو الذى دعا ربه بكينونته فقال . «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكيهم »! فاستجاب الله دعاءه .. وكان ذلك النبى من فرع اسماعيل .. فى آخر الزمان .

وعندى أن ابراهيم حين فرض الله تعالى عليه أن يؤمن بمحمد انما قد طرب طربا كبيرا .. وقرت عينه .. وانشرح صدره .. أن سيكون من ذريته نبى هو امام المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين .. ولا يخفى مافى ذلك من آثار بعيدة فى أعماق شخصية ابراهيم .. إن الرجل قد استجيب دعاؤه .. وزاده الله فضلا من عنده .. فلم يبعث فيهم رسولا منهم مجرد رسول .. وإنما خير رسول .. وأفضل رسول .. وأكرم رسول عند الله !! ان ابراهيم يرى فى حياته مدى تكريم الله تعالى لشخصه .. أن جعل سلسلة الأنبياء جميعا من نسله .. ثم جعل خاتمهم نبيا عظيما ، كريما ، رءوفا ، رحيما .. وإماما لهم جميعا !!

أى سعادة ملأت قلب الخليل ..

وأى فرحة كانت بنفسه .. حين أمره الله أن يؤمن بمحمد .. آخر الأنبياء !

وأى فضل أعظم من محمد ! وقد قال فيه ربه : « وكان فضل الله عليك عظيما ! » وأى رحمة أكبر من محمد ! وقد قال الله فيه . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » !

والآن .. هل أُمِرَ محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بابراهيم بالغيب ؛ كما أمر ابراهيم أن يؤمن به بالغيب .

أو بمعنى أوسع وأشمل وأكمل ، هل أُمِرَ محمد أن يؤمن بجميع الأنبياء من قبله ، كما أمروا جميعا أن يؤمنوا به من بعدهم !

أمر الى محمد ... أن يؤمن بابراهيم ؟!

قال تعالى : « قلْ آمنا باللهِ ، وما أُنزلَ علينا ، وما أُنزلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ ، والأسباطِ ، وما أُوتِيَ موسى ، وعيسى ، والنبيونَ من ربهمْ ، لانفرِّقُ بين أحدٍ منهُمْ . ونحنُ له مُسلمونَ . ومن يبتغِ غيْرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه ، وهو فى الآخرةِ من الخاسرينَ ، » [آل عمران ٨٤ و٨٥]

انه تبادل الايمان .. انها سلسلة واحده .. هذا يؤمن بذاك .. وذاك يؤمن بهذا .. اشارة إلى أنها حقيقة واحدة .

«قل آمنا بالله» أمر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه ، والمؤمنين بالايمان . فضمير آمنا للنبي صلى الله عليه وسلم والأمة .

قيل : لما أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه ، أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به ، وبكتبهم . فيكون آمنا فى موضع آمنت لتعظيم نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام.

أو : لما عهد مع النبيين وأممهم أن يؤمنوا ، أمر محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته أن يؤمنوا بهم وبكتبهم . والحاصل أخذ الميثاق من الجانبين على الايمان على طريقة واحدة .

قيل : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا « وما أنزل علينا » وهو القرآن المنزل عليه صلى الله عليه وسلم أولا وعليهم بواسطة تبليغه إليهم « وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب » المراد بالموصول صحف إبراهيم .

« والأسباط » االاحفاد . المراد بهم — على رأى — ابناء يعقوب الاثنا عشر وذراريهم، أى : بنى إسرائيل . أى : ما أنزل على أى نبى من أنبياء بنى إسرائيل .

« وما أوتى موسى وعيسى » من التوراة ، والانجيل ، وسائر المعجزات « والنبيون » على تعدد افرادهم واختلاف اسمائهم « من ربهم لا نفرق بين احد منهم » أى بالتصديق والتكذيب ، كما فعل اليهود والنصارى .

« ونحن له مسلمون » مستسلمون بالطاعة والانقياد فى جميع ما أمر به ونهى عنه . أو : مخلصون له فى العبادة . « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » والإسلام قيل : التوحيد والانقياد .

وقيل : شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام .

بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم غير شريعته فهو غير مقبول منه وقبول الشيء هو الرضا به ، واثابة فاعله عليه « وهو فى الآخرة من الخاسرين » أى وهو خاسر فى الآخرة .

وقيل : أصل الخسران ذهاب رأس المال . والمراد به هنا تضييع ما جبل عليه من الفطرة السليمة المشار اليها فى حديث « كل مولود يولد على الفطرة » وعدم الانتفاع بذلك، وظهوره بتحقق ضده (يوم لاينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) .

ما هذا ، إنه ميثاق واحد .. فرضه الله على جميع الرسل.. والانبياء .. والمؤمنين .. كلهم يؤمنون ببعضهم البعض .. كما آمن جميع الرسل ، وجميع أتباع الرسل بمحمد قبل أن يبعث .. بالغيب .

فرض على محمد .. والمؤمنين به أن يؤمنوا بجميع الرسل من قبله ، وبكتبهم ، وما أوتوا ..

فما معنى هذا ؟ معناه كبير جدا . .

أن الجميع يدورون فى فلك واحد .. هو فلك لا إله إلا الله .. وأن هذه الحقيقة لا تختلف وان اختلفت الازمنة .. أو اختلف المؤمنون بها .. وأعلى من هذا .. وأعلى ..

أن الإنسان هو الإنسان .. وانه ما خلق الا ليعبد ربه . . وأن يعرف أنه اله واحد . وأن رسالات الرسل كلها لا تخرج عن هذه الحقيقة .

فسواء بعث بها آدم .. أو نوح .. أو إبراهيم .. أو موسى .. أو عيسى .. أو محمد .. أو غيرهم .. فانهم جميعا داعون إلى لا إله إلا الله .. فتحتم أن يؤمن بعضهم ببعض .. لأنهم جميعا حلقات فى سلسلة واحدة .. يشد بعضها بعضا .

وأعلى .. وأعلى .. وأعلى .. أنهم جميعا جاءوا بدين واحد تحدده كلمة « الاسلام » .. أى الاستسلام لأمر الله ونهيه .. أى الانقياد له سبحانه .. « ونحن له مسلمون » .. أى جميعا منقادون لأمره .

ولذلك عقب على تلك الحقيقة مباشرة فقال « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .. أمر نهائى .. إلى البشر جميعا .. لا أقبل من أحد أن يتعبدنى بغير الإسلام .

اعلان عام .. من رب الناس .. إلى جميع الناس .. والإسلام هو وحده الدين الذى أقبله .. لمـاذا .. لماذا الإسلام وحده ؟ لأنه هو دين الفطرة .. ليس الناس وحدهم .. وإنما جميع المخلوقات .

ولذلك يقول تعالى مباشرة بعد آية أخذ الميثاق على جميع النبيين : « أفغيرَ دينِ اللهِ يبغونَ ، وله أسلم من فى السماواتِ والأرضِ ، طوعاً ، وكرها ، وإليه يُرجعونَ ! »

[آل عمران ٨٣]

ها هنا سر الأسرار . . كيف يريدون دينا غير الإسلام وهو دين الله الوحيد . كيف .. وهو دين من فى السماوات والأرض ، كيف وله أسلم من فى السماوات والأرض ؟

ليس الإنسان وحده هو الذى نأمره أن يسلم لنا ، وانما من فى السماوات والأرض جميعا يسلمون لنا .. طوعا .. عن طواعية .. ورضا واستسلام وكرها .. ورغم ارادتهم وقهرا عنهم

« إن كل مَن فى السماواتِ والأرضِ إلا آتى الرحمن عبدا » !!!!   [مريم ٩٣]

إذن جميع المخلوقات أسلمت لله .. بارادتها أو قهرا عنها .. فكيف يبحث الإنسان عن دين غير الإسلام لى ؟

أو كيف يتصور أن اقبل منه دينا غير الإسلام ؟ كلا .. لن يكون هذا .

إن الأمر بسيط جدا .. ان الله تعالى هو الذى أوجد كل هذه المخلوقات .. وهى كلها بيده هو وحده .. ألاله الخلق والأمر .. فتحتم أن تنقاد كلها لأمره .. وتستسلم لأمره .. طوعا فان أبت .. وتأبت .. قهرها .. فانصاعت لارادته كرها ..

تلك هى الحقيقة العظمى .. التى يدور فيها الانبياء جميعا .. لا إله إلا الله .

حقيقة تحتم أن ينقاد الإنسان لربه .. أن يتبع ملة إبراهيم .. التى تدور فى : إذ قال له ربه أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين .. وأن يتبع بعد إبراهيم .. ذلك النبى الأخير .. الذى جاء يدعو الى ملة إبراهيم .. التى هى الإسلام .

ومن هنا أعلن الله تعالى إلى الناس أخطر بيان فى حياتهم إلى يوم القيامة « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .

تلك هى الحقيقة العظمى .. التى يسبح فى فلكها جميع الرسل .. وجميع المؤمنين من بعدهم .. قد تختلف شرائعهم ، ومناهجهم ، باختلاف عصورهم ، وازمنتهم ، واحوال امهم ..

ولكنهم جميعا .. داعون إلى تلك الحقيقة الكبرى .. لا إله إلا الله .. أسلمت لرب العالمين .. ولا يوجد نبى من لدن آدم إلى محمد .. دعا إلى غير هذا .. ومستحيل أن يدعو إلى غير هذا .. وهذا هو الاسلام فى جوهره .. الذى أعلن الله تعالى أنه لا يقبل غيره دينا .

إن ابراهيم لأواه ؟!..

قال تعالى : « ما كان للنبىِّ والذين آمنوا أن يستغفِروا للمشركينَ ولو كانوا أولى قربى ، من بعدِ ماتبيّنَ لهُمْ أنهم أصحابُ الجحيم. وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلا عن

مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ».
[التوبة ١١٣ — ١١٤]

هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فان الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ، فطلب الغفران للمشركين مما لايجوز .

« وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها اياه » والمعنى لاحجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار ابراهيم لأبيه ، فان ذلك لم يكن إلا عن عِدَة .

قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو لله ، فترك الدعاء له .

وقيل الواعد إبراهيم ، أى وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلمامات مشركا تبرأ منه ، ودل على هذا الوعد قوله : (سأستغفرُ لك ربى) « إن إبراهيم لأواه » اختلف العلماء فى الأواه على خمسة عشر قولا :

الأول : أنه الدّعاء الذى يكثر الدعاء .

الثانى : أنه الرحيم بعباد الله .

الثالث : أنه الموقن .

الرابع : أنه المؤمن بلغة الحبشة .

الخامس : أنه المسبح الذى يذكر الله فى الأرض القفر الموحشة .

السادس : أنه الكثير الذكر لله تعالى .

الثامن : أنه المتأوّه ، وكان إبرهيم عليه السلام يقول . « آه من النار قبل ألا تنفع آه » .

التاسع : أنه الفقيه .

العاشر : أنه المتضرع الخاشع .

الحادى عشر : أنه الذى إذ ذكر خطاياه استغفر منها .

الثانى عشر : أنه الكثير التأوّه من الذنوب .

الثالث عشر : أنه المُعَلِّمُ للخير . (معلم كل شيء : مظنته) .

الرابع عشر : أنه الشفيق .

الخامس عشر : أنه الراجع عن كل مايكره الله تعالى .

وأصله من التأوه ، وهو أن يُسمع صوت من تنفّس الصعداء . « حليم » كثير الحلم ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ، ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم يعاقب أحداً قط إلا فى الله ، ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان إبراهيم كذلك . وكان إذا قام يصلى سُمع وجيب قلبه على ميلين . (وجيب القلب : خفقانه واضطرابه) .

حليم ؟!

وتلك صفته الاخرى . . وقد تلألأت فى بكره . . اسماعيل . . « رَبِّ هَبْ لى مِنَ الصالحينَ . فبشَّرْناهُ بغلام حليم » [الصافات ١٠٠ — ١٠١]

كما تلألأت صفةالعلم منه فى ولده الآخر .. إسحاق ..

قال تعالى « فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفةً قالوا لا تخَفْ وبشَّرُوهُ بغلامٍ عليم . » [الذاريات ٢٨]

منيب ؟!

قال تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيمَ الرَّوْعُ ، وجاءتْهُ البشرى ، يجادِلنا فى قومِ لوطٍ إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ ، أوَّاهٌ ، منيبٌ » . [هود ٧٤— ٧٥]

وتلك هى الصفةالأخرى .. التى وصفه ربه بها .. منيب ؟! أى راجع إلى الحق دائماً .. أى راجع إلى الله فى أمره كله . .

أتم عليه نعمته ؟!

قال تعالى :« وكذلكَ يجتبيك ربُّكَ ، ويُعَلِّمُكَ من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمتهُ عليكَ ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويْكَ من قبلُ ، إبراهيمَ ، وإسحاق ، إنَّ ربك عليمٌ حكيمٌ » . [يوسف ٦]

« كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم » بالنبوة ، وبالخُلة ، وإنجائه من النار ، وغير ذلك من النعم ، « وعلى آل يعقوب » أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوة ، « إن ربك عليم » بما يعطيك « حكيم » فى فعله بك .

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ؟!

قال تعالى : « قالوا : أتعجبينَ منْ أمرِ اللهِ ، رحمتُ اللهِ ، وبركاتهُ ، عَليكُمْ ، أهلَ البيْت ، إنه حميدٌ مجيدٌ » . [هود ٧٣]

أخرج أبو داود فى سننه :

« قالوا : يارسول الله ، أمرْتنا أن نصلى عليك وأن نسلم عليك ، فأما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك ، قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على [آل] إبراهيم ، إنك حميد مجيد»

وهكذا أصبح شيئا ثابتا .. فى صلواتنا إلى يوم القيامة .. حين نقرأ التحيات .. أن نقول : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم .. أى اللهم ارحم محمدا .. وآل محمد .. كما رحمت إبراهيم .

هى هى نفس قوله تعالى « رحمت الله ، وبركاته ، عليكم أهل البيت » .

ثم ماذا ، ثم يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم أن نقول فى نفس هذه التحيات فى كل صلاة : « وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم » !!

تماما .. كما جاء فى الآية !! حتى الختام .. ختام الآية « إنه حميد مجيد » .

والأمر الصادر من الرسول صلى الله عليه وسلم أن تختتم التحيات بقولك : إنك حميد مجيد !!

ماهذا ؟ ! هذا هو الأحكام .. والأعجاز .. من أمر هذا القرآن .. وهذه السنة البيضاء ! الملائكة تقول لسارة : رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ..

ويمضى هذا الدعاء ، أو هذا التقرير .. يمضى عليه أكثر من الفين وخمسمائة سنة .. أى منذ كان إبراهيم نبيا .. حتى كان محمد نبيا ..

تمضى هذه القرون كلها . . ثم يأتى محمد .. فيأمر أمته أن تردد كلها .. فى التحيات .. من كل صلاة مفروضة أومسنونة : « اللهم صلى على محمد وآل محمد ، كاصليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على [آل] إبراهيم ، إنك حميد مجيد » !!

هل هى محض صدفة ؟!! كلا . . وانما هو صدق الوحى . . واتحاد الوحى . . ووحدة كلمة الله .. إن الذى نطق به الملائكة . . كان تقريراً لناموس الهى ثابت .. أن الله رحم وبارك بيت إبراهيم وآل بيت إبراهيم ..

وإن الذى أمر به محمد صلى الله عليه وسلم هو تقرير لذلك الناموس عينه .. وامتداد له.. الملائكة تدعو : رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

ومحمد يدعو : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد .. لماذا .. لتتصل النهاية . . بالبداية .. وتتم الدائرة .

فكما كان محمد نهاية النور والنبوة من شجرة إبراهيم . . وكما أمر باتباع ملته .. وكما أمر بانتهاج نهجه .. فانه هنا يؤمر أن يتصل بنفس الدائرة . . لتتكامل به . . وتتم وحدة النور .. وحدة الإيمان بالله . .

ولذلك أمر أمته كلها أن تردد ذلك الدعاء فى التحيات من كل صلاة !! عجائب . . غرائب .. والله عجائب .. ولكننا نقول كما قالت الملائكة فى ذلك المقام : اتعجبين من أمر الله !.

ماهى هذه الرحمات التى يرحمها الله لابراهيم وآله، ويريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصل بها . وماهى هذه البركات التى بارك الله بها على إبراهيم وآله ..

ويريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصل بها؟ هى شىء فوق العقول.. هى هذه الأنوار .. أنوار النبوات . . المتلاحقة . . المتتابعة . . فى تلك الشجرة . . وأسناها . . وأبهاها .. نور محمد صلى الله عليه وسلم .

هى أشياء فوق الحصر .. وفوق العقول . . فماذا نقول . نقول : اللهم صل على محمد،

وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم . وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

ونتذكر فى ذلك المقام قوله تعالى : « وَبَارَكْنا عليه ، وعلى إسحاق، ومن ذُريتهما مُحسنٌ ، وظالمٌ لنفسهِ مُبينٌ » ، [الصافات ١١٣]

هل هو الشجرة الطيبة ؟!

فى سورة إبراهيم بالذات .. من القرآن العظيم .. كتاب الله .. نجد هذه الآية : « ألم تر كيْفَ ضَربَ اللهُ مَثلاً كلمةً طيبةً ، كشجرة طيبة ، أصلُها ثابتٌ ، وفرْعَها فى السماء، تؤْتى أُكلها ، كلَّ حِين ، بإذن ربِّها ، ويَضربُ اللهُ الأمثالَ للناس لعلَّهُم يتذكَّرونَ » [إبراهيم ٢٤ — ٢٥]

« ألم تر » الخطاب لمن يصلح له . « كيف ضرب الله مثلا » كيف اعتمله ووضعه فى موضعه اللائق به « كلمة طيبة » أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة أى : حَكَمَ بأنها مثلها « أصلها ثابت » أى ضارب بعروقه فى الأرض .

وجعل الشجرة بثبات أصولها ثابتة بجميع غصونها « وفرعها » أى أعلاها أو : فروعها « فى السماء » أى فى جهة العلو « تؤتى أُكلها » تعطى ثمرها « كل حين » كل وقت أقته الله تعالى لإثمارها « بإذن ربها » بإرادة خالقها جل وعلا والمراد بالكلمة : لا إله إلا الله . وقيل : كل كلمة حسنة . والمراد بالشجرة المشبه بها النخلة « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» لأن فى ضربها زيادة افهام وتذكر ، فإن تصوير المعانى العقلية بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحس والخيال .

* * *

والآن .. ماهى هذه الكلمة الطيبة . هى لاشك .. لا إله إلا الله .. لأنها ذروة الكلم الطيب .. وقمة أحسن الكلام .. والكلمة الجامعة لكل خير يتصور أو يكون ..

فاذا كانت الكلمة الطيبة هى لا إله إلا الله . . فان الشجرة الطيبة هى إبراهيم من غير شك ..

لماذا . لأن الله تعالى يقول : « وجَعَلَها كلمةً باقية فى عقبه » .. [الزخرف ٢٨]

أى جعل « لا إله إلا الله » خالدة ، مستمرة فى من شاء من ذريته .. فيمن يختارهم من ذريته .. فيمن يراهم صالحين للنبوة والرسالة منهم .

وإبراهيم هو أصل هذه الشجرة الطيبة . . والأنبياء جميعاهم غصونها . . وأزهارها .. وثمارها .. وسوف تظل تلك الشجرة تؤتى أكلها .. وتعطى خيرها .. إلى ماشاء الله .. بإذن ربها .. ولعل ذلك يرشدنا لماذا جعل الله هذه الآية فى سورة إبراهيم بالذات .

وإبراهيم .. حقا .. وفعلا .. الشجرة الطيبة .. الباقية .. الخالدة .. فى الجنس البشرى كله .. إلى يوم القيامة .. إنه أصل عظيم . . لشجرة عظيمة . . انبثق منها فرعان . . فرع اسماعيل .. وفرع إسحاق .. وانبثق من فرع اسماعيل . . فروع عديدة .

ظلت تتفرع . . وتتفرع . . حتى كانت منها تلك الثمرة الكبرى . . التى اسمها « محمد » . . ثم اختتمت تلك الثمار الطيبة بها . .

وانبثق من فرع اسحاق . . فرع اسمه يعقوب . . وانبثق من يعقوب اثنى عشر فرعا . . خرج من احدها ثمرة طيبة . . اسمها يوسف .

ثم تفرعت من تلك الفروع الاثنى عشر . . فروعا .. وفروعا . . وكلما جاء دور ثمرة من الثمار أن تكون .. خرجت باذن ربها نبيا من الانبياء الكرام .. ايوب . . داوود .. سليمان .. زكريا .. يحيى .. وأخيرا المسيح .. واختتمت النبوة به فى ذلك الفرع .. وغيرهم .. وغيرهم ..

الا أن ثمار تلك النبوات التى انبثقت عن تلك الفروع الكريمة . . لم تتوقف .. ولن تتوقف إلى يوم القيامة .. فان انتشار تعاليمهم التى جاءوا بها فى العالم ، وتمددها فى القلوب ، والرءوس .. يعتبر امتدادا لتلك الثمار المباركة ..

فأى شجرة أطيب من هذه الشجرة ، أو أى شجرة أخلد من هذه الشجرة .

ان ابراهيم كان أمة ؟!

ندخل الآن إلى أخطر منطقة من شخصية إبراهيم .

منطقة كشف الله تعالى لنا فيها الحجاب عن تلك الشخصية ، وأرانا الحقيقة الإبراهيمية فى لألائها الأصيل .

فقال تعالى يتحدث عنه : « إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً ، قانِتاً للهِ ، حنيفاً ، ولَمْ يكُ مِن المشركينَ . شاكراً لأَنْعُمِهِ ، اجْتباهُ ، وهداهُ إلى صراطٍ مستقيم . وآتيْناهُ ، فى الدنيا حَسَنَةً ، وإنَّهُ فى الآخرةِ لِمنَ الصالحينَ . ثم أوحَيْنا إليْك أنِ اتَّبِعْ ملّةَ إبراهيمَ ، حنيفاً وما كانَ منَ المشركينَ . » [النحل ١٢٠ —١٢٣]

أولا : ان ابراهيم كان أمة . ثانيا : قانتا .. لله . ثالثا : حنيفا . رابعا : ولم يك من المشركين . خامسا : شاكرا لأنعمه . سادسا : اجتباه . سابعا : وهداه إلى صراط مستقيم . ثامنا : وآتيناه فى الدنيا حسنة . تاسعا : وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .

تسع صفات بينات .. من شخصية ذلك الرجل .. تصلح كل واحدة منها مستقلة أن تشع اشعاعها الباهر العظيم .. « إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » دعا — عليه السلام — مشركى العرب إلى ملة ابراهيم ، إذ كان أباهم ، وبانى البيت الذى به عزهم .

والأمة : الرجل الجامع للخير ، وقيل : الأمة الذى يعلم النـاس الخير . والقانت هو المطيع . « شاكرا » أى كان شاكرا . « لأنعمه » الأنعم جمع نعمة . « اجتباه » أى اختاره ، « وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة » قيل : الولد الطيب .

وقيل : الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد — عليه السلام — فى التشهد . وقيل : انه ليس أهل دين الا وهم يتولونه . وكل ذلك قد أعطاه الله وزاده صلى الله عليه وسلم .

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » أى مع الصالحين ، لأنه كان فى الدنيا أيضا مع الصالحين . « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » قيل :

أمر باتباعه فى جميع ملته ، إلا ماأمر بتركه . والصحيح : الاتباع فى عقائد الشرع دون الفروع لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » .

اجتباه .. وهداه .. وآتيناه ؟!

هذا هو الثالوث .. أوهذه هى المفاتيح الثلاث .. التى يفتح كل منها بابا إلى شخصية ابراهيم . اجتباه ؟ . اختاره .. ولكن لمن اختاره ؟ لنفسه .. اصطفاه لنفسه .

نظر فى خلقه كلهم .. استعرض سكان الأرض جميعا فوجد ابراهيم أصلحهم لنفسه.. وأكثرهم استعدادا .. وأسلمهم قلبا .. فقرر أن يجتبيه .. أن يختاره .. لنفسه .

انه نفس المعنى الذى قاله لموسى « واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسى » [طه ٤١]

هذا هو المفتاح الأول .. يفتح لنا بابا إلى ابراهيم .. ان الله اختاره بنفسه .. لنفسه .. اجتباه هو .. ليختصه لنفسه .. أما المفتاح الثانى .. فهو قوله « وهداه » . بعد أن اختاره، تولى هدايته .. فأى هدى هداه .

هل هو كهذا الهدى الذى يهدى به الناس : كلا .. انه اعداد خاص .. أعده به ليكون أهلا للمستوى الذى سوف يرفعه اليه .. هداه .. أنعم عليه بهدى عظيم .. عظيم جدا .. هدى لايعلمه إلا هو ..

ثم ماذا ، ثم المفتاح الثالث .. وآتيناه .. بعد أن اختاره لنفسه .. وأعده اعدادا يجعله أهلا لأن يتخصص لله .. آتاه ..

فماذا آتاه . آتاه نعما .. لايصل إلى مداها قلب بشر .. قد نعدد شيئا من تلك النعم، فيما نعرفه من حياته ، وآثاره .. ولكن النعم الباطنة التى آتاه .. تبقى شيئا مكتوما بينه وبين الذى .. اجتباه .. وهداه .. وآتاه ..

وماذا تظن تكون تلك النعم التى أوتيها ابراهيم ، شىء بنسبة سعة فضل الله .. وسعة رحمته .. وسعة علمه .. وليس بنسبة استحقاق ابراهيم .. واستعداد ابراهيم .

انها مفاتيح سحرية .. إذا أدرناها .. انفتحت لنا أبواب شخصيته السحرية .. فاذا كل باب يؤدى إلى بحر من النور الذى لا أول له ولا آخر .. وفى النهاية .. تجد ابراهيم ..

أولئك .. الذين أنعم الله عليهم ؟!

قال تعالى : « أولئك الذينَ أنعَمَ اللهُ علَيهم منَ النبيينَ ، من ذُرِّيةِ آدمَ ، وممن حَملنا مع نوحٍ ، ومن ذريةِ إبراهيمَ ، وإسرائيلَ ، وممنْ هدَيْنا ، واجتبَيْنا ، إذا تتْلَى عليهمْ آياتُ الرحمنِ خرُّوا سُجَّداً وبكِيًّا . » [مريم ٥٨]

« أولئك » اشارة إلى المذكورين فى السورة الكريمة .. سورة مريم .. ومنهم ابراهيم — عليه السلام — حيث قال فيها « واذكر فى الكتاب ابراهيم . . »

ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو مرتبتهم ، وبعيد منزلتهم فى الفضل « الذين أنعم الله عليهم » بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير اليه مجملا « من النبيين » وهم بعض النبيين « من ذرية آدم » قيل : بيانية ، وقيل هى تبعيضية .

« وممن حملنا مع نوح » أى ومن ذرية من حملناهم معه — عليه السلام — خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام — لما سمعت من أنه قبل نوح ، وابراهيم عليه السلام ، كان بالإجماع من ذرية سام بن نوح عليهما السلام .

« ومن ذرية إبراهيم » وهم الباقون « وإسرائيل » أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب عليه السلام « وممن هدينا واجتبينا » أى ومن جملة من هديناهم إلى الحق ، واخترناهم للنبوة والكرامة . « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » سجدا جمع ساجد ، وبكيا جمع باك أى : ساجدين ، وباكين .

والمراد من الآيات ما تضمنته الكتب السماوية سواء كان مشتملا على ذكر السجود أم لا . وسواء كان متضمنا لذكر العذاب المنزل بالكفار أم لا . ومن هنا استدل بالآية على استحباب السجود والبكاء عند تلاوة القرآن . وقيل المراد منه الخشوع والخضوع .

* * *

ماهذا ، هذا شىء عظيم .. من مقومات شخصية ابراهيم !

إنه من الذين أنعم الله عليهم .. بل هو من ذروة .. بل هو ذروة الذين أنعم الله عليهم

باستثناء محمد صلى الله عليه وسلم .. أولئك !أولئك الذين ذكرنا .. هم قمة البشر ..وابراهيم قمة قمم البشر . . أولئك ! الذين أنعم الله عليهم . . أى نعم . . وكم من النعم . . وكيف تلك النعم .. لا نستطيع أن ندرك منها إلا ما يسمح به ظلامنا من إبصار .. أما حقيقة شموسهم فلا نرى منها شيئا !!

وكما يلزم للعين كى ترى الماديات من ضوء .. فانه يلزم للعقول كى تدرك النبوة من نور .. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .، وكلما ارتقت عقولنا .. واستنارت قلوبنا كلما كنا أقرب إلى إدراك عظمة النبوات .. ونورها الباهر .

أولئك ؟ أولئك هم العظماء حقا .. الذين لا يعلم قدرهم إلا ربهم ..

سجداً ... وبكيا ؟!

صفة عظمى من صفات ابراهيم الكبرى ؟! « إذا تتلى عليهم آياتُ الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبُكيا » ؟! اكتملوا فى ظاهرهم .. واكتملوا فى باطنهم . .

أدركوا من الله .. وعظمته .. ورحمته .. وعلمه .. وجبروته .. وقهروته .. وجماله .. وجلاله .. و.. و.. و.، شيئا عظيما .. عظيما جدا .. فرعبوا .. وزلزلوا .. أمام قهروت الجبار .. ثم سكنوا .. واستسلموا .. أمام عظمته .. ثم اطمأنوا .. وفرحوا .. أمام .. رحمته .. تلك القلوب العليا .. التى تجلى فيها بجماله وجلاله ..

ما إن سمعت آيات ربها . . واستشعرتها . . حتى هوت له ساجدة . . وله باكية !!

قلوبهم على أعلى مستوى من ادراك صفات الله .. وعلى أعلى مستوى من الانفعال بصفات الله .. انهم فى ذروة الحيوية .. وقمة الاحساس بتلك الصفات .

ومن هنا كانت سريعة الانفعال بآيات الله .. فخروا سجدا وبكيا .. بقلوبهم .. ومتى خرت القلوب سجدا .. فقد خرت الأجسام فوراً .. ومتى خرت القلوب بكيا .. فقد خرت العيون فورا باكية .

ما هذا ؟ هذا شىء من انفعالات إبراهيم .. شخصية حية إلى أبعد مايتصور من الحياة

يحركها قلب علم من الله مالا نعلم .. فكيف كان هذا العظيم إبراهيم ؟ كان إذا تليت عليه آيات الرحمن خر ساجدا وباكيا .. ولكن أى سجود ، وأى بكاء ، من أراد أن يتصور الصورة الأبراهيمية وهى فى تلك الأحوال .

فعليه أن يتصور الصورة المحمدية وهو يتهجد فى الليل .. ويبكى بكاء شديدا .. لقد كان إبراهيم اقرب الأنبياء إلى محمد صلى الله عليه وسلم .. إن قلب إبراهيم قلب دائم السجود البكاء !

وكنا به عالمين ؟!

أخطر منطقة من شخصية إبراهيم ! قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ وكُنا بهِ عالمينَ » . [الأنبياء ٥١]

وهناك .. فى موضع آخر يقول : « وآتيناه » . وهناك .. يقول .. «ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ من قبل » . إذن ما آتاه الله من رشد .. هو التصريح بما أبهمه هناك حين قال « وآتيناه » .

آتاه رشده ! من الصغر .. من الطفولة . . سلك به مسلك العقول الرشيدة .. التى تعرف الحق من الباطل . . هو الذى عصمه . . ومنعه من الانحراف ووجهه إلى صراط مستقيم .

ثم ماذا ؟ ثم هل كان هذا محض تسلط الهى لا يملك إبراهيم منه فكاكا .. ولافضل له فيه ؟ كلا .. بل كان معدنه أصلا ممتازا .. يستحق أن يؤتيه الله كل هذه النعم ...

ما دليل ذلك ؟ قوله تعالى : « وكنّا به عالمين » .. وهى من نفس معين قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .. وكنّا .. نحن الله .. به .. بإبراهيم .. عالمين .. نعلم من هو قبل أن يكون ، ومن هو حين كان . . ومن هو بعد أن مات جسده . وانتقل الينا بالموت .. ومن هو فى برزخه .. ومن هو بعد يوم القيامة .. بل نعلمه أكثر من نفسه .. فاذا اخترناه فقد اخترناه على علم .. وإذا اصطفيناه فلما نعلمه من امتياز معدنه .. وما أودع فيه من أسرار وأنوار .

وكنّا به عالمين ؟ اجملة .. يستحيل أن تصدر الا عن إلهٍ .. قهار .. جبار .. أحاط بكل شيء علما !!! فيها قهر الألوهية .. وعلمها .. ونورها .. وصدقها .. وجمالها .. وجلالها .. أيمكن أن يكون هذا تعبير بشر ؟ كلا .. والله .. انه كلام رب العالمين .

وكنّا بهعالمين ! فيها اعماق بعيدة جدا .. كأنهاتقول : ما لكم وإبراهيم ! .. وماذا تعرفون عن إبراهيم ! .. واين انتم وإبراهيم ! انه مقام وحده .. وارتفاع وحده .. نحن وحدنا الذى نعلمه .. لا أحد منكم يعرف عنه شيئا .. وهل أنتم فى مقامه حتى تدركوا عنه شيئا ! وماذا يفهم الصغار عن أفكار الكبار ! فكيف تفهمون عن إبراهيم .. أو تدركون إبراهيم ! . أنا .. أنا وحدى الذى اعلمه ... وكنا به عالمين !!! كأن الآية تشير إلى شيء من هذا .. أو أبعد من هذا .. فانظر ماذا تكون شخصية إبراهيم بعد ذلك ! .

وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ؟!

والضمير عائد على إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ،، أى على إبراهيم والانبياء من ذريته .. وكون إبراهيم اماما شيء مفروغ منه . فقد قيل فيه منفردا « إنى جاعلك للناس إماما » .. ولكن الجديد هنا ،،قوله : « يهدون بأمرنا » أى أن عماد هذه الأمامة « يهدون بأمرنا » . أى إنهم قدوة للناس . . ليهدوا الناس بأمر الله ، ، أى بشريعته . ، أى بأوامره .. أى انهم تخصصوا فى هذا الفن ،، الذى هو ارفع فنون التوجيه فى العالم .

انهم يوجهون البشرية نحو ربها ،، على هدى من شريعة ربهم .. لا يبتدعون للناس من مفاهيمهم الخاصة . وإنما يوجهونهم نحو ربهم .. على هدى من توجيه ربهم .

بأمرنا ! بشريعتنا .. باوامرنا ونواهينا. فابراهيم إذن صاحب شريعة وصاحب وحى مستقل .. وصاحب مفاهيم ربانية .. فأى أثر لهذا كله فى شخصيته !

وأوحينا اليهم ... فعل الخيرات ..؟!

أمرناهم عن طريق الوحى أن يفعلوا الخير .. مطلق الخير .. الخير يعم البشرية كلها ،، لايخصهم وحدهم .. وانما يمتد إلى غيرهم .. عبر الأجيال والقرون .. وأمرناهم أن يأمروا

أتباعهم بذلك .. فهم أئمة للناس فى فعل الخيرات .. وآمرون للناس أن يفعلوا الخير .. ثم ماذا !

واقام الصلاة وايتاء الزكاة ؟

أوحى الله تعالى إلى ابراهيم واسحاق .. ويعقوب .. أن يقيموا الصلاة .. وأن يؤتوا الزكاة .. ليكونوا للناس أئمة فى ذلك .. ان ابراهيم صاحب شريعة فيها صلاة .. وصاحب شريعة فيها زكاة .. إنه يبين للناس كيف يصلون ، وكيف يخرجون زكاة أموالهم .. ثم ماذا ؟

وكانوا لنا عابدين ؟!

لنـا ؟ !! لا لشيء آخر سوانا .. لنـا .. يتجهون الينا بعباداتهم .. لايشركون بنا شيئا .

لنا عابدين ؟ لايعرفون لهم ربا سوانا .. ولايتجهون بوجوههم إلى شيء آخر. تخصصوا لنا .. فهم عبادنا نحن .. لا يشركون فى عبادة ربهم أحداً .. فشخصية إبراهيم إذن شخصية إمامة .. وقد تقدم عموم امامته للناس .. وشخصيه تشريع .. تأمر بالخير ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .. وشخصية عابدة فى كل أحوالها .. وكل مقاماتها .. عابدة على أعلى مستويات العبادة وارقاها .

لاتشرك بى شيئا ؟!

قال تعالى . « وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ، أن لا تشرك بى شيئاً » .
[الحج ٢٦]

هذا قوام شخصيته .

ولا تشرك بى شيئا ؟! هذا هو الأمر العام الصادر من الله إلى عبده إبراهيم .. اياك يا إبراهيم أن تشرك بى شيئا .. أى شيء قل أم كثر .. أنا خالق كل شيء يا إبراهيم ..

فكيف تتجه إلى المخلوق وتترك من خلق ! لايحل لك يا إبراهيم أن تشرك بى شيئا .. اطلاقا .. لاوساطات .. لاحجب .. لا التواءات .. لاشفعاء .. لاأصنام .. لاشيء يجوزأن يكون بينى وبينك ، وإنما اتجه إلى مباشرة .. ووجه وجهك إلى ربك وحده ..

هذا هو الأمر الصادر إلى إبراهيم ..وقد قام به خير قيام .. ووفى بحقوقه خير الوفاء . وعاش ومات حنيفا .. أى مائلا عن الانحرافات .. وعن كل شىء .. متجها إلى الله وحده .. مباشرة .. ثم ماذا ؟

وطهر بيتى ؟!

ثم يقول له تعالى : « .. وطَهِّرْ بَيْتِيَ للطائفين ، والرُّكَّعِ السُّجُودِ [الحج ٢٦]

وهى تتمة الآية السابقة .. أى ينبغى عليك أن تطهر بيتى .. أن تطهر قلبك .. الذى هو موضع تجلياتى عليك .. هذا البيت ينبغى أن تطهره من ماذا ؟ من كل انواع الرجس.. « فاجتَنبوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجْتنبوا قولَ الزُّور » [الحج ٣٠]

نظف قلبك من كل وسخ يتصور .. ليكون أهلا لاستقبال تجلياتى وانوارى .. ومر الناس بذلك .. طهره .. ليستقبل الطائفين .. انوارى التى سوف تطوف بقلبك والقائمين.. أنوارى التى سوف .. تبقى بقلبك .. والركع السجود . وأنوارى التى سوف تخضع بقلبك ..

وأذن فى الناس بالحج ؟!

وعليك ياإبراهيم أن توجه الناس إلى .. أن يقصدونى .. أن يريدونى .. أن يعرفونى .. وارمز لهم ياإبراهيم فى ذلك بتلك الفريضة المسماة بالحج .. فتكون الكعبة قبلتهم.. توجههم .. إلىَّ .. وتكون مناسك الحج كلها تمرينا لهم على الانخلاع من الدنيا .. والتخصص لى ..

فهل استجاب إبراهيم إلى كل هذا ؟ نعم .. عاش ومات سليم القلب .. ونادى فى

الناس بالحج .. وما زال نداءه يتحقق فى تلك الافواج التى تهوى افئدتها إلى بيت الله كل عام .. بل فى كل من توجه إلى القبلة يعبد الله تعالى نافلة أو فرضا ..

شخصية ! يالها من شخصية !

أعداء ابراهيم ؟!

قال تعالى : « وَكذلكَ جَعلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا منَ المجرمينَ ، وكفى بربِّكَ هاديا ونصيراً » [الفرقان ٣١]

كما جعلنا لك يامحمد أعداء من المشركين ، يقولون مايقولون ، ويفعلون مايفعلون ، من الأباطيل ، جعلنا لكل نبى من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة ، والدعوة إليها ، عدوا من مرتكبى الجرائم والآثام .

« وكفى بربك هاديا ونصيرا » وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبه ، والنصر على أعدائه أى كفاك مالك أمرك ! ومبلغك إلى الكمال ، هاديا لك إلى مايوصلك إلى غاية الغايات ، التى من جملتها تبليغ ماأنزل اليك ، وناصرالك عليهم على أبلغ وجه

هؤلاء هم أعــداء إبراهيم .. انهم المجرمون . . فى كل زمان . . وفى كل مكان .. المجرمون .. الذين يرغبون فى الاجرام ، وينزعون إلى الانحراف عن الخط المستقيم ..

هؤلاء لايحبون إبراهيم لأنهم يريدون أن ينحرفوا .. وإبراهيم يريدهم أن يستقيموا .. فمستحيل أن يتلاقى الطرفان

هذا من جهة الناس .. فهل حدد ابراهيم اعداءه من جهة الخلق عموما .

ابراهيم يحدد اعداءه ؟!

قال تعالى : « قالَ : أفرَأيتم ما كنتمْ تعبدونَ . أنتمْ وآباؤكمُ الأقدمُونَ . فإنَّهُمْ عدُوٌّ لى ، إلا ربَّ العالمينَ » . [الشعراء ٧٥ — ٧٧]

وهنا تتجلى نفسية إبراهيم . . اعماق نفسيته . . انه يعلن أن هذه الحقارات . . المسماة

بالأصنام .. التي يعبدها قومه .. يبغضها أشد البغض .. يبغضها لأنها تعبد من دون الله .. وهي أحقر من أن تعبد .. أحقر من أن تكون شيئا يتجه اليه الناس .. انها لاتعدو أن تكون حجارة .. أو قطعا من خشب أو نحاس . . فكيف تعبد من دون الله ؟!! إبراهيم يكره هذه الحقارات كرها شديدا .. ويبغضها بغضا حارقا .

وإنما يحب شيئا واحدا حبا شديدا .. لأنه أهل للحب ،وأهل لأن يتجه اليه الإنسان ، « إلارب العالمين ».. الذين خلقنى فهو يهدين .. الخ ان إبراهيم هنا يصور نفسيته تصويرا صادقا .. إلى أقصى درجات الصدق .. إنه يعلن إلى العالم كله أنه يشعر أن اكبر عدو له هو تلك الحجب التي تحجبه عن اله الحق .. سواء أكانت الحجب أصناما تعبد .. أودنيا أو اشخاصا .. أو رؤساء .. أو شفعاء .. أو أى شىء يشغل الإنسان عن ربه .. أى يحجبه عنه .

وهنا دقيقة عميقه جدا .. تسمح لنا أن ننفذ إلى اعماق إبراهيم .. إنه يكره أشدالكره أى شىء يحجبه عن ربه .. مهما كان هذا الشىء .. انه يريد ان يهاجر إلى الله .. ويترك الحجب كلها وراءه .. وهذا واضح جداً فى شخصيته .. حين قال : انى مهاجر إلى ربى سيهدين .. هجر أباه .. وهو أقرب الناس اليه .. وهجر قومه .. وهم عشيرته .. وهجروطنه إلى الشام .. وما ادراك ما حب الاوطان !

ثم علا .. وارتفع .. حين هجر عاطفة حب الابن الا وحد فى الكبر .. فسارع إلى ذبحه.. حتى لايحجبه حب الأبناء عن ربه .. فارتفع على عاطفة الابوة.. حتى لاتكون حجابا بينه وبين محبوبه .. وهكذا . . وهكذا . . فهو شديد البغض . . يكره كأشد مايكون الكره كل مايحجبه عن محبوبه ..

وقوله « فانهم عدولى ، إلا رب العالمين » .. يصور أدق تصوير احساسه هذا ..انه يتحدث عن نفسه .. عن شخصيته .. وانه لصادق ..أشد الصدق .

فانهم ...لم يقل فانه .. وإنما بصيغه الجمع .. أى كل شىء يعبد من دون الله .. أى كل ما سوى الله . . عدو لى . . يعتبر عدوا لى لأنه يحجبنى عنه .. وأنا لا أريد شيئا يتى

وبينه .. أريده هو مباشرة . فأى شىء يصدنى عنه .. أو يحجبنى .. أويعوق سيرى إليه .. هو عدو لى .. أكرهه أشد الكره .

إلا رب العالمين .. إلا هذا الذى خلقنى .. وأوجدنى .. هو وحده محبوبى .. ووجهتى .. ومقصودى .

هذه نفسية ابراهيم .. كما يصورها ابراهيم .. أوهذا إحساسه .. كما يشعر به .. ومن أدرى بابراهيم من ابراهيم !

من أولى العزم ؟!

قال تعالى : « وإذْ أخذْنا من النبيينَ ميثاقَهمْ ، ومنك ، ومن نوحٍ ، وإبراهيمَ ، وموسى ، وعيسَى بْنَ مَرْيمَ ، وأخذنا منهُم مِيثاقاً غليظاً . ليسْألَ الصادقين عن صدْقهِمْ وأعدَّ للكافرينَ عذاباً أليماً . » [الأحزاب ٧و٨]

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة ، والشرائع والدعاء إلى الدين الحق ، وذلك — على ماقيل — وقت استخراج البشر من صلب آدم — عليه السلام — كالذر . وقيل : انه سبحانه أخذ من النبيين عهودهم بتصديق بعضهم بعضا ، واتباع بعضهم بعضا .

وقيل : انه أخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضا ، والإعلان بأن محمدا رسول الله ، وإعلان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نبى بعده .

« ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين اندراجا بينا للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع ، واشتهر أنهم أولو العزم من الرسل ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

عن أبى هريرة : أنهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام .

وتقديم نبينا صلى الله عليه وسلم مع أنه آخرهم بعثة للايذان بمزيد خطره الجليل .

« وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » أى عهدا عظيم الشأن ، أو وثيقا قويا .

أين المنافذ إلى شخصية ابراهيم هنا ! أنه أحد خمسة .. هم أولو العزم من الرسل .. هم قمة الرسل .. وإذا كان النبيون هم صفوة البشر .. وهؤلاء قمة الصفوة .. فهم إذن صفوة الصفوة .. ومقرر أن قمة هؤلاء الخمسة هو محمد صلى الله عليه وسلم :. وأن الذى يليه هو ابراهيم .. فابراهيم إذا هو الرجل الثانى فى البشرية على الإطلاق .. فهو الرجل الأول عند الله .. بعد محمد .

رجل هذا شأنه .. كيف كانت شخصيته .. وكيف كانت ارادته ! ويكفى أن الله تعالى يقول « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » أى فرضنا عليهم فروضا شاقة ، شديدة ، لايستطيعها إلاهم وحدهم .. ليكونوا أهلا لحمل رسالاتنا ، وكلماتنا ، إلى الناس جميعا .. وحسبنا فى هذا المقام .. أن فرض الله عليه أن يذبح ابنه .. فمن من الناس يستطيع أن يحتمل هذا البلاء ؟

صادق ؟!

ثم يقول تعالى مباشرة : « لِيَسْأَلَ الصادقينَ عن صدْقِهِمْ .. » [الأحزاب ٨]

تقرير بأن هؤلاء الرسل فى القمة من الصدق .. الذى هو أول شرط من شروط الرسل .. إنه يتحتم أن يكونوا أصدق الناس فى كل أحوالهم ومقاماتهم .. لأن الله سوف يأتمنهم على خبر السماء .

ليسأل الصادقين عن صدقهم ؟ .. إن هؤلاء الرسل هم الصادقون .. سوف يسألهم الله عن ذروة الصدق .. عن تلك الرسالات التى صدقوا الناس فى تبليغها .. هل بلغوها .. حق البلاغ .. لقد كان ابراهيم صادقا .. فى ذروة الصدق !!

ويخشونه ؟!

قال تعالى : « الذينَ يُبَلِّغونَ رسالاتِ اللهِ ، ويَخْشَوْنَهُ ، ولا يَخْشَوْنَ أحداً إلا اللهَ ، وكفى باللهِ حسيباً .. » [الأحزاب ٣٩]

« الذين يبلغون رسالات الله » صفة للذين خلوا .

« ويخشونه » أي يخافونه تعالى ، في كل مايأتون ، ويذرون ، لاسيما في أمر تبليغ الرسالة « ولايخشون أحدا إلا الله » في وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه — عليه الصلاة والسلام — من الاحتراز عن لائمة الناس من حيث أن إخوانه المرسلين لم تكن سيرتهم التي ينبغي الاقتداء بها ذلك .

« وكفى بالله حسيبا » أي كافيا للمخاوف . أو : محاسبا على الكبائر والصغائر من أفعال القلب ، والجوارح ، فلا ينبغي أن يخشى غيره .

والخشية أخص من الخوف لأنها الخوف الشديد ، والمنفي في الآية ههنا هو ذلك ، لامطلق الخوف ، المثبت فيما حكي عن موسى عليه السلام .

وقالوا : الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر مايكون ذلك عن علم بما يخشى منه .

ماهذا ؟ هذه هي الصفة الأصيلة من صفات شخصية إبراهيم الكبرى .. التي تصدر عنها كل أحاسيسها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وأقوالها .

ويخشونه ؟!! إن هؤلاء الرسل .. كلهم .. يخافون الله تعالى أشد الخوف .. ليس هذا الخوف الغريزي الجائز صدوره عن البهائم وسائر البشر .. كلا .. بل هو هذا الخوف المقرون بالتعظيم والإجلال والمهابة والرهبة .. خوف أعماقه بعيدة جدا .. يكفي مابقلب أحدهم منه .. إذا وزع على قلوب البشر جميعا .. أن يحدث فيهم كلهم رعبا !!! لماذا .. لماذا كل هذا .. لماذا يعيش هؤلاء الرسل في مثل هذا الرعب الشديد ! الأمر بسيط جدا .. لو علم السبب لبطل العجب .. بأنهم يعلمون من الله مالا يعلم سائر الناس !!

ولكن ماهو هذا الذي يعلمونه من الله فجعلهم كذلك ! هو ان الله تعالى كشف لهم صفاته ، وأفعاله ، واسراره .. أوقفهم على جلاله ، وقهروته ، وجبروته ، وملكوته .. فرعبوا رعبا شديدا .. سيطر على أحاسيسهم كلها .. ووجهها نحو الحق .. والصدق .. دائما وأبدا .. علموا من الله .. من قوته .. من بطشه .. من صفاته .. ما جعلهم دائما في خشية منه .

ولقد كان ابراهيم كذلك .. بل قمة ذلك .. بعد محمد صلى الله عليه وسلم . فهو هناك

يحب الله حبا شديدا .. وهو هنا يخشى الله خشية شديدة .. وهاتان هما الصفتان اللتان تتمركز عليهما شخصية كل نبي دائما وأبداً . الحب .. والخشية .. وهم في ذلك درجات .. وعلى قدر نصيبهم من هاتين الصفتين يكون مقامهم من الله تعالى .. ومن هنا كان محمد صلى الله عليه وسلم أعلى البشر مقاما عند ربه .. كان علمه بالله .. سبب خشيته لله .

ومالنا نذهب بعيدا .. وهاهو الله يكفينا مئونة ذلك كله .. بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

انما يخاف الله خوفا شديدا .. ويعظمه تعظيما كبيرا .. العلماء .. العلماء بالله .. فكيف بابراهيم .. وهو قمة العلماء .. وفي الذروة منهم ! ويخشونه !! هو وحده .. الذي يخشونه .

ثم ماذا ؟ « ولا يخشون أحدا إلا الله » .. هذه أيضا خطيرة جدا . انهم لم يقفوا عند حد خشية الله كما يفعل أولئك المتصوفة الذين لم تتكامل معرفتهم بالله .. تراهم يذوبون من خشية الله .. ثم يصابون بعد ذلك بالشلل النفسي .. فلا يجاهدون عدوا في الله .. ولا يجودون بأنفسهم في سبيل تبليغ رسالاته .. وانما هم يخشون ربهم .. ويقفون عند ذلك .. فهم قوم سلبيون .. لا أثر لهم في مجتمعاتهم .. كأولئك الرهبان في معابدهم .. يذوبون خوفا من الله .. ثم ماذا بعد هذا ! .. لا شيء !!!

أما الرسل .. أما هؤلاء الكاملون المتكاملون المكملون .. فليسوا كذلك .. ان خشيتهم لله .. تحركهم أشد الحركة نحو مجاهدة الناس .. فتراهم ينطلقون إلى الناس جميعا يدعونهم إلى الله .. فان أبوا قاتلوهم على ذلك .. حتى يظهر الله الحق على أيديهم .

لماذا ! .. لأنهم لا يخشون أحدا إلا الله .. لأنهم أشجع ما خلق الله من عباده . لا يخشون .. لا يخافون .. ولا يكبر في صدورهم أحد . فهم يجترءون على الخلق .. ويدعونهم إلى ربهم .. انهم ايجابيون .. وليسوا سلبيين كبعض المتصوفة .. أو هؤلاء الرهبان ..

وذلك تجده واضحا في تسلسل كلمات الآية « الذين يبلغون رسالات الله .. ويخشونه .. ولا يخشون أحدا إلا الله » أي أنهم ماصلحوا لتبليغ رسالات الله .. وما تستلزمه من جهاد الناس جهادا كبيراً إلا لأنهم يخشون الله .. وإلا لأنهم لا يهابون أحدا من الناس .

ولقد كان ابراهيم — عليه السلام — فى القمة من تلك الصفة الكبرى .. كان يخشى الله .. ولا يخشى أحداً إلا الله ..

انظر إليه حين قام وهو فتى .. وحده .. فى العالم كله .. فحطم الآلهة كلها .. ثم وقف على مشهد من الأمة كلها يعلن أنه فاعل ذلك وحده .

قوة خارقة .. صدرت من تلك الشخصية .. من تلك الصفة .. ويخشونه .. ولا يخشون أحداً إلا الله .

أو انظر اليه .. يلقى إلى الجحيم .. فلا يهتز ولا يجبن .. ولا يخشى أحداً إلا الله !!!

هذه هى الصفة العظمى من صفات إبراهيم .. وهى المحرك لتلك المواقف الكبرى التى عنه صدرت ..

مخلص ؟!

وأخرى .. أعظم .. وأكبر .

قوله : « سُبحانَ اللهِ عما يَصفونَ . إلا عبادَ اللهِ المخْلَصينَ . »

[الصافات ١٥٩ — ١٦٠]

ولقد كررها الله تعالى فى تلك السورة « الاعبادَ اللهِ المخلصين » .

فمن هم أولئك عباد الله المخلصون ؟ هم الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الإنذار . وقرىء بكسر اللام ، أى الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى فإبراهيم إذن هو أحد أولئك .. أحد المخلَصين .. وأحد المخلصين .. على القراءتين .. أو قل : إن الله أخلصه لنفسه .. فصار بذلك من المخلصين لربه .. وحين نقول أن ابراهيم مخلَص لله .. ومخلص لله .. لا نعنى أنه فى مستوى ذلك الإخلاص التافه الذى يكون منى ومنك نحو الله .. كلا.. وإنما هو على مستوى الرجل الثانى فى البشر .. قربا من الله .

فهو يتحرك لله ، ويتكلم لله ، ويفكر لله . ومنزه لله ، وأنفاسه لله ، وكل ما فيه ،

وما يصدر عنه ، خالصا لله وحده . . على مستوى رفيع .. رفيع .. لا يعلمه إلا الله .. إلا الذى أخلصه لنفسه .

فكل ما كان من ابراهيم كانت فيه .. فى أعماقه تلك الصفة .. ولذلك تقبلها كلها منه ربه تبارك وتعالى .. فما من دعوة صدرت عن ابراهيم إلا استجاب الله تعالى لها .. لماذا ؟ لأنها صادرة عن تلك الصفة .. صفة الإخلاص بالله .. ولله .. مُخلَص.. ومُخلص .. إلا عبادَ اللهِ المخلصينَ ؟! وابراهيم .. كان فى القمة من هؤلاء المُخْلَصين ؟!

كذلك نجزى المحسنين ؟!

وتلك صفة أخرى من صفاته . . الإحسان ...

إن إبراهيم فى القمة من ذلك الإحسان .. وإذا كان الإحسان قد حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .. فان إبراهيم فوق هذا التحديد .. بيعيد .. لأن ذلك مقام العوام . والجماهير .. أما إبراهيم أما ذلك الذى اتخذه الله خليلا .. وأراه ملكوت السماوات والأرض .. ذلك الذى هذا هو شأنه .. فإنه فوق ذلك التحديد .. إنه لا يعبد الله كأنه يراه .. بل يعبده وهو يراه .. يراه الرؤيا التى اذن له فيها ربه .. وتناسب مقامه الذى رفعه إليه .. إنه إذا قمة فى تلك الصفة .. صفة الإحسان .

وهذا واضح فى قوله تعالى « .. إنا كذلك نجزى المحسنين ».. ان فيها اشارة إلى أن ابراهيم ذروة المحسنين.. وقمتهم .

انه من عبادنا المؤمنين ؟!

ثم يصفه تعالى بقوله : « إنه من عبادنا المؤمنين » . [الصافات ١١١]

أى الكاملين فى الإيمان . . ومرة أخرى نكرر أن إبراهيم كان مؤمنا .. ولكن ليس كايمان الناس — أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كلا .. بل شيء فوق هذا .. شيء يوازى أن اتخذه الله خليلا ..

ومن كان ذلك مقامه .. كان من الله بمكان يجعل إيمان البشر جميعا .. الا محمدا صلى الله عليه وسلم . . إيمانا تبدو تلك التحديدات إلى جوارها . . مستوى بسيطا . . وظلالا باهتة . . ولـكن إبراهيم مقام وحده .. فوق ذلك كله . . مقام لا يعلمه إلا الله الذى قال له « أولم تؤمن » ؟! وإلا إبراهيم الذى أجابه : « بلى ، ولـكن ليطمئن قلبى » .. ان فى هذا السؤال . . تقرير من الله بأن إبراهيم قد آمن الايمان الـكامل . . وإن فى هذا الجواب تقرير من إبراهيم بأنه فعلا قدآمن .

وماظنك بايمان يقرره الله ، ويقرره خليله .. ولـكن ذلك التقرير بينهما هما وحدهما . . لأن أحدا غيرهما لا يستطيع ادراكه ؟!

ماذا يعلم عن الله ؟!

قال تعالى : « سُبحانَ اللهِ عما يصفونَ . إلا عبادَ اللهِ المُخلَصينَ » .

[الصافات ١٥٩ــ ١٦٠]

كل ما يصف الناس به ربهم ويتصورون . . فالله اعلى من ذلك . . وإنما المخلصون وحدهم هم الذين يعلمون عنه العلم الصحيح وإبراهيم قمة هؤلاء .

« سبحان الله عمايصفون » تنزيه من جهته تعالى لنفسه عن الوصف الذى لايليق به أى أن الله تعالى منزه عن كل ما يصفه به الناس انه فوق ذلك كله .. وفوق التصور . . وفوق الادراك .

« إلا عباد الله المخلصين» ولـكن المخلصين هم وحدهم الذين يصفون الله تعالى الوصف اللائق به .. ويعلمون عنه العلم الصحيح الذى يمـكنهم من وصفه تعالى بالصفات اللائقة به سبحانه .. فماذا كان يعلم إبراهيم عن ربه ، وهو قمة هؤلاء المخلصين ؟لقد كان يعلم كثيرا.. شيئا فوق اوهامنا .. وإيماننا .. وتصوراتنا .. ومعتقداتنا .. كلنا .. إنه الخليل .. فأى علم كان علمه ؟! أو أى معرفة بالله كانت معرفته ؟!

سبحان ربك .. عما يصفون ؟!

قال تعالى : « سُبحانَ رَبِّكَ ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفونَ . وسلامٌ على المُرسَلينَ . والحمدُ لله ربِّ العالمينَ » . [الصافات ١٨٠ ـ ١٨٢]

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون» تنزيه لله تعالى شأنه عن كل ما يصفه الناس .. كأنه قيل : سبحان من هو مربيك ومكملك ، ومالك العزة والغلبة على الأطلاق .

« وسلام على المرسلين » تشريف للرسل كلهم ، بعد تنزيهه تعالى عما ذكروتنويه بشأنهم ، وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره ، فائزون بكل المآرب .

« والحمد لله رب العالمين » اشارة إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية ، بعد التنبيه على اتصافه عزوجل بجميع صفاته السلبية . وإيذان باستتباعها للافعال الحميدة التى من جملتها افاضته تعالى على المرسلين ، من فنون الكرامات السنية ، والكمالات الدينية ، والدنيوية ، واسباغه جل وعلا عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة ، والباطنة الموجبة لحمده تعالى .

إذن المرسلون .. وحدهم هم الذين يستطيعون وصف الله تعالى الوصف الصحيح .. أما من عداهم من البشر .. ليسوا أهلا لذلك .. فكيف بابراهيم ؟ .. إنه يعلم من الله ما لا نعلم جميعا .

وإذا كان يعقوب .. وهو شيء من إبراهيم يقول عن نفسه « وأعلم من الله مالاتعلمون» .. فماذا يمكن أن يقول إبراهيم؟ انه يستطيع أن يقول لجميع الرسل سوى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعلم من الله مالاتعلمون!!!

أولى الأيدى والأبصار ؟!

قال تعالى: «واذْكُرْ عبادَنا إبراهيمَ ،وإسحاقَ،ويعقوبَ، أولى الْأَيدىوالْأَبصارِ».
[ص ٤٥]

مدح آخر .. يمدحه الله تعالى به .. ويشرفه شرفا رفيعا .. « واذكر عبادنا إبراهيم

وإسحاق ويعقوب » وخص بعنوان العبودية لمزيد شرفه .. « أولى الأيدى والأبصار » أولى القوة فى الطاعة ، والبصيرة فى الدين . الايدى : مجاز مرسل عن القوة . والابصار : جمع بصر بمعنى بصيرة . أو أولى الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة . وقيل : الأيدى النعم أى : أولى النعم التى اسداها الله تعالى اليهم من النبوة ، والمكانة . أو : أولى النعم والاحسانات على الناس بارشادهم وتعليمهم إياهم .

فما معنى هذا كله ؟ معناه ان إبراهيم .. عبد لله . وهذه صفة من أعلى صفات إبراهيم .. واذكر عبادنا .. إبراهيم .. الله يقرر انه ارتضى ابراهيم عبدا .. وذلك أعلى مقامات إبراهيم عند ربه . . وليست عبودية إبراهيم كعبودية سائر المؤمنين . . وإنما . . عبودية عليا . . توازى مقام الرجل الذى اتخذه الله خليلا .

ثم ماذا ؟ ثم إبراهيم من أهل القوة فى الطاعة . . من أهل العزم . . من أهل الأرادة التى لاتتقهقر أمام الشيطان .. قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .. ليس للشيطان أدنى تسلط أو تأثير على عباد الرحمن .. فكيف بابراهيم وهو فى القمة من ذلك ؟ ان ارادته جبارة . . خارقة . . ليس للشيطان عليه أدنى سلطان . . فهو إذا جاهد فى الله . . أوأتى بالطاعات .. أو دعا إليه .. أو فعل الخيرات .. أو تقرب إليه .. انطلق قويا .. ذاقوة جبارة ..

ثم ماذا ؟ ثم إبراهيم من أهل الأبصار .. من أهل البصيرة ..ولكن أى بصيرة ؟ بصيرة تتناسب كذلك مع مقامه من ربه .. بصيرة فوق بصائر الرسل جميعا .. والمؤمنين جميعا . . الاخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . . فماذا كان يرى إبراهيم . . بقلبه ؟ كان يرى مايرى .. الله وحده الذى يعلم !!

انا أخلصناهم ؟!

ثم يقول تعالى مباشرة « إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ، ذِكْرَى الدَّار . » [ص ٤٦]
أى جعلناهم خالصين لنا ، بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن، لاشوب فيها ،هى تذكرهم

دائما الدار الآخرة فان خلوصهم فى الطاعة ، بسبب تذكرهم اياها وذلك لأن مطمح أنظارهم، ومطرح أفكارهم، فى كل ما يأتون ويذرون ،جوار الله عزوجل ،والفوز بلقائه . ولا يتسنى ذلك إلا فى الآخرة .

إنا أخلصناهم ؟ ! تعبير لا يصدر إلا عن إله !! إنا نحن الله . أخلصناهم . . جعلنا إبراهيم خالصالنا .. وجعلنا اسحاق خالصا لنا .. وجعلنا يعقوب خالصالنا ..

لماذا ؟! بخالصة .. بصفة رفيعة .. نقية .. نورانية.. لاظلمة فيها .. ماهى هذه الصفة ؟ ذكرى الدار . . دائما يتمركز فى تفكيرهم تلك الدار الآخرة . . يعملون لها ويفكرون فيها . . فهم نوع غير الناس جميعا .. بينما الناس يفكرون فى دنياهم إذا هم يفكرون فى أخراهم .. بينما الناس يركزون اهتمامهم على الحياة الدنيا . . إذا هم همهم كله على الآخرة ..

نوع ؟ .. ياله من نوع ! ..نوع رفيع .. رفيع ..رفيع .. إنهم إبراهيم .. واسحاق .. ويعقوب .. إنا أخلصناهم ؟!

أشهر رجل ؟!

وفى قول للمفسرين : إنا أخلصناهم بخالصة ، ذكرى الدار . . أى المراد بالدار الدار الدنيا ، وبذكراها الثناء الجميل، ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم .. أى إنا اخلصناهم بالذكر الجميل فى الاعقاب أى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

فما معنى هذا ؟ معناه أن الله اختص إبراهيم بشرف لم يختص به أحدا من العالمين .. أن جميع الناس يتنازعون إبراهيم . . ويفتخرون بابراهيم .. ويزعمون الانتساب إلى إبراهيم . . ليمسهم شىء من شرف إبراهيم !! انها الشهرة .. فى الدنيا .. شهرة الخير .. والثناء الجميل .. لاشهره الشر . . والقدح . . واللعن كما هو شأن ابليس . . فان إبليس بلغ من الشهرة حدا بعيدا جدا .. ولكنها شهرة الشر .. واللعنة .. أما إبراهيم .. وأما الناس .. وخليل الله وأبو الأنبياء .. وقدوة المرسلين .. و .. و .. شهرة لم تتحقق لأحد من قبله أو من بعده .

حتى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم الذى قال له ربه : « ورفعنا لك ذكرك » فان

محمدا صلى الله عليه وسلم مشهور عند المسلمين فقط ـ يمتدحونه جميعا ـ وليس هو كذلك عند اليهود والمسيحيين ـ بل ربما لا يحب هؤلاء حتى مجرد ذكره أمامهم ـ أما إبراهيم ـ فصاحب شهرة عند الجميع ـ يحبه ويزعمه اليهود .. والنصارى .. والمسلمون !!!

لماذا ؟ لأنه هو رائد التوحيد ـ له أسبقية زمنية ـ وهذا مشار إليه فى قوله «إنى جاعلك للناس اماما » .. لهم .. كلهم .. مهما اختلفت شرائعهم .. ورسلهم .. إنه رائد الحنيفية .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

انهم عندنا ؟!

ثم يقول تعالى مباشرة : وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » [ص ٤٧]

أى المختارين من بين أبناء جنسهم ـ عنده تعالى . « الأخيار » الفاضلين عليهم فى الخير وهو جمع خير مقابل شر . والجديد هنا هوقوله « عندنا » . لا قوله « لمن المصطفين الأخيار » .. فان كونهم كذلك شىء طبيعى مشهور وانما الجديد هو « عندنا » . .

أى هم قمم عليا فى طبقة الرسل .. وهم كذلك عندنا .. فوق ماهم كذلك فى الدنيا .. لهم عندنا درجات ، فوق درجات ، فوق درجات .

أولو العزم ؟!

قال تعالى : «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولاتستعجل لهم .. »
[الأحقاف ٣٥]

فاصبر كما صبر الرسل الجدون المجتهدون فى تبليغ الوحى ، لايصرفهم عنه صارف . صابرون على أمر الله تعالى فيما عهده سبحانه اليهم ، وقضاءه وقدره عز وجل عليهم بواسطة أو بدونها . وقيل : انهم نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى . . وهذا أصح الأقوال . ويضاف اليه محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا :

أولو العزم نوح والخليـل الممجد
وموسى وعيسى والحبيب محمـد

إذا إبراهيم من أولى العزم من الرسل .. فاذا علم أنه الثانى فى ترتيبهم .. أدركنا مدى ارتفاعه فى هذا المقام .

أولو العزم ! أهل الارادة التى لاتلين فى تبليغ رسالات الله .. إبراهيم .. من هؤلاء .. فهو صاحب إرادة حديدية .. بل فوق ذلك .. ويكفيه فى هذا المقام أنه كان يوما ما .. المؤمن الوحيد فى الكرة الأرضية.. يوم وقف يسخر من أصنامهم ويعلن اليهم أنه وجّه وجهه للذى فطر السماوات والأرض .. يومئذ كان إبراهيم .. وحده هو المؤمن بالله !!! أما جميع سكان هذه الأرض ، فكانوا لايعرفون شيئا عن التوحيد !! ومع هذا .. صبر .. وجاهد حتى انتصر فى نفسه .. وفى ذريته .. وجعله الله بداية شجرة التوحيد فى البشر !!!

فأى ارادة تلك ؟ !

ابراهيم الذى وفّى؟!

قال تعالى : « وإبراهيمَ الذى وَفىّ . » [النجم ٣٧]

« الذى وفى » وفى ، وأتم ، ما أمر به . أو بالغ فى الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى . عن ابن عباس : وفى بسهام الإسلام كلها . ولم يوفها أحد غيره . وهى ثلاثون سهما . منها عشرة فى براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآيات . وعشرة فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الآيات . وست فى (قد أفلح المؤمنون) الآيات . التى فى أولها . وأربع فى سأل سائل (والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات .

والأولى العموم .. ماأمره الله تعالى بشىء الاوفى به وتخصيصه ـ عليه السلام ـ بهذا الوصف لاحتماله مالا يحتمله غيره وفى قصة الذبح ما فيه الكفاية .

فما معنى هذا كله ؟ معناه أن إبراهيم شخصية امتازت انها وفت بكل أوامر الله.. أنها نفس قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » .

مامن شىء أمره الله تعالى به الاجاء بهعلى أكمل وأتم ما يكون التنفيذ .. انه شخصية كاملة .. إنه .. إبراهيم الذى وفّى ؟ !

ملة ابراهيم؟

أو

الحنيفية

أو

أسلوب ابراهيم

لعل هذا الباب هو أخطر أبواب ذلك الكتاب .. ذلك أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم ..وأمرنا نحن كذلك باتباع ملة إبراهيم .. فمن الحتم أن تكون ملة إبراهيم من الخطورة بمكان .. والا لما حتّم الله تعالى اتباعها .

فما هي هذه الملة التي بلغت من الخطورة حدا لم يبلغه سواها ؟!

الله ... يعتبر الراغب عنها ... سفيها ؟!

ويكفي للتدليل على خطورة تلك الملة أن الله تعالى يقول في شأنها : « ومَن يرغَبُ عن ملّةِ إبراهيمَ إلا من سَفِهَ نفسَهُ ، ولقد اصطفيناهُ في الدنيا ، وإنّهُ في الآخرةِ لَمِنَ الصالحينَ . إذْ قالَ له ربُّهُ اسْلِمْ . قالَ : أسلمْتُ لربِّ العالمينَ . ووَصَّى بها إبراهيمُ بَنيهِ ، ويعقوبُ : يا بَنِيِّ إن اللهَ اصطَفَى لكُمُ الدِّينَ ، فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمونَ . »

[البقرة ١٣٠ — ١٣٢]

إن الله تعالى إذن يعلن أن كل من تحول عن ملة ابراهيم فهو سفيه .. أى جعل نفسه مهانة ذليلة أى جهل نفسه لخفة عقله وعدم تفكره أى عرضها بذلك للهلاك .

فما معنى هذا ؟ معناه أن على كل من يحترم عقله ، وعلى كل من له أدنى تفكير أن يتبع ملة ابراهيم في هذه الحياة .. وإلا كان سفيها ، جاهلا بنفسه ، جاهلا بالحياة التى يعيش فيها .. هذا هو البيان الذى أعلنه الله تعالى إلى الناس جميعا .. كل من تحول عن ملة ابراهيم هو سفيه .. هو جاهل .. هو مختل العقل .

ثم ماذا ؟ ثم نجد أمراً أخطر ، وأخطر .. نجد ابراهيم يوصى بنيه بتلك الملة .. ونجد يعقوب من بعده يوصى بنيه بها كذلك .. « ووصى بها إبراهيمُ بنيه ، ويعقوب ..» اذن هذه التوصية هى أغلى وأخطر توصية يمكن أن تصدر من والد إلى أولاده .

لماذا ؟ . لأنها كشاف يكشف لهم معالم السير فى هذه الحياه .. وكيف يسلكون فيها طريقا صحيحا .. وإن أجمل ، وأكمل ، وأثمن ، توصية أن ترشد غيرك إلى طريق السعادة

فى هذه الحياة .. فكيف إذا كانوا بنيك .. أقرب الناس إليك ؟ ابراهيم وصى بها .. بتلك الملة .. بنيه .. ويعقوب وصى بها .. بتلك الملة .. بنيه .

فماذا قال ؟ .. قال : يابنى .. إن الله اصطفى لكم الدين ، فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون. هذه هى التوصية .. فى اختصار .. إن الله اصطفى .. اختار لكم الدين .. اختاره بنفسه .. اختار لكم ملة ابراهيم .. فلا ينبغى أن تعيشوا أو تموتوا إلا وأنتم مسلمون . . منقادون له فى أمره .. وهذا الذى قاله يعقوب .. هوهو نفس الذى قاله من قبل ابراهيم لبنيه ..

ووصّى بها؟! بأى شىء كانت التوصية ؟. بالملة .. التى تلخصت فى الآية التى توسطت هذه الآيات وهى : « إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين » . .هذا هو ملخص تلك الملة .. أمره ربه أن يسلم ، أن يطيع فأطاع .. فى باطنه وظاهره .. هذا هو الإجمال . فأين تفصيل ذلك الأمر الخطير ؟ !

بل ملة ابراهيم ؟!

قال تعالى : « وقالوا : كونوا هُوداً ، أونصارَى ، تهتدُوا ، قل : بلْ مِلَّةَ إبراهيمَ ، حنيفاً ، وما كان منَ المشركينَ . » [البقرة ١٣٥]

« وقالوا : كونوا هودا أونصارى تهتدوا » المراد منها رد دعوتهم إلى دينهم الباطل إثر رد ادعائهم اليهودية على يعقوب — عليه السلام — أى : قال اليهود للمؤمنين : كونوا هودا . وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى و(تهتدوا) جواب الأمر .. أى إن كنتم كذلك تهتدوا . « قل » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . أى : قل لأولئك القائلين على سبيل الرد عليهم ، وتبيين ماهو الحق لديهم ، وارشادهم إليه .

« بل ملة إبراهيم » لانكون كما تقولون ، بل نكون أهل ملته بل نتبع ملة ابراهيم. وجوز أن يكون المعنى : بل اتبعوا أنتم ملته . أو : كونوا أهل ملته .

« حنيفا » أى مستقيما . أو : مائلا عن الباطل ، إلى الحق ويوصف به المتدين والدين. « وما كانَ من المشركين » المقصود التعريض بأهل الكتاب ، والعرب الذين

يدعون اتباعه ، ويدينون بشرائع مخصوصة به ، من حج البيت والختان وغيرها فان فى كل طائفة منهم شركاء .. فاليهود قالوا : المسيح ابن الله والعرب عبدوا الأصنام ، وقالوا : الملائكة بنات الله .

* * *

إذن هناك رفض تام .. من الله .. خالق هذا العالم .. وخالق هذا الانسان .. لتلك اليهودية القائمة فى العالم .. ولتلك المسيحية المنتشرة فى الأرض .. يرفض الله تعالى هذين الدينين المبتدعين .. لا لأن أصولهما باطلة .. كلا .. فقد كانت أصولها حقا .. وانما انحرف بها أهلوها عن الطريق المستقيم .

وقالوا : كونوا هودا .. تهتدوا .. بيان عام من الله تعالى عنهم إلى أهل الأرض جميعا .

سيزعم اليهود فى العالم هذا الزعم : كونوا هودا .. كونوا ياأهل الأرض جميعا يهودا . تهتدوا .. تكونوا بذلك على الحق .. انهم يظنون ذلك .. يظن اليهود فى العالم أن دينهم هو الحق وحده .. فعلى من اراد الهدى أن يتبعه .

ثم ماذا ! ثم يعلن الله تعالى بيانا اخطر إلى أهل الأرض جميعا .

أو نصارى ! أى سوف يقول المسيحيون على مر العصور : كونوا نصارى تهتدوا . انهم يظنون أن دينهم هو الدين الحق .. وأن من أراد الهدى عليه باتباعه !!!

اليهود يزعمون هذا .

والنصارى يزعمون هذا .

وكلهم يدعون الناس إلى هذا ،

فأين الحكم فى تلك القضية الكبرى !

إن الله تعالى يحكم فيما فيه يختلفون .. قل .. بلغ الناس جميعا .. بل ملة إبراهيم .. بل على كل من أراد أن يهتدى إلى الحق أن يتبع ملة إبراهيم . . ان يتبع طريقة إبراهيم . . لاهذه اليهودية القائمة .. التى انحرفت عن سواء السبيل .. ولا هذه النصرانية القائمة .. التى زعمت ان المسيح هو الله ولكن ملة إبراهيم .. ولكن كونوا على ملة إبراهيم تهتدوا .. ان

ابراهيم هو الذى كان على الحق .. ونحن نأمر الناس جميعاً أن يتبعوا طريقته .. ويهتدوا ..

فماهى ملة إبراهيم !

« حنيفا » مائلا عن كل هذه الأباطيل المخترعة ، الى الحق الذى أنزله الله اليه ..

« وما كان من المشركين » .. ما كان من الذين يشركون فى عبادة ربه أحدا .. كما يفعل هؤلاء المنتسبون إليه زورا وبهتانا .

لقد كان إبراهيم مستقيما .. على طريق مستقيم ..

دعوة عامة ؟!

ثم يقول تعالى : « قولوا : آمَنَّا باللهِ ، وما أُنزِلَ إلينا ، وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ ، وإسماعيلَ ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ ، والأسْباطِ ، وما أُوتِىَ موسى ، وعيسى ، وماأوتى النبيونَ من ربهمْ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ منهمْ ، ونحن له مسلمونَ » . [البقرة ١٣٦]

« قولوا » أمر عام إلى الناس جميعا .. عموما .. وإلى المؤمنين .. خصوصا ..

« آمنا بالله » قدم الإيمان بالله لأنه أول الواجبات ، ولأنه بتقدم معرفته تصح معرفة النبوات والشرعيات .

« وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » يعنى الصحف والأسباط جميع سبط ، وهم أولاد إسرائيل وقيل : هم فى أولاد اسحاق ، كالقبائل فى أولاد إسماعيل مأخوذ من السبط ، وهو شجرة كثيرة الأغصان ، فكأنهم سموا بذلك لكثرتهم .

« وما أوتى موسى وعيسى » أى التوراة ، والانجيل وسائر المعجزات الظاهرة بايدى هذين النبيين الجليلين ، حسبما فصل فى التنزيل الجليل ولكون أهل الكتاب زادوا ونقصوا وحرفوا فيهما وادعوا أنهما أنزلا كذلك ، والمؤمنون منكرونه ، اهتم بشأنهما ، فأفردها بالذكر . وبين طريقة الايمان بهما « وماأوتى النبيون » تعميم بعد التخصيص ، كيلا يخرج من الإيمان أحد من الأنبياء ويشمل الكتب والمعجزات .

.. « من ربهم » الضمير للنبيين خاصة .

« لا نفرق بين أحد منهم » كما فرق أهل الكتاب ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، بل نؤمن بهم جميعا .

« ونحن له مسلمون » أى خاضعون لله تعالى بالطاعة ، مذعنون بالعبودية . وقيل : منقادون لأمره ونهيه .

هذا هو البيان العام الذى أعلنه الله تعالى إلى سكان هذه الأرض ليضيء لهم الطريق . ان اليهود يزعمون أن الهدى فى اليهودية . . وان النصارى يزعمون كذلك . . وان الأمر لابد فيه من ميزان يزن الناس به أمورهم .

فكان الميزان . . قولوا . . آمركم أيها الناس جميعا ان كنتم تريدون الهدى حقا أن تقولوا . . آمنا بالله . . آمنوا جميعا بى . . صدقوا بوجودى .. نزهونى عن كل نقص . . وما أنزل الينا .. آمنوا بكتابى الذى أنزلته على محمد .. آخر رسول أرسلته اليكم .. وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .. آمنوا بما أنزل إلى هؤلاء جميعا .. لأن كلمة الحق واحدة . . وهذا كلامى .. وذاك كلامى .. وإنما انزلته فى ازمنة متباعدة لحكمة أعلمها . . والأسباط . . آمنوا بما أنزل على كل نبى كان من انبياء بنى اسرائيل .. انهم جميعا انبيائى ورسلى . . بعثتهم بلا إله إلا الله . . ولاشيء سواها . . وما أوتى موسى . . وآمنوا بكل ما آتيته موسى .. ذلك الذى يتعصب له اليهود .

وعيسى . . آمنوا بكل ما آتيته عيسى . . ذلك الذى افتتن به المسيحيون . . وما أوتى النبيون من ربهم . . ليرتفع هذا الخلاف البغيض بين الناس جميعا . . لانفرق بين أحد منهم .. افرض عليكم أن تؤمنوا بهم جميعا .. ولا يجوز لكم أن تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض . . كما آمن اليهود بموسى .. وكفروا بعيسى .. أو كما آمن المسيحيون بعيسى وكفروا بمحمد .

ونحن له مسلمون .. وأفرض عليكم فى النهاية .. أن تذعنوا لامرى ونهيى .

ماهذا ؟ هذه دعوة عامة من الله .. رب الناس جميعا .. إلى الناس جميعا .. يدعوهم فى أولها أن يؤمنوا بالله .. وفى آخرها أن يسلموا لله فى البداية إيمان به .. وفى النهاية .. بعد

مسير طويل . . تسليم له . . وماهذه النبوات كلها . . على جانبى الطريق الا مصابيح . . تضيء للسائرين طريقهم .. إلى الله .

فلما إذا يختلفون ؟! لماذا يقولون هذا نبي .. وذاك ليس بنبي ؟ لماذا يبددون طاقاتهم فى الهواء ؟ ماالأنبياء إلامصابيح .. تنيرلهم الطريق .. كلهم .. يضيئون على طريق واحد.. ويؤدون عملا واحدا ويقومون بدور واحد . . هو اعانة الذاهبين إلى الله على الوصول إليه تعالى .

إذن تحتم على جميع الناس أن يؤمنوا بهم جميعا . . ليستطيعوا أن يصلوا إلى ربهم .. وأن لايخرجوا عن طريقه الطريق المستقيم .. فيضلوا عن مقصودهم ..

آخر بيان ... إلى البشر ؟!

ثم يقول تعالى : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم بهِ فقد اهتدَوْا ، وان تولَّوْا فإنما هم فى شقاقٍ ، فسيكفيكهمُ اللهُ وهو السميع العليمُ . » [البقرة ١٣٧]

بيان خطير . . خطير . . خطير . . يذيعه الله تعالى . . على بنى آدم جميعا . . حيثما كانوا .. وأينما كانوا .. ومهما كانوا .. وعلى أى عقيدة كانوا .

فإن آمنوا . . فإن صدقوا بمثل ما آمنتم به . . بمثل ما صدقتم به . . فإن آمنوا بالله ، ورسله ، وكتبه ، وأسلموا لله .. فان اعتقدوا بمثل ماتعتقدون ، فان اعتقدوا هذه العقيدة الصحيحة .. التى لاانحراف فيها .. فقد اهتدوا ؟! .. فقد ساروا فى الطريق الصحيح الينا .. فقد عرفوا الطريق .

وإن تولّوْا ؟! .. وإن أعرضوا عن هذه العقيدة .. «فإنهم فى شقاق» أى مخالفة لله تعالى او : منازعة ومحاربة أو : عداوة أى ان اعرضوا عن هذه العقيدة العالمية الجامعة .. فانما اعرضوا عنها لأنهم فى شقاق . لأنهم يريدون أن ينحرفوا عن طريقى .. ولا يرغبون فيه .

فسيكفيكهم الله ؟!

تسلية له صلى الله عليه وسلم . . وتفريج للمؤمنين ، بوعد النصر والغلبة ، وضمان التأييد والاعزاز ، على ابلغ وجه . للسين الدالة على تحقق الوقوع البتة . والمراد : سيكفيك كيدهم ، وشقاقهم ، لأن الكفاية لاتتعلق بالاعيان بل بالأفعال .

هذا اعلان عام من الله تعالى .. لكل سالك فى طريقه .. وكل مؤمن يريد وجهه .. بأنه تعالى سيكفيه أمر الناس جميعا .. مهما كثروا . . ومهما كانت خلافاتهم . . ومهما كانت ظلماتهم لتنقطع بذلك المعاذير .. ويطمئن السالكون إليه .. أنه سبحانه كافيهم أمر الناس جميعا .

وهو نفس الناموس العام : « من يهد الله فلا مضل له .. » ذلك بأن الهدى موضعه القلب .. والقلب لاسلطان لأحد عليه .. « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

ومن هنا كان إبراهيم .. سليم القلب .. والعالم كله مريض القلوب .. وكان قلبه قطعة نور .. وقلوب الناس جميعا ظلمات بعضها فوق بعض .

ومن هنا كان الحساب على أساس القلب .. وليس على أساس شىء غيره . إنما الأعمال بالنيات .. لأن القلب هو الشىء الأوحد الذى لاسلطان للناس عليه .

ومن هنا كذلك لا يؤاخذ الله المكره على كفره .. « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

عدالة الهية عجيبة .. لا يمكن أن تتأتى .. أو تتحقق الا من تصميم وضعه إله !!!

فسيكفيكهم الله .. ليثق كل مؤمن بى .. إيمانا خالصا .. لاشرك فيه .. انى كافيه الناس جميعا .

مهما تكاثروا عليه بظلماتهم ، وافاعيلهم . . فانى كافيه . . لأن قلبه لا يستطيعون الوصول اليه !!!

صبغة الله ؟!

ثم يقول تعالى : « صِبْغَةَ اللهِ ، ومنْ أحسنُ من اللهِ صِبْغَةً ، ونحن له عابدونَ » .
[البقرة ١٣٨]

« صبغة الله » طابع الله ، فطرة الله وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بها عن التطهر بالإيمان ، بمـا ذكر على الوجه الذى فصـل ، لأنه أظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ .

وتداخل فى قلوبهم تداخله فيه ، وصار حلية لهم .

« ومن أحسن من الله صبغة » لاطابع أحسن من طابع الله تعالى « ونحن له عابدون » أى موحدون أو : مطيعون . متبعون ملة إبراهيم . أو : خاضعون ، مستـكنون فى اتباع تلك الملة .

ماهذا ؟ هـذا تأكيد من الله تعالى ، أن ملة ابراهيم هى صبغة الله ، هى فطرة الله ، هى الطابع الطبيعى الذى طبع الله عليه الناس جميعا .. هى النظام الطبيعى .. الذى ينبغى أن يظل الناس عليه .. ولايغيروه .

اذن ملة ابراهيم هى الفطرة .. وهى الطبيعة الاولى للانسان .. وانما الناس حين يمضون فى هذه الحياة .. ينحرفون عنها .

ونحن له مخلصون ؟!

ثم يقول تعالى : « قل : أتحاجُّوننا فى اللهِ ، وهوربُّنا وربُّـكمْ ، ولنا أعمالُنا ولـكمْ أعمالُـكم ، ونحن له مخلصون » .
[البقرة ١٣٩]

« قل أتحاجوننا » أى تجادلونا « فى الله » أى فى دينه ، وتدعون أن دينه الحق اليهودية والنصرانية ، وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما « وهو ربنا وربكم» والحال أنه لاوجه للمجادلة أصلا ، لأنه تعالى مالك أمرنا وأمركم .

« ولنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم » ولنا جزاء أعمالنا الحسنة الموافقة لأمره ، ولـكم جزاء أعمالـكم السيئة المخالفة لحكمه .

« ونحن له مخلصون » فى تلك الأعمال لانبتغى بها الاوجهه ، فأنى لـكم المحاجة ودعوى حقية ما أنتم عليه ؟

أأنتم أعلم أم الله ؟!

ثم يقول تعالى : «أم تقولون انَّ ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارَى ، قل : أأنتمْ أعلمُ أمِ اللهُ ، ومن أظلمُ ممن كتمَ شهادة عندَهُ من الله ، وماالله بغافلٍ عما تعملونَ » . [البقرة ١٤٠]

« قل أأنتم أعلم أم الله » أى لستم أعلم بحال ابراهيم عليه السلام فى باب الدين ، بل الله تعالى أعلم بذلك ، وقد أخبر سبحانه بنفى اليهودية والنصرانية عنه .

« ومن اظلم » انـكار لأن يـكون أحـد اظلم . « ممن كتم شهـادة » ثابتة « عنده » واصلة .

« من الله » اليه .. وهى شهادته تعالى لإبراهيم عليه السلام بالحنيفية ، والبراءة عن اليهودية ، والنصرانية، حسبما تلى آنفا .

والمعنى : لاأحد أظلم من أهل الـكتاب ، حيث كتموا هذه الشهادة ، وأثبتوا نقيضها بماذكر من الافتراء .

أو :لاأحد أظلم منا لو كتمنا هذه الشهادة ، ولم نقمها فى مقام المحاجة وقيل : ومن أظلم من الله ممن كتم شهادة حصلت عنده .

والمعنى : لو كان إبراهيم وبنوه يهودا أو نصارى ، ثم ان الله تعالى كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه ، لـكن كا استحال ذلك مع عدله ، وتنزيهه عالا يليق ، علمنا أن الأمر ليس كذلك .

كان حنيفا ؟!

ويعلن الله تعالى إلى أهل الكتاب بيانا .. أشمل .. وأكمل .. بيانا يرميهم فيه بالجهالة والحماقة .. وانهم لا يعقلون .. إذ لو كانوا يعقلون ماجادلوا فى امر إبراهيم .. ومازعموا . انه كان يهوديا .. او نصرانيا .. خاصة وان التوراة التى هى أساس الدين اليهودى والانجيل الذى هى أساس الدين المسيحى .. انزلت من بعده .

فيقول : « يا اهل الكتاب لِمَ تحاجُّونَ فى ابراهيم وما انزلتِ التوراة والانجيلُ الا من بعدهِ ، افلا تعقلونَ . ها انتمْ هؤلاء حاججتمْ فيما لكم به علمٌ فلِمَ تحاجُّونَ فيما ليس لكم به علمٌ ، واللهُ يعلمُ وانتم لا تعلمونَ . ما كان إبراهيمُ يهوديًّا ولا نصرانيا ، ولكن كانَ حنيفاً مُسْلما ، وما كان من المشركين » . [آل عمران ٦٥ — ٦٧]

« ما كان ابراهيم يهوديا » كما قالت اليهود .

« ولا نصرانيا » كما قالت النصارى . أى من الطائفة النصرانية المخالفة لما جاء به عيسى .

« ولكن كان حنيفا » مائلا عن العقائد الزائغة . « مسلما » منقاداً لطاعة الحق موحدا . لأن دين الإسلام يرد بمعنى التوحيد أى على دين الإسلام الذى ليس عند الله دين مرضى سواه ، وهو دين جميع الأنبياء .

« وما كان المشركين » أى عبدة الأصنام كالعرب ، الذين كانوا يدعون أنهم على دينه . أو : سائر المشركين ليعم أيضا عبدة النار كالمجوس ، وعبدة الكواكب كالصابئة .

لقد كان ابراهيم إذن حنيفا .. مائلا عن كل اتجاه منحرف .. يتجه رأسا .. بدون التواءات .. أو زيغ .. أو ضلالات .. انه كان مسلما .. لأن الإسلام هو الدين الذى شرعه الله لجميع خلقه .. وجميع رسله .. ولا يقبل من أحد دينا سواه .

قال تعالى : « ومن يَبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه ، وهو فى الآخرةِ من الخاسرينَ » [آل عمران ٨٥]

من أجل هذا أمر الله تعالى جميع الناس أن يتبعوا ملة ابراهيم .. فقال :

فاتبعوا ملة ابراهيم ؟!

قال تعالى : « قل صدق الله ، فاتبعوا ملةَ إبراهيمَ ، حنيفاً ، وما كان من المشركينَ . » [آل عمران ٩٥]

« قل : صدق الله » ظهر وثبت صدقه فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم على دين ابراهيم — عليه السلام — . « فاتبعوا ملة ابراهيم » وهى دين الإسلام « حنيفا » مائلا عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق . أو : مستقيما على ماشرعه الله تعالى من الدين الحق . «وما كان من المشركين » فى أمر من أمور دينهم أصلا .

وهكذا يأمر الله تعالى جميع الناس أن يتبعوا ملة ابراهيم .. طريقة ابراهيم .. أسلوب ابراهيم .. فى التوجه إلى الله .. ومعرفة الله .. وعبادة الله .

من أحسن الناس دينا ؟!

قال تعالى : « ومَنْ أحسنُ ديناً ممنْ أسلَمَ وجْهَهُ للهِ ، وهوَ مُحْسِنٌ ؛ واتَّبَعَ مِلةَ إبراهيمَ ، حنيفاً ، واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً . » [النساء ١٢٥]

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله » أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له رباسواه وقيل : أخلص توجهه له سبحانه . وقيل : بذل وجهه له عز وجل فى السجود . والمقصود : مدح من فعل ذلك على أتم وجه . وفيه تنبيه على أن صرف العبد نفسه بكليتها لله تعالى ، أعلى المراتب التى تبلغها القوة البشرية .

« وهو محسن » أى آتٍ بالحسنات ، تارك للسيئات أو : آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق ، الذى هو حسنها الوصفى ، المستلزم لحسنها الذاتى . وقيل : المراد وهو محسن فى عقيدته .

« واتبع ملة ابراهيم » الموافقة لدين الإسلام ، المتفق على صحتها . « حنيفا » مائلا عن الأديان الزائغة « واتخذ الله ابراهيم خليلا » تذييل جىء به للترغيب فى اتباع ملته عليه السلام ، والإيذان بأنه نهاية فى الحسن .

والآن .. يبين الله تعالى لنا أن أحسن الأديان هو دين الإسلام ، الذى ينحصر فى

فى إسلام الوجه لله .. وان أحسن الإسلام هو الإحسان .. وان اتباع ملة ابراهيم .. هو أحسن الطرق .. وأن الحنيفية هى خلاصة تلك الملة .. وأن ابراهيم لسلوكه هذا السلوك . . بلغ أعلى مراتب الوصول إلى الله .. مرتبة الخلة .. فاتخذه الله خليلا .

فما معنى هذا ؟. معناه أن الله تعالى يرشدنا إلى قمة الأمر .. أحسن الأديان .. الإسلام الذى يتلخص فى : أسلم .. قال .. أسلمت .. وهو معنى : أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ .. وأن ذروة هذا الإسلام .. هو إحسان الأعمال .. والإتيان بها على الوجه الأكمل .. وان الطريق إلى هذا كله هو ملة ابراهيم .. هو أسلوب ابراهيم .. هو اتباع طريقة ابراهيم .

وأن خلاصه هذه الملة .. هو .. أن يكون الإنسان حنيفا .. أن يميل عن كل عقيدة زائغة .. وعن كل شىء سوى الله .. ويتجه رأسا الى الله .. مستقيا اليه .

وأن هذا الخط المستقيم هو أقرب الطرق إلى الله .

وأن من سلك هذا المسلك .. واتبع ابراهيم فى هذا الأسلوب .. كان هناك احتمال أن يتخذه الله تعالى خليلا .. أى أن يحبه الله تعالى حبا .. كما أحب ابراهيم .

وهذه الآية هى جماع ملة ابراهيم .. ظاهرها ، وباطنها .. وذروة الدين كله .

والآن .. ماهى ملة ابراهيم هذه التى اعتبرها الله تعالى أحسن الأديان ؟!

هذه هى ملة ابراهيم ؟!

قال تعالى « قلْ إنّنى هدانى ربِّى إلى صراطٍ مستقيمٍ ، ديناً قيماً ، مِلةَ إبراهيمَ ، حنيفاً ، وما كان من المشركينَ . قلْ إنَّ صلاتى ونُسكى ، ومَحيايَ ، ومماتى ، للهِ ، ربِّ العالمينَ . لاشريكَ لهُ ، وبذلك أُمرتُ ، وأنا أوَّلُ المسلمينَ . »

[الأنعام ١٦١ — ١٦٣]

« قل إننى هدانى ربى » أمر صلى الله عليه وسلم بأن يبين ماهو عليه من الدين الحق . الذى يدعى المفرقون أنهم عليه ، وقد فارقوه بالكلية أى : قل يامحمد لهؤلاء المفرقين أو : للناس كافة : أرشدنى ربى بالوحى ، وبما نصب فى الآفاق ، والأنفس من الآيات .

« إلى صراط مستقيم » موصل إلى الحق . « دينا » هدانى . أو: أعطانى . أو: عرفنى

دينا . « قيما » مستقيما « ملة إبراهيم » طريقة ابراهيم . «حنيفا » مائلا عن الأديان الباطلة . أو : مخلصا لله تعالى فى العبادة وهو حال من ابراهيم .

« وما كان من المشركين » إعتراض مقرر لنزاهته — عليه الصلاة والسلام — عما عليه المبطلون . « قل : إن صلاتى » أى جنسها ، لتشمل المفروضة وغيرها .

« ونسكى » أى عبادتى كلها .

« ومحياى ومماتى » أى ما يقارن حياتى وموتى من الإيمان والعمل الصالح . « لله رب العالمين » إذ المراد به الخلوص بحسب الظاهر ، وقيل . المراد به نظرا لهذا الاحتمال أن ذلك له تعالى ملـكا وقدرة . « لا شريك له » أى فى عبادتى ، أو فيها ، وفى الإحياء والإماتة . « وبذلك » أى القول : أو الإخلاص . « أمرت » لا بشىء غيره .

« وأنا أول المسلمين » أى المنقادين إلى امتثال ما أمر الله تعالى به ، وقيل : المستسلمين لقضاء الله تعالى وقدره . والمراد مسلمى أمته كما قيل . وهذا شأن كل نبى بالنسبة إلى أمته .

ماهذا ؟ هذا بيان خطير جدا جدا جدا .. ان الله تعالى يأمر محمدا صلى الله عليه وسلم، رسوله إلى الناس كافة .. إلى يوم القيامة .. والذى لا نبى بعده .. يأمره أن يذيع على كل الناس .. فى كل زمان ومكان .

« قل » آمرك يا محمد أن تذيع على البشرية كلها .. «اننى هدانى ربى».. إننى أنا محمد رسول الله اليـكم كافة .. أعلمكم أن الله هدانى.. بنفسه .. لا باجتهادى .. ولا بعبقريتى .. وإنما هو الذى هدانى .. هو الذى عرفنى .. لأنه ربى .. الذى ربانى.. وتولانى .. ووجدنى ضالا فهدانى .. هو الذى أوحى إلى .. «إلى صراط مستقيم » إلى طريق مستقيم .. لا التواء فيه .. ولا انحناء فيه .. ولا ضلالة فيه .. ولا ظلمة فيه .. وانما مستقيم .. يؤدى اليه مباشرة، ماهو هذا الصراط المستقيم ؟ « دينا » دينا عظيما .. رائعا هو أحسن الأديان واعلاها .. عرفنى ربى دينا ليس كمثله دين .. « قيما » مستقيما .. يؤدى إلى الله مباشرة .

ماهو هذا الدين ، وماهو هذا الأسلوب ، وما هو هذا الطريق ! « ملة ابراهيم » هو طريقة ابراهيم فى التعرف على ربه .. هو أسلوب ابراهيم فى الاتجاه اليه .. والإتصال به .

ولـكن ماهو هذا الأسلوب الابراهيمى ! « حنيفا » مائلا عن كل باطل . متجها الى الحق وحده سبحانه .. مائلا عن كل ماسوى الله .. متجها الى الله مباشرة .. لا يلتفت إلى شىء سواه .. وانما وجهه يوجهه اليه .. « وما كان من المشركين » . . وما كان ابراهيم من المشركين بالله شيئا ما .. قل أو كثر .. وانما اتجاهه اليه تعالى خالصا .

اذن جوهر ملة ابراهيم .. وحقيقتها .. أنه كان حنيفا .. وأنه لم يك مشركا .. حنيفا أى مائلا عن كل ماسوى الله .. متجها اليه مباشرة . . وما كان من المشركين .. لايلتفت بقلبه إلى ماسوى الله .

اذن هو يسقط السوى اسقاطا تاما .. ولايشغل قلبه بشىء سوى ربه .. فهو على صراط مستقيم بيدنه .. ولامجال فى قلبه لغير ربه .. هذا هو جوهر ملة ابراهيم .. هذه هى الملة التى أمر الله تعالى بها جميع أنبيائه ورسله .. وأمر بها جميع المؤمنين من بعدهم إلى يوم القيامة .

وهذه هى الطريقة التى لا يقبل الله من احد سواها .. وهذا هو السبيل الأوحد الذى يوصل اليه سبحانه .. ومن سلك سبيلا غيره انتهى الى شىء غير الله .. انتهى الى لاشىء انه يصل الى اوهام .. اما الله .. فسوف لايجده .. ومن هنا .. ومن هنا وحده .. صدر امر الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة ليعلن الى الناس كافة أنه على هذه الملة.. وعلى هذه الطريقة .. وانه اول من يتجه الى الله عن طريقها ،

ليـكون ذلك امرا ، بالتبعية الى جميع الناس .. ان يتبعوا ملة ابراهيم .. ان كانوا يريدون ربهم .. ويريدون الاتصال به .. ويريدون معرفته .

ومن هنا كان هذا الامر .. اخطر امر صدر من الله الى النـاس جميعاً .. فما هو هذا الأمر ! .

محياى .. ومماتى .. لله ؟!

« قل » أذع يامحمد على البشرية كلها .. « إن صلاتى » إن صلاتى كلها .. فرضا ، تطوعا ، نفلا ..أى صلاة .. أى دعاء .. أى اتصال بالله .. «ونسكى» وعباداتى كلها.. مهما

تنوعت .. ومهما اختلفت .. ومهما ظهرت .. أوبطنت.. كل اتجاهاتى .. كل قرباتى .. كل ماأعبد به ربى .. بل اوسع من هذا .. وأبعد من هذا .. « ومحياى » كل حياتى .. وما يصدر عنها .. « ومماتى » وكل موتى .. ومايصدر عنه .. « لله » وحده ..

لماذا ! .. كل هذا لله . . دون سواه ؟

« رب العالمين » لأنه هورب كل شىء .. وأناشىء من هذه الأشياء التى يتولاها .. ويرعاها .. ويربيها .. فلا ينبغى أن اتجه الااليه .. ولا اعبد إلا اياه ..

ثم ماذا ؟! «لا شريك له» فى عبادتى، أو فى حياتى ومماتى .. «وبذلك أمرت» وبهذا الاتجاه ، وبهذا القول أمرت من الله . . الذى له حق الأمر وحده « وأنا أول المسلمين » وأعلنكم انى أول من يستسلم لأمر الله تعالى .. وينقاد له .

هذا هو آخر بيان . . إن الله يأمر محمدا صلى الله عليه وسلم . . أن يعلن إلى الناس أمرين خطيرين .

الأول . . أن الله هو الذى هداه عن طريق الوحى إلى صراط مستقيم ، وأن هذا الصراط المستقيم هو نفسه الدين المستقيم وأن هذا الدين المستقيم . . هو ملة إبراهيم . . وأن هذه الملة هى الحنيفية . . وتحريم الشرك بالله .

والثانى .. أن على محمد صلى الله عليه وسلم أن يذيع على الناس جميعا أنه سيكون أول من يتبع إبراهيم .. ويسلك ملته . . فيكون بذلك أول المسلمين . . وأن عليه أن يعلم الناس جميعا كيف يكونوا على تلك الملة ، وماهى تفصيلاتها . . وذلك بان يعلن خلاصتها بقول « إن صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين . لاشريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » . .

فمن قال مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتقد مثل عقيدته . . فهو مسلم ، وهو من المسلمين .. وهو على ملة ابراهيم حنيفا .

ان هذا الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، إن هو الا تجديد لملة ابراهيم ، وتوجيه الناس اليها .

واذن هذا الرسول الاخير .. خاتم النبيين .. قدجاء ليجدد ملة ابيه ابراهيم .. ويدعو الناس اليها .

واذن هو أولى الناس بابراهيم . . « ان أولى الناس بابراهيم ، للذين اتبعوه ، وهذا النبي . »

وهذه هى الحنيفية .. أو هذه هى ملة ابراهيم .. أوهذا هو اسلوب ابراهيم .

والآن .. هل كان محمد صلى الله عليه وسلم .. وحده هوالنبي الذى اتبع ملة ابراهيم ؟

يوسف .. يعلن .. اتباعه ملة إبراهيم ؟!

قال تعالى : «.. إنى تركْتُ ملةَ قومٍ لايؤمنونَ باللهِ ، وهم بالآخرةِ ، هم كافرونَ . واتَّبَعْتُ ملةَ آباءى ابراهيمَ ،واسحاق ، ويعقوبَ، ما كانَ لنا أن نشركَ باللهِ من شيء ، ذلك من فضلِ اللهِ علينا ، وعلى الناس ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايشكرونَ . ياصاحبيِ السجن أأربابٌ متفرقونَ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهارُ . مانعبدونَ من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ، ماأنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ ، إن الحكمُ إلا لله ، أمرَ ألّا تعبدوا إلا إياهُ ، ذلك الدينُ القيمُ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايعلمونَ » .[يوسف ٣٧ — ٤٠]

وهذا هو يوسف . . نبى الله يعلن أمورا خطيرة .. يعلن أنه هو نفسه اتبع ملة ابراهيم وان اسحاق اتبع تلك الملة . . وان يعقوب اتبعها كذلك . . وأنه حلقة فى سلسلة ذلك الاتباع .. فهو يوسف ، بن يعقوب ، بن اسحاق ، بن إبراهيم .. وهم جميعا على ملة واحدة.. هى ملة إبراهيم ثم جعل يفصل لصاحبيه تلك الملة . . « ما كان » أى ما ينبغى « لنا أن نشرك بالله من شيء» من شيء ما «ذلك من فضل الله علينا» اشارة إلى عصمته من الزنى ، وعصمته من الشرك ، « وعلى الناس » أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : «ذلك من فضل الله علينا» إذ جعلنا أنبياء « وعلى الناس» إذ جعلنا الرسل إليهم . « ولكن أكثر الناى لايشكرون » على نعمة التوحيد والايمان .

وأقول : ذلك من فضل الله علينا .. أى اعظم فضل أعطانا هو أن علمنا أن لا نشرك به من شيء .. وعلى الناس .. أن يعلمهم أن لايشركوا به من شيء . .

لأن التوحيد هو الحقيقة الأولى التي أن سلمت سلم للانسان كل شيء .. وإن تخلخلت أوشابها شيء... فسد كل شيء !!

ذلك الدين القيم ؟!

إذن التوحيدهو الدين المستقيم..

لماذا ؟ لأن الله يقول :«ذلك الدين القيم ».. أي المستقيم .. «ولكن أكثر الناس لايعلمون » ... وإنما المصيبة أن الاغلبية العظمى من الناس لايعلمون ذلك !!! إذن ملة إبراهيم . . هى ملة الأنبياء جميعا . . والمرسلين جميعا . . هى الطريق المستقيم .. وهي الدين المستقيم .. وهي الاسلوب الذي لا يقبل الله سواه ..

اتبع ملة ابراهيم ؟!

ويقول تعالى :«إنَّ إبراهيمَ كانَ أمَّةً ، قانِتاً للهِ ، حنيفاً ، ولمْ يكُ منَ المشركينَ . شاكراً لأَنْعُمِهِ ، اجتباهُ ، وهداهُ ، إلى صراط مستقيم . وآتيناهُ فى الدنيا حسنَةً . وإنَّهُ فى الآخرة لَمِنَ الصالحينَ . ثم أوحَيْنَا إليكَ أن اتَّبِعْ ملَّةَ إبراهيمَ ، وما كانَ من المشركين.»
[النحل ١٢٠ — ١٢٣]

هكذا .. إبراهيم كان أمة .. إماما .. إنى جاعلك للناس إماما . . لماذا ؟ لأنه كان « حنيفا » و « لم يك من المشركين » . . من أجل هذا كان إماما للناس جميعا . . قدوة لكل البشر إلى يوم القيامة .

ثم ماذا ؟ ثم الله تعالى هو الذى هداه هذا الصراط المستقيم . . اجتباه . . وهداه إلى صراط مستقيم .

ثم ماذا ؟ ثم ماهو أخطر من هذا كله .. أمرٌ صادر من الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم . . « ثم أوحينا إليك أنِ اتَّبِعْ ملَّةَ إبراهيم » . . فالمسألة ليست مسألة خيار .. وإنما هى أمر من الله إلى خاتم النبيين .. ليكون أمرا إلى سائر الناس من بعده .

ثم لماذا ملة إبراهيم وليس غيرها ؟ «حنيفاً» لأنه كان حنيفا .. مائلا عن كل باطل .. متجها إلى الحق وحده .. «وما كان من المشركين» ولأنه لم يشرك بعبادة ربه أحدا .. وهذا هو وجه الخطورة .. ان كل انسان مطالب باتباع ملة ابراهيم .. ومطالب أن يكون حنيفا .. كما كان ابراهيم .. ومطالب ألا يكون من المشركين كما كان ابراهيم. وأن هذا هو الطريق المستقيم .. ولا طريق يتصور غيره .

لماذا حنفاء لله ؟!

قال تعالى : « حُنَفَاءَ للهِ ، غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، ومن يشرك باللهِ ، فكأنما خرَّ منَ السماء فتَخْطَفُهُ الطيْرُ ، أوتهوى بهِ الريحُ فى مكانٍ سَحيق . » [الحج ٣١]

« حنفاء لله » مائلين عن كل دين زائغ ، إلى الدين الحق ، مخلصين له تعالى « غير مشركين به » أى شيئا من الأشياء «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء» شبه الايمان بالسماء لعلوه ، والاشراك بالسقوط منها فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر « فتخطفه الطير » فان الاهواء المردية توزع افكاره ، وفى ذلك تشبيه الافكار الموزعة بخطف جوارح الطير ، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة « أو تهوى به الريح » تسقطه وتقذفه « فى مكان سحيق » بعيد ، فإن الشيطان قد طوح به فى الضلالة .

إذن الانسان الذى لا يشرك بالله انسان عال جدا . . انه فى السماء . . إنه فى قمة الارتفاع .

وهؤلاء الذين يشركون بالله قوم خروا من سمائهم .. فجعلت تتخطفهم الطيور الجارحة أو تتدحرج بهم الرياح إلى مكان سحيق .

انهم عبارة عن جثث ليس إلا .. كهؤلاء الذين يسقطون فى حادث طائرة .. فى مكان مجهول . . انهم يصبحون جثثا تتخطفها جوارح الطير . . أو أشلاء تهوى بها الريح فى أماكن بعيدة مجهولة .

ان الاتجاه إلى الله وحده ، يرفع الانسان .. ويمكنه من التحليق إلى أعلى ، أما الشرك بالله فيحطه ويجعله مجرد جثة .. ميتة .. تتقاذفها الطيور أو الرياح .

إذا الأيمان بالله وحده .. يحيي الانسان .. والاشراك به يميت الإنسان .

إذا التوحيد هو الحياة .. والاشراك هو الموت .

ملة أبيكم إبراهيم ؟!

قال تعالى : « وجاهدُوا فى اللهِ حقَّ جهادِهِ، هو اجْتباكُمْ ، وماجَعَلَ عليكمْ فىالدين منْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ ، هوَ سَمَّاكُمُ المسلمينَ من قبلُ ، وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكُمْ ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاةَ واعتصموا باللهِ ، هو مولاكُمْ ، فنعْمَ المولى ، ونعم النصيرُ . » [الحج ٧٨]

« وجاهدوا فى الله » أى لله تعالى أو : فى سبيله سبحانه والجهاد استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ،وهو ثلاثة أضرب مجاهدة العدو الظاهر كالكفار ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس « حق جهاده » أى جهادا حقا والآية تدل على الأمر بالجهاد ، على أتم وجه ، بأن يكون خالصا لله تعالى ، لا يخشى فى الله لومة لائم وهى محكمة .

« هوا جتباكم » أى هو جل شأنه اختاركم لاغيره سبحانه . فإن علة الأمر بالجهاد ، فان المختار انما يختار من يقوم بخدمته ، ومن قربه العظيم يلزمه دفع اعدائه . ومجاهده نفسه بترك مالايرضاه .

« وماجعل عليكم فى الدين » أى فى جميع أموره ، ويدخل فيه الجهاد « من حرج » من ضيق . بتكليف مايشتد القيام به عليكم ، اشارة أنه لامانع لهم عنه .

« ملة أبيكم إبراهيم » أى وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو : اتبعوا ، أو : الزموا ملة والمراد بالملة امامايعم الاصول والفروع أو : مايخص الأصول . وجعله عليه السلام أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كالأب لأمته من حيث أنه سبب لحياتهم الأبدية أو : لأن اكثر العرب كانوا من ذريته عليه السلام .

« هو » أى الله تعالى « سماكم المسلمين من قبل » أى من قبل نزول القرآن وذلك فى الكتب السماوية ، كالتوراة ، والأنجيل .

« وفى هذا » أى فى القرآن وقيل : الضمير لابراهيم عليه السلام ، تسميته اياهم بذلك فى قوله (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) « ليكون الرسول » يوم القيامة « شهيداً عليكم » أن قد أبلغكم « وتكونوا شهداء على الناس » .

فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فتقربوا اليه تعالى لما خصكم بهذا الفضل والشرف بأنواع الطاعات . وتخصيص هذين الأمرين بالذكر لفضلهما . . « واعتصموا بالله » اى ثقوا به تعالى فى جميع أموركم . « هو مولاكم » ناصركم ، ومتولى أموركم . «فنعم المولى ونعم النصير » إذ لا مثل له تعالى فى الولاية والنصرة فان من تولاه لم يضع ومن نصره لم يخذل . بل لا ولى ولا ناصر فى الحقيقة سواه عز وجل .

وهذا اشارة إلى أن قصارى الكمال الاعتصام بالله تعالى . وتحقيق مقام العبودية ، وهو وراء التسمية والاجتباء .

اذن .. ها هنا أمور .. أن ملة إبراهيم .. ليس فيها حرج .. ليس فيها تضييق .. ليس فيها عسر .. بل هى يسر .. وسهولة .. وفطرة .

وهى نفس الاسلوب الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم .. وقد استفاضت احاديثه بذلك .. وأن إبراهيم هو الذى سمى هذه الأمة .. الأمة الاسلامية .. المسلمين .

وأن محمدا صلى الله عليه وسلم .. على دين ابراهيم .. وعلى ملة إبراهيم .. التى هى دين كل نبى .. وملة كل نبى .

وأن هذا كله اسمه الإسلام .. الذى سمى الله تعالى به آخر دين .. بعث به خاتم رسله «إن الدين عند الله الإسلام » .

الحنيفية ... هى الفطرة ؟!

قال تعالى « فأَقِمْ وجْهَكَ للدينِ حنيفاً . فِطْرَتَ اللهِ ، التى فطَرَ الناسَ عليْها ، لاتبديل لخلْقِ الله ، ذلكَ الدينُ القَيِّمُ ، ولَكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يعلمُونَ » .

[الروم ٣٠]

« وأقم وجهك للدين حنيفا » فعدل وجهك للدين . وأقبل عليه إقبالا كاملا ، غير ملتفت يمينا وشمالا . واصل الحنف الميل من الضلال إلى الإستقامة ، وضده الجنف .
« فطرت الله» أى الزموا فطرة الله أى : اتبع فطرة الله . والفطرة من الفطر بمعنى الإبتداء والاختراع . وفسرها الكثير بقابلية الحق ، والتهيء لادراكه . ومعنى لزومها الجريان على موجبها ، وعدم الاخلال به باتباع الهوى ، وتسويل شياطين الانس والجن .

« التى فطر الناس عليها » لتأكيد وجوب امتثال الأمر . « سألت قتادة عن قوله تعالى : (فطرت الله التى فطر الناس عليها) . فقال : حدثنى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فطرة الله التى فطر الناس عليها دين الله تعالى » والمراد بفطرهم على دين الاسلام ، خلقهم قابلين له ، غير نابين عنه ، ولا منكرين له ، لكونه مجاوبا للعقل ، مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » . والمراد بالناس جميعهم . وقيل : فطرة الله العهد المأخوذ على بنى آدم . ومعنى فطرهم على ذلك ، خلقهم مركوزا فيهم معرفته تعالى ، كما أشير إليه بقوله سبحانه (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) . « لا تبديل لخلق الله » تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى ، أو لوجوب الامتثال به .

والمعنى : لا صحة ، ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى ، بالاخلال بموجبها ، وعدم ترتيب مقتضاها عليها ، باتباع الهوى ، وقبول وسوسة الشياطين .

وقيل : المعنى : لا يقدر أحد أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته عزوجل ، فلا بد من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأسا ، ووضع فطرة أخرى مكانها ، غير مصححة لقبول الحق ، والتمكن من إدراكه ضرورة ، ويحتمل أن يقال : إن الله تعالى خلق خلقه للعبادة وهم كلهم عبيده .

لاتبديل لخلق الله ، أى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للانسان ، فأنه ينتقل عنه إلى غيره ، ويخرج عن ملكه بالعتق ، بل لاخروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال ، وإذا كمل العبد بها لا يبقى عليه تكليف . « ذلك » إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له . أو: إلى لزوم فطرة الله تعالى . « الدين القيم » المستوى الذى لاعوج فيه ، ولاانحراف عن الحق بوجه من الوجوه .

« ولكن أكثر الناس لايعلمون » ذلك فيصدون عنه صدودا . وقيل : لاعلم لهم أصلا . ولوعلموا لعلموا ذلك .

ماهذا ؟ هذا مستوى أعلى .. وأعلى .. وأعلى .. من كل ما سبق .

إن الله تعالى هنا يكشف لنا الغطاء عن أسرار عليا .. ويكشف عن أعيننا تلك الحجب .

فأقم وجهك للدين حنيفا .. اتجه إلى هذا الدين .. إلى هذا الاسلام .. حنيفا .. ومل عما سواه .. أى اتجه إلينا رأسا .. مباشرة .. ومل عما سوانا .

لماذا ؟ . « فطرت الله التى فطر الناس عليها » .. لأننى حين خلقت عبادى خلقتهم حنفاء كلهم .. خلقتهم لى .. ليعبدونى .. ليكونوا عبادا لى .. خلقتهم مستعدين لمعرفة ربهم .. كل الناس فطرتهم .. بدأت خلقهم مستعدين لادراك ذلك .

ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الانسان خلق موحدا لله ، عارفا له . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا اذن تضل الكثرة الغالبة من الناس عن ربها وتكفر به ؟.

اليك سر الأمر كله.. إن الله تعالى فطر الانسان مستعدا للحق .. خلق الناس جميعا حنفاء.. أى موحدين لله .

هذا هو الناموس الذى يخلق الله جميع الأطفال عليه .

إن جميع الأطفال فى العالم يخلقون وفى تركيبهم العبودية لله ، وفى أعماقهم :لا إله إلا الله. هذه هى القطرة التى فطر الناس عليها .

ثم ماذا يحدث ؟ . يحدث الانحراف من آباء الأطفال وأمهاتهم . وموجهيهم ..فأبواه

يهودانه .. أو ينصرانه .. أو يمجسانه .. فمن كان أبواه يهوديين ما زالا به .. يدفعانه إلى اليهودية .. حتى يعتقدها .. وتحجب فطرته بذلك .. ومن كانا نصرانيين .. مازالا .. يدفعانه إلى المسيحية .. حتى يعتقدها .. وتحجب فطرته بذلك .. ومن كان مجوسيا .. كذلك .. ومن كان شيوعيا .. كذلك .. ومن كان لادينيا .. كذلك .. ومن كان على أى عقيدة .. غير الاسلام .. يصنع بأطفاله كذلك .. وتحتجب الفطرة التى فطر الله الأطفال جميعا عليها بذلك !!

هنا العقدة .. هنا الجريمة .. فحين يقول الله « فأقم وجهك للدين حنيفا » .. إنما يأمر الإنسان أن يتجه إلى فطرته .. أن يتلاقى مع فطرته .. حين يأمرك بالإسلام .. وبالاقرار بأن لا إله إلا الله .. انما يأمرك أن تتلاقى مع الحقيقة التى فطرك عليها ..

أن تنمى فطرتك التى فطرك عليها .. فالاسلام إذا دين الفطرة .. ليس فقط فى الانسان .. وانما فى كل شىء .. وله أسلم من فى السماوات ومن فى الأرض .. فكأنك حين تسلم .. إنما تتلاقى مع فطرتك .. وتتلاقى كذلك مع فطرة الخلائق كلها .. إنما تتساوق ، وتتماوج ، وتنسجم .. مع أنغام الكون كلها .. التى تسبح بحمد ربها .. « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » !!

« لاتبديل لخلق الله » أى لاتغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها ، ولا لفطرة الخلائق التى خلق الأشياء عليها .. الناس جميعا خلقوا عبادا لله .. وكل شىء خلق عبدا لله. « إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » .

العبودية ناموس عام ينتظم كل شىء .. الناس .. فمن سواهم .. العبودية شىء فطر الله عليه كل شىء .. ولاتبديل لهذا الناموس .. فمن تساوق معه .. وانتظم عليه فقد فاز .. وأحسن إلى نفسه .. ومن خرج على هذا الناموس .. وخالفه .. فقد خسر نفسه .. وأهلكها ..

ذلك الدين القيم » ذلك الدين المستقيم .. ذلك وحده هو الحق .. وماسواه انحرافات لاتؤدى إلى شىء .. ولكن أكثر الناس لايعلمون .. ولكن المصيبة أن الناس محجوبون عن تلك الحقائق البسيطة .. لايدركونها .. وإن أدركوها لا يصدقونها !!

إذن هذا الدين .. المسمى بالإسلام .. هو فطرة الله التى فطر الناس عليها .. وإذن هذه الملة .. ملة ابراهيم .. هى فطرة الله فطر الناس عليها .. لأن الإسلام هو ملة إبراهيم .

وإذن الأنبياء جميعا .. دعوا الناس إلى فطرتهم .. وجاءوهم ينبهوهم .. ويذكروهم أن لا إله إلا الله .. مركوزة فى تكوينهم .. وما عليهم إلا أن يستجيبوا لها .. ويتلاقوا معها .

وإذن السعادة كل السعادة أن ينسجم الإنسان مع فطرته .. ألاّ يبدل فطرته .. لأنه لاتبديل لخلق الله .

والشقاء كل الشقاء أن يتصادم الإنسان مع فطرته .. أن يبدل خلق الله .

وإذن ملة ابراهيم هى طريق السعادة .

وأن هذا الإسلام الذى يتطابق مع هذه الملة .. هو طريق السعادة كذلك .. والآن نلقى هذا السؤال ؟.

ماهى ملة ابراهيم ؟!

هل هى شىء كهنوتى ، لاهوتى ، يحتاج إلى صفوف متراصة من الطقوس ،والالغاز؟ كلا .. بل هى شىء بلغ من البساطة حدا لا يتصوره إنسان .

إن ملة ابراهيم .. باختصار .. هى الفطرة .. التى فطر الله الناس عليها .. فما هى هذه الملة إذا ؟ .

هو الاتجاه المباشر إلى الله .. دون وساطة .. ودون حجب .. ودون شفعاء .. ودون اضرحة .. ودون أولياء .. ودون أى شىء .

مامعنى هذا ؟ معناه أن ننظر ماهى فطرة الخلائق ؟ ماهى فطرة العصفور مثلا إذا أراد أن يسبح ربه ، أو يسأله ؟ .

ومعلوم أن العصافير تسبح ربها وتسأل ربها بنص قوله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » وقوله « يسأله من فى السماوات والأرض .. »

ماهى فطرة هذا العصفور إذا أراد أن يسبح ربه ، أو أراد أن يدعوه ؟ .

هل يذهب العصفور يلتمس له صنما يتوسل به ؟ أوعصفورا أكبر يتقرب به إلى ربه ؟ أوعصفورا ميتا يتشفع به إلى الله ؟

أو ماذا يفعل ؟ إنه يفعل شيئا عجيبا .. تمليه عليه فطرته .. وتوحيه إليه غريزته .

إذن ماذا يفعل ؟ انه يتجه رأسا إلى ربه .. يتجه مباشرة إلى خالقه .. فتراه يسبحه .. ويسأله .. ويدعوه .. بلا وسطاء .. وبلاشفعاء .. وبلا أصنام .. وبلا أضرحة .. وبلاأولياء يقربونه إلى ربه .

هذه هي الفطرة .. هذه الأعداد التي لاحصر لها من الطيور ، والحيوانات ، والحشرات .. كيف تسبح ربها ، وكيف تسأله ؟ . لاشيء هناك .. إلا أنها تتجه رأسا إلى ربها .. مسبحة ، أوسائلة .. لاشيء إلا أن توجه قلوبها اليه سبحانه .. لاشيء إلاأنها تحقق الحنيفية .. إلاأن تميل عن كل شيء .. وتتجه إلى ربها مستقيمة .. مباشرة .

وكذلك الملائكة .. وكذلك مالانعلم من خلق الله .. تتجه إلىربها مباشرة .. بلاوسائط .. وبلا حجب .. وبلا شفعاء .. إلا هذا المخلوق المسمى بالانسان .. فقد بلغ من الحماقة ، والجهل ، والاظلام .. حدا .. جعله يتصور .. ويعتقد .. أنه كي يتصل بربه .. لابد لهمن كهنونية .. وطقوس .. والتواءات لا أول لها ولا آخر .. فتارة يتخذ أصناما .. لتقربه إلى ربه .. وترفع حاجته إلى الله .. وتارة يتخذ الموتى .. وسطاء بينه وبين الله .. ويختار هؤلاء الموتى من الأولياء الصالحين .. ليستطيعوا أن يقربوه إلى الله .. لقربهم هم من الله .. وتارة يتخذ مقابر هؤلاء الموتى ، واسطة بينه وبين الله .. ويتصور أنها رافعة حاجته اليه .. وتارة يتخذ رجال الدين ، من قسيسين ، ورهبان وأحبار .. واسطته إلىالله ، ليرفعوا حاجته اليه .. ويتوسطوا لهلديه ليغفرله ، ويستجيب لحاجته .. وتارة .. وتارة .. إلى آخر هذه السلسلة من الظلمات .. والانحرافات .. والأوهام !!!

لماذا هذا ؟ لماذا هذا كله .. وقد أعلنها الله على لسان رسلهجميعا .. أنه قريب منهم وأن الاتصال به لايحتاج إلى أكثر من مجرد التوجه اليه .. مجرد أن تريده هو سبحانه .

وليسمع العالم اجمع قول ربهم تبارك وتعالى : « ولقدْ خلقنا الإنسان ، ونعلمُ ماتُوسوسُ به نفسُه ، ونحنُ اقربُ اليهِ من حبْلِ الورِيدِ » . [ق ١٦]

إذن هو سبحانه اقرب إلى الإنسان من هذا الشريان الذى يخرج من قلبه ويوزع عليه دم الحياة .. إذن هوسبحانه أقرب إلى الإنسان من قلبه .. إذن هوقريب جدا إلى الإنسان .. قريب قربا فوق مايتصور هذا الإنسان ..

ويعلنها تبارك وتعالى لتذاع على الناس جميعا .

«وإذا سألكَ عِبادِى عَنى، فإنى قريبٌ ، أُجيبُ دَعْوَةَ الداعِ اذا دَعانِ، فليسْتجيبوا لِى ، وَلْيُؤ منوا بى لعلهم يرشدون . » [البقرة ١٨٦]

انه قريب جداً جداً .. منك .. كما قال .. « أقرب اليه من حبل الوريد » .. أقرب اليك من نفسك .. اذن ما عليك اذا أردت أن تتصل به الا أن تتجه بهذا القلب اليه حينئذ تجده فورا .. ما عليك الا أن تتجه اليه سبحانه مباشرة .. أن توجه قلبك اليه مباشرة .. حينئذ سوف تجده مباشرة .. بدون وسائط .. بدون التواءات .. بدون شفعاء من الأموات أو الأحياء .. مباشرة .. حنيفا .. متجها اليه مستقيما .

هذه هى ملة ابراهيم .. أو أسلوب إبراهيم .. أو طريقة إبراهيم .. التى هى ملة الانبياء جميعا .. وهذا هو الطريق المستقيم .. وهو الطريق الاوحد المؤدى إلى الله .

وهو الطريق الذى فطر الله تعالى الإنسان عليه .. وفطر جميع خلقه عليه وهو الفطرة التى تجدها فى الاطفال .. يتجهون إلى ربهم مباشرة ، لايعرفون وسائط ولا شفعاء .. وهو أبسط طريق .. وأقصر طريق .. وأسهل طريق .

لايكلف الإنسان شيئا .. ولا يدفع فيه مليما .. ويحفظ عليه كرامته .. ويحفظ عليه عزته .

فما للناس عن هذا يعرضون ؟! ويستبدلون به أوهاما من صنع انحرافاتهم ؟!

ويوم يعرف الناس هذا الاسلوب .. اسلوب ابراهيم .. فقد عرفوا ربهم .. وادركوا دينهم الحق .. وتحرروا من أوهامهم .. وارتفعوا بانسانيتهم إلى مقامها الطبيعى .

وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ؟

لا ينال عهدى الظالمين ؟!

قال تعالى : « قال : إنى جاعلُكَ للناس إماماً ، قالَ : ومن ذُرِّيَّتى ، قالَ لا ينالُ عَهْدِى الظالمينَ . » [البقرة ١٢٤]

« قال » إبراهيم . « ومن ذريتى » الذرية نسل الرجل وأصلها الاولاد الصغار ، ثم عمت الكبار والصغار ، الواحد وغيره . « قال » الله .

« لا ينال عهدى » لا ينال الإمامة ، وليست هى هنا الا النبوة . وآثر النيل على الجعل إيماء إلى أن إقامة الانبياء من ذريته عليه السلام ليست بجعل مستقل بل هى حاصلة فى ضمن امامته ، تنال كلا منهم فى وقته المقدر له .

« الظالمين » المتبادر من الظلم ، الكفر ، ويؤيده قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون) .

ماهذا ؟ إن الله ينبىء إبراهيم انه جاعله للناس إماما .. أى قدوة يهتدى بها .. فيسأل إبراهيم : ومن ذريتى ؟ أتجعل كذلك أئمة من ذريتى ؟ إن ابراهيم يعلم أنه يوما ما سيموت.. وهو يخشى أن تنقطع النبوة بموته .. ويريد أن يطمئن على امتدادها .

فماذا كان جواب رب العالمين ؟ لا ينال عهدى الظالمين ..لا تنال تلك الامامة من كان ظالما من ذريتك ياإبراهيم .. وذلك أعدل .. وأدق .. مقياس .. يقرره الله تعالى .

ليس الأمر إذا فوضى .. ولا مجرد انتساب إلى إبراهيم .. كلا .. بل لا بد من الاستعداد والمعدن الطيب .. والجوهر النقى .

لا بد أن يكون طاهرا مطهرا .. ليس به أدنى أثارة من ظلم أو اظلام .. وبذلك يكون النبى الذى يختاره الله من ذريته مستعدا لحمل الأنوار الالهية .. والاشراقات الربانية .

هو في ذاته نور .. والوحى ينزل عليه نور .. فالأمر نور على نور .. أما من كان

مظلما .. معدنه سيئا .. ظالما لنفسه .. أو غيره .. فى سلوكه .. فذلك لن تناله النبوة .. ولن يناله عهد الله .. وبذلك تقرر أعظم ناموس .. ناموس النبوة فى ذرية إبراهيم .

صحيح أن الله تعالى حصر النبوات فى ذريته .. ولكن ليس على اطلاقها .. وإنما سوف تصيب من كان أهلا لها . وبذلك يخرج من ذرية إبراهيم .. من كان ظالما . والظلم هنا ما بين أدنى ظلم يكون من الانسان .. إلى أعلى مستوى من الظلم يكون منه . . وهو يقع ما بين هاتين فالكفر أعلى مستوى فى الظلم .. «والكافرون هم الظالمون» والشرك من وراءه .. «إن الشرك لظلم عظيم» . ثم بعد ذلك تأتى مستويات متفاوتات من الظلم .

حتى تتناهى الى صغار الذنوب .. التى تقع من الانسان .. كل ذلك ظلم .. وظلمات .. لأن الظلم ظلمات .

والمطلوب فى الشخص الذى يمكن أن يكون نبيا .. أن يكون بعيدا كل البعد عن الظلم فى شتى مستوياته .. فلا يصلح للنبوة من كان كافرا .. لأن الكفر تمام الظلم .. فكيف يضيء للناس من كان هو فى نفسه مظلما اظلاما تاما ؟

والشرك ظلم عظيم . . فكيف يدعو الناس إلى التوحيد من هو فى ذاته مشركا بالله ؟

والمعاصى كلها ظلم على نسب متفاوتة .. فكيف يدعو الناس إلى التطهر من كان هو فى نفسه غير طاهر ؟

من هنا . . حرمت النبوة . . وحرمت الإمامة .. على كل من كان به ظلم .. كبير .. أو صغير .

وصار ناموسا إلهيا مقررا . . لاينال عهدى الظالمين .. لن تنال النبوة . . لن يكون اماما من كان ظالما ..

وهذا الناموس شيء تقرر وتحقق .. فلن تجد نبيا من ذرية إبراهيم .. أوغير إبراهيم .. إلا وكان قبل النبوة معدنا طاهرا .. نقيا .. بعيدا بعدا تاما عن الظلم .. بانواعه كلها ..

لاينال عهدى الظالمين ؟!! ماأشد لألائها . . واعلى نورها . . وأصدق ناموسها !!!
لا .. ولن .. ينال عهده سبحانه الظالمين .. لابد من الاستعداد .. حتى إذا جاءت النبوة .. كانت شيئا طبيعيا .. تتلاقى انوارها مع انوار قلوبهم الشريفة .

لا بد أن تكون قلوب أولئك الانبياء أجهزة — ان صح ذلك التعبير — صالحة لاستقبال الاذاعات الالهية — ان صح ذلك التعبير كذلك — وإذا عتها على العالم ..

فكل نبي .. هو فى ذاته .. وقبل أن يكون نبيا .. معدن طاهر ..طيب .. منير.. وسلوك رفيع .. وأخلاق عظيمة .. قبل أن يختاره الله لرسالته ..

وادركها إبراهيم.. ووعاها .. وعلم منها أن الله جاعل فى ذريته النبوة .. إلا أنها محرمة على الظالمين من ذريته .

وسوف نرى .. ونحن نجوس خلال تلك الشجرة الطيبة .. شجرة النبوة .. كيف أن الله تبارك وتعالى اختار لنبوته أشخاصا دون أشخاص .. فنسأل لماذا هذا دون غيره ؟ فلا يكون الجواب الا : لأن هذا هو المعدن المؤهل لتلك النبوة .

لماذا يوسف دون اخوته الاحد عشر ؟ لأن يوسف هو المعدن الكريم من دونهم أجمعين ولقد تبدى ذلك واضحا .. خلال قصته معهم ..

وقالوها فى نهايتها .. « .. تالله لقد آثرك الله علينا .. » !!! [يوسف ٩١]

وأدركوها .. وعلموا أن النبوة استعداد .. وأنهم كانوا ظالمين . . فمن أجل هذا حرموها .. وأعطاها الله يوسف .. من دونهم .. عن استحقاق .. وعن جدارة ..

وحسبه أن سيد الرسل شهد له بذلك فى حديثه «إن الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف ، بن يعقوب ، بن اسحاق ، بن إبراهيم »!..

هو اذن الكريم . . المعدن الكريم من بين اخوته اجمعين . . ومن أجل هذا آتاه الله .. أو آثره .. بلغة اخوته .

ولكن على اى قاعدة ؟ ! قاعدة العدل الالهى . . الناموس الالهى الخالد . . لا ينال عهدى الظالمين .. وفى هذا رد على أولئك الذين يتخذون انتسابهم إلى السلالة النبوية الطاهرة راسما لهم .

لعلهم يدركون أن الإمامة محصورة فى العدول .. ومحرمة على من كان ظالما .. ولو أدنى ظلم .

لماذا اشعاع النبوات ؟!

قال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ، مُبَشِّرِينَ ، وَمُنذِرِينَ ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ، مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » .

[البقرة ٢١٣]

« كان الناس أمة واحدة » أمة واحدة ضالة .. كانوا كفارا .. كانوا جميعا فى ظلمة .. فأراد الله تعالى أن يرحمهم .. ويرسل اليهم من نوره ..

« فبعث الله النبيين » أرسل هؤلاء النبيين تباعا .. « مبشرين » من آمن بالنبوات «ومنذرين» من كفر بالعذاب وهم كثيرون .

« وأنزل معهم الكتاب » والكتب المنزلة مائة واربعة فى المشهور « بالحق» متلبسة بالحق « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » أى فى الحق الذى اختلفوا فيه ، بناء على أن وحدة الأمة بالاتفاق على الحق وإذا فسرت الوحدة بالاتفاق على الجهالة والكفر فالمعنى : فيما التبس عليهم « وما اختلف فيه » أى فى الحق ، أوفى الكتاب المنزل ، متلبسا به بأن حرفوه ، وأولوه بتأويلات زائغة .

« إلا الذين أوتوه » أى الكتاب المنزل لازالة الاختلاف ، وازاحة الشقاق ، أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ماأنزل مزيحا للاختلاف سببا لرسوخه واستحكامه .

« من بعد ماجاءتهم البينات » أى رسخت فى عقولهم الحجج الظاهرة الدالة على الحق « بغيا بينهم » البغى ، الظلم ، أو الحسد ـ وفيه اشارة إلى أن البغى قد باض وفرخ عندهم فلا مطمع له فى غيرهم ـ ومنشأ ذلك مزيد حرصهم فى الدنيا ، وتكالبهم عليها .

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » أى بأمره وتوفيقه وتيسيره والضمير عام شامل للمختلفين السابقين واللاحقين والقرينة على ذلك عموم الهداية للمؤمنين

السابقين على اختلاف اهل الكتاب ، واللاحقين بعد اختلافهم « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وهو طريق الحق الذى لا يضل سالكه .

إذن هذه البشرية كانت أمة واحدة . . أى متفقة كلها على الضلالة . . والظلام . .

وليس هذا شيئا كان ومضى .

بمعنى أن البشرية كانت ضالة فيما مضى ، وفى عهود انحطاطها .. وأنها الآن اصبحت رشيدة .. عارفة للحق .. مدركة لربها .. أو أنها كلما ارتقت .. فى مستقبل الأيام .. سوف تعرف ربها أكثر كلا .. بل ان الأمر ناموس عام.. خالد .. مقرر.. لاتغييرله ولاتبديل..

« كان الناس أمة واحدة » .. كانوا .. وما زالوا .. وسوف يكونون .

أمة واحدة .. كلهم ضالون .. حائرون .. مظلمون .

ومن كان فى شك من هذا القانون .. فلينظر إلى الكرة الأرضية .. وليشر بأصابعه.. إلى الذين عرفوا ربهم . . فى هذه الحياة القائمة على الأرض . . وكم يبلغ عددهم ؟! آحاد .. عشرات .. ألوف .. بضعة ملايين ؟! وأين هذه الارقام .. بالنسبة إلى سكان هذه الأرض من الناس الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف مليون ؟ كان الناس أمة واحدة ؟! كانوا .. وما زالوا.. وهكذا سيكونون فى مستقبل الأيام .. ولينظر من شاء إلى تلك الملايين الكافرة بربها .. أولئك الشيوعيين . . فى انحاء العالم . . ليدرك صدق الناموس الالهى « كان الناس أمة واحدة » .

لماذا هذا ؟ لماذا دائما .. هذا الإنسان .. يتمتع بالجهل التام . والظلام العام ؟ لأنه يعتمد على العقل وحده .. والعقل أداة تصلح للهدى وتصلح للضلال .. ومركب تركبه إلى الكفر .. كما تركبه إلى الإيمان .

وكأين من عالم خطير .. فى الذرة .. أو فى ابحاث الفضاء .. وهو جاهل بربه لا يعتقد له وجودا .. ولا يرجوله وقارا ؟!!

فما تفسير ذلك ؟ لماذا لم يهده عقله الكبير . . الذى برع فى علوم خطيرة كتلك العلوم ؟ الجواب : لأن العقل وحده قاصر عن بلوغ الحقيقة من أسرار الحياة الكبرى !

العقل حدوده عالم المادة.. يبحث ويسخر ، ويبدع فيها ..أما الله الذى هو وراء تلك المادة.. فيقف العقل حياله لايدرى شيئا . . يقف فى اظلام تام إلا أن يبعث الله له خلال تلك الظلمات نورا من عنده .

هنالك يدرك ذلك العقل مالم يكن يدرك ، ويعلم مالم يكن يعلم . . هنالك يرى افعال الله .. ويدرك الحقيقة من هذه الحياة كلها .

« كان الناس أمة واحدة » .. كل الناس مظلمون .. عاجزون .. حائرون .. بعقولهم وحدها .

إلا أن أبعث إليهم نورا من عندى .. ولذلك قال تعالى مباشرة ..

« فبعث الله النبيين » .. من أجل ذلك .. بعثت إليهم النبيين .. أرسلت إليهم تلك الانوار . . تلك النبوات .. أرسلت إليهم اشعاعا من عندى .. نورا يكشف لهم الحجب .. ويريهم الحق من أمرى .

«مبشرين ومنذرين» .. وحددت لهم رسالتهم .. أن بشروا من أطاع بالجنة .. وانذروا من عصى بالنار .. هناك اذن حياة أخرى وراء هذه .. هناك أمور لاسبيل للعقل وحده أن يدركها .. إلا أن ارسل إليه نورا من عندى .

« وأنزل معهم الكتاب بالحق» .. وأنزل مع هؤلاء النبيين كتبا تنطق بالحق .. وتبينه .. وتوضحه .. « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » من شئون حياتهم كلها .

هناك طوفان .. سيال .. لايتوقف من الخلافات الفكرية .. فى البشر جميعا .. فلا بد من ميزان يزنون به افكارهم .. ليعرفوا باطلها وحقها .

وتلك رسالة الرسل ، ومهمة الكتب التى أنزلناها معهم .

ثم عاد فبين أنه لايستفيد من تلك الموازين .. الا الذين آمنوا .. الا الذين استضاءت قلوبهم بانوار الله .

أولئك وحدهم هم المستفيدون من تلك النبوات .. ومن تلك الكتب .. أما الذين لم يؤمنوا .. فهى عليهم عمى .. ودليل ذلك أنك تجد اكبر الخلافات ، وأعمقها ،

وأكثرها تعقيدا ، ورسبا فى النفوس ، فى أولئك العلماء ، الذين درسوا ، وأحترفوا مهنة الأديان ، تراهم يختلفون ، ويتراشقون ، لا لشىء إلا ليبغى بعضهم على بعض ، ويتعالى بعضهم على بعض .. طلبا للدنيا .. لا طلبا للحق فى ذاته .. « وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم » .

وكان الظن أن يكون علماء الأديان ابعد الناس عن الخلاف، فاذا بهم عكس ذلك .. إذا بهم اكثرهم خلافا .. وأشدهم عداء !! إنه الانسان .. هناك استحالة أن يهتدى إلى الحق .. مالم ينزل عن هواه .. ويستنير بنور الله وحده .

فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه .. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

والآن .. لماذا النبوات ؟ لتكون نورا .. يضىء للناس كافة الطريق إلى ربهم . وبغير هذا النور الإلهى .. لايستطيع العقل وحده أن يبصر الأمر على حقيقته .

ومن هنا ندرك خطورة تلك السلسلة من النبوات التى جعلها الله تعالى فى ذرية ابراهيم .

وتلك السلسلة من الكتب السماوية التى أنزلها على من بعثه من النبيين من ذريته .

إنها اشعاعات لازمة للبشرية .. لازمة لعقولها .. كى تستنير بها .. وتدرك موقفها من ربها .. ومن هذه الحياة .

هل الرسل سواء ؟!

كلا .. ليسوا سواء .. واليك الدليل .

قال تعالى . « تلكَ الرسلُ ، فَضَّلْنا بعضَهُمْ على بعض ، منهم من كَلَّمَ اللهُ ، ورفَعَ بعضَهُمْ درجاتٍ ، وآتَينا عيسى بْنَ مريَمَ البيناتِ ، وأيدْناه برُوحِ القُدُسِ .. »

[البقرة ٢٥٣]

ليسوا سواء .. هؤلاء الرسل العظام .. ولابد أن يكونوا كذلك .. وان الحكمة

لتتلألأ فى تفضيلهم أ كثر مما تتلألأ فى اتحادهم فى الدرجة والفضل .. هم يتفاضلون .. وهم يتفاوتون فى الدرجات .. ولكنهم جميعا .. سلسلة .. وثمار .. وأنوار .. وأزهار .. لتلك الشجرة الطيبة .. شجرة ابراهيم .. شجرة المرسلين .

ولقد تلألأ فضل الله العظيم ، عليهم ، فيهم .. فآتاهم ماشاء .. وفضلهم بما شاء .. وبعثهم لمن شاء .. وارسلهم متى شاء .. ورفعهم كيف شاء .. وأيدهم بما شاء .. وابتلاهم بماشاء .. فكانوا جميعا رحمته المهداة إلى خلقه .. ونوره الموهوب إلى عباده .

إلا أنهم أولا .. وقبل كل شيء .. فروع من شجرة أبيهم .. ابراهيم .

فأى بركات أعطاك ربك فى ذريتك .. ياابراهيم ؟!

وأى رحمات .. تنزلت على النبيين من ذريتك ؟ .

وأى فضل آتاك .. فيهم .. يا ابراهيم ؟!

هل نفرق بين أحد من رسله ؟!

كلا .. ثم كلا .. لانفرق بين أحد من رسله .. وإليك الدليل .

قال تعالى : « آمَنَ الرسولُ بما أُنزلَ إليه من ربِّهِ ، والمؤمنونَ ، كلٌّ آمَنَ باللهِ ، وملائكتهِ ، وكتبهِ ، ورُسُلِهِ ، لا نُفَرِّقُ بين احدٍ من رسُلِهِ .. »

[البقرة ٢٨٥]

إذن نحن نؤمن بجميع الرسل .. نحن لانفرق بين أحد من رسله .. نحن لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض .. كلا .. وإنما اتجاه عام .. اتجاه عالى .

نحن نؤمن بالرسل جميعا .. من آدم حتى محمد .. عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لماذا ؟ لأنهم جميعا جاءوا بكلمة واحدة .. لااله إلاالله .. لأنهم جميعا أرسلوا من إله واحد .. فمن آمن بذلك الإله .. وجب أن يؤمن برسله إلى الناس .. وإلا فهو مكذب به سبحانه ... وإذا علم أن جميع الأنبياء بعد ابراهيم من ذرية ابراهيم .. أمكننا أن ندرك إلى أى مدى نحن نؤمن بابراهيم .

فنحن لا نؤمن بابراهيم فى ذاته .. ونقف بعد ذلك .. بل نحن نؤمن به فى تفصيله .. فى تسلسله فى البشرية .. فى أولئك الذين من ذريته .. فى النبيين من بعده .. الذين هم ابعاضه .

فنحن آمنا بابراهيم كفرد .. وآمنا به مرة أخرى .. فى الأنبياء من بعده .. من ذريته .

لماذا الاصطفاء ؟!

لماذا لاتقع النبوة حيثما اتفق ؟ لماذا لايختار الله لها أى إنسان .. بصرف النظر عن سلالته ، وأصوله ؟

لماذا هذه الارستقراطية فى اختيار الأشخاص الصالحين لأن يكونوا أنبياء ؟ اليك الجواب .

قال تعالى : « إن اللهَ اصطفى آدمَ ، ونوحاً ، وآلَ إبراهيمَ ، وآلَ عمرانَ ، على العالمينَ . ذريةً بعضُها من بعضٍ ، واللهُ سميعٌ عليمٌ . » [آل عمران ٣٣ و ٣٤]

ماهذا ؟ إن الله اختار .. آدم .. ونوحاً .. وآل ابراهيم .. وآل عمران .. على سائر الناس .. على العالمين .

لماذا ؟ . لأنهم أصلح الناس لحمل هذا الأمر .. فليس الأمر أمرا سهلا ، يحمله كل من هب ودب .

وانما هو أثقل شىء .. وأشق شىء .. وأخطر شىء .

ومن هنا تحتم أن يختار له خلاصة ، وصفوة البشر .. فكانوا هؤلاء .. اختارهم الله على علم « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .. وأنزل عليهم كتبه .. وأوحى اليهم كلامه .. وكلفهم أن يبلغوه إلى الناس .. حقيقة أن لله مطلق الحرية فى اختيار من شاء ، لماشاء .

إلا أنه يجب أن نفهم جميعا أن الإختيار الإلهى يطابق دائما الحكمة فى كل شىء .. لأن صفات الله تباركَ وتعالى لاينقض بعضها بعضا .. وإنما كلها كمال مطلق .. يؤدى إلى حكمة مطلقة .

وآتيناهم ملكا عظيما ؟!

ولم يقف الأمر بآل إبراهيم .. أن جعل الله فيهم النبوة والكتاب .. بل تجاوزه إلى الدنيا .. فآتاهم الله تعالى ملكا عظيما .

وسلسله فى ذرياتهم .. فكان منهم الملوك ، والرؤساء ، والدول ، والخلافة ، وتاريخا عظيما .. فجمع الله بذلك لهم بين الامامة وبين الدولة .. بين الآخرة وبين الدنيا .. وهذا أقصى ماتطمح اليه الأبصار !!

قال تعالى : «أم يحسُدُونَ الناسَ على ما آتاهُمُ اللهُ من فضلِهِ ، فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ ، والحكمةَ ، وآتيْناهُمْ مُلْكاً عظيما . فمنهم من آمنَ بِهِ ، ومنهُم من صدَّ عنهُ وكفى بجهنمَ سعيراً » [النساء ٥٤ و ٥٥]

« أم يحسدون الناس » انتقال من توبيخهم بالبخل ، إلى توبيخهم بالحسد الذى هو من أقبح الرذائل المهلكة ، من اتصف بها دنيا واخرى . والمراد من الناس سيدهم ، بل الخليقة على الإطلاق ، محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس : قال : «قال أهل الكتاب : زعم محمد أنه أوتى ماأوتى فى تواضع وله تسع نسوة ، وليس همه إلا النكاح فأى ملك أفضل من هذا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية» وقيل : المراد بهم جميع الناس الذين بعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم من الأسود والأحمر أى : بل أيحسدونهم .

« على ما آتاهم الله من فضله » يعنى النبوة ، أوبعثة النبى صلى الله عليه وسلم منهم ، ونزول القرآن بلسانهم . أو جمعهم كالات تقصر عنها الأمانى .

« فقد آتينا » أيحسدوا الناس على ما أوتوا فقد أخطأوا ، إذ ليس الايتاء بيدع منا ، لأنا قد آتينا من قبل هذا .

« آل إبراهيم الكتاب » أى جنسه والمراد به التوراة . والإنجيل ، أوهما والزبور .

« والحكمة » أى النبوة ، أو اتقان العلم والعمل ، أو الاسرار المودعة فى الكتاب . أقوال . « وآتيناهم » مع ذلك .

« ملكا عظيما » لايقادر قدره . والمعنى أنهم لاينتفعون بهذا الحسد ، فإنا قد آتينا هؤلاء ما آتينا مع كثرة الحساد الجبابرة ، فلم ينتفع الحاسد ، ولم يتضرر المحسود .

والمراد من آل ابراهيم أنبياء ذريته. عن ابن عباس : الملك في آل ابراهيم ملك يوسف، وداود ، وسليمان عليهم السلام . وعلى الثانى : فالمراد بهم ذريته كلها ، فان تشريف البعض بما ذكر تشريف للكل ، لاغتنامهم بآثار ذلك ، واقتباسهم من أنواره . أى أن ايتاء النبوة لايمنع إيتاء الملك ، فلم يعيبون على هذا النبى ذلك ؟

« فمنهم » أى من جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم . « من آمن به » بما أوتى آل ابراهيم « ومنهم من صد » أى أعرض . «عنه» ولم يؤمن به . وقيل : فمن آل ابراهيم من آمن به، ومنهم من كفر ، ولم يكن فى ذلك توهين ، فكذلك لايوهن كفر هؤلاء أمرك . «وكفى بجهنم سعيرا » أى ناراً مسعرة ، موقدة ايقادا شديداً . أى إن انصرف عنهم بعض العذاب فى الدنيا ، فقد كفاهم ، ما أعد لهم من سعير جهنم فى العقبى .

إذن فضل الله تعالى على آل إبراهيم لم يقف عند ايتائهم النبوة والكتاب .. بل تعداه إلى ايتائهم الملك العريض .. ومكن لهم فى الأرض تمكينا .. يريد الله بذلك أن يمكن لكلمة «لا إله إلا الله » فى الأرض.. فمكن لها .. أولا .. فى قلب إبراهيم

ثم جعلها « كلمة باقية فى عقبه » تنقل من قلب نبى ، إلى قلب نبى آخر ، من ذريته .

ثم تتمدد اشعاعاتها .. من قلوب هؤلاء جميعا .. إلى قلوب الجماهير من ورائهم الذين يؤمنون بها ، ولهم يتبعون .. وبذلك استقرت لا إله الا الله فى الباطن .

إلا أن استقرارها فى الباطن لا يكفى ضمانا لتمددها .. فلابد لتمكينها فى الظاهر .. من استقرارها فى الدنيا .. من تقرير وضعها فى الدول والمجتمعات وحياة الناس .. ومن هنا يأتى دور « الملك » .. ودور « وآتيناهم ملكا عظيما » .

لا ليكونوا ملوكا جبارين .. ولا ليعلوا فى الأرض بغير الحق .. كلا .. وإنما

« لتكون كلمة الله هى العليا » .. اعطاهم الملك .. اعلاء لدينه وتقريرا لكلمته فى ارضه .

حكمة ؟ !! يالها من حكمة .. ولكن أكثر الناس لايعقلون !!

ولننظر الآن .. لماذا يحسد هؤلاء الجاهلون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ لماذا يحسد الكفار محمدا صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من النبوة ؟ أنه الجهل .. يجهلون أن الأمر بيد الله .. وأنه هو وحده العليم بالقلوب الصالحة لحمل رسالته .

ثم لننظر إلى الآية كيف ردت عليهم أبلغ رد حين قالت « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » .

أى لايمنع ايتاء الكتاب والنبوة لشخص ، أن يؤتيه الله الملك إلى جوارها .. فيجمع له بين الامامة وبين الملك .. ولقد حدث هذا لكثيرين من ذرية إبراهيم .. فليس محمد بدعا من الرسل .

والآن .. نتفكر .. ما هذه الشجرة العجيبة .. شجرة ابراهيم ؟! جعل الله فى ذريتها النبوة والكتاب .. وزادها فضلا .. فجعل فيها .. ملوكا .. ورؤساء .. ماهى فى التاريخ ؟ . وما هى فى توجيه البشرية كلها ؟

ويكفى أن تلقى بنظرة عاجلة إلى بنى إسرائيل .. فرع اسحاق .. وما خرج منه من ملوك عظام .. كيوسف .. وداود .. وسليمان .. وكثير غيرهم .

وإلى فرع اسماعيل .. وما كان منه من ظهور النجم الاعظم .. محمد صلى الله عليه وسلم وما انبثق منه من ملك سيطر على العالم كله بعد ثلاثين عاما .

تلك الدولة الكبرى التى أسسها محمد صلى الله عليه وسلم .. وأتمها أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى .. ومن بعدهم .

فلنتفكر فى هذا لندرك أى شجرة شجرة إبراهيم .. وأى نبوة ، وأى كتاب ، وأى ملك ، كان فيها ؟!

انها اعجب شجرة .. كانت فى هذا الجنس .. المسمى بالبشر !!!

الكواكب التى تلألأت من الشجرة ؟!

قال تعالى : « إنَّا أوحينا إليكَ ، كما أوحَيْنا إلى نوحٍ ، والنبيينَ من بعدِه ، وأوحَيْنا إلى ابراهيمَ ، واسماعيلَ ، واسحاقَ ويعقوبَ ، والأسباطِ ، وعيسى ، وأيُّوبَ ويونُسَ ، وهارونَ ، وسليمانَ ، وآتَيْنا داوودَ زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليكَ من قبلُ ، ورسُلاً لمْ نقصصْهُم عليكَ ، وكلَّمَ اللهُ موسى تكليماً . رسلاً مبشرينَ ومنذرينَ ، لئلَّا يكونَ للناس على اللهِ حجة بعدَ الرسلِ ، وكان الله عزيزا حكيما . »

[النساء ١٦٣ — ١٦٥]

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » عن ابن عباس : « قال سكين ، وعدى بن زيد : يامحمد ، ما نعلم الله تعالى أنزل على بشر من شىء بعد موسى عليه السلام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية »

أى : أوحينا اليك ايحائنا الى نوح وبدأ سبحانه بنوح تهديدا لهم ، لأنه أول نبى عوقب قومه « وأوحينا الى ابراهيم » كما أوحينا الى ابراهيم .

« وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » إن الأسباط فى ولد اسحاق كالقبائل فى ولد إسماعيل وقد أرسل فيهم عدة رسل ، فيجوز أن يكون أراد سبحانه بالوحى اليهم الوحى إلى الأنبياء منهم .

« وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان » ذكروا تشريفا لهم ، وإظهارا لفضلهم ، على ماهو المعروف ، من ذكر الخاص بعد العام ، فى مثل هذا المقام . بدأ بذكر ابراهيم بعد التكرير ، لمزيد شرفه ، ولأنه الأب الثالث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

« وآتينا داود زبورا » كتابا اسمه الزبور ، وهو اسم الكتاب المنزل على داود عليه السلام . وكان انزاله عليه عليه السلام منجما ، وبذلك يحصل الالزام . قال القرطبى : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام ، وإنما هى حكم ومواعظ ، والتحميد والتمجيد ، والثناء على الله تعالى شأنه .

« ورسلا » أى أرسلنا رسلا « قد قصصناهم عليك » أى قصصنا أخبارهم وتعريف شأنهم وأمورهم « من قبل » أى من قبل هذه السورة أو اليوم . وقال بعضهم : قصهم عليه عليه الصلاة والسلام بالوحى فى غير القرآن ، ثم قصهم عليهم بعد فى القرآن .

« ورسلا لم نقصصهم عليك » أى من قبل ورد فى الخبر : أن الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر . والأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . وعن كعب : أنهم ألف ألف واربعمائة ألف وأربعة وعشرون ألفا .

« وكلم الله موسى تكليما » المعنى أن التكلم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى وأعلاها وقد خص به من بين الانبياء الذين اعترفتم بنبوتهم موسى عليه السلام ، ولم يقترح ذلك فيهم أصلا ، فكيف يتوهم أن نزول التوراة عليه جملة قادح فى نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور حكمة ذلك .

« رسلا مبشرين » من آمن وأطاع بالجنة والثواب « ومنذرين » من كفر وعصى بالنار والعقاب .

« لئلا يكون للناس على الله حجة » أى معذرة يعتذرون بها قائلين (لولا أرسلت الينا رسولا) فيبين لنا شرائعك ، ويعلمنا مالم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوى البشرية عن ادراك جزئيات المصالح ، وعجز أكثر الناس عن ادراك كلياتها .

« بعد الرسل » أى بعد ارسالهم وتبليغ الشريعة على ألسنتهم « وكان الله عزيزا » لا يغالب فى أمر يريده « حكيما » فى جميع أفعاله .

هذه مجموعة .. من تلك الكواكب التى تلألأت بانوار النبوة .. من تلك الشجرة الطيبة .. شجرة إبراهيم .. مجموعة يسردها الله تعالى .. على سبيل المثال .. لاعلى سبيل الحصر .. على سبيل الاشارة لاعلى سبيل التاريخ .. ولذلك جاءت غير مرتبة ترتيبا زمنيا .. حتى لاتمل الاسماع ترتيبها .. وإنما تفاجىء القارىء بهم .. اسما .. اسما .. فتحدث عنده انتباها .. كاملا .. إبراهيم .. إسحاق .. يعقوب .. الأسباط .. عيسى .. أيوب .. يونس .. هارون .. سليمان .. داود .. موسى .

هكذا .. كأنما يقول لك : انظر إلى فوق .. إلى هذه السماء .. وتأمل تلك الـكواكب المنتشرة فيها .. بصرف النظر عن مستواها .. أوتاريخ شروقها وانما انظر اليها فى مجموعها .. .. وزيناها للناظرين .. زينا سماء الحياة البشرية بزينة الـكواكب .. بهؤلاء الأنبياء .. يتلألأون فى ليلها البهيم .. فى ظلماتها الشديدة .

ولو أنك دققت النظر بعين بصيرتك إلى كل نجم من هؤلاء النجوم .. لوجدته نورا عظيما .. يشع إشعاعا باهرا .. عاليا .

وسوف تدهش أشد الدهشة .. إذا علمت أن هؤلاء جميعا .. انبثقوا عن النجم الأكبر .. ابراهيم ؟!

لو أشركوا .. لحبط عنهم .. ما كانوا يعملون ؟!

قال تعالى : « ووهبْنا لهُ إسحاقَ، ويعقوبَ، كُلاًّ هدَيْنا ، ونوحاً هَدَيْنا منْ قبلُ ، ومنْ ذرِّيته داوودَ ، وسليمانَ ، وأيوبَ ، ويوسفَ، وموسى ، وهارونَ ، وكذلِكَ نجْزى المحسنينَ . وزكريا ، ويحيى، وعيسى، وإلياسَ ، كلٌّ من الصالحينَ. وإسماعيلَ، والْيَسَعَ ، ويونس ، ولوطاً ، وكلاًّ فضَّلْنا على العالمينَ . ومنْ آبائِهمْ ، وذرياتِهمْ ، وإخوانِهمْ ، واجتبيْناهُمْ ، وهديناهُم إلى صراطٍ مستقيم . ذلك هُدَى اللهِ ، يَهدِى به من يشاءُ من عبادِهِ ، ولو أشركوا لَحبطَ عنهُمْ ما كانوا يعملونَ . أولئك الذين آتيناهُمُ الـكتابَ والحُكْمَ والنبوَّةَ ، فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ فقدْ وكلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذينَ هدَى اللهُ ، فبهُداهمُ اقْتدِهْ ، قلْ لا أسْألُكُمْ عليه أجْراً ، إنْ هوَ إلا ذكرَى للعالمينَ . » [الأنعام ٨٤ — ٩٠]

« ووهبنا له» أى لابراهيم عليه السلام .

« اسحاق » وهو ولده من سارة ، عاش مائة وثمانين سنة . « ويعقوب » وهو ابن اسحاق عاش مائة وسبعا وأربعين سنة . « كلا » أى كل واحد منهما . « هدينا » لأحدهما دون الآخر . « ونوحا هدينا من قبل » أى من قبل ابراهيم — عليه السلام —

« ومن ذريته » الضمير لابراهيم — عليه السلام — « داود » من سلالة يهوذا بن يعقوب جمع له بين النبوة والملك . قيل : انه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون ، وله اثنا عشر ابنا .

« وسليمان » قيل : كان أبيض ، جسيما ، وسيما ، وضيئا ، جملا ، خاشعا . متواضعا . وكان أبوه يشاوره فى كثير من أموره فى صغر سنه لوفور عقله وعلمه . عن ابن عباس : انه ملك الأرض .

« وايوب » وهو ابن موص بن روم ، بن عيص ، بن اسحاق .

« ويوسف » بن يعقوب ، بن اسحاق ، بن ابراهيم عاش مائة وعشرين سنة .

« وموسى » وهو ابن عمران بن يصهر ، بن ماهيث ، بن لاوى ، بن يعقوب ، وعاش مائة وعشرين سنة .

« وهارون » أخوه شقيقه .

« وكذلك نجزى المحسنين » أى نجزيهم مثل ماجزينا إبراهيم — عليه السلام — برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم . والمراد مطلق المشابهة فى مقابلة الاحسان بالاحسان ، والمكافآت بين الأعمال .

« وزكريا » بن ازن ، بن بركيا ، كان من ذرية سليمان — عليهما السلام — وقتل بعد قتل ولده ، وكان له يوم بشر به اثنتان وتسعون .

« ويحيى » بن زكريا .

« وعيسى » بن مريم .

« وإلياس » بن يس ، بن فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون أخى موسى .

« كل » كل واحد من أولئك المذكورين « من الصالحين » الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى .

« وإسماعيل » أكبر ولد ابراهيم « ويونس » بن متى « ولوطا » ابن أخى إبراهيم « وكلا » كل واحد من هؤلاء « فضلنا » بالنبوة « على العالمين » أى عالمى عصرهم وفيها

دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة «ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم» أى وهدينا من آبائهم وأبنائهم واخوانهم جماعات كثيرة . أو : فضلنا بعض آبائهم ... الخ .

« واجتبيناهم» أى اصطفيناهم «وهديناهم إلى صراط مستقيم» تمهيد لبيان ماهدوا إليه .

«ذلك» أى الهدى إلى الطريق المستقيم «هدى الله» الاضافة للتشريف « يهدى به من يشاء » هدايته « من عباده » وهم المستعدون لذلك ويفيد أنه تعالى متفضل بالهداية .

« ولو أشركوا » أولئك المذكورون « لحبط » لبطل وسقط « عنهم » مع فضلهم وعلو شأنهم . «ما كانوا يعملون» أى ثواب أعمالهم الصالحة ، فكيف بمن عداهم ، وهم هم ، وأعمالهم أعمالهم ؟!

« أولئك» إشارة الى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر . « الذين آتيناهم الكتاب» أى جنسه والمراد بايتائه التفهيم التام لما فيه من الحقائق . والتمكين من الإحاطة بالجلائل والدقائق ، أعم من أن يكون ذلك بالانزال ابتداء ، وبالإيراث بقاء ، فان ممن ذكر لم ينزل عليه كتاب معين . « والحكم » أى فصل الأمر بين الناس بالحق . أو : الحكمة ، وهى معرفة حقائق الأشياء ، « والنبوة » فسرها بعضهم بالرسالة .

« فان يكفر بها » بهذه الثلاثة ، بالنبوة الجامعة للباقين . « هؤلاء » أى أهل مكة ، أو الكفار الذين جحدوا بنبوته صلى الله عليه وسلم . « فقد وكلنا بها » أمرنا برعايتها ، ووفقنا للايمان بها ، والقيام بحقوقها . « قوما » فخاما . « ليسوا بها بكافرين » فى وقت من الأوقات ، بل مستمرون على الإيمان بها . والمراد بهم : أهل المدينة من الأنصار . وقيل : أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مطلقا . وقيل : كل مؤمن من بنى آدم عليه السلام .

« أولئك » أى الأنبياء المذكورين . أو : الاشارة إلى المؤمنين الموكلين . « الذين هدى الله » أى هديناهم إلى الحق وصراط مستقيم . « فبهداهم اقتده » أى اجعل هداهم منفردا بالاقتداء ، واجعل الاقتداء مقصورا عليهم . والمراد بهداهم عند جمع طريقهم فى الايمان بالله تعالى وتوحيده ، وأصول الدين ، دون الشرائع القابلة للنسخ . ومعنى أمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بذلك الأخذ به ، لا من حيث انه طريقة أولئك الفخام . بل من حيث

أنه طريق العقل والشرع ، ففى ذلك تعظيم لهم ، وتنبيه على أن طريقهم هو الحق الموافق لدليل العقل والسمع .

« قل لاأسألكم » أى لاأطالب منكم . « عليه » أى على القرآن أو على التبليغ . « أجرا » أى جعلا ، قل أوكثر كما لم يسأله من قبلى الأنبياء عليهم السلام أممهم . قيل: وهذا من جمله ماأمرنا بالاقتداء به من هداهم — عليه السلام — . « إن هو » أى القرآن . « إلا ذكرى » أى تذكير . « للعالمين » كافة ، فلا يختص به قوم دون آخرين . واستدل بالآية على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم .

ماهذا ؟ هذه هى النجوم التى تسبح فى سماوات متعددة .. ولكل منها فلك معلوم .. إلا أنها جميعا تدور حول قطب واحد .. هو لا إله إلا الله .

ومن هنا يقرر الله تعالى ذلك الناموس الخالد « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » .. رغم جلالة قدرهم .. وعظمة درجاتهم .. ورغم ماهم عليه .. فان الله يعلن على الناس كافة .. أن أحداً منهم لو أشرك بنا أدنى إشراك لسقطت أعماله كلها .. ولأبعدناه عنا بعدا بعيدا .

لماذا ؟ لأنه اختارهم لنفسه .. وعرفهم نفسه .. واختصهم برسالته .. فلا يتصور أن يشركوا به شيئاما .. وقد علموا من جلاله وجماله وصفاته وقهروته وكبريائه مالم يعلم الناس جميعا .. فلا يقبل منهم إلا التوحيد .. فى أعلى مستويات التوحيد . لو أشركوا .. أدنى شرك .. أو أقل شرك .. لحبط عنهم .. لسقط .. لبطل .. لضاع .. ما كانوا يعملون .. فى دنياهم .. من الخيرات .. والحسنات .. والجهاد فى سبيلنا .

ان هؤلاء الرسل لهم عندنا مقامات كبرى .. وأعددنا لهم مالا خطر على قلوب البشر . فهم بأعيننا .. ونحاسبهم حسابا لا نحاسبه أحدا من العالمين .. شىء رهيب جدا .. إن هؤلاء الرسل محاسبون جميعا .. من أجل هذا كان خوفهم من الله شديدا .. شديدا .. وعاشوا .. وماتوا .. لله .. وحده .. ظاهرهم .. وباطنهم .. له سبحانه .. لاسبيل للاشراك إلى قلوبهم .. لأنها خالصة لله .. ربهم .. دون سواه .

والآية تهدد كل انسان .. كل من أراد أن يتجه إلى الله .. لن يقبل الله عملا فيه أدنى مقدار من شرك .. لابد أن يكون العمل خالصا له سبحانه .. وإلا .. حبط .. بطل .. لا يقيم الله له وزنا .

اذن هؤلاء النجوم اللامعة فى سماء التوحيد .. نجوم لا إله إلا الله .. هؤلاء الأنبياء .. جاءوا ليكونوا دعاة إلى لا إله إلا الله .. دعاة إلى الإخلاص .. دعاة إلى التوحيد .. دعاة إلى نفى الشرك نفيا تاما من قلوب البشر .

ومن هنا أمر محمد صلى الله عليه وسلم باتباعهم جميعا .. دون تفريق .. لأنهم جميعا يدعون إلى أمر واحد .. إلى لا إله إلا الله .. وأمرنا جميعا كذلك بالايمان بهم كلهم .. واتباعهم فى سلوكهم نحو الله .. لأن الطريق واحدة .. والغاية واحدة .. هى رب العالمين ..

وأمرنا جميعا أن نهتدى بهداهم .. الذى عماده التوحيد .. أن نكون مخلصين فى الاتجاه اليه .. لاشريك له .. وبذلك أمرت .. انها الحنيفية التى جاء بها ابراهيم .. واتبعها جميع النبيين من بعده .. من ذريته .

انها الكلمة الباقية فى عقبه .. انها لا إله إلا الله .. التى جاء بها جميع الأنبياء .. ابراهيم .. اسحاق .. يعقوب .. داوود .. سليمان .. أيوب .. يوسف .. موسى .. هارون .. زكريا .. يحيى .. عيسى .. إلياس .. اسماعيل .. اليسع .. يونس .. لوط .. وغيرهم .. وغيرهم .. من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم :

أمر الى محمد .. أن الله برىء من المشركين ..؟!

قال تعالى « وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ .. » [التوبة ٣]

إن الله يأمر محمدا صلى الله عليه وسلم .. يأمره بماذا ؟ يأمره أن يعلن نيابة عنه .. ونيابة عن جميع النبيين من قبله .. ونيابة عن ابراهيم .. والنبيين من ذريته .. أن يعلن إلى الناس كافة .. فى أعظم يوم .. يوم عرفة .. حيث يجتمع أكبر حشد من الناس .. يوم

الحج الأكبر .. أن الله برىء من المشركين ورسوله . لماذا ؟ . لأن هذه الحياة .. وهؤلاء الناس جميعا .. خلقوا ليعرفوا الله .. ليعبدوه .. ولا يشركوا به شيئا .. ولأن جميع الرسل أرسلوا من أجل هذا .. وهذا وحده .. فوجب أن يعلن خاتم الرسل .. هذا البيان إلى جميع الناس .. إلى يوم القيامة .. حتى لايكون للناس حجة بعد ذلك على الله .

انه نفس التحذير .. ونفس التهديد .. كما حذر الرسل جميعا « لوأشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » .. فهو هنا يحذر الناس جميعا « أن الله برىء من المشركين » .. ليعلم من لم يعلم .. أن الله لايقبل من أحد عملا إلا إذا كان خالصا لوجهه .

وليعلم الناس أن الله خلقهم من أجله .. له وحده .

وليعلموا أن هذه الشجرة .. هذه السلسلة المتتابعة من الأنوار .. من الأنبياء .. انما كانت كلها .. ليعلم الناس تلك الحقيقة الجامعة .. حقيقة الحقائق .. وهكذا .. تتلاقى الرسالات كلها .. وتتوحد النبوات كلها .. وتتحد ثمار شجرة ابراهيم .. وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها .. لا إله إلا الله .

ويوسف يعلنها ... الى المصريين ...؟!

قال تعالى : « واتَّبَعْت ملَّةَ آباءى إبراهيمَ ، وإسحاقَ ويعقوبَ ، ما كان لنا أن نشركَ باللهِ من شىء ، ذلك من فضل اللهِ علينا ، وعلى الناسِ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايشكرونَ » [يوسف ٣٨]

ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ؟ هناك استحالة .. أن يشرك يوسف .. أو أى نبى .. بالله .. استحالة أن يكون ذلك من أحدهم .. لأنهم اختيروا لله واصطفاهم لنفسه .. ولأنهم يعلمون عنه سبحانه ما لا نعلم .

وابراهيم ... يعلنها ؟!

حين قال : « .. ياقومِ إنِّى بَرِىءٌ مما تشركونَ . إنى وجَّهْتُ وجهىَ للذى فطرَ السماواتِ والأرضَ ، حنيفاً ، وما أنا من المشركينَ » . [الأنعام ٧٨ — ٧٩]

هكذا .. كلهم يعلنون تلك الحقيقة .. كلهم يتبرءون من المشركين .. ويقررون استحالة أن يشركوا بالله .. ويذيعون انهم برآء مما يشرك الناس .. نجوم .. تتلألأ بنور الله .. وتعلن كلها أن : لا إله إلا الله .

عباده ... حقا ؟!

ومن هنا .. تكاملت فيهم العبودية .. وتحققت فيهم .. بما لم تتحقق فى غيرهم من خلقه .. تحققت فيهم .. فاستحال أن يكون الشيطان عليهم أدنى تسلط ..

قال تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ . » [النحل ٩٩ — ١٠٠]

هنالك استحالة أن يكون للشيطان سلطان عليهم .. لماذا ؟ لأنهم لا يشركون بالله شيئا .. لا شيطان .. ولا غيره .. فأنى للشيطان أن يكون له تأثير ما على قلوبهم ؟!

انهم كما قال الله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً . » [الاسراء ٦٥]

بل هم قمة هؤلاء العباد .. بل هم ائمة هؤلاء العباد .. فاستحال ان يكون للشيطان على قلوبهم من سبيل ..

ومن ذرية ابراهيم ؟!

ثم يقول تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ، وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا » . [مريم ٥٨]

فمن هم أولئك الذين أنعم الله عليهم من ذرية إبراهيم؟ الذين هداهم ، واجتباهم ، وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ؟ هم المذكورون فى السورة من قبل .. الذين اثنى عليهم ثناء عظيما خلالها .

إنه زكريا .. الذى قال فيه « ذِكْرُ رحمَتِ ربِّكَ عبدَهُ زكريّا » . . وإنه يحيى .. الذى قال فيه « يازكريا إنّا نُبشرُكَ بغلامٍ اسمُهُ يَحْيى لم نجْعَل لهُ من قبْلُ سمِيا » .

وإنه عيسى .. الذى قال فيه « قالَ إنى عبدُ اللهِ آتانِيَ الكتابَ وجعلنى نبيا . »

وإنه إبراهيم .. باعتباره الأصل .. أصل الشجرة .. الذى قال فيه : « واذكر فى الكتابِ إبراهيمَ ، إنه كان صدّيقاً نبيا » وإنه اسحاق .. ويعقوب .. اللذان قال فيهما « فلما اعتزلهم وما يعبدونَ من دونِ اللهِ وهبْناهُ إسحاقَ ويعقوبَ ، وكلاً جعْلنا نبيا » .

وإنه موسى.. الذى قال فيه «واذكر فى الكتاب موسى، إنهُ كان مخلصاً وكان رسولا نبيا » وإنه هارون.. الذى قال فيه «ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارُونَ نبيا » وإنه اسماعيل.. الذى قال فيه « واذكُرْ فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا» ثم يعقب على ذكرهم جميعا .. بقوله « أولئك الذين أنعم الله عليهم .. » انهم كوكبة .. من ثمار إبراهيم.. إعلن أنه أنعم عليهم إنعاما كبيرا .. وذكرهم بقوله «واذكر فى الكتاب..» كأنه يريد أن يقول : واذكر فى سجل الخالدين .. سجل العظماء .. سجل العالين .. عند رب العالمين .

لماذا جعل فى ذريته النبوة والكتاب ؟

قد يسأل كثير من الناس هذا السؤال .. لماذا ، ولم فى ذرية إبراهيم بالذات ، تكون النبوة والكتاب ؟ لماذا يحتكر إبراهيم هذا الأمر دون الأنبياء ؟ والجواب ..

قال تعالى : « .. وقالَ : إنى مُهاجر إلى ربِّى ، إنه هو العزيزُ الحكيم . ووهبْنا لهُ إسحاقَ ، ويعقوبَ ، وجَعَلْنا فى ذرِّيتهِ النبوةَ ، والكتابَ ، وآتيناهُ أجْرَهُ فى الدنيا ، وإنّهُ فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحينَ » . [العنكبوت ٢٦ — ٢٧]

« وقال : إنى مهاجر إلى ربى » إلى حيث لا أمنع عبادة ربى وقيل: مهاجر من خالفنى من قومى متقربا إلى ربى « إنه » عزوجل « هو العزيز » الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى « الحكيم » الذى لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة ، فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى

روى أنه ـ عليه السلام ـ هاجر من سواد الكوفه ، مع لوط ، وسارة ، ابنة عمه إلى حران ثم منها، إلى الشام « ووهبناله اسحاق ويعقوب » ولدا ، ونافلة حين أيس ، من عجوز عاقر « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب» فى سلالته الانبياء ، والكتب السماوية كلها «وآتيناه أجره » على ماعمل لنا « فى الدنيا » المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته الينا ويعد اعطاء الولد والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، ونحوذلك ، مما كان له ـ عليه السلام ـ بعد الهجرة من الأجر .

والآن .. لماذا جعل الله فى ذرية إبراهيم وحده النبوة والكتاب ؟ الجواب .. من هنا .. ومن هنا وحده .. من قوله :« إنى مهاجر إلى ربى » .. هذه هى التى رفعته كل هذه الرفعة .. لماذا ؟ لأنها كانت عالية جدا .. جدا .. جدا .

كيف هذا ؟! لأنها صدرت عن إبراهيم وهو فى حالة غربة .. تامة .. كاملة .. كان ابراهيم ساعتها .. وحده لا أحد معه ، كان وحيدا فى هذا العالم كله .. رجل وحده .. يؤمن بالله .. وحده .. ويلقى إلى النار .. وحده .. وينجو منها .. وحده .. ويخالف كل معتقدات عصره .. وأهل عصره .. وحده .. ويخرج على مفاهيم أبيه .. وقومه .. واقرانه .. وحده.. كان عاليا .. عاليا .. عاليا .. سلام عليك ياابراهيم .. حين قلتها : إنى مهاجر إلى ربى .. وانشقت عن قلبك .. فيها آلام الوحيد .. فى عالم .. لا يعرفه .. ولا يرقى إلى مستواه .. وخرجت من قلبك .. فيها احزان الرجل الذى سبق عصره .. سبقا عجيبا .. هو ينادى : وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض ، حنيفا ، وماأنامن المشركين .. وهم يتنادون بالأصنام .. التى ينحتون ؟

إنى مهاجر ؟! إنى تارك وطنى .. إلى أرض الله الواسعة .. إنى تارك أبى .. إلى حيث لا أهل لى .. إنى تارك أفكاركم .. إلى حيث اعيش افكر مع نفسى .. وحدى .. إنى تارك دنياكم .. بزينتها .. وأهلها .. إلى حيث أجد ربى .. إنى مرتفع عن شهواتكم .. إلى حيث أنزه ربى .. وأمجده .. واثنى عليه .. إنى معرض عن كل ماسوى الله .. متجه اليه وحده ..

إنى مهاجر ؟! انخلع إبراهيم عن وجوده كله .. عن شخصه .. عن وضعه الاجتماعى .. عن صلاته بقرباه .. عن مفاهيم عصره .. انخلع عن ذلك كله .. واعلن افتقاره التام إلى ربه .. هنالك .. اعطاه .. هنالك .. آتاه .. هنالك .. تفضل وجازاه .. هنالك .. استحق إبراهيم من ربه كل شىء ..

ياإبراهيم ؟! .. جئتنا .. وحدك .. تريدنا ؟! إذن لنعطينك .. تركت وطنك من أجلنا اذن لاعطينك بدلا منه .. الأرض التى باركنا فيها للعالمين .. الأرض التى اغتربت فيها من أجلنا .. وأعطاه الله فلسطين أقام فيها .. ثم أعطاها لذريته من بعده .. ففتحوها باذن الله ، وسكنوها .. ملوكا .. وانبياء .. ورسلا .. وكانو جميعا من ذريته .. وليس ذاك وحده .. بل اعطاه .. أرضا أخرى .. أعطاه مكة .. حين اعطاها لاسماعيل .. وكان منها ذلك الشعب العربى العظيم .. وذلك النبى الاوحد .. خاتم النبيين .

واغتربت ياإبراهيم عن ابيك .. وانعزلت عنه من صغرك .. اذن لأعطينك عوضا عنه اسماعيل .. واسحاق .. يؤنسوا وحدتك .. ويكونوا لك أنسا ورحمة .. ولأجعلن فى ذريتهما نبوتى .. وكتبى .. عوضا عن ذلك .. وألقوك جميعا فى النار .. اذن لألقينهم جميعا فى النار « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين . وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين» .. وواضح جدا .. وجه الربط بين المعنيين .. أى جعلناهم الأسفلين . لأنه قال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين .

وذهاب ابراهيم إلى ربه ليس كذهاب أحد إلى ربه .. ولكنه ذهاب يناسب جلال مقامه ؟ وعظمة ارتفاعه .. ان مايقطعه ابراهيم فى لحظة .. قدلا تقطعه الأجيال مجتمعة فى سنين ..

لماذا ؟ لأنه تركيب وحده .. لأنه قلب رفيع .. رفيع .. رفيع .. يعلم من الله ما لا يعلمه أهل عصره جميعا .. كمثل الصاروخ الذى يطلقونه هذه الأيام فى اتجاه القمر .. فيقطع

ملايين الأميال فى ساعات .. بينما الإنسان العادى مازال يدب على الأرض لم يقطع فى نفس هذه الساعات سوى أمتار ! !

لماذا ؟ لأن هذا الصاروخ مصمم تصميما خاصا .. يعطيه القدرة على الانطلاق الصاروخى بغير حدود .. بينما هذا الانسان العادى مازال أسير حيوانيته المحدودة .. كذلك ابراهيم .. تصميم ربانى .. أعده خصيصا ليصعد اليه مباشرة فى أقرب وقت يتصور .. قلب صنعه الله لنفسه .. وجعل فيه من الأسرار والأنوار . . مايؤهله للانصال به فورا .. مع الغاء الزمان والمكان .. أما سائر الناس ..أما أولئك الذين مازالوا عاكفين على أصنامهم التى ينحتون .. وعلى عقائدهم الميتة . . فلا يستطيعون الابتعاد عن سطح الأرض . . أو الانفصال عن هذا التراب ..

وإذا كان الانسان استطاع بعقله أن يصنع الصواريخ التى تنطلق انطلاقا باهرا.. فكيف بابراهيم وهو يحلق بقلبه .. والقلب لايخضع لزمان أو مكان .. وهو أعلى وأعلى من العقل .. لأن العقل أداة مادية . . أما القلب فأداة روحية .. ونفخت فيه من روحى . . ولأن العقل مهما ارتفع لا يعدو أن يكون احدى ادوات القلب .. التى يسخرها لتحقيق اهدافه .

فمن أجل أن ابراهيم . . اغترب عن كل شىء . . وآوى الى الله وحده . . ومن أجل أنه انفصل عن كل شىء واتجه الى ربه وحده .. ومن أجل أنه عاش فى غربة تامة .. وأنس بالله وحده . . ومن أجل انه ارتفع عن سائر بنى زمانه . . واقترب من الله وحده . . ومن أجل أنه لم يشرك بربه أحدا .. لتثمر فى سائر الأجيال من بعده .. ومن أجل أنه صاحب مذهب الحنيفية وهى الاتجاه الى الله مباشرة .. مستقيما .. مع اسقاط السوى اسقاطا تاما .. ومن أجل مالا نعلم .. وما لا يعلمه الا الله . .

من أجل ذلك كله .. جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب .. حتى لاينطفىء المصباح الطاهر ، الطيب ، أمام عواصف الشرك ، وفى ظلمات الشهوات .

ومن ذريتهما محسن .. وظالم ؟!

قال تعالى : « وبشَّرناهُ بإسحاقَ نبيا من الصالحينَ . وبارَكْنا عليهِ ، وعلى إسحاقَ ومن ذرِّيتهما مُحسنٌ ، وظالمٌ لنفسهِ مبينٌ . » [الصافات ١١٢ — ١١٣]

« وبشرناه باسحاق نبيا » حال من اسحاق . « من الصالحين » تعظيم شأن الصلاح ، وفى تأخيره ايماء إلى أنه الغاية لها ، لتضمنها معنى الكمال والتكميل . أى بشرناه بوجود اسحاق نبيا . أى مقضيا كونه نبيا ، مقضيا كونه من الصالحين . « وباركنا عليه » أى على ابراهيم — عليه السلام — « وعلى إسحاق » أى أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، بأن كثرنا نسلهما ، وجعلنا منهم أنبياء ورسلا . « ومن ذريتهما محسن » فى عمله ، أو على نفسه ، بالايمان والطاعة . « وظالم لنفسه » بالكفر والمعاصى ، ويدخل فيها ظلم الغير . « مبين » ظاهر ظلمه . وفى ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال . وأن الظلم فى الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب .

فما معنى هذا ؟ معناه أن مجرد الإنتساب إلى ابراهيم لاوزن له فى الأمر .. ولذلك أعلنها الله تعالى « ومن ذريتهما محسن وظالم .. » أى أن هناك من تلك الذرية قوم محسنون .. وهناك قوم الغاية من الإجرام والضلال .. وهذا يشير اليه قوله « مبين » أى واضح الظلم .. شديد الاجرام .. ولم يمنع هؤلاء المجرمين انتسابهم إلى ابراهيم أن يكونوا مجرمين .

لماذا ؟ لأن العدالة الإلهية تقتضى ذلك .. ومثل ابراهيم فى ذلك مثل آدم .. كان نبيا .. وها هى ذريته .. بنو آدم .. منهم المحسنون .. وأكثرهم المجرمون ، الكافرون .. كذلك ابراهيم .. جعل الله فى ذريته النبوة .. ولكن هذا لايمنع أن يكون من ذريته الظالمون ، والمجرمون ، والكافرون . وقد نبه الله تعالى على ذلك حين قال له ابراهيم : « ومن ذريتى ؟ » فقال : « لاينال عهدى الظالمين » .

عدالة مطلقة .. من كان أهلا للنبوة من ذرية ابراهيم صار نبيا .. ومن كان أهلا -

للايمان صار مؤمنا .. ومن كان أهلا للاحسان صار محسنا .. ومن كان بطبيعته ظالما .. صار ظالما ، مجرما .. ومن كان مستعدا للكفر .. صار كافرا .. انها الألوهية .. عداله الألوهية التى تعطى كلا حسب استعداده الطبيعى .

وجعلها كلمة باقية فى عقبه ؟!

قال تعالى : « وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ ، وقومِهِ ، إنّنى بَراءٌ مما تعبدونَ . إلا الذى فطَرَنى فإنهُ سيَهْدينِ . وجَعَلَها كلمةً باقيةً ، فى عقبهِ ، لعلهم يرجعونَ . »

[الزخرف ٢٦ – ٢٨]

« إننى براء مما تعبدون» إننى براء من آلهة تعبدونها . « إلا الذى فطرنى » غير الذى فطرنى . « فإنه سيهدين » يثبتنى على الهداية ، سيهدين إلى وراء ماهدانى إليه . «وجعلها» الضمير لابراهيم أو الله والضمير المنصوب لكلمة لاإله إلا الله . أى وجعل الله « لا إله إلا الله » ، « كلمة باقية فى عقبه » فى ذريته – عليه السلام – فلايزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عزوجل . « لعلهم يرجعون » جعلها باقية فى عقبه ، كى يرجع من أشرك فيهم ، بدعاء من وحد . أو بسبب بقائها فيهم .

ماهذا ؟ انه ناموس يعلنه الله تعالى .. أنه سبحانه جعل « لاإله إلا الله » كلمة خالدة فى ذريه ابراهيم إلى يوم القيامة .. جعل فيهم أنبياء يدعون إلى تلك الكلمة .. وبوجود أولئك الأنبياء يتحقق بقاء تلك الكلمة .. بخروج أتباعهم المؤمنين بها .. تباعا .. خلال القرون .. يدعون اليها الناس .. إنها نفس قوله « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب» ان النبوة التى تنبثق من ذريته .. والكتب التى تنزل على هؤلاء النبيين . . هو الأسلوب العملى ، التطبيقى . لجعل « لاإله إلا الله » باقية فى عقبه .. وهكذا .. هذا القرآن .. كتاب الله .، يفسر بعضه بعضا !!!

وكثير منهم ... فاسقون ؟!

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً ، وإبراهيمَ . وجعلنا فى ذريتهما النبوةَ ، والكتابَ ، فمنهم مهتدٍ ، وكثيرٌ منهمْ فاسقونَ . » [الحديد ٢٦]

« فمنهم » من الذرية وقيل . من المرسل اليهم . المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين . « مهتد وكثير منهم فاسقون » خارجون عن الطريق المستقيم .

وهذا بيان أوسع .. وأوسع .. ان ذرية نوح .. التى منها ابراهيم .. وذرية ابراهيم .. التى جعل الله فيها ،. النبوة والكتاب ،. قليل منهم مهتدون .. وكثير .. الأغلبية .. فاسقون !! قانون طبيعى .. ناموس عام .. وهذا هو الحاصل .. لم ينفعهم أنهم أولاد أنبياء .. ولم ينتفعوا بتلك الرسالات ، ولا بتلك النسبة .. وانما هم مجرمون .. بطبيعتهم فاسقون .. متمردون .

فكرة عامة .. عن شجرة الأنبياء ؟

والآن .. نقدم إلى الناس كافة فكرة .. مبسطة عن تلك الشجرة .. شجرة ابراهيم .. وكيف تفرعت ؟ . والأنبياء الذين انبثقوا عنها .. والكتب التى أنزلت عليهم .. أخذناها من مصادرها العليا .. الكتب المنزلة .. والأحاديث الصحيحة .. ليدرك العالم كله إلى أى مدى أثرت هذه الشجرة فى توجيه البشرية كلها ، إلى ربها .. وإلى أى مدى أثرت وستظل تؤثر تلك الشجرة فى كشف حقائق الوجود للناس .. وإلى أى مدى بلغ تعداد الذين اتبعوها من الناس .

الفرعان العظيمان

ابراهيم

ولد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا ،

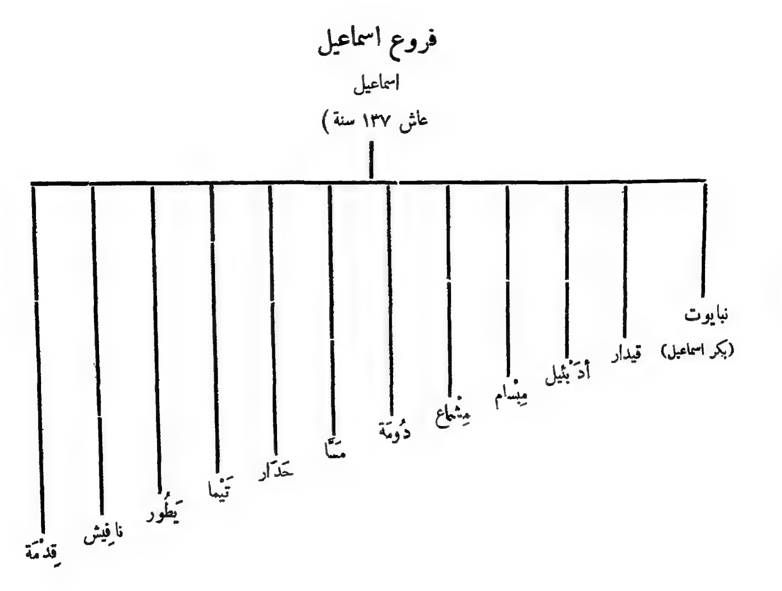
أى منذ ٤٠٠٠ سنة ، عاش ٢٠٠ سنة

إسماعيل

١٩٠٠ قبل الميلاد تقريبا

إسحاق

١٨٨٧ قبل الميلاد تقريبا


فروع اسماعيل
اسماعيل
عاش ١٣٧ سنة)
نبايوت
(بكر اسماعيل)
قيدار
أدَبْئيل
مِبْسام
مِشْماع
دُومَة
مَسَّا
حَدَار
تَيْما
يَطُور
نافِيش
قِدْمَة

فروع اسحاق

اسحاق

عاش ١٨٠ سنة

تزوج ابن ٤٠ سنة

من رفقة بنت بتوئيل

وكان ابن ستين سنة لما ولدتهما توأمان

عِيسُو

يعقوب (اسرائيل)

مات فى مصر — ولكنه نقل فيما بعد ، حيث دفن فى حبرون أو عفرون (الخليل الآن) ، حيث دفن من قبل ابراهيم وسارة امرأته، واسحاق ورفقة امرأته .

يعقوب وأولاده .. الاثنى عشر ..

١ — من زوجته ليئة :

شمعون . لاوى . يهوذا . يساكر . زبولون . دينة (أنثى) .

٢ — من بلهة (جارية راحيل) .

دانا . نفتالى .

٣ — من زلفة (جارية ليئة) .

جادّ . أشير .

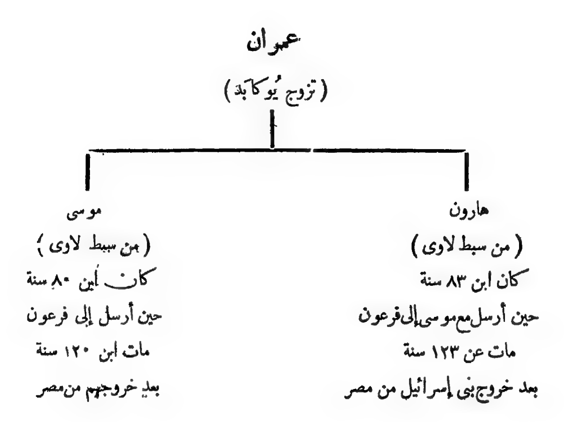
٤ — من زوجته راحيل .

يوسف (عاش ١١٠ سنة ودفن بمصر) .

بنيامين (ماتت راحيل فى ولادته) .

(ولدا فى النهاية .. بعد مولد جميع اخوتهم) .

ومن هؤلاء الاثنى عشر كان بنو اسرائيل .. حيث انبثق عنهم خلال القرون الأنبياء والمرسلون .. حتى اختتم ذلك الفرع بالمسيح — عليه السلام — . نلاحظ أن النبوة انتقلت من ابراهيم .. إلى اسحاق .. إلى يعقوب .. إلى يوسف .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف ، نبى الله ، ابن يعقوب نبى الله ، ابن اسحاق نبى الله ، ابن ابراهيم خليل الله » . هذه هى السلسلة المباركة المتوالية .. وسكن يوسف مصر .. وعاش يوسف مائة وعشر سنين .. ودفن فى مصر .. ثم بعد ذلك يحدث فراغ .. من النبوة فى الشجرة .. ويتكاثر بنو إسرائيل جدا بمصر .. حتى يبلغوا نحوا من ثلاثة أرباع المليون .. ويستعبدهم فرعون مصر .. وأخيرا .. بعد نحو ٤٣٠ سنة من قدومهم إلى مصر .. ينبثق عن الشجرة نبى عظيم يعتبر أعظم نبى كان من هذه الشجرة بعد ابراهيم . . نبيا . . خرج من سبط لاوى . . اسمه . . وأرسل معه أخاه .. نبيا كذلك .. وكان اسمها ..؟ موسى..وهارون .


عمران
(تزوج يُوكابَد)
هارون
(من سبط لاوى)
كان ابن ٨٣ سنة
حين أرسل مع موسى إلى فرعون
مات عن ١٢٣ سنة
بعد خروج بنى إسرائيل من مصر
موسى
(من سبط لاوى)
كان ابن ٨٠ سنة
حين أرسل إلى فرعون
مات ابن ١٢٠ سنة
بعد خروجهم من مصر

موسى وهارون ؟!

هذان هما النجمان اللامعان ، اللذان انبثقا عن تلك الشجرة ، وأرسلهما الله إلى فرعون ، وحدث على يديهما تلك المعجزات الباهرات التي اشتهرت عنهما ..

ولما مات موسى .. أرسل الله فى بنى إسرائيل .. يَشُوع بن نون نبيا ..

وخلف موسى فى قومه ..

وهو المشار اليه فى القرآن بقوله « وإذ قال موسى لفتاه » ..

لأنه كان فى خدمة موسى ، وملازما له ..

ولذلك حكمة إلهية جليلة ..

أن يتلقى يشوع .. عن الكليم آداب النبوة .. وأنوار القلوب ..

حتى إذا ماصار نبيا .. كان مؤهلا لمقامه ..

ثم مات يشوعُ بن نون وهو ابن ١١٠ سنة .

ثم مازالت النبوات تتسلسل فى بنى إسرائيل .. كلما مات نبى قام نبى .. حتى انبثق من الشجرة ذلك النجم العظيم .. المسمى .. داوود .

وكان داوود ملكا نبيا ملك بنى إسرائيل أربعين سنة .. ثم مات .. وهو الذى أوتى الزبور أو المزامير .. ثم انبثق من الشجرة نجم آخر هو سليمان .. ابن داوود .. وكان كذلك ملكا نبيا .. على بنى إسرائيل .. وهو الذى وهبه الله ملكا لاينبغى لأحد من بعده ..

وورث سليمان داوود . ملكا .. ونبيا وكان ملكه عظيما .. وهو الذى بنى بيت الرب بعد ٤٨٠ سنة من خروج بنى إسرائيل من مصر .. « فتعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة » .

ثم قام فيهم أَلِيشعُ نبيا .. ولعله المذكور فى القرآن بقوله « والْيَسَع » .

وأيوب .. قام فيهم نبيا .. كذلك .

وقام فيهم إشَعْياء بنُ آموص .

وقام فيهم إرْميَا .

وقام فيهم حِزَقْيَال .

ثم قام فيهم دانيآل .

ثم قام هُوشع .

ثم قام يُوئيل .

ثم قام عَامُوس .

ثم قام عُوبَدْيَا .

ثم بعث فيهم يُونانُ بن أمتَّاى .. وبعثه إلى نينوى .. وهو يونس بن متى .

ثم قام فيهم مِيخَا .

ثم قام فيهم نَاحُوم .

ثم قام فيهم حَبَقُّوق .

ثم قام فيهم صَفَنْيَا .

ثم قام فيهم حَجّى .

ثم قام فيهم زكريا بن بَرَخِيَّا .

ثم قام فيهم مَلاَخِى .

ثم قام فيهم يحيى بن زكريا .

ثم قام فيهم عيسى بن مريم .. وهو المسيح عليه السلام .

وبذلك .. اختتمت النبوة فى ذلك الفرع .. فرع اسحاق .

هؤلاء بعض النجوم .. أومشاهير النجوم التى انبثقت عن فرع واحد من فرع شجرة إبراهيم .. فرع اسحاق .. وقدرأينا كيف أن النبوة لم تنقطع خلالها .. على فترات متفاوتات إلا أن الكلمة الباقية .. مستمرة فيهم .. يدعون اليها .. والكتاب مستمر فيهم .. تارة يستقلون بكتاب .. وتارة يتمون رسالات سابقيهم .. إلا أن الكتاب مستمر فيهم .

والآن نعود إلى ذلك الفرع الثانى .. فرع اسماعيل . لننظر ماذا كان منه .

ماذا كان من اسماعيل ؟!

تناسل طبيعى .. حتى كان محمد صلى الله عليه وسلم .. فختم الله به النبوة فى ذلك الفرع .. وفى غيره .. وفى النبيين جميعا .. لتلتقى البداية بالنهاية .. فبداية الشجرة إبراهيم . . ونهايتها محمد .. وبذلك تمت الدائرة .. دائرة النبوة واكتمل الاشعاع .. اشعاع الهدى .. فى ظلمات البشر وكان الأنبياء جميعا بينهما .. بين إبراهيم ومحمد . . كواكب .. تضىء فى زمانها .. حتى أشرقت الشمس .. فى سماء الحياة البشرية .. فنسخت أضواء تلك الكواكب كلها.

وحق قوله تعالى « ياأيها النبىُّ إنا أرسلناكَ شاهداً ، ومُبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذْنِهِ وسراجاً منيراً » [الأحزاب ٤٥ — ٤٦]

فمحمد صلى الله عليه وسلم هو السراج المنير.. شمس النبوات كلها .. وهم جميعا كواكب تدور فى الفلك . وصف الشمس بقوله «وجَعَلْنا سراجاً وَهّاجاً» [النبأ ١٣].. ووصف محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله « وسراجا منيرا » إشارة إلى أنه فى الأنبياء شمس .. تؤدى نفس الدور الذى تؤديه الشمس فى الكواكب ..إلا أنه سراج منير يعطى نورا .. لاوهج فيه .. لااحتراق فيه .. لا كما تتوهج الشمس نارا حارقة .

إجابة جميع دعوات ابراهيم ؟

ندخل . . الآن . . إلى فصل . . من أعجب فصول حياة إبراهيم . . فصل نلحظ فيه ظاهرة عجيبة ! أن إبراهيم لم يدع ربه بدعوة لااستجاب ربه لدعائه .. وحققها له .. وسوف نمر .. سريعا .. على جميع دعوات ابراهيم فى هذا الباب . . لننظر أصدقت تلك الظاهرة ؟

ومن ذريتى ؟!

هذا هو المطلب الأول لابراهيم .. أو الدعاء الأول للخليل .

قال تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلمات فأتمهُنَّ ، قال : إنى جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذُرِّيتى ، قالَ : لاينالُ عهدى الظالمينَ » . [البقرة ١٢٤]

ولا نعنى بالأول . الترتيب الزمانى .. كلا . . وإنما نعنى بالأول فى النماذج التى نعرضها من دعواته المستجابات .. ومن ذريتى ؟ . . أى : اجعل الامامة فى ذريتى ، كما جعلتها فىَّ اجعل النبوة فى ذريتى كما جعلتها فى ابراهيم .. إبراهيم يطلب .. إبراهيم يدعو ربه أن يجعل الامامة .. النبوة .. فى ذريته فماذا كان الجواب .. هل استجيب لدعائه ؟ نعم .. نعم .. مع تعليمه ماخفى عليه من النواميس الالهية .. لا ينال عهدى الظالمين ؟ .. سأجعل من ذريتك ياإبراهيم أئمة يهدون بأمرنا .. كما جعلتك للناس إماما .. ولكن سوف أحصر تلك الامامة وتلك النبوة . . فيمن كان أهلالها من ذريتك . . أما الظالمين من ذريتك . . فلن يكونوا أئمة ، ولن يكونوا انبياء .. لأنى قررت ناموسا عاما .. لاينال عهدى الظالمين .. لاتصيب النبوة .. من كان ظالما .. قل ظلمه أو كثر .. ظلم نفسه أوغيره . استجابة للدعاء .. وكشف للناموس .. وهكذا علم الله تعالى .. لايغيب عنه شىء .. أما إبراهيم . . مهما كان علمه . . فأين هو من علم الله ؟ فلزم التعليم .. والارشاد .. فنعم العلم علم ربه ونعم الارشاد ارشاده ، ولقد استجيبت تلك الدعوة وجعل الله النبوة والكتاب فى ذريته ــ عليه السلام ــ فما من نبى ولا كتاب من بعده الا فى ذريته !!!

اجعل هذا بلداً آمنا؟!

قال تعالى : « وإذْ قالَ إبراهيمُ : ربِّ اجْعَلْ هذا بَلداً آمِناً ، وأرزُقْ أهلَهُ من الثمراتِ مَنْ آمَنَ مِنهم باللهِ واليوم الآخر ،قال :ومن كفَرَ ، فأمَتعُهُ قليلاً ، ثم أضْطَرُّهُ إلى عذابِ النارِ ، وبئسَ المصيرُ . [البقرة ١٢٦]

وهذه دفعة ، من مطالب إبراهيم.. أودعوات إبراهيم وإذ قال إبراهيم ؟ ماذا قال.. ماذا دعا .. ماذا طلب ؟ اجْعل هذا بلدا آمنا .. فهل استجيبت هذه الدعوه ؟ نعم .. حرّم الله مكة . . حين طلب إبراهيم تحريمها . . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكد ذلك التحريم . . فهى حرام إلى يوم القيامة . . لايحل فيها قتال .. ولايقطع شجرها .. ولايجوز صيدها .. إلى غير ذلك مما يضمن الأمن فى تلك البلدة ! ! ثم ماذا؟ ثم دعا ابراهيم دعاء آخر . وارزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر . . فهل استجيب ذلك الدعاء ؟ نعم . . مع التصحيح لابراهيم . . تصحيح ماصادم الناموس . . طلب ابراهيم أن يرزق أهل مكة من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ! ! فصحح الله له المطلب . . قال : ومن كفر . . أى سأرزق ياابراهيم أهل مكة من الثمرات ، من آمن منهم . . ومن كفر لماذا ؟ فأمتعه قليلا ؟ ..أى اتركه الكفار يتمتعون فى هذه الحياة برزق .. كالبهائم.. ثم أضطره إلى عذاب النار .. ثم الجئه إلى الموت .. الذى يلجئه إلى دخول النار .. جزاء كفره وبئس المصير.. وهو اسوأ مصير يصير إليه إنسان .. هناك إذا استجابة للدعاء .. مع التصحيح .. إبراهيم يريد أن يحصر الله تعالى الرزق فى المؤمنين .. والله يقول له : كلا.. ان الرزق للجميع ياابراهيم .. سأرزق من آمن .. ومن كفر.. ثم كشف له السر .. فأمتعه قليلا ، ثم اضطره ..مسائل رفيعة جدا .. حوار يدور بين خليل الرحمن .. قمة البشر .. أعلم أهل زمانه .. وبين الله .. رب الأرباب .. الذى وسع كل شىء علما .. وحوار كهذا يعتبر فى تقديرى أمتع .. وأحلى .. وألذ .. وأجمل.. وأشهى .. مايتصور بشر !! لماذا . لأنه أعلى مستوى من التفكير .. يمكن أن يصل اليه علم انسان .. وإذا كان هدف البشرية كلها فى

مجهوداتها العلمية المتواصلة هو أن تحقق ادراكا أكبر لحقائق هذه الحياة .. فان هذا الحوار الذى دار بين ابراهيم .. ذروة العلم البشرى .. والله .. الذى أحاط بكل شىء علما .. يعتبر حصيلة هائلة .. رائعة .. من المعارف التى لا يمكن أن يرقى اليها بشر .. ابراهيم .. رغم جلالة قدره فى العلوم اللدنية .. والمعارف الالهية .. يتواضع فى طلبه .. ويحدد المطلوب رزقهم بالثمرات بالمؤمنين .. والله .. الذى يعلم مالا يعلم ابراهيم .. والذى يعتبر علم ابراهيم والخلائق أجمعين إلى علمه سبحانه .. كنقرة عصفور فى محيط .. يرفع من معلومات ابراهيم .. ويزيده علما .. ويعلمه .. فيقول : ومن كفر .. ماأحلاها .. وماأعلاها .. وما أسماها !! إنه الله .. يتكلم .. بالناموس الذى قرر .. ومن كفر ؟! انها نظرية عموم الرزق ..أو ناموس الرزق للجميع . . وهذا هو المشاهد دائما . . هذه هى البشرية الأغلبية منها تكفر ربها .. ومع هذا أرزاق الله تعالى نازلة اليها .. من السماء .. والأرض .. لا تتوقف !! ماهذا ؟ انه ناموس « ومن كفر » .. ماأوسع رحمتك ربى .. وماألطف حكمتك !! وسمعها ابراهيم .. وعلم منها مالا نستطيع نحن جميعا .. سكان هذه الأرض أن نعلم .. فكانت فى قلبه .. بحارا من الأنوار الالهية .. التى تكشف له كثيرا .. كثيرا .. من أسرار النواميس .. إنه الله !! الله .. يتكلم مع من اتخذه خليلا ؟!

تقبل منا ؟!

قال تعالى « وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ منَ البيتِ وإسماعيلُ : ربنا تقبَّلْ منا ، إنَّكَ أنتَ السميعُ العليمُ . » [البقرة ١٢٧]

وهذا دعاء آخر .. لابراهيم .. وقد انضم اليه فيه .. ابنه البكر .. الذبيح . . اسماعيل — عليه السلام — .. فتموج الدعاء إلى ربهما يحمل اخلاص الخليل .. واسلام الذبيح .. فكيف كان ؟! تقبل منا ؟!! فيها أنوار عجيبة .. فيها التمسكن لله .. وهو أغلى ما يكون من المشاعر فى قلوب العباد .. وفيها الافتقار اليه .. وهو مقام رفيع لا يكون إلا من صفوة العباد ..وفيها عدم رؤية الأغيار .. ورؤية الله وحده .. وهو مقام لا يرتفع اليه إلا من أهله الله لذلك . . وفيها الالتجاء اليه .. واستصغار الأعمال بالنسبة اليه .. وعدم رؤية العمل مهما

كان عظيما .. وفيها الخوف والرجاء .. والأمل .. والحب .. وفيها أنوار بعيدة جدا .. لا نستطيع الوصول اليها .. بطاقاتنا البشرية المادية .. فهل استجيب لهما ؟ وأى استجابة ؟ ! تقبل منهما ذلك البيت الذى يرفعان قواعده أحسن قبول . . فجعله قبلة لكل من أراد التوجه اليه تعالى بصلاة فى هذه الأرض ! وجعله أكرم مكان فى الأرض عليه ! وجعل حجه فريضة على كل إنسان إلى يوم القيامة .. و.. و .. و.. فأى قبول بعد هذا القبول ؟!

اجعلنا مسلمين لك ؟!

ثم يقول تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمَيْنِ لكَ ، ومن ذريتنا أمةً مسلمة لكَ ، وأرِنا مناسِكنا وتُبْ علينا ، إنك أنت التوابُ الرحيمُ . » [البقرة ١٢٨]

هذه جملة مطالب لابراهيم واسماعيل .

المطلب الأول .. اجعلنا مسلِمَيْنِ لك .

المطلب الثانى .. ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .

المطلب الثالث .. أرنا مناسكنا .

المطلب الرابع .. تب علينا .

أما عن الأول .. فقد استجيب على أعلى وأرفع ما يكون الاسلام لله .. انهما يسألان ربهما أن يزيدهما من فضله .. ان يثبتهما على الإسلام له .. وان يزيدهما تثبيتا واسلاما .. ما كان إبراهيم ولا اسماعيل غير مسلمَيْن لله .. وانما يريدان أن يزدادا اسلاما له .. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإلتجاء له سبحانه .. فيزيدهم نورا على نورهم .. ويرفعهم درجات على درجاتهم .. فيزدادوا له تسليما .. ولقد استجاب الله لهما أحسن الاستجابة .

ومن ذريتنا .. أمة .. مسلمة لك ؟!

هذا هو المطلب الثانى .. فهل استجيب ؟ وأى استجابة ؟ . هذه الأمة الرائعة .. أمة محمد صلى الله عليه وسلم .. التى بدأت به صلى الله عليه وسلم .. ومازالت تتمدد فى المشارق والمغارب .. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. هذه هى الأمة .. قد حققها الله تعالى

لهما .. من ذريتهما .. فاسماعيل أبوالعرب .. ومحمد .. هو ابن اسماعيل بن ابراهيم .. وهو من ذريتهما .. وهو رأس هذه الأمة .. وأول المسلمين .

وهذه الأمة الاسلامية .. من ورائه .. لا أول لها ولا آخر .. فأى استجابة . . وأى قبول ؟ وأى دعاء كان هذا الدعاء ؟.

ويعلمنا الله تبارك وتعالى فيقول : « وجاهدوا فى الله حقَّ جهادِهِ ، هو اجتبا كم ، وما جَعَلَ عليكم فى الدين من حَرَجٍ ، مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ ، هو سَمَّا كُمُ المسلمينَ مِن قَبْلُ .. » [الحج ٧٨]

إبراهيم اذن هو الذى سمانا المسلمين من قبل .. وقت أن دعا واسماعيل ذلك الدعاء : ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . فكان تحقيق ذلك . . تلك الأمة الإسلامية العظيمة .. التى جاءت تصحيحا للعقائد كلها .. تحمل لواء الاسلام لله .. وحده لاشريك له .

هذا هو أوسع مدى لتحقق ذلك الدعاء .. ولايمنع ذلك من تحققه نسبيا .. فى تلك الأمة التى كانت من نسل إسماعيل على دين ابراهيم .. قبل أن يبدل العرب دين أبيهم ويعبدوا الأصنام .. وقبل أن يبعث الله فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم .. إلا أن التحقق الأعظم كان هذه الأمة الإسلامية .

أرنا مناسكنا ؟!

هذا هو المطلب الثالث .. فهل استجيب ، وهل تحقق ؟ نعم .. نعم .. لقد علمهما الله مناسكهم .. معالم عباداتهما .. وتعلمت الأمة من ورائهما تلك المعالم .

فكل ماشرع الله لابراهيم .. واسماعيل .. هو من هذه المناسك .. إلا أن هناك لطيفة فى قولهم « أرنا » لم يقولا « علمنا » وانما « أرنا » .. لماذا ؟ لعلهما يريدان أن يريهما الله تعالى تلك المناسك .. أن يكشف لهما أسرار العبادات التى تعبدهم ويتعبدهم بها .. يريدان أن يكشف لقلوبهما مافيها من أنوار .. وأسرار .. أى أنهما يطلبان مايناسب مقامهما .:. يريدان أن يريا بعيون قلوبهما تلك المناسك كلها .. فلا تكون عباداتهما مجرد حركات وسكنات بالأجسام .:. ولكن عبادات بالقلب .. فيها أنوار القلب .. وأسرار الروح .

وذلك لايكون إلا بمنحة من الله .. بفضل منه .. يهبه لمن شاء من عباده .. فهل تفضل الله عليهما بذلك ؟ نعم .. نعم .. لقد كان قلب ابراهيم هو القلب السليم .. وكان قلب اسماعيل .. هو القلب السليم .. فى الذروة .. من الكشف .. والعلم بالله .. أرنا ؟!! اجعل فى قلوبنا نورا من نورك نراك به .. وندرك من أسرارك .. مطلب !! .. ياله من مطلب ! لايكون إلا من ابراهيم .. واسماعيل !!

تب علينا ! ؟

هل كان ابراهيم واسماعيل مذنبين حتى يتوب الله عليهما ؟ حاشاهما .. ما كانا مذنبين .. وما ألما بذنب .. وإنما هما يطلبان الترقى فى المقامات .. والرفعة فى الدرجات .. فهل استجاب الله لهما ؟ نعم . . نعم . . بنص قوله « نَرْفَعُ درجاتٍ من نشاء » .. ولقد رفعهما مارفعهما .. أمافى الدنيا .. فهما الذكر العاطر .. والصيت الذائع .. إلى يوم يبعثون .. وأما فى الآخرة .. فهو وحده سبحانه الذى يعلم المقام الذى رفعهما اليه .. وهكذا استجيبت تلك الدعوات الأربع .. كما استجيبت غيرها !!!

ابعث فيهم رسولا منهم ؟!

قال تعالى : « ربنا وابعَثْ فيهمْ رسولًا منهمْ يتلو عليهمْ آياتِك، ويعلمهُمُ الكتابَ والحكمة ويزكّيهمْ ، إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ » [البقرة ١٢٩]

فهل استجيبت ! نعم .. نعم .. فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو دعوة أبيه ابراهيم، واسماعيل .. سألا أن يبعث فيهم رسولا .. فبعث محمدا صلى الله عليه وسلم .. وسألا أن يكون منهم .. فكان منهم .. عربيا .. من سلالة ابراهيم واسماعيل .. وسألا أن يتلو عليهم آياته .. فجاء بالقرآن معجزته الخالدة . وسألا أن يعلمهم الكتاب . فبين محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب خير بيان .. ووضح للناس مانزل اليهم .. وسألا أن يعلمهم الحكمة .. فكانت سنته الشريفة أعلى أنواع الحكمة .. وأحسن أنواع التطبيق .. وسألا أن يزكيهم .. فكان

محمد صلى الله عليه وسلم .. خير من زكى أمته .. وأرشدها طريق الخير والتطهر والسمو .. وهكذا .. كما سألا .. استجيب لهما .. وزيادة .. !!

ولقد امتن الله على هذه الأمة تلك المنة فى كتابه الكريم فقال : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ، يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب ، والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم ، واشكروا لى ، ولا تكفرون . » [البقرة ١٥١ — ١٥٢]

تأمل .. انها هى .. هى .. نفس ماطلبه ابراهيم !! هناك .. ربنا وابعث فيهم رسولا منها .. وهنا .. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم .. هذه .. هى تلك !! وهناك .. يتلو عليهم آياتك .. وهنا .. يتلو عليكم آياتنا .. هذه .. هى تلك !! وهناك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. وهنا .. ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة .. هذه .. هى تلك !! ثم زاد الله تعالى هذه الأمة خيرا ، فوق ما طلب ابرهيم .. تكريما لابراهيم .. ولمحمد صلى الله عليه وسلم .. فقال « ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون » .. مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحى . أى أعطيتكم ماسبق أن طلبه ابراهيم .. وزدتكم تلك الأفضال العظمى .. من الوحى العظيم .. الذى بثه فيكم محمد صلى الله عليه وسلم !! « فاذكرونى » بالطاعة قلبا وقالبا ، فيعم الذكر باللسان والقلب والجوارح وقال أهل الحقيقة : حقيقة ذكر الله تعالى أن ينسى كل شىء سواه . « أذكركم » أى أجازكم بالثواب . « واشكروا لى » ماأنعمت به عليكم إنما قدم الذكر على الشكر لأن الذكر اشتغالا بذاته تعالى . وفى الشكر اشتغالا بنعمته والاشتغال بذاته تعالى أولى من الاشتغال بنعمته . « ولا تكفرون » بجحد نعمتى وعصيان أمرى .

أرنى كيف تحيى ؟! .

وهذا دعاء آخر .. أو مطلب عظيم من مطالب إبراهيم من ربه .

قال تعالى : « وإذْ قال إبراهيمُ : ربِّ أرِني كيفَ تُحْيِي الموتى . قال : أوَلَمْ تؤمِن ؟ قال : بلَى ، ولكن ليَطْمَئِنَّ قلبي ، قال : فخُذْ أربعةً من الطيْرِ فصُرْهُنَّ إليك ثمَّ اجعَلْ على كلِّ جبَلٍ منهُنَّ جُزْءاً ، ثم ادعُهُنَّ يأتِينَكَ سَعْياً . واعلَمْ أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ » . [البقرة ٢٦٠]

ابراهيم يسأل : أرنى كيف تحيي الموت ؟ وعلى الفور .. كانت الاستجابة .. « فخذ اربعة من الطير .. يأتينك سعيا » !!! ويمكن أن يقال هنا أن الاستجابة هنا كانت استجابة فورية ..أو ذرية بلغة العصر الحديث .. أرنى .. خذ أربعة من الطير .. يريد أن يرى .. فأراه .. تجريبيا .. وبأسرع مايمكن .. ثم علمه فى النهاية .. نهاية التجربة واعلم أن الله عزيز حكيم.. لايعجزه شىء .. ولايصنع الامافيه حكمة .. ولقد أشرنا إلى هذه التجربة هنا كنموذج لاجابة دعوات ابراهيم أما تفصيلها فقدم فى ثنايا ذلك الكتاب .. ولاداعى إلى اعادته .

ياابراهيم .. أعرض عن هذا ؟!

وهذا أنموذج آخر لدعاء صدر عن ابراهيم .. وهو فى الواقع رجاء .. وليس بدعاء ..

قال تعالى : «فلما ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ ، وجاءتهُ البشرَى، يجادِ لنا فى قوم لوطٍ، إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ ، أوَّاهٌ ، منيبٌ. ياإبراهيمُ أعْرِضْ عنْ هذا ، إنَّهُ قدْ جاءَ أمرُ ربِّك ، وإنهم آتيهمْ عذابٌ غيرُ مردودٍ ، [هود ٧٤ — ٧٦]

هذا فى الواقع رجاء .. أو شفاعة .. وليس دعاء .. ابراهيم علم أن الملائكة جاءوا لاهلاك قوم لوط .. فجعل ابراهيم يجادل عنهم : . « إنَّ فيها لوطا ».. قالوا : نحن أعلم بمن فيها .. لننجينه ، وأهله أجمعين .. يريد ابراهيم أن يشفع فيهم .. لعله يؤخر عذابهم .. ولكى لايمس ذلك العذاب لوطا والذين آمنوا معه .. فهل قبل منه ذلك الرجاء .. أو تلك الشفاعة ؟! كلا .. بل كان الرفض صريحا .. يا إبراهيم أعرض عن هذا .. أعرض عن مجادلتك فى القوم .. لاتحاول رجاءنا فيهم.. إنه قد جاء أمر ربك.. إنه قدتقرر التنفيذ .. وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .. لايمكن دفعه عنهم .. لماذا رفضت هذه الشفاعة .. وهذا الرجاء ؟ لأن ابراهيم دفعته الرأفة والشفقة أن يطلب تأخير العذاب عنهم .. وهذا مصادم للناموس العام .. الذى قرر اهلاك الظالمين .. ولأن فى اهلاكهم رحمة للعالمين .. وعبرة للمخالفين .. إن فى ذلك لآيات للمتوسمين .. أى عبرة للمتفكرين ..

فلما أن صادم رجاء إبراهيم .. الناموس العام .. رفض .. وكان الرفض صريحا ..

« ياإبراهيم .. أعرض عن هذا » .. لاتحاول هذا الذى تحاوله .. لأنه يصادم الناموس العام .. وكان هذا تعليما لابراهيم .. وإرشادا له .. أن الحلم لايصلح فى كل حال.. وأن الشدة لازمة أحيانا .. وأن الله أعلم بما يصلح للعباد .. وكانت هذه احدى المرات التى رفض فيها دعاء، أورجاء لابراهيم .

أما المرة الثانية .. التى رفض فيها دعاء لابراهيم .. فقد كانت .

رفض استغفار ابراهيم لأبيه ؟!

وهذا أعجب .. وأعجب .

قال تعالى «ماكان للنبيِّ والذينَ آمنوا أن يستغفروا للمشركينَ ولو كانوا أولى قربى من بعدِ ماتبيَّنَ لهمْ أنهم أصحابُ الجحيم .وماكانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلاعن مَّوْعِدَةٍ وَعدَهَا إيَّاهُ ، فلما تبينَ لهُ أنه عدوٌّ للهِ ، تبرَّأ منهُ ، إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ » .

[التوبه ١١٣ و ١١٤]

سأستغفر لك ؟!

قال تعالى: «قالَ: سلامٌ عليكَ ، سأستغفرُ لكَ ربى، إنه كان بى حَفيا. وأعتزِلكُمْ وما تدعونَ من دونِ اللهِ ، وأدْعو ربى ، عَسَى ألا أكونَ بدعاء ربى شقياً » .

[مريم ٤٧ — ٤٨]

« سأستغفر لك ربى » اى استدعيه سبحانه أن يغفرلك. « إنه كان بى حفيا » بليغا فى البروالاكرام « وأدعوربى » اعبده سبحانه وحده « شقيا » خائبا ، ضائع السعى .

واغفر لأبى ؟!

هذا هو مادعا ابراهيم به .. وفاء بوعده لأبيه .. سأستغفرلك ..

قال تعالى : « واغفِرْ لأبى ، إنهُ كانَ من الضالينَ. ولاتخزنى يوم يبعثونَ » .

[الشعراء ٨٦ — ٨٧]

« ولا تخزنى يوم يبعثون » بتعذيب أبى يوم القيامة .. فهل استجيب ؟ .. كلا .. بل على العكس .. سوف يمسخ أبوه ضبايوم القيامة !!! وأبوه هذا .. هو من ؟ هو بالتبعية أبو الأنبياء جميعا .

فهو آزر .. أبوابراهيم .. وابراهيم أبو الأنبياء .. ومع هذا كله .. سوف يعذب .. وسوف يمسخ ضبا .. لماذا ؟ .. لأن هذا هو العدل الالهى .. وهذا هو الناموس العام .. فليفهم ذلك اولئك الضائعين .. الذين يتمنون على الله الأمانى .

إلا قول ابراهيم لأبيه ؟!

إلا هذه .. وهذه فقط .. لا يعتبر إبراهيم فيها أسوة حسنة .. لا ينبغى الاقتداء به فى ذلك القول .. ولا ينبغى الاستغفار للمشرك .. ولوكان ذا قربى .. ولوكان أبا .. أوأما .. أوابنا .. أوأخا .. لأن ذلك يصادم الناموس العام .. ان الله لايغفر أن يشرك به ..

قال تعالى : « قَدْ كانتْ لكُمْ أُسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيمَ والذينَ معَهُ ، إذْ قالوا لقومِهِمْ إنَّا برَآءُ منكُمْ ، ومما تعبدونَ من دونِ الله ، كفَرْنا بكُمْ ، وبَدا بيننا وبينَكُمُ العداوةُ والبغْضاءُ أبداً ، حتى تؤمِنوا باللهِ وحدَهُ ، إلا قولَ إبراهيمَ لأبيهِ لأستغفِرَنَّ لكَ ، وما أملكُ لكَ من اللهِ من شىء ، ربنا عليك توكّلْنا ، وإليْكَ أنبنا ، وإليْكَ المصيرُ » .
[الممتحنة ٤]

« إلا قولَ إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » استثناء من قوله (أسوة حسنة) أى أن ابراهيم أسوة . الا فى استغفاره لأبيه . فانه لاينبغى الاقتداء به . قيل : إن ابراهيم عليه السلام لما أجاب قول أبيه (لأرجمنك واهجرنى مليا) بقوله (سأستغفر لك ربى) رحمة ورأفة به ولم يكن عارفا باصراره على الكفر ، وفى بوعده . وقال (واغفر لأبى) فلما تبين اصراره ترك الدعاء وتبرأ منه .

- وقيل : لكم أسوة حسنة فى ابراهيم وأموره إلا فى استغفاره لأبيه المشرك والمعنى : إن لكم الاقتداء بابراهيم عليه السلام والذين معه فى البراءة من الكفرة ، لكن استغفاره

للكافر ليس لكم الاقتداء به فيه ، ومآله يجب عليكم البراءة ، ويحرم عليكم الاستغفار ، وابداء الرأفة « وماأملك لك من الله شيء » لأستغفرن لك ، ومافي طاقتي إلا هذا ، وفيه أنه لو ملك اكثر من ذلك لفعل ، وعلى هذا فهو حقيق بالاستثناء

رفض دعاء ثالث؟!

قال تعالى : « وإذْ قال إبراهيمُ : ربِّ اجعلْ هذا البلد آمناً ، واجنبْنِي وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام » . [إبراهيم ٣٥]

هذا دعاء ذوشطرين .. شطر استجيب باكله وهو « اجعل هذا البلد آمناً » .. وقدم تفصيله .

وشطر استجيب في بعض دون بعض .. وهو قوله « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » لقداستجاب الله له في بعض ذريته .. فلم يعبدوا الأصنام .. ولم يشركوا بالله .. أما باقي ذريته .. فلم يستجب له فيهم .. وكان منهم عباد الأصنام .. والمشركون بالله .. كهؤلاء العرب من ولد اسماعيل الذين كانوا يعبدون الأصنام . وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم غرق إلى آذانهم في عبادتها وجهالتها .

لماذا ؟ لأن هذا المطلب يصادم الناموس العام .. لماذا .. لأن الناموس العام قرر أن يكون هناك من الناس المؤمن والكافر .. فلا يعقل أن يكون كل بني إبراهيم وذريته مؤمنين .. وإنما المعقول أن يكون بعضهم مؤمنين .. وهذا ما كان !!!

فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم

قال تعالى : « .. فاجْعَلْ أفئدةً من الناسِ تهوى إليهمْ ، وارزقهم منَ الثمرات ، لعلهم يشكرونَ » . [ابراهيم ٣٧]

وهذا دعاء لابراهيم مستجاب .. لماذا .. لانه ماضٍ مع الناموس العام .. اجعل افئدة من الناس .. لم يقل .. اجعل افئدة الناس .. وانما من الناس .. بعض الناس .. لا كلهم .. وهذا شيء طبيعي معقول .. وقد كان .. استجاب الله له .. فهذه الافئدة التي تهوى .. إلى

البيت شوقا .. كل عام .. هى استجابة دعائه عليه السلام .. وهذه القلوب تتجه فى شوق إلى القبلة : إلى الكعبة .. فى كل صلاة .. هى من استجابة هذا الدعاء .. « وارزقهم من الثمرات » .. دعاء مستجاب كذلك .. وقدمر تفصيله قريبا .

اغفر لى ولوالدى ؟!

ويقول تعالى : « ربِّ اجعَلْنِي مُقيمَ الصلاةِ ، ومن ذُرِّيتي. ربنَا وتَقبلْ دعاءِ . ربنا اغفِرْلى ولوالِدَىَّ . وللمؤمنينَ يومَ يقومُ الحسابَ . [ابراهيم ٤٠ ـ ٤١]

وتلك دعوات مستجابات .. اجعلنى مقيم الصلاة .. استجيبت .. فمن ذا الذى يقيم الصلاة كاملة إن لم يكن إبراهيم ؟ ومن ذريتى . . استجيبت .. فاولئك الأنبياء من ذريته .. وتلك الأمم من اتباعهم . . يقيمون الصلاة حتى الآن . . وإلى يوم القيامة . . فأى استجابة بعد هذا؟! « تقبل دعاء » .. استجيب فما من دعوة دعابها إبراهيم الا استجاب الله له فيها .. إلا هذه الدعوات المعدودة التى جاءت مصادمة للناموس الالهى . . كاستغفاره لأبيه .. واستشفاعه لقوم لوط .

اغفرلى .. استجيب .. فقدغفر الله تعالى له ذنوبه كلها .. وإلا لمارفعه إلى مقام الخليل .. « ولوالدى » أى لأمى وأبى .. قيل أن أمه كانت مؤمنة .. فلا اشكال .. وأما استغفاره لأبيه فقد قيل فى الاعتزار عنه أنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه ، والله تعالى قد حكى ماقاله عليه السلام فى أحايين مختلفة . . اذن هذا الشطر من دعائه لم يستجب .. لم يغفر لأبيه .. لأن الله لايغفر أن يشرك به . . وللمؤمنين .. استجيب لأنه يدعو للمؤمنين كافة من ذريته وغيرهم . والله تعالى يغفر للمؤمنين يوم يقوم الحساب .

لا تخزنى ؟!

قال تعالى : « رَبِّ هَبْ لى حُكمًا ، وألحقنى بالصالحينَ . واجعَل لى لسانَ صدْقٍ فى الآخِرين . واجعَلْنى منوَرَثةِ جنة النعيم . واغفِرْ لأبى ، إنه كانَ منَ الضالين . ولا تخزنى يومَ يبعثون » . [الشعراء ٨٣ ـ ٨٧

وهذه دعوات استجيبت كلها .. على أوسع مايكون من الاستجابة .. الا قوله « واغفر لأبى » .. لأنها صادمت الناموس الإلهى .· إن الله لايغفر أن يشرك به .. هب لى حكما .: اعطنى الحكمة التى هى كمال القوة العلمية بان يكون عالما بالخير لأجل العمل به .. أعطنى كمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شئونك سبحانك .. ولقد أعطاه .. وعلمه من الله مالم يكن يعلم .. وكشف له العجائب والأسرار .. حتى كان لله خليلا .. اجعل لى لسان صدق فى الآخرين .. استجيبت .. أى اجعل ذكرى الجميل فى الدنيا .. وقد كان .. فامن أهل دين إلا ويثنون على ابراهيم !! اجعلنى من ورثة جنة النعيم .. استجيب .. فهو صاحب المقام الأعلى فيها .. ولا يفضل عليه فيها .. إلا محمدا صلى الله عليه وسلم .. اغفر لأبى انه كان من الضالين .. لم تستجب .· لأنها خلاف الناموس الالهى .. كما قدمنا .. ولا تخزنى يوم يبعثون .. بتعذيب أبى يوم القيامة .. ان كان هذا هو المراد .. فلاخزى يلحق ابراهيم فى ذلك .. لأنه لاتزر وازرة وزر أخرى .. أو بمعاتبتى على مافرطت ، أو بنقص رتبتى عن بعض الوراث .، فإن كان هذا هو المقصود .. فقد استجيب له فى ذلك .. فانه من كبار المكرمين يوم يبعثون .. إنّ له مقاما وحده .. إنه الخليل .

انى مهاجر الى ربى ؟!

استجيب ذلك الدعاء .. أو ذلك الرجاء .. أو ذلك التوجه .. أو ذلك الحال .. فليس حتما أن يكون الدعاء لفظا باللسان .. وانما قد يكون حالا بالقلب .. أو نية بالفؤاد .. أو إضمارا فى النفس .. كل أولئك يمكن أن يكون دعاء .. فكيف إذا صدر عن الأنبياء .. وكيف إذا كان ابراهيم ؟؟

قال تعالى : « فَآمَنَ لهُ لوطٌ ، وقالَ : إِنِّى مُهاجِرٌ إلى ربِّى ، إنهُ هو العزيزُ الحكيمُ . ووهَبْنا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ ، وجعَلْنا فى ذرِّيتهِ النبوَّةَ والكتابَ ، وآتيْناهُ أجْرَهُ فى الدُّنيا ، وإنهُ فى الآخرةِ لمِنَ الصالحينَ .» [العنكبوت ٢٦ — ٢٧]

ابراهيم .. يقول : إنى مهاجر إلى ربى .. انها عزيمة .. ارادة .. نية .. توجه ..

إن قلبه يريد أن يتجه إلى الله .. إن فؤاده يريد الله وحده .. هذا التوجه الباطن .. الصادق الخالص .. استجاب الله تعالى له على الفور .. قربه اليه .. ورفعه درجات .. وآتاه .. وهداه .. واجتباه .. وانظر إلى سلسلة الاستجابات .. والتحققات .. ووهبنا له إسحاق ويعقوب .. على أثر توجهه هذا .. وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب .. على أثر توجهه الينا .. انه يريدنا فلابد أن نكرمه بمالا يخطر على باله .. كتب .. نبوات .. رسل .. أئمة. سلاسل متدافعة من النور .. فى ذريته .. فإذا ؟ لأنه أرادنا .. لأنه هاجر الينا .. وآتيناه أجره فى الدنيا .. استجابة أخرى .. ليس فقط أعطيناه ذرية .. وجعلنا فى تلك الذرية النبوة والكتاب .. وانما كذلك سنرزقه فى الدنيا .. ونؤتى أولاده فى الدنيا .. وآتينا آل ابراهيم ملكا عظيما .. وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .. استجابة أخرى .. لتوجهه .. لدعائه .. إنه عندنا فى الآخرة من كبار كبار الكاملين فى الصلاح .. لاينقص ماأعطيناه فى الدنيا شيئا من حظه فى الآخرة .. استجابات .. استجابات .. عطايا .. متتابعات .. لماذا ؟ لأنه أرادنا .

هب لى من الصالحين ؟!

قال تعالى : « ربِّ هَبْ لى من الصالحين . فبشرناهُ بغلامٍ حليمٍ . »

[الصافات ١٠٠ — ١٠١]

دعاء آخر .. فهل استجيب ؟ نعم .. نعم .. بنص القرآن .. هب لى .. فبشرناه بغلام .. هو يطلب ولدا صالحا .. فتأتيه البشرى مباشرة .. فبشرناه بغلام حليم .. أبرز صفات هذا الغلام أنه حليم .. ويرث عن أبيه تلك الصفة الكريمة .. فكان اسماعيل عليه السلام .. فهل وقفت الاستجابة عند هذا الحد ؟ . كلا .. بل زاده الله من فضله .. فبشره بعد ذلك بسنين .. حيث لم يك يتوقع أن يعطيه شيئا بعد اسماعيل .. بشره باسحاق .. بغلام آخر .

قال تعالى : « وبشرْناهُ باسحاقَ ، نبيا ، من الصالحينَ . وباركنا عليه ، وعلى إسحاقَ .. » [الصافات ١١٢ — ١١٣]

وهذه استجابة فوق ماطلب .. انه طلب غلاما واحدا .. فأعطاه .. ثم زاده آخر .. فوهبه اسحاق .. ثم زاده من فضله .. فجعله نبيا كذلك من الصالحين .. ثم زاده فبارك على ابراهيم نفسه .. ثم زاده .. فبارك على اسحاق .. وكذلك الله سبحانه .. إذا أعطى .. أعطى بغير حساب !!

الا الذى فطرنى ؟!

وهذا أعجب دعاء .. ولكنه ليس بدعاء .. وانما هو اتجاه .. فى قلب ابراهيم .. وفى روحه .. وسر فؤاده .. فكان عند الله دعاء .. وأقوى الدعاء ما كان سرا .. يتموج من الفؤاد إلى رب العالمين .. ماهو هذا السر ؟

قال تعالى : « وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ وقومِهِ : إنَّنى بَراءٌ مما تعبدونَ . إلا الذى فَطرَنى ، فإنَّهُ سَيهدينِ . وجَعَلَها كلمةً باقيةً ، فى عقبهِ ، لعلهم يرجعونَ . »
[الزخرف ٢٦ — ٢٨]

هذا هو السر .. الذى تموج من روح ابراهيم .. من أعماق فؤاده .. من صميم كيانه .. إلى الذى فطره ..

إنه برىء مما يعبد الناس جميعا ..
إنه برىء من كل شىء ..
إنه لايعرف إلا الذى فطره .. إلا الذى أوجده من عدم ..
إنه لايتجه إلا اليه .. ولا يعبد إلا إياه ..

وإنه يرجو لذلك أن يهديه .. بل هو يوقن أن هناك حتمية أن يهديه الله مادام هو يتجه اليه وحده .. « فانه سيهدين » .. تأكيد .. بانه سوف يهديه .. مادام هو متجها اليه .. وحاله هكذا .. أنه برىء مما يعبد كل الناس .. إلا الذى فطره .. لايعرف إلا إياه .

فماذا كانت الاستجابة ؟ ..
عجبا .. ولا عجب من أمر الله ..

وجعلها كلمة باقية فى عقبه .. كانت هذه هى الإستجابة !!

إن الله علم ماذا بقلب ابراهيم ؟ .

ماذا يريد ابراهيم ؟ .

إلى من يتجه ابراهيم ؟ .

فلما أتم ابراهيم كل ذلك .. واتجه بأسرار فؤاده .. وصميم كيانه اليه ..

جعل الله تعالى ذلك الإحساس . . ذلك التوجه الخالص اليه .. ذلك التوحيد الصافى المجرد .. الذى ترجمته اللفظية .. لا إله إلا الله .. جعل ذلك كله كلمة باقية .. خالدة .. فى نسله .. وتلألأت أجيالا فى صورة أنبياء .. أو رسل .. أو كتب .. أو أئمة .. أو هداة .. أو اتباع مؤمنين .. أو أمم مسلمة !!

واتخذ الله ابراهيم خليلاً ؟

هذا فى ظنى .. أخطر باب من ابواب تلك الشخصية العجيبة .. إبراهيم .. وهو باب مغلق لاأحسب ان أحداً يستطيع فتحه .. إلا أن يأذن الله له فى ذلك .. بأن ذلك شىء أعطاه الله ابراهيم .. وخصه به.. ولم يعطه أحداً سواه.. فهو مقامه وحده .. فكيف يتأتى لأمثالنا .. ونحن فى الحضيض .. أن نذوق .. أوندرك ذلك المستوى ؟! ولقد قالوا أقوالهم فى شأن الآية .. ونثروا ماعندهم فى تفسيرقوله تعالى « واتخذ الله إبراهيمَ خليلا » .. فجاءت كلها . . لاتؤدى إلى شىء يأنس اليه الفؤاد !! قالوا : خليلا .. أى أحب الله ابراهيم حبا شديدا . . وأحب إبراهيم ربه حبا شديدا . . فهل هذا شيء يقال ؟ وماذا يريدون بقولهم أن الله أحب ابراهيم ، فأحب ابراهيم الله ؟ . . إن ذلك يتحقق لكثير من الناس . فبأى شىء امتاز ابراهيم عن سائر الناس ؟ قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » .. إذا هذا شىء تحقق للكثير . . وليس ميزة لابراهيم !! وقالوا : خليلا . . أى تخلل حب الله كل قلبه . . وماذاك ؟ فإن النملة .. يتخلل حب الله شغاف قلبها .. فبأى شىء امتاز ابراهيم ؟ وقيل .. وقيل.. وكلها متاهات .. تتيه فيها العقول .. ولا تبصر شيئا !! لماذا لأن الذين يتحدثون .. ويفسرون . . كلهم . . دون استثناء . . دون مقام ابراهيم .. دون مقام الخلة . . فكيف يتحدثون عن شىء لم يذوقوه ؟

ولندخل الآن إلى الآية المحكمة .. التى سجل الله تعالى فيها ذلك الأمر لابراهيم .. لعلنا ندرك من خلالها شيئا .. يهدينا سواء السبيل . .

قال عز من قائل : « وَمَنْ أحسنُ ديناً مِمَّنْ أَسلمَ وجْهَهُ لله ، وهُوَ مُحْسِنٌ ، واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً ، واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً » [النساء ١٢٥]

هذه الآية .. هى رأسمالنافى أشق بحث نخوضه ..فى تلك الشخصية العجيبة !!! يسجل الله تعالى أنه لايوجد دين أحسن من ذلك الدين .. فما هو ذلك الدين الذى هو أحسن دين ؟ هو « من أسلم وجهه لله » . . اذن الذى أسلم وجهه لله . . هو أحسن الناس دينا .. «ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله»أى أخلص نفسه له تعالى ، لايعرف لها ربا سواه وقيل:

أخلص توجهه له سبحانه وقيل: بذل وجهه له عز وجل فى السجود والمقصود مدح من فعل ذلك على أتم وجه وفيه تنبيه على أن صرف العبد نفسه بكليتها لله تعالى أعلى المراتب التى تبلغها القوة البشرية .

حتى هنا .. ونقف .. إذا ابراهيم كان متحققا فيه تلك الصفة .. أسلم وجهه لله ؟! وذلك بنص الكتاب «إذ قال له ربه: أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين» وهذه الصفة التى جعلها الله أحسن دين ، وأحسن مافى أى دين هى ذروة الارتفاع البشرى . . وأقصى مايمكن أن يرتفع اليه مجهود بشرى لماذا ! لأن الله ركب هذا الانسان أعجب تركيب وضع فيه الحيوان بكل مافيه من شهوات ونزوات . . ووضع فيه الملاك بكل مافيه من طاعات وتقربات .. ثم اعطاه ارادة حرة . . ان شاء اتبع شهواته . . أى غرائزه . . وان شاء اتبع الأخرى . . واعطاه شيئا اسمه العقل .. أداة من أدوات التنفيذ .. يستطيع بها أن يحقق ارادته .. فى عالم المادة .. فان اراد الشهوات سخر عقله فى الحصول على تلك الشهوات .. وان اراد السمو .. والارتفاع إلى أعلى . . سخر عقله فى تحقيق ذلك السمو .. وذلك الارتفاع .. ثم يأتى دور الرسالات الالهية .. إلى الانسان .. تحاول أن ترتفع به عن بهيميته .. عن الخضوع لغرائزه.. فتأمره بأوامر .. لاتخرج كلها .. عن كونها محاولات للارتفاع به إلى أعلى .. فان أطاع.. ارتفع ..واقترب من الله .. واصبح صالحا لأن يتلقى منه تعالى نفحات القرب .. وان عصى.. واتبع شهواته .. انحط .. وابتعد عن ربه . . واستحال أن يتلقى عنه سبحانه شيئا . . فمعنى «إذ قال له ربه: أسلم» .. أى اذ أمره بأوامر ..وأمره أن يطيعها .. ومعنى «قال : أسلمت» أى أطاع تلك الأوامر . . على أحسن مايتصور من الأداء . . انها عين قوله تعالى « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن» .. اختبره باوامر .. فأطاعها كلها ، وأتمها خير الاتمام .. ونجح فى الإمتحان ١٠٠ ٪ وزيادة .. « ابراهيم الذى وفى » ..

ولننظر هل أطاع ابراهيم ربه طاعة مطلقة وزيادة ! نعم.. وهاهى حياته كلها .. سلسلة من أعلى مايمكن أن يرقى اليه بشر من طاعة لله .. وماذا بعد ذبح الابن بيده .. وبذل النفس لتحرق فى سبيل الله ! وهذه هى العبودية .. فى أعلى تحققها .. ولقد كانت ممثلة فى ابراهيم أعلى

تمثيل . . هذا فى الظاهر ... أما فى الباطن فلقوله « أسلم ، قال : أسلمت » رموز أخرى . . أى استسلم لنا .. فى سرك .. قال : أسلمت . . أى استسلمت لك وحدك .. فقلبه ليس فيه مجال لغير ربه . . وليس به انشغال بغير ربه وليس به التفات إلى ماسواه . . وليس به انفعالات إلا بالله، ولله ، ومن الله .هذا هو اسلام القلب لله . .أو إسلام الوجه لله .. أو ارادة الله وحده فى أمره كله . . أسلم وجهه لله ؟ اتجه إلى الله .. فى كل شىء .. ثم ماذا ! ثم قوله « وهو محسن » .. أى آت للحسنات ، تارك للسيئات .. أى انه انسان عملى .. من الطراز الأول .. ليس رجل عقيدة حالمة لاتؤدى إلى شىء تطبيقى .. تجريبى .. انه يدخل التجربة تجربة الحياة بكل مافى طاقاته من قوة . . لماذا ! لتتحقق فيه فكرة الحياة التى يريدها الله أن تتحقق .. فليس يكفى أن يكون الانسان سليم القلب .. ثم لاشىء وراء ذلك ..وإنما ينبغى أن تكون سلامة القلب دافعا عظيما . . يدفعه إلى خوض غمرات الحياة . . اعلاء للحق ، وانتصارا لله .. وهذا هو ابراهيم .. خير نموذج لهذا الاتجاه العملى وقف وحده يجاهد أباه .. وقومه .. ووطنه .. ويعلن إليهم أنهم مغفلون .. اذ يعبدون حجارة ينحتونها بايديهم . . وما تزحزح .. وماوهن .. وما ضعف . . وما هادنهم .. حتى ضاقوا به وألقوه فى الجحيم .. هذا هو الانموذج . . رجل قلبه سليم . . وجهه أسلمه لله ثم بعد هذا هو عملى .. من الطراز الأول عملا وجهادا .

ثم ماذا ! ثم تأتى المرحلة الأخطر .. والأخطر . . « واتبع ملة إبراهيم » واتبع اسلوب ابراهيم .. أوطريقته .. « حنيفا » أى متجها مباشرة إلى الله . . مائلا عماسواه . . هذه هى الحنيفية . . فى كلمات معدودات . . الاتجاه المباشر إلى الله . . والاعراض التام عما سواه .. هذه هى ملة ابراهيم . . التى اعتبر الله تعالى من اتبعها فقداتبع أحسن دين ، وأحسن ملة .. وفى النهاية ..يعلن الله تعالى إلى الناس كافة .. أنه اتخذ ابراهيم خليلا .. « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .. وهنا ينكشف السر .. ويسطع النور .. ويتمدد الاشعاع .. فنستطيع أن نقول: لعل الله تعالى اتخذه خليلا من أجل هذا !

من أجل أمور ثلاثة . اسلام الوجه لله .. احسان الأعمال لله .. الاتجاه المباشر

إلى إلله .. التى ذكرت فى صدر الآية .. واعتبرت أحسن الأديان .. من أجل ذلك ؛ اتخذه الله خليلا .. وبصورة أشد تركيزا .. وأقوى اشعاعا .

نقول : من أجل أن دينه أحسن الأديان .. اتخذه الله خليلا .

وعندى أن هذا الرأى .. قد يكون أقوى الآراء التى يعتد بها فى هذا السياق .. ذلك أننا لم نأت بالبرهان من خارج منطوق الآية الكريمة .. وانما جئنا به من الآية نفسها ، وفى حدود كلماتها .. حيث يقول نصها : « ومن أحسن دينا ، ممن أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا » .

كأنها تريد أن تقول : إن دين ابراهيم أحسن دين .. من أجل هذا اتخذه الله خليلا .. فما وجه الربط ، أو الالتحام ، بين السبب والنتيجة ؟ الوجه أنه لو فرض ان الله سبحانه أراد ان يختار لنفسه عبدا من البشر ، فانه سوف يختاره أحسن هؤلاء البشر على الاطلاق .. لسبب بسيط .. أن الله يصطفى ، أو يجتبى اليه .. خير الجنس كله .. جنس الآدميين .. لأن أكرم الناس هو أصلح الناس للتلقى عن الله .. والانفعال بأمر الله .. وهذا ما كان .. فقد نظر الله تعالى إلى أهل الأرض جميعا .. فوجد خيرهم ابراهيم .. فاختاره لنفسه . واصطفاه .. وهداه إلى صراط مستقيم .. ومازال به يرفعه درجات ، فوق درجات .. حتى وصل به إلى أعلى مقام تسمح طاقته أن يرتفع اليه .. مقام الخلة .. واتخذ الله ابراهيم خليلا .

كأن الذى حدث ان ابراهيم لم يتخذ خليلا من أول لحظة فى سلوكه إلى الله .. كلا .. وانما مر به على أشق وأدق الاختبارات .. فلما نجح فيها كلها .. أعطاه مؤهلا إليها اسمه « انى جاعلك للناس إماما » .. وذلك المؤهل لم يمنح لابراهيم عفوا .. أو محض فضل إلهى .. وانما نتيجة اختبارات شاقة ، لايطيقها بشر .. وقوله تعالى « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما » .. يشير إلى ذلك أوضح اشارة . اختبره بشتى الطرق .. وامتحنه بأقصى ما يستطيع بشر أن يحتمل .. فأداها كلها بنجاح تام .. ففاز بالمؤهل الالهى الأعظم «إنى جاعلك للناس إماما» ..

إنى جاعلك لجميع الناس إلى يوم القيامة يا إبراهيم .. قدوة .. يقتدون بك فى أى زمان وأى مكان .. لأنى وجدتك خير الناس .. وأحسنهم دينا .. وأسلوبك أحسن الأساليب المؤدية الينا .

ثم ماذا ؟ ثم التدرج التالى .. صار ابراهيم اماما ..صار قدوة .. وبدأ السير إلى الله .. ومن يومها وهو يسير إلى الله .. وهذا يؤيده قوله تعالى « إنى مهاجر إلى ربى » .. وما زال ابراهيم سائرا إلى الله .. لأن الأنبياء .. لاتنتهى حياتهم .. ولا يقف ترقيهم بموتهم .. بل يزدادون رقيا .. ويزدادون سيرا إلى الله بعد مماتهم .. وهذا ناموس عام .. ماض فى كل البشر .. كل حسب مقامه .. قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . إذن ابراهيم .. أو غير ابراهيم .. كل الناس .. كل البشر .. أحياء بعد موتهم .. يواصلون حياتهم .. وترقيهم اما إلى أعلى .. واما إلى أسفل . إما إلى التقرب من الله .. واما إلى الابتعاد عن الله .. قال تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب» اذن أهل فرعون .. أهل العذاب كذلك أحياء .. ولكن حياة تعذيب .. حياة إلى أسفل !!!

ماهذا ؟! هذا نبأ خطير جدا . ينبغى أن يلتفت اليه الناس جميعا .. ابراهيم اذن مازال يواصل سيره إلى الله .. إذا ابراهيم يرقى .. ويرقى .. ويرقى .. إلى أعلى .. مقامات .. بعدها مقامات .

ثم ماذا ؟ ثم تأتى المرحلة الثالثة .. التي هى نتيجة طبيعية لماسبقها .. وثمرة حتمية لما قبلها .. واتخذ الله ابراهيم خليلا .. مادام ابراهيم قد وصل فى سيره إلى الله .. إلى مستوى يسمح له أن يعلم ، ويرى ، ويدرك ، عن الله أكثر من أى بشر سواه .. إذا فقد أصبح أهلا لأن يكون خليلا لله .. لأن يحبه الله تعالى أكثر من حبه لجميع البشر .. هنالك ..

ينعم الله على ابراهيم بمالم ينعم بهعلى غير ابراهيم .. ولكل مقام انعامات .. ولكل مستوى هبات .

هذه هى القضية .. ولقد تفضل الله تعالى .. ففتح علينا فيها فتحا .. نظنه ان شاء الله أقرب الظنون إلى الحق ، وأبعدها عن التيه .

ومن هنا أعلن الله تعالى على جميع الناس « ومن أحسن دينا » .. اعلموا أيها الناس جميعا أن دين ابراهيم عندى أحسن الأديان .. وأعلن أنه يعتمد على قواعد ثلاثة « من أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .. اعلموا جميعا أنه يعتمد على .. الاتجاه إلى الله .. إرادة الله وحده .. ثم احسان الأعمال لله .. بأن تكون خالصة لنا .. ثم اتباع ملة ابراهيم .. بأن تتجهوا الينا مباشرة .. غيرملتفتين إلى سوانا ..

من عبدنا على هذا النحو .. من أرادنا علىملة ابراهيم .. فهو سائر الينا .. فهو سالك طريقنا .. فهو وراء ابراهيم .. فهو فائز بانعاماتنا كما فاز ابراهيم .. على قدر طاقته .. على على قدر قدرته على السير الينا .. على قدر المستوى الذى يستطيع الوصول اليه .

المقام الذى كان فيه .. ابراهيم ... ليلة المعراج ؟!

ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم وجد ابراهيم عليه السلام فى السماء السابعة ، مسندا ظهره بالبيت المعمور ، الذى يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، ثم لايعودون اليه آخر ماعليهم» فامعنى هذا ؟. معناه أن ابراهيم عليه السلام يواصل حياته البرزخية .. يواصل ترقيه من مقام إلى مقام . . ولقد وجده محمد صلى الله عليه وسلم فى ليلة الإسراء والمعراج ، فى السماء السابعة .. وهو أعلى مقام وجد فيه نبيا من الأنبياء .. فلماذا ! لأن ابراهيم هو أشرف الرسل بعد محمد صلى الله عليه وسلم .. ولأن طاقته استطاعت أن تحلق إلى هذا المستوى الرفيع .. حيث يباشر عليه السلام نعيم مقام الخلة .. وانعامات تلك الدرجة !!

لماذا فاق محمد .. الرسل جميعا ؟!

وهنا سؤال من أخطر الأسئلة .. لماذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم بعد ابراهيم .. ومع هذا سبق ابراهيم فى السير إلى الله ! أولماذا جاء محمد آخر الأنبياء وسبق جميع الأنبياء فى

السير إلى الله ! أو بمعنى أقرب : كيف يتأتى لمحمد أن يسبقهم جميعا إلى ربه . رغم انه بدأ السير بعدهم بمئات السنين بل ألوفها ، وكان المفروض أن يسبقوه هو إلى ربهم اوالجواب بسيط جدا .. ليس المعول عليه هو بدء السير زمنيا ولكن المهم هو مقدار سرعة السير إلى الهدف .. مثال ذلك .. رجلان .. يريدان السفر من الاسكندرية إلى نيويورك .. ركب الأول السفينة من الاسكندرية إلى نيويورك في أول يناير ، وركب الثانى الطائرة النفاثة من الاسكندرية إلى نيويورك فى ١٥ يناير . فاذا علم أن المسافة بين المدينتين ٥٠٠٠ كيلو مترا .. وأن السفينة تقطع فى اليوم ٢٠٠ كيلومترا وأن الطائرة تقطع فى الساعة ٥٠٠ كيلومترا .. فمتى يصل كل منهما إلى نيويورك !.. الجواب : الأول = ٥٠٠٠ ÷ ٢٠٠ = ٢٥ يوما أى يصل الأول فى ٢٥ يناير . الثانى = ٥٠٠٠ ÷ ٥٠٠ = ١٠ ساعات . أى يصل الثانى فى نفس اليوم !! أى أن الثانى الذى ركب بعد الأول بخمسة عشر يوما .. وصل قبله بأربعة وعشرين يوما .. فما معنى هذا ! معناه أن المعول عليه هو مقدار السرعة لا بداية السير الزمنية .. وهذا ما حدث بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم .. وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. بدءوا جميعا السير إلى الله قبله .. وسار هو إلى الله .. بعدهم جميعا .. ومع هذا فاقهم جميعا .. وسجل هدفا .. قريبا جدا من ربه .. لم يسجلوه جميعا ..

لماذا ! لأنه سار إلى الله بسرعة أكبر من سرعتهم جميعا .. لأن استعداده أعلى من استعدادهم كلهم ..

لأن طاقته على التحليق أكبر منهم جميعا .. فقطع إلى الله فى وقت قصير .. مالم يقطعوه فى وقت طويل .. ووصل إلى مقام « قاب قوسين أوأدنى » وهم مازالوا دون ذلك بكثير ..

وهذا واضح جدا فى أحاديث الإسراء والمعراج .. حيث مر محمد صلى الله عليه وسلم على الأنبياء .. فى السماوات السبع .. حتى انتهى إلى ابراهيم فى السابعة .. وهو أعلاهم مقاما ..

ثم خلفه .. وارتفع .. وارتفع .. حتى وصل إلى مقام تخلف فيه عنه جبريل عليه السلام ..

ثم واصل .. وواصل السير .. حتى انتهى إلى مقام .. له وحده .. لم يرتفع اليه أحد من البشر قبله ولا بعده .. هنالك فرضت الصلاة .. وكان ما كان ..

ومن هنا ندرك لماذا أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا.. فالمعنى انه صلى الله عليه وسلم قد جاز تلك المرتبة!

اثناء سيره إلى الله الا أنه مؤهل لما هو أعلى منها .. مؤهل لمقام « الحبيب » .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !!

محمد .. يعلن بنفسه ... أن الله اتخذه خليلا ؟!

ثبت فى الصحيحين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيها الناس ، إن الله اتخذنى خليلا ، كما اتخذ ابراهيم خليلا » .

هكذا أعلنها محمد بنفسه على الناس .. أن الله اتخذه خليلا ، كما اتخذ إبراهيم خليلا .. فما معنى هذا !

معناه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد بلغ فى سيره إلى الله ما بلغه ابراهيم .. رغم أن بينهما نحوا من ٢٥٠٠ سنة !! أى أن السرعة التى يسير بها محمد فى ترقيه إلى الله ، أسرع بكثير جدا من سرعة ابراهيم .. فرغم أن ابراهيم سبق الناس جميعا إلى ربه .. إلا أن محمدا ادركه سريعا ولم يقف عند هذا بل جازه .. و بقه إلى مقام اعلى .. وأعلى .

محمد .. لا يتخذ من الناس خليلا ؟!

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر خطبة خطبها : « أيها الناس ، لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله »

إن محمدا .. خليل الله .. وحده .. إن أحدا من البشر لا يصلح أن يكون خليلا لمحمد .. حتى الصديق .. خير صحابته .. لا يصلح لهذا المقام .. لماذا ! لأن محمدا صلى الله عليه وسلم مؤهل لما هو أعلى وأعلى .. مؤهل لأن يكون خليلا لله .. لا لأبى بكر .. إن مقامه فوق الناس جميعا .

انى حبيب الله ؟!

هذا هو مقامه ..

وإنه لهو المقام الأوحد ..

أعلنه .. بنفسه .. وهو يردد ويكرر .. ولا فخر .. ولا فخر .. إنه يذيع حقائق .. نواميس مقررة .. لا على سبيل الفخر .. وحاشاه .. وإنما تبليغا للرسالة .. واعلانا لحقائقها .. واذاعة للنواميس ..

روى البخارى فى صحيحه .. قال: « إن معاذا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ واتخذ الله ابراهيم خليلا . فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم ابراهيم » .

وعن ابن عباس : قال : « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه

« فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون

« فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلا فابراهيم خليله

« وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما

« وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته

« وقال آخر : آدم اصطفاه الله

« فخرج عليهم ، فسلم ، وقال : قد سمعت كلامكم ، وعجبكم ، أن ابراهيم خليل الله وهو كذلك

« وموسى كليمه ، وهو كذلك

« وعيسى روحه وكلمته ، وهو كذلك

« وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك !

« أولا وإنى حبيب الله ولا فخر !

« ألا وإنى أول شافع وأول مشفع ولا فخر .

« وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين !

« وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر »

صحف ابراهيم وشريعته ؟

هل كان لابراهيم شريعة مستقلة ، متكاملة ؟ هل كان له كتاب سماوى معروف ، كالتوراة ، أو الزبور ، أو الانجيل ، أو القرآن ؟

قال تعالى : « قولوا آمنَّا باللهِ ، وماأُنزِلَ إلينا ، وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ ، وإسماعيلَ ، وإسحاق ، ويعقوب ..» [البقرة ١٣٦]

اذن هناك شىء أنزل إلى ابراهيم !

وقال تعالى : «ياأيها الذين آمنو كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبلكُم لعلكم تتقونَ » . [البقرة ١٨٣]

« كما كتب على الذين من قبلكم » أى الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى يومنا هذا والمراد بالمماثلة المماثلة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار . إذن هناك صيام فرض على ابراهيم . واتباع إبراهيم .. كما فرض على غيره من الأنبياء والأمم .

* * *

وقال تعالى . « كان الناسُ أمةً واحدةً ، فبعثَ اللهُ النبيينَ مبشرينَ ومنذرين ، وأنزلَ معهُمْ الكتابَ بالحقِّ ، ليحكمُ بَيْنَ الناسِ فيما اختلفوا فيه ..» [البقرة ٢١٣]

إذن هناك كتاب انزل على النبيين .. وإبراهيم من أفضل أولى العزم الخمسة .. والمظنون أن الله خصه بكتاب من هذه الكتب .. خاصة وهو فى الأنبياء قمة .. ومركزه فيهم مركز الامامة والأبوة .

* * *

وقال تعالى : « إنّا أوحينا إليكَ كما أوحَيْنا إلى نوحٍ ، والنبيين من بعدهِ ، وأوحَينا إلى إبراهيم ، وإسماعيلَ ، وإسحاق ، ويعقوبَ ..» [النساء ١٦٣]

اذن هناك وحى إلى ابراهيم .. كغيره من الرسل الذين أوحى اليهم .

وقال تعالى : « وجعلناهُمْ أئمةً يهدونَ بأمرِنا ، وأوحَيْنا إلَيْهِمْ فعْلَ الخيرات ، وإقامَ الصلاة ، وإيتاءَ الزكاةِ ، وكانوا لنا عابدينَ » . [الأنبياء ٧٣]

والضمير يرجع إلى ابراهيم واسحاق ويعقوب إذن هناك وحى إلى ابراهيم .. وحى أن يفعل الخير ، ويقيم الخير ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة .

وقال تعالى : « وأذِّن فى الناس بالحجِّ ، يأتوك رجالاً ، وعلى كلِّ ضامر ، يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ » . [الحج ٢٧]

وهذه الآية .. على قول من قال ان الخطاب فيها لابراهيم .. تعتبر نصافى أن الله فرض عليه الحج . وأمره أن يدعو الناس اليه ، ووعده أن يستجيبوا له ، ويأتوا إلى أدائه من كل فج عميق .

إذن فرض الحج على ابراهيم . واتباع ابراهيم .. وقد ورَد أنه عليه السلام حج وأدى المناسك .وأري اسماعيل ومن معه كيف يحج وكيف يؤدى المناسك .. وقال تعالى :«وجَعلْنا فى ذريته النبوة والكتابَ ..» [العنكبوت ٢٧]

اذن .. من باب اولى أن يكون لابراهيم كتاب .. فهو أصل هذه الذرية كلها .. التى جعل الله فيها الكتاب كله .

وقال تعالى : « وإذْ أخذْنا من النبيينَ ميثاقَهم ، ومنكَ ، ومن نوحٍ ، وإبراهيمَ ، وموسى ، وعيسى ابنَ مريَمَ ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا . » [الأحزاب ٧]

اذن هؤلاء هم الخمسة اولو العزم من الرسل .. نص الله تعالى على أنه أخذمن كل منهم ميثاقا غليظا ..

اذن من باب اولى أن يكون لابراهيم كتاب .. يرشده الى تفصيل ذلك الميثاق .

* * *

وقال تعالى:«ولقدْ أرسَلنا نوحاً، وابراهيمَ، وجَعلنافى ذريتهما النبوةَ والكتابَ..» [الحديد ٢٦]

اذن .. من باب أولى أن يجعل فى ابراهيم نفسه كتابا .. مادام قد جعل فى ذريته كل كتاب .. هذه كلها نصوص .. تشيرمن بعيد .. أوقريب .. أن ابراهيم أوحى اليه .. وأنه أنزل اليه .. وأنه صاحب كتاب .. وصاحب شريعة مستقلة .

وقد رأينا كيف نص القرآن على أن الصيام كتب عليه .. ضمن الذين من قبلنا . .
وكيف نص كذلك على أنه أمر بالحج ، وأمر أن يأمر اتباعه به .
فاذا ضممنا كل ذلك إلى ايحاء الله اليه أن يفعل الخير ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة .
شع علينا اشعاع عظيم .. باهر :. يكشف عن شيء خطيرا جدا . . أن ابراهيم صاحب شريعة .. تامة . كاملة . متكاملة .

وأن شريعته تطابق الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم تطابقا كاملا.. واليك الدليل مماسردناه فى هذا الباب من نصوص .

فالمعلوم أن هذا الاسلام بنى على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله . وان محمدا رسول الله.. وإقام الصلاة .. وإيتاء الزكاة . . وصوم رمضان . . وحج البيت من استطاع اليه سبيلا . .
هذه هى الفروض الخمسة التى بنى عليها الاسلام .

فلننظر الآن هل فرض الله على ابراهيم صلى الله عليه سلم نفس مافرضه على محمد صلى الله عليه وسلم .

نعم .. نعم .. واليك الأدلة القاطعة أماشهادة أن لا إله إلا الله .. فمقطوع بالتواتر والمشهور نصا أنها فرضت على ابراهيم كما فرضت على محمد .. ويكفى هنا .. مارده القرآن عن ابراهيم من دعوته للناس أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا .

وأما شهادة أن محمدا رسول الله .. فطبيعى أن يستبدل بها وأن ابراهيم رسول الله لأن محمدا لم يكن قد بعث بعد !! انتهينا الآن من الفرض الأول .. شهادة أن لا إله إلا الله .. وانها عند ابراهيم . . كما هى عند محمد . . بل إن محمدا أمر باتباع إبراهيم فى ذلك « أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ..

ثم ماذا ؟ ثم ننتقل إلى الفرض الثانى .. الصلاة .. فنجد أن ابراهيم أمر بالصلاة .. كما أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالصلاة .. واليك الدليل ..« .. وأوحينا اليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ..» اذن الصلاة مفروضة فى شريعة ابراهيم .. كما هى مفروضة فى

شريعة محمد .. ثم ننتقل إلى الفريضة الثالثة .. الزكاة .. فنجد أنها مفروضة عند ابراهيم ، كما هى مفروضة عند محمد .. والدليل .. هو نفس النص .. « وإيتاء الزكاة .. »

ثم ماذا ؟ .. ثم الفريضة الرابعة .. الصوم .. فنجد أن شريعة ابراهيم تشتمل على الصيام ، كما تشتمل شريعة محمد عليه .. والدليل .. قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم .. » وابراهيم من الذين قبلنا ..

ثم ماذا ؟ ثم الفريضة الخامسة .. والأخيرة .. الحج .. فنجد أن ابراهيم فى شريعته الحج كما فى شريعة محمد .. بل أكثر من هذا .. إن ابراهيم هو مؤسس فريضة الحج .. ومحمد صلى عليه وسلم متبع فيها .. فابراهيم هو الذى بنى البيت ، وبنى المسجد الحرام ، وحدد مناسك الحج كلها .. ثم حج هو ومعه اسماعيل ، واتباعه .. وأذن فى الناس بالحج كما أمره الله .. ومرت الأيام .. وجاء محمد .. فشرع للناس الحج .. طبق الأصل كما فعل أبوه ابراهيم .. فى نفس الأماكن .. وبنفس المناسك !!

تطابق .. تطابق تام .. بنى الإسلام على خمس ..

وبنى دين ابراهيم على خمس .. نفس الخمس .. ومن هنا يمكن أن يقال أن الإسلام الذى دعا اليه محمد .. هو هو الاسلام الذى دعا اليه ابراهيم .. وهذا واضح جدا جدا .. فى توجيهات الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى اتباع ملة ابراهيم حنيفا .. وأن الله هداه إلى صراط مستقيم .. دينا قيما .. ملة ابراهيم .. أفبعد هذا من دليل .. أن ابراهيم صاحب شريعة مستقلة ، كاملة ، متكاملة .. وأنها تطابق شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمام المطابقة ؟

الدليل القاطع ؟!

قال تعالى : « شَرَعَ لَكُم مِنَ الدينِ ، ماوَصَّى بِهِ نوحاً . والذى أوحَيْنا إلَيْكَ ، وماوصَّيْنا بِهِ إبراهيمَ ، وموسَى ، وعيسى ، أن أقيموا الدينَ ، ولاَ تتفرَّقوا فيهِ ، كبرَ على المشركينَ ماتدعُوهُمْ إليهِ ، اللهُ يجتبى إليهِ من يشاء ، ويَهْدى إليْهِ من يُنيبُ . »

[الشورى ١٣]

أى شرع لـكم من الدين ماوصى به نوحا ومن بعده ، من أرباب الشرائع ، وأولى العزم ، من مشاهير الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وأمرهم به أمرا مؤكدا . وتخصيص المذكورين بالذكر لماأشير اليه من علو شأنهم ، وعظم شهرتهم . ولاستمالة قلوب الـكفرة إلى الاتباع ، لاتفاق كل على نبوة بعضهم . وايذان بأن ماشرع دينا قديما أجمع عليه الرسل .

« أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » أى دين الاسلام الذى هو توحيد الله تعالى ، وطاعته ، والإيمان بـكتبه ورسله وبيوم الجزاء ، وسائر مايـكون العبد به مؤمنا . والمراد باقامته تعديل أركانه : وحفظه من أن يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه . « ولاتتفرقوا فيه » شامل للنبى واتباعه ، والأنبياء ، والأمم ، قبلهم . وضمير (فيه) للدين . أى : ولا تتفرقوا فى الدين الذى هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتى به بعض ولا يأتى بعض . أو يأتى بعض ببعض منه ، دون بعض ، أى لا تختلفوا فيه .

فمعنى الآية : شرعنا لـكم ماشرعنا للانبياء ، دينا واحدا ، فى الأصول ، وهى التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتقرب بصالح الأعمال ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة . وصلة الرحم ، وتحريم الـكبر والزنا ، وإيذاء الخلق ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدناءات ، ومايعود بخرم المروءات ، فهذا كله مشروع دينا واحد ، وملة متحدة ، لم يختلف على ألسنة الأنبياء ، وان اختلفت اعدادهم . « كبر » عظم وشق .

« على المشركين ماتدعوهم اليه » من التوحيد ، ورفض عبادة الأصنام ، وهو أصل الأصول ، وأعظم ماشق عليهم . « الله يجتبي اليه من يشاء » أى يصطفى اليه سبحانه من يشاء اصطفاءه ، ويخصصه سبحانه بفيض إلهى ، يتحصل له منه أنواع النعم . « ويهدى اليه من ينيب » ويهدى اليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يقبل اليه تعالى شأنه للدلالة على أن أهل الاجتباء ، غير أهل الاهتداء .

هذا هو الدليل .. القاطع .. الساطع . المانع .. الذى لا وجه لتلمس الأدلة بعده .

وما وصينا به إبراهيم ؟... شرع لنا .. نفس ما وصى به إبراهيم .. فرض علينا نفس ما فرض على ابراهيم .. تطابق تام .. واتحاد عام !!

هذا من ناحية الشريعة.. فهل كان لابراهيم كتاب سماوى مستقل ؟ ..

ماذا فى صحف ابراهيم ؟!

قال تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى . وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى . أَزِفَتِ الْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا . » [النجم ٣٦ — ٦٢]

هذا مما كان فى صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى .

انها كلها حقائق كلية .. ونواميس إلهية .. عامة .. لاتبديل فيها .. ولاتغيير .. أوحيت إلى موسى .. كما أوحيت من قبل إلى ابراهيم .. وجاءت فى صحف موسى .. كما جاءت من قبل فى صحف ابراهيم .. وهاهى تأتى من بعدهم .. لتوحى إلى محمد .. آخر نبى. وتنزل فى كتابه آخر كتاب .. تأكيدا أن الحقائق التى انزلت إلى جميع الأنبياء واحدة .. لاتبديل لكلمات الله ..

« أم لم ينبأ » بل ألم يخبر « بما فى صحف موسى » وهى التوراة . « وابراهيم » بما فى صحف ابراهيم التى أنزلت اليه . « الذى وفى » وفر. وأتم ماأمربه .أو : بالغ فى الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى .

وعن ابن عباس : وفى بسهام الاسلام كلها ، ولم يوفها أحدغيره . وقيل : فى تبليغ هذه العشرة : أن لا تزر إلى آخره .. والأولى العموم .. مائمره الله تعالى بشىء إلا وفى به . وتخصيصه — عليه السلام — بهذا الوصف لاحتماله مالا يحتمله غيره ، وفى قصة الذبح مافيه الكفاية .

« ألا تزروازرة وزر أخرى » أنه لاتحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى . كأنه قيل : مافى صحفهما ؟ . فقيل : (أن لاتزر) الخ . والمعنى أنه لايؤاخذ أحد بذنب غيره، ليتخلص الثانى من عقابه . وهذا ناموس عام .. تقرر فى صحف موسى .. وابراهيم.. ومحمد ... لاتبديل له .. ولاتغيير .. إلى يوم القيامة ..

ثم ماذا ؟ «وأن ليس للانسان إلاماسعى » بيان لعدم اثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره . أى ليس له إلاسعيه . وقيل : اللام بمعنى على ، أى: ليس على الإنسان غير سعيه .

ثم ماذا ؟ . ثم الناموس الثالث .. الخالد .. « وأن سعيه سوف يرى » أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته يراه حاضر ويوم القيامة . ويطلعون عليه ، تشريفا للمحسن ، وتوبيخا للمسىء .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس الرابع .. الخالد .. « ثم يجزاه » أى يجزى الإنسان سعيه . « الجزاء الأوفى » مصدر مبين للنوع .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس الخامس . . الذى لاتبديل له . . « وأن إلى ربك المنتهى » أى أن انتهاء الخلق ، ورجوعهم اليه تعالى . لا إلى غيره سبحانه . استقلالا ولا اشتراكا والمراد بذلك رجوعهم اليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون .

وقيل : أنه عز وجل منتهى الأفكار فلا تزال الأفكار تسير فى بيداء حقائق الأشياء ، وماهياتها ، والاحاطة بما فيها ، حتى إذا وجهت إلى حرم ذات الله عز وجل وحقائق صفاته سبحانه ، وقفت وحرنت وانتهى سيرها .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآية : « لا فكرة فى الرب » . وروى

عنه عليه الصلاة والسلام « إذا ذكر الرب فانتهوا » وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال : « مر النبى صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون فى الله فقال : تفكروا فى الخلق ، ولاتفكروا فى الخالق ، فانكم لن تقدروه » .

وأخرج أبو الشيخ عن أبى ذر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تفكروا فى خلق الله ، ولاتفكروا فى الله فتهلكوا » . واستدل بذلك من قال باستحالة معرفته عز وجل بالكنه .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس السادس .. الخالد .. « وأنه هو أضحك وأبكى » خلق فعلى الضحك والبكاء . وقيل : المراد خلق السرور والحزن ، أوما يسر ويحزن ، من الأعمال الصالحة والطالحة .

ثم الناموس السابع .. « وأنه هو أمات وأحيا » تناسب الاماتة والاحياء لاسيما والموت يعقبه البكاء غالبا ، والاحياء عند الولادة الضحك . وقيل : أضحك أهل الجنة ، وأبكى أهل النار . لايقدر على الاماتة والإحياء غيره عز وجل .

ثم ماذا ؟ .. ثم الناموس الثامن .. الخالد .. الخطير .. « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » من نوع الإنسان وغيره من أنواع الحيوانات . « من نطفة إذا تمنى » أى تدفق فى الرحم .

ثم الناموس التاسع .. « وأن عليه النشأة الأخرى » أى الاحياء بعد الاماتة ، وفاء بوعده جل شأنه .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس العاشر .. «وأنه هو أغنى وأقنى» أعطى القنية وهو مايبقى ويدوم من الأموال ببقاء نفسه أو أصله كالرياض والحيوان والبناء . وقيل : أغنى وأفقر . وقيل : أغنى نفسه سبحانه ، وأفقر الخلائق اليه عزوجل .. إنه ناموس عجيب .. فيه من الأسرار مافيه!

ثم ماذا ؟ ثم الناموس الحادى عشر .. « وأنه هو رب الشعرى » نجم مشهور .. ومن العرب من كان يعظمها ، ويعتقد تأثيرها فى العالم ، ويزعمون أنها تقطع السماء عرضا وسائر النجوم تقطعها طولا .. إشارة إلى نفى تأثيرها .. « وأنه أهلك عادا الأولى » أى القدماء

لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح. « وثمود فما أبقى » فما أبقى عليهم : أى أخذهم بذنوبهم .

« وقوم نوح من قبل » من قبل اهلاك عاد وثمود ، « إنهم كانوا هم أظلم وأطغى » أى من الفريقين كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك وكان الرجل منهم يأخذ ابنه يتمشى به اليه يحذره منه ويقول : يابنى إن أبى مشى بى إلى هذا ، وأنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه !! ولم يتأثروا من دعائه ، وقد دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

« والمؤتفكة» قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها أى انقلبت بهم « أهوى » أى أسقطها إلى الأرض بعد رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء وقيل : جعلها تهوى « فغشاها ما غشى » تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه .

هذا شيء مما كان فى صحف موسى وابراهيم .

ولقد اختلف المفسرون هل كان الكلام من (ألا تزر وازرة وزر أخرى) حتى آخر السورة .. كله فى صحف ابراهيم .. أم بعضه .

وعندى .. أن الأولى العموم .. وأن الآيات حتى آخر السورة كانت فى صحف موسى وابراهيم .. خاصة وأنها كلها عبارة عن نواميس الهية عامة .. ليس فيها تشريع .. أو تقنين .. يتغير بتغير الانبياء .. والأزمنة .. وإنما هى سنن الهية لا تتغير .. ولا تتبدل .. إلى يوم القيامة .. ومثل هذه النواميس الخالده تجدها فى جميع الكتب السماوية التى أنزلت على الانبياء والمرسلين .. لا تبديل لكلمات الله .. فقوله تعالى « وأنه هو أمات وأحيا » .. ناموس عام .. لن يتغير إلى يوم القيامة .. ولايمكن أن يتغير .. هو وحده المختص بالاماتة والاحياء ولاشيء يستطيع ذلك على الأطلاق .. وهكذا تلك النواميس العلى .. التى ذكرت بتلك الآيات .

خلاصة ما فى صحف ابراهيم ؟!

ثم يفصل الله تبارك وتعالى فى القضية .. قضية : ماذا كان فى صحف ابراهيم ؟.. فيقول عز من قائل : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدنيا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى .»
[الأعلى ١٤ — ١٩]

« إن هذا » اشارة إلى قوله تعالى (والآخرة خير وأبقى) وقيل : اشارة إلى ماذكر من قوله سبحانه (قد أفلح من تزكى) .. الخ وهذا ماأميل اليه وقيل : اشارة إلى القرآن « لفى الصحف الأولى » أى ثابت فيها معناه « صحف ابراهيم وموسى » فى ابهامها، ووصفها بالقدم تفخيم شأنها ما لايخفى وكانت صحف ابراهيم عشرة وكذا صحف موسى عليه السلام ، والمراد بها ماعدا التوراة .

عن أبى ذر : قال : قلت : يارسول الله ، كم أنزل الله تعالى من كتاب ؟

« قال : مائة كتاب واربعة كتب .

« أنزل على شيث خمسين صحيفة .

« وعلى ادريس ثلاثين صحيفة .

« وعلى إبراهيم عشر صحائف .

« وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف .

« وأنزل التوارة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان .

« قلت : يارسول الله ، فما كانت صحف ابراهيم ؟

« قال : أمثال كلها .

« أيها الملك المتسلط ، المبتلى ، المغرور ، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض .

« ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم . فانى لاأردها ولوكانت من كافر .

« وعلى العاقل ، ما لم يكن مغلوبا على عقله ، أن يكون له ثلاث ساعات ..

« ساعة يناجى فيها ربه .

« وساعة يحاسب فيها نفسه .

« ويتذكر فيما صنع .

« وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال .

« فان فى هذه الساعة عونا لتلك الساعات ، واجتماعا للقلوب ، وتفريغا لها .

« وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه . مقبلا على شانه . حافظا للسانه .

« فان من حسب كلامه من عمله . أقل الكلام الافيما يعنيه .

« وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث ،

« مرمة لمعاش ،

« أو تزود لمعاد .

أو تلذذ فى غير محرم .

« قلت : يارسول الله . فما كانت صحف موسى ؟

« قال : كانت عبرا كلها ،

« عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح !

« ولمن أيقن بالنار ثم يضحك !

« ولمن يرى الدنيا ، وتقلبها باهلها ثم يطمئن إليها !

« ولمن أيقن بالقدر ثم يغضب !

ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل ؟

« قلت : يارسول الله ، هل أنزل عليك شىء مما كان فى صحف إبراهيم وموسى ؟

« قال : ياأباذر ، نعم ، قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » .

وأخيرا .. مامعنى هذا ؟

معناه أن الله تبارك وتعالى تفضل فبين لنا ماذا كان فى صحف إبراهيم .. او انزل الينا خلاصة مركزة مما كان فيها .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لنا ذلك حين سأله أبوذر : هل أنزل عليك شيء مما كان فى صحف إبراهيم وموسى ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : نعم .. (قد أفلح من تزكى) الآية ..

اذن تولى الله ورسوله بيان ما كان فى تلك الصحف .. باذاعة تلك الخلاصة المركزة لما فيها .

وبالتأمل فى هذه الخلاصة .. نجد أنها كلمات معدودة .. إلا أنها تحوى كل مايحتاج اليه الانسان .. فى حياته كلها .

وهذا من دلائل الاعجاز فى الكتاب .

ومن جوامع الكلم التى أوتيها محمد صلى الله عليه وسلم .

انظر .. ها هى .

« قد أفلح من تزكى » .. تأكيد بأن من طهر نفسه باطنا وظاهرا .. طهر باطنه من الشرك والكفر والظلم وسائر الظلمات النفسانية .. وطهر ظاهره من المعاصى ايا ما كانت .. والانحرافات مهما كانت .. تأكيد بان من فعل هذا فقد أفلح . أوتحتم أن يفلح .. وأن يفوز فى حياته كلها .

ثم ماذا ؟

ثم كيف هذا يكون ؟

هاهو الاسلوب .

« وذكر اسم ربه » .. عاش دائما ذاكر اسم ربه .. بقلبه .. عاش سليم القلب .. عامرا بالايمان بالله .. وذكر الله ..

« فصلى » .. وعاش دائم الصلاة لله .. محافظا عليها ..

ثم ماذا ؟

ثم بيان هام .. بان الناس يصدون دائما عن طريق الفلاح .. وينحرفون عنه .. لسبب واحد .. ليس الا .. هذا السبب هو .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا » .. تحبون العاجلة .. تحبون هذا الحياة القريبة التى أنتم فيها .. هذه الحيـاة الدنيا التى انتم منغمسون فيها ليلا ونهـارا .. تفضلون الظهور فيها .. والاستمتاع بها .. على كل شىء .

وهذا هو مايحجبكم أيها الناس عن الحقيقة . . ويصرفكم عن سلوك طريق الفلاح .. طريق التزكى ، وذكر اسم الله ، وادامة الصلاة لله ..

انكم تريدون هذه الدنيا وكفى أماما وراءها فلا شأن لكم بها ..

ولكن هل هذا التفكير صحيح ؟

كلا .. بل هو خطأ محض .. واليكم الصواب من الأمر ..

« والآخرة خير وأبقى » .. الواجب عليكم أن تعلموا ، وتتيقنوا أن الحياة الآخرة . . الحياة القادمة تتميز عن هذه الحياة بصفتين .. على العاقل .. أن يتفكر فيهما ...

الآخرة خير ...

الآخرة أبقى ...

اذن هى خير من هذه .

وخيرٌ هذه تشمل كل مايمكن أن يتصور من الخير . . فهى أرقى ، وأكمل ، واجمل ، وآمن ، وأسلم ، وأحلى ، وألذ وأروع .. وكل ما يتصور .. أو ما هو فوق تصور البشر .

«أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر».

ثم ماذا ؟

وأبقى !!.

وأدوم .. وأخلد .. انها لاتفنى .. ابدية .. لاتتناهى .. خالدين فيها أبدا .. بينما هذه تفنى .. بل سريعة الفناء .. سرعان مايموت الانسان الحريص عليها أشد الحرص .. ويضطر إلى تركها رغم انفه !! فأين هذه من تلك ! اين التى هى شر متدافع ، وفناء متتابع .. من تلك التى هى خير دائم ، وخلود لايزول !

هذا ما كان فى الصحف الأولى .. صحف ابراهيم وموسى .. بل يمكن أن يقال .. وهذا ماتجده فى كل وحى سماوى .. أنزله الله إلى الانسان .. يدور كله .. فى الدعوة إلى الايمان بالله .. والصلاة لله وتزكية النفس وتطهيرها .. لتفوز فى الحياة الآخرة .. وتنبيه الإنسان إلى عدم الركون إلى هذه الدنيا .. والاستعداد لحياته القادمة .

ولايتأتى أن تخرج الكتب السماويه كلها .. مهما تباينت فى المناهج ، واختلفت في أساليب الأداء ، عن تلك النواميس الكبري ..

ابراهيم وعالم اليوم ؟

فرغنا من ابراهيم .. ومافرغنا .. فابراهيم أكبر من أن نحيط به خُبْرا .. وإنما يمكن أن يقال أنه قد تمت الإشارة إلى ابراهيم .. ومن اراد الزيادة .. فعليه أن يتبع خطاه .. ويتابع ملته .. لعله يظفر من ذلك بشيء جديد من الهدى .. يهديه إلى أنوار جديدة من الرجل العظيم ..

والآن نسأل ؟ ماذا يفيد عالم اليوم من دراسة شخصية ابراهيم ؟ أو : ماذا يستطيع ابراهيم أن يقدم إلى عالم اليوم ؟ أوهل عند ابراهيم شيء ينفع الإنسان الحديث ، الذى يعيش الآن تجربة الحياة فوق هذه الأرض ؟

والجواب .. إن عند ابراهيم ماإن اتبعه انسان اليوم لارتقى .. وارتقى .. وبلغ من التقدمية أبعادا .. لاتخطر على قلب بشر !!!

قد يقول قائل : ماهذا الذى تذهب اليه ، وماذا عند ابراهيم هذا يؤهله لماتقول ؟

ومن كل أجهزة الاعلام فى العالم .. من محطات الإذاعة فى شتى دول العالم ،. ومن محطات التليفزيون فى كل مكان .. ومن فوق صفحات الصحف والمجلات فى كل مدينة من العالم .. ومن فوق شاشات السينما .. ومن فوق مسارح المدن .. وعن طريق أى وسيلة من وسائل النشر فى العالم اليوم .. مسموعة .. أومرئية .. أومقروءة .. أو ماوراء ذلك .. من هؤلاء جميعا .. أذيع .. وأنشر .. وأعلن .. إلى العالم كله .. فى شتى مستوياته .. فى علمائه ، وجهاله .. فى قراءه ، وأمييه .. فى رؤسائه ، ومرءوسيه .. فى أهل الأديان منه ، وفى اللادينيين .. فى الرأسماليين ، وفى الشيوعيين .. والمسلمين .. فى سكان الغابات الذين على الفطرة يعيشون ، وفى سكان أرقى المدنيات على شواطىء أمريكا وأوربا .. أو مايمكن أن يكون .. فى كل مكان .. وفى كل زمان .. وفى الآن .. وفى كل آن .. أعلن .. وأبلغ . وأذيع .. أخطر .. وأخطر .. وأخطر .. بيان يمكن أن يذاع على العالم كله فى هذه الأيام ..

نداء الفطرة ؟!

أيها الإنسان المعاصر .. ارجع إلى فطرتك .. ارجع إلى نفسك حين ولدتك أمك . ماذا كنت .. ذكرا أوأنثى ؟ سوف تجد أنك ولدت على الفطرة .. سوى الخلقة. برىء النظرة .. صفحة بيضاء .. لا تعلم شيئا .. هذه هى الفطرة .. أو هذا هو أول خلقك .. أوهذه هى المرحلة الأولى التى يمر عليها كل إنسان .. ذكرا كان أو أنثى .. يولد الطفل عجينة .. صالحة للتشكيل فى أى اتجاه ..

صوت الفطرة ؟!

والآن .. استمع أيها الإنسان .. إلى أعماقك . . استمع وأنت طفل برىء .. إلى نداء فؤادك .. سوف تسمع نداء خفيا .. يتموج من قلبك فى هدوء .. نداء يقول: لا إله إلا الله .. هذا هو نداء الفطرة .. الكامن فى فؤاد كل مولود .

ومن كان فى شك من هذا .. فليسأل أى طفل يشاء : من خلق السماوات والأرض ؟ سوف يقول على الفور : الله .

من خلقك أيها الطفل ؟ سوف يقول بلا تفكير أوتردد : الله . هذا هو نداء الفطرة أيها الإنسان .. ماذا يحدث بعد هذا ؟

تذكر أيها الإنسان المعاصر .. ماذا حدث لك بعد ذلك ؟ تذكر جيدا .. لقد حدث شىء مخيف .. إن أمك .. أو أباك .. أومن كان يقوم على تربيتك .. صب فى أذنيك كلاما !! أتذكر ماهو هذا الكلام ؟ خرافات .. وخزعبلات .. يقصها عليك أبواك .. أومربيك .. ان كان من الشعوب المتخلفة .. التى تعبد أوهاما .. أولا تعبد شيئا .

أتذكر أيها الانسان المعاصر ؟ أتذكر إذ كنت طفلا صغيرا .. وهم يصبون فى أذنيك تلك الخزعبلات ، ويسوقون اليك تلك الظلمات ! أتذكر !.. أنت وحظك . . فإنك لم تكن حرا فى اختيار أبويك ، ولم تكن حرا آنذاك فى اختيار البيئة التى تربى فيها! وهذا من أسوأ الأمور التى يرغم عليها كل مولود .. أو كل انسان !! يولد على الفطرة . .

يولد وفى شغاف فؤاده أن الله هو وحده الذى خلقه ، وأنه لا إله إلا هو .. ثم يفرض عليه ضلال والديه أو الذين يربونه أو يوجهونه .. ومايزالون به يوجهونه نحو معتقداتهم .. حتى تصبح حقيقة فى عقله الصغير .. ثم يشب عليها !! وهؤلاء حين صارت لهم عقول .. هل فكروا فى صحة هذه العقائد التى سمعوها من قبل أم ظلوا لا يفكرون ! لم يحدث .. انهم ظلوا كلهم .. كما كانوا أطفالا .. لايعقلون .. عششت تلك الخرافات فى رءوسهم .. فما استطاعوا لها نزعا .. وما استطاعوا لها تطهير !!

أوهؤلاء .. أوهؤلاء .. الذين حجبوا نداء الفطرة من أعماقهم .. ولم يسمعوا صوت الحق المتموج من أفئدتهم .. أن لا إله إلا الله .

هؤلاء جميعا .. ضاعوا .. ضحايا .. التوجيه السىء الذى وجههم آباؤهم .. أو أمهاتهم .. أو مربوهم .. أو معلموهم فى الصغر .. !!

كيف الخلاص ؟!

الخلاص أن تعود البشرية كلها إلى ابراهيم .. كيف ! أن ينظر كل إنسان ماذا فعل ابراهيم ، حتى وصل فى النهاية إلى الحقيقة ! .

وهنا يجلجل فى الآفاق قول الحق تبارك وتعالى : « إنى جاعلك للناس إماما » .. إن الله يؤكد هنا تأكيدا عظيما أنه جعل ابراهيم إماما للناس جميعا .. ليتخذوه قدوة .. ليسلكوا ماسلك .. حتى يستطيعوا أن يصلوا فى النهاية إلى الحقيقة .. أن يصلوا إلى الطريق المستقيم .

ماذا فعل ابراهيم ! وهنا نلاحظ أخطر ظاهرة .. إن الطفل ابراهيم ولد لأب جاهل ، كافر ، أب يصنع الآلهة ، ويبيعها .. رجل صناعته نحت الأصنام .. أعنى أنه على الغاية من الجهل .. وعلى الغاية من الضلال .. إنه فقط لم يقف عند حد انكار الألوهية .. بل صنع هو إلها من هواه .. من حجارة أو خشب .. وذهب يعبده !! هذه هى البيئة التى نشأ فيها الطفل ابراهيم .

فلو مضت الأمور كطبيعتها لصب آزر هذا فى أذنى الطفل أقاصيص عقيدته الفاسدة ، وزوقها له .. ولقصت عليه أمه تهاويل الأصنام ، وأوهام أياديها البيضاء على الناس .. ولو استمع ابراهيم إلى تلك القصص .. وكان يمكن أن يستمع لها كغيره من ملايين الأطفال الذين يستمعون إلى تلك الأباطيل .. ويضيعون بسببها طول حياتهم .. لواستمع الطفل ابراهيم إلى مايقول أبواه لنشأ وثنيا .. يعبد الأصنام كأبيه .. بل ويتعصب لها .. بل ويخلف أباه آزر فى زعامة قومه على أساسها !!

إذن لضاع الطفل ابراهيم .. كما ضاعت قرون .. وقرون .. من هذا السبيل !! ولكن ماذا حدث ؟ وكيف نجا ابراهيم بأعجوبة ؟

ابراهيم يفكر !!

الذى حدث أن الطفل ابراهيم .. رفضت فطرته هذا العبث .. وأبغضت أشد البغض هذا الانحراف .. واستطاع أن يسمع إلى نداء الفطرة الذى يلح من أعماقه .. لا إله إلا الله .. فخرج يلتمس ربه فى الكون الواسع .. نظر إلى السماوات .. فرأى كوكبا .. فقال : هذا ربى .. إنه عقل طفل يحاول أن يصل إلى الحقيقة .. ولكن الكوكب غاب فى الأفق .. وغاب عن عينيه !!! فلما أفل ، قال : لاأحب الآفلين ، ثم فوجىء بالقمر .. بازغا .. فصاح صيحة الطفل البرىء : هذا ربى ، هذا أكبر .. إلا أنه لاحظ أن القمر يغيب كذلك فى الأفق .. ثم انتقل إلى ماهو أكبر .. إلى الشمس .. ولكنها هى الأخرى غربت .. وذهبت .. هنالك أدرك الطفل ابراهيم .. أن شيئا من هذا كله لا يصلح أن يكون له الها .. لأنها كلها تغيب .. والألوهية لاتغيب .. هنالك .. صاح الطفل ابراهيم فى قومه : انى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين .

هنالك .. كان الطفل ابراهيم .. يتلاقى مع صوت الفطرة فى أعماقه .. وكان يعلن .. لا إله إلا الله .. وهكذا وصل ابراهيم إلى الحقيقة .. رفضت طفولته البريئة . رفضت فطرته السليمة أن تستمع إلى أباطيل أبويه .. وذهب يبحث عن الحقيقة بنفسه ويتدرج فى الوصول اليها .. حتى اهتدى آخر الأمر اليها .

هذا هو الطفل ابراهيم .. أوهذا هو الأنموذج الحسن .. والقدوة الطيبة التى ينبغى أن يعرف كل إنسان ربه على أساس من أسلوبه ، وسلوكه .. ونجا ابراهيم بأعجوبة .. ولولا أنه استعمل عقله .. لضاع كما ضاعت قرون .

حتمية التفكير ؟!

ومن هنا كان حتما على كل إنسان فى هذا العالم .. أن ينظر فى هذا الذى يوسوس به أبواه فى أذنه : هل هو حق أم باطل ! فإن أستحال ذلك فى مرحلة الطفولة ، تحتم فى مرحلة الشباب ، أوالرجولة .. إذ ماذا يكون الحال حين يفاجأ الانسان أن ما هو عليه من عقائد كان باطلا .. وأنه من أجل ذلك يساق فى الآخرة إلى جهنم !

اذن .. يتحتم أن يعيد كل انسان التفكير فيما هو عليه من عقائد هل هو حق أم باطل ! وماهو الأساس الذى تستند عليه تلك العقائد ، هل هو أساس صحيح ، أم مجرد أوهام وأمانى !

ومن هنا أوجب الله تعالى على كل انسان ان يعلم علم الإجتهاد والبحث لاعلم التقليد ، أن لاإله إلا الله .. فقال تعالى : « فاعلم انه لاإله إلا الله » أى اعلم بعقلك ، وبحثك ، ومجهودك .. وهكذا .. حفظ ابراهيم فطرته من الضياع .. وتطابق ظاهره .. مع باطنه .. وتلاقيا على نداء لاإله إلاالله .

ولوقد راجع اليهود أنفسهم .. لوجدوا أن كثيرا مماهم عليه باطلا .

ولو قد راجع المسيحيون أنفسهم لوجدوا أن لاألوهية هناك للمسيح وانما هو عبد الله ورسوله .

ولو قد راجع المسلمون أنفسهم لعلموا أن أوهام الأضرحة .. وخرافات الأقاصيص . محض خلافات .. لاتقدم ولاتؤخر .. ولو قدفكر الشيوعيون حين يصيرون رجالا فيماهم عليه ، لرجعوا عماهم عليه .. أن قدعاشوا سنين يعتقدون ان لا اله هناك .. بينما الحقيقة ان الله موجود . . وان اعماقهم تنادى بذلك . . ولكن التوجيه الذى يصب فى آذانهم

أطفالا هو الذى حجب ذلك النداء .. فقط .. عليهم أن يستعملوا عقولهم .. وأن يتسمعوا إلى نداء فطرتهم إذن لهدوا صراطا سويا .

ثم ماذا ؟ ماذا بعد إدراك أن لا إله إلا الله .. كما أدركها ابراهيم ! يبقى أخطر شىء .

كيف الاتجاه إلى الله ؟!

وهنا يقدم ابراهيم إلى كل انسان معاصر فى هذا العالم .. أعلى ما يمكن أن يقدمه انسان إلى انسان .. يقدم اليه أسلوبه .. الذى أعلن رب العالمين أنه أحسن أسلوب .. وأنه لا أسلوب يؤدى اليه تعالى إلا هو .

فما هو هذا الأسلوب ! هو هذا .. « فاتبعوا ملة ابراهيم ، حنيفا ، وما كان من المشركين » . ماهى خلاصة هذا الأسلوب اذن ! هى الاتجاه المباشر إلى الله .. هى النظرية الهندسية المشهورة فى العالم : الخط المستقيم أقصر المسافات بين نقطتين !! ومن هنا قال تعالى:

« إنَّ رَبى على صراطٍ مُّستقيم . » « هود ٥٦ »

وقال : « وأنَّ هذا صِراطِى مستقيما ، فاتبعوهُ ، ولا تتبعوا السُّبُلَ ، فتفرَّقَ بكم عن سبيله .. » « الأنعام ١٥٣ »

على طريق .. على خط .. مستقيم .. لماذا ! لأن هذا هو أقرب طريق .. لأنك تصل إلى الله .. بهذا الأسلوب .. أسرع من أى أسلوب آخر .

كيف هذا ! ! . ان هذا لشىء عجاب !! ان ابراهيم يدعوك الى الحنيفية .. الى الاتجاه المباشر الى الله.. يدعوك اذا أردت أن تتجه الى الله، أو تصلى لله ، أو تدعو الله ، أو تعبد الله، أو تتصل بالله .. اذا أردت شيئا من هذا كله .. ماعليك الا أن تتجه اليه سبحانه مباشرة. رأسا .. بلا التواء .. وبلا التفات الى ماسواه ..

وليسمع كل انسان إلى الله الذى خلقه وهو يعلن اليه تلك الحقيقة فيقول : «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ، وهو مُحسنٌ ، واتَّبعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً ، واتخذَ اللهُ ابراهيمَ خليلاً » . [النساء ١٢٥]

هذامايقدمه إبراهيم إلى كل انسان معاصر .. يقول له: إذا استمعت إلا نداءفطرتك .. لا إله إلاالله .. اذا استعملت عقلك فاهتديت عن طريق ان لا إله إلا الله .

فتلاقى عقلك مع فطرتك.. اذا تحققت .. وعلمت .. باطنا ، وظاهرا أن لا إله إلاالله.. كان عليك أن تتجه اليه رأسا . . إذا كنت تريد الاتصال به .. وكان عليك أن لاتلتفت إلى ماسواه . . ان كنت تريده أن يسمع اليك .

وبذلك يهدى اليك ، أيها الانسان المعاصر ، ابراهيمُ ، خير مايمكن أن يهديهانسان إلا انسان ! ! وماذا من الخير بعد هذا الذى قدمه اليك ابراهيم ؟ استمع إلى نداء فطرتك وهو يردد :لاإله إلاالله .

واستمع إلى نداء عقلك وهو يبرهن أن لا إله إلا الله .. واتجه إلى ربك مباشرة ، غير ملتفت إلى ماسواه .. هل يتصور أسلوب أعلى من هذا الأسلوب ؟ ..

ابراهيم يحرر الانسان المعاصر ؟ !

وهكذا .. حرر ابراهيم الانسان المعاصر من ثالوث الاستعباد المدمر . . حرر قلبه . . حين دعاه إلى الاستماع إلى ندائه الخفى .. لا إله إلا الله .. وحرر عقله حين دعاه إلى حرية التفكير التى تهديه إلى لاإله إلا الله ..

ثم حرر سلوكه حين دعاه إلى الاتجاه المباشر إلى الله وعدم الالتفات إلى ماسواه . . ففك من أعناقه تلك الأغلال التى تقيده، وتشل تقدمه فى الحياة .

القلب السليم ؟!

أما تحرير القلب.. فابراهيم يدعوك أن تجعل قلبك كما كان قلبه.. لقد كان قلب ابراهيم سليما .. سليما من جميع الأمراض القلبية . فلا شرك .. ولا كفر . . ولاظلم . . ولاحسد . . ولاغش .. ولاخداع .. ولا كذب .. ولاغل.. ولاطمع ..ولا مكر .. ولاخديعة ..ولاشىء من هذه النقائص .. قلب سليم .. مائة فى المائة .. فاذا بلغ قلبك ذلك المبلغ .. استطعت أن تسلك سبيل الله وأن تقترب منه .. وأن تنعم بانعامات الواصلين اليه .

قال تعالى : « وإنَّ من شيعته لابراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم » .

[الصافات ٨٣–٨٤]

إن ابراهيم استطاع بقلبه السليم ، أن يذهب إلى الله . . ان يكون من الله بمكان لم يستطع أحد أن يصل اليه .. حتى اتخذه الله خليلا !

حرية الفكر ؟!

وابراهيم يدعو الانسان المعاصر أن يحرر فكره من ظلمات التقليد الأعمى ، وأغلال الجمود .. ولقد صاح إبراهيم في قومه جميعاوهو فتى :ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون! وصاح فيهم : انى برىء مما تشركون ؟ وصاح فى ابيه : إنى أراك وقومك فى ضلال مبين!!

حرية . . إلى أبعد مدى من الحرية الفكرية .. وهذا مايريده إبراهيم من الانسان المعاصر .. أن يستعمل عقله .. أن يفكر فيما هوعليه هل هو باطل أم حق ! ويومئذ يمكن أن يزعم الانسان المعاصر أنه ينعم بالحرية الفكرية .

اسقاط الكهنوتية ؟!

وإبراهيم حين يدعو الناس جميعا إلى الحنيفية .. إلى الاتجاه المباشر إلى الله .. إلىاسقاط ماسواه .. وعدم الركون الىشيء سواه .. انما يحرر الانسان المعاصر التحرير الأعظم .. أن لا يكون الانسان عبدا إلا لله .. وأن يكون كل شيء دون الانسان .. لأن الله خلق كل شيء للانسان .. مسخرا للانسان .. وخلق الانسان لله .. عبدالله .

فينبغى أن يستقيم الانسان إلى الله على ذلك المفهوم الصحيح .. أن لاشيء فوق الانسان إلا الله .. أن لا إله للانسان الا الله . . أماما سواه فهو دون الانسان ، مسخر للانسان ، فلا ينبغى لمن كان له عقل ان يتجه اليه ، لأنه لايملك له شيئا .. بل على العكس الانسان هو الذى يملك تسخيره .

فاى مقام يرفع ابراهيم الانسان المعاصر اذن ! انه يجعله سيدا لكل شيء ، ولايجعل له سيدا الاربه الذى خلقه . ومن هنا كان ابراهيم ينادى .. وجهت وجهى للذى فطر

السماوات والأرض ، حنيفا ، وما أنا من المشركين » حنيفاً .. مائلا عما سواه .. وما أنا من المشركين ! .. ولا يصح أن أشرك بعبادته أحدا .

ان ابراهيم يقدم إلى الانسان المعاصر .. مايحرره أعظم التحرير .. ان ابراهيم يرتفع بالانسان اعظم ارتفاع ! .. حين يدعوه الى الاستماع إلى نداء فطرته .. يحفظها عليه أن تمسخ أوتبدل .. فيضيع .. وحين يدعوه .. الى استعمال عقله .. يمنعه بذلك أن يعيش ذليلا .. أسيرا لمعتقدات خاطئة .. وعفونات فكرية ضائعة .. وحين يدعوه إلى الاتجاه المباشر الى الله .. انما يحرره من رجال الدين .. ومن كهنوتية اللاهوتيين .. ويطلقه حرا .. كلما أراد أن يتجه الى ربه .. اتجه اليه فى بساطة .. دون طقوس .. أوطلاسم .. أوكهنوت .. كما تتجه العصافير الى ربها مباشرة .. بلا اجراءات .. أو تعقيدات .

حرية .. يقدمها ابراهيم الى الانسان المعاصر .. هدية .. مجانا .. لا يسأله عليها أجرا .. ان أجره الا على رب العالمين !!!



قلب ابراهیم

أعجب قلب .. بل أعلى قلب .. بل أرفع صورة ممكنة لماينبغى ان يكون عليه قلب بشر ! لماذا ؟ .. وكيف ؟ .. وأنّى لابراهيم هذا كله ؟ .. اليك التفاصيل .

ماذا قال الله فى قلبه ؟!

قال تعالى : « وإنَّ من شيعته لإبراهيم . إذجاء ربه بقلب سليم . إذقال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟! . أإفكا ، آلهة ، دون اللهِ تريدون ؟! . فما ظنكم برب العالمين ؟ . فنظر نظرة فى النجوم . » [الصافات ٨٣ — ٨٨]

ماذا نجد هنا ؟ . نجد ثناء من الله على ابراهيم .. وأن هذا الثناء ينصب على شيء هام فى ابراهيم .. على قلبه .. لماذا ؟ لأن القلب هو المسيطر على ابراهيم كله . . فاذا صلح القلب صلح ابراهيم .. كما ورد : إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب . ثم ماذا ؟ ثم يعلن الله تبارك وتعالى أن ابراهيم قدجاءه بقلب سليم .. ثم يصور لنا كيف تناهى ابراهيم إلى هذا الوضع .. فيخبرنا أنه نفر نفورا شديدا مما عليه قومه ، وأبوه .. وأنه أعلن اليهم نفوره هذا بقوله : ماذا تعبدون ؟! ماهذا الجنون الذى أنتم عليه ، وماهذا الذى تعبدون .. وأنه فى نفوره الشديد هذا من ضلال قومه أعلن اتجاهه كله حين قال : إنى ذاهب إلى ربى .. سيهدين .. إنى متجه .. إنى سائر إلى ربى .. وسوف يهدينى حتما .. مادمت أريده صدقا .

وهنا نلمح أمرين : ابراهيم يقول : إنى ذاهب إلى ربى .. والله تعالى يقول : إذ جاء ربه .. إذن ابراهيم سار الى الله . . أو سافر الى الله فعلا ، كما قال .. وأن الله أكد ذلك بقوله : إذ جاء ربه .. أى قدتم السفر .. وجاءنا فعلا .

ثم ماذا ؟ . ثم ابراهيم يؤكد : سيهدين .. أى يثق ثقة تامة أن الله سوف يهديه ..

ويبلغه ما يريده من معرفته .. والله كذلك يؤكد أنه كان عند ظن ابراهيم ، وأنه هداه فعلا ، حين أراده هو ، ولم يشرك به شيئا .. وذلك بقوله تعالى : بقلب سليم .. أى من أجل أنه جاءنا بقلب سليم .. من أجل أنه سافر الينا .. بهذا القلب السليم .. هدبناه .. الينا .. وعرفناه طريقنا .

القلب الذى سافر به ابراهيم ؟!

« إذ جاء ربه بقلب سليم » ؟ مامعنى هذا ؟ لقد تأكد أنه سافر فعلا إلى الله .. والآن نريد أن نعرف كيف كان قلبه وهو يطير إلى الله ؟ هل كان مجرد قلب كهذه القلوب الفارغة المظلمة ؟ كلا .. إن الله يشهد .. « بقلب سليم » ..

واللغز الآن هو فى هذه الكلمة « سليم » .. ماهى هذه السلامة التى رفعت ابراهيم ذلك الارتفاع العظيم ؟ سليم ؟! هل هو سليم من الأمراض ! نعم .. فهو سليم من الآفات كلها ، التى تعرض للنفس فتحطها إلى مهاوى الضياع ! فيمكن أن يقال أنه سليم من أمراض القلب .. سليم من الكفر .. لأنه متأكد من وجود الله .. سليم من الشرك .. لأنه يوقن ألا شأن لشىء مع الله .. سليم من النفاق .. لأن باطنه إيمان بالله .. وظاهره ايمان بالله. سليم من الحسد .. لأن مثل ابراهيم يعلم أن الله أقام العباد فيما أراد .. فلا معنى عنده أن يحسد أحد أحدا .. لأن ماهم فيه هو ارادة الله .. سليم من الغل .. لأن ابراهيم لا يغل على أحد ، لأنه ارتفع عن الدنيا وما فيها .. سبح فى مستوى يجعله بعيدا عن هذه الأحاسيس الهابطة .. سليم من الحزن .. ولِمَ يحزن وكل شىء بقدَر ! سليم من الفخر .. ولم يفخر وهو ابن آدم ، وآدم من تراب ! سليم من العجز .. ولم يعجز وعنده قوة الله التى لا تتناهى ! .. سليم من الكذب ولم يكذب ، وهو لا يحرص على شىء من الدنيا ! سليم من الخداع .. ولم الخداع وهذه هى الحياة واضحة أمامه .. وأنها شىء لا يستحق المخادعة !.. سليم من الغش .. ولماذا الغش .. وما الدافع اليه .. وابراهيم لا يريد أن يجمع الدنيا ! .

وبالجملة .. سليم من الأمراض النفسية كلها .. ليس بقلبه مرض .. ليس به ظلمة ..

فهو نور صافٍ .. يستطيع أن يتفاعل مع الأنوار الالهية .. ويتلقى عنها .. بهذا القلب ذهب ابراهيم الى ربه ..

وهذا القلب هو الذى أعلن الله عنه « اذ جاء ربه بقلب سليم » .. وهذا النوع من القلوب هو وحده الصالح للتلقى عن الله .. وهو وحده الذى يكون محل أنوار الله .. وهو وحده الذى يرتفع بصاحبه الى المقامات العلى .. حيث يتلقى منه سبحانه مباشرة ..

كيف ذهب ابراهيم الى ربه ؟!

وسافر ابراهيم إلى ربه .. فكيف كانت أحواله ، وهو يقطع المسافة بينه وبين الله ! كان .. حنيفا .. مامعنى هذا ؟ أى اتجه الى ربه مباشرة .. هنالك طوى له الزمان ، وطوى له المكان .. فمامعنى هذا ؟ معناه عميق جدا جدا .. وبسيط جدا جدا .. أن ابراهيم عندما ذهب الى ربه مباشرة .. وجد ربه مباشرة .. فورا .. فلم يكن هناك زمان .. يقضيه فى السفر اليه .. ولم يكن هناك مكان يقطعه فى الذهاب اليه !! هذا شىء غير مفهوم! كيف يقطع ابراهيم المسافة بينه وبين الله .. وهى بلايين البلايين من الأميال .. بدون أن يحتاج الى زمن !!! ثم كيف يقطع ابراهيم تلك المساحات كلها .. من الأماكن .. دون أن يحتاج الى مكان ؟ أيتصور هذا ! نعم .. نعم .. واليك المسألة فى بساطة .. جهاز التليفزيون .. اذا كان سليما من العيوب .. اذا أدرت مفتاحه .. وجدت الصورة المذاعة أمامك فورا .. أوجهاز الراديو الترانزستور .. أدر مفتاحه تجد الصوت فورا .. كذلك ابراهيم أدار مفتاحه .. وجّه قلبه الى الله مباشرة .. فوجد الله فورا .. أى ليس الأمر كما يتصور الجاهلون أن معنى « انى ذاهب الى ربى » .. أن ابراهيم سافر سفرا طويلا ، وقضى أزمنة طويلة ، حتى وصل الى ربه .. أو أنه مر على مساحات ، ومسافات ، وسماوات ، ومافوق السماوات .. حتى وصل فى النهاية الى ربه .. كلا .. وانما ابراهيم .. كان حنيفا .. أى اتجه الى الله .. أى انه وجّه قلبه الى الله ..

فماذا حدث ، حدث ان قلبه التقط فورا الاذاعات الالهية (ان صح ذلك التعبير للتقريب) فانتقشت الصور فيه فورا .. واذاع الكلام الالهى مباشرة .

لماذا ؟ لأن الله تعالى له صفات . . صفات تصدر موجاتها (ان صح ذلك التعبير للتقريب) ليلا ونهارا .. بلاتوقف فمن صفاته الرحمة .. وهى تصدر آثارها بلاتوقف .. ومن صفاته النور .. وهى تصدر آثارها بلاتوقف .. ومن صفاته العلم .. وهى تصدر آثارها بلاتوقف .. ومن صفاته الغنى .. وهى تصدر آثارها بلاتوقف .. وهكذا .. صفات فعالة ، تصدر آثارها دائما أبدا .. هذا من جهة الله تبارك وتعالى .. أما من جهة الخلق .. من جهة الناس .. فان الله جعل قلوبهم هى الأجهزة التى يستطيعون بها التقاط تلك الموجات ..(ان صح ذلك التعبير للتقريب).. واشترط أن تكون تلك الأجهزة سليمة .. خالية من العيوب.. لتستطيع أن تلتقط .. وتنفعل .. ثم تذيع ماالتقطت من إذاعات .. فاذا كان الجهاز سليما .. اصبح صالحا للالتقاط .. ولكن بشرط ادارة المفتاح .. ليعمل الجهاز .. وهذا هو مايقرب الينا معنى « إنى ذاهب إلى ربى » . . أى إنى متجه اليه . . إنى سأدير المفتاح . . ليتلقى الاذاعات العليا.. والارسالات الكبرى .. هنالك يتم التلقى، ويتم الارسال، وتتم الاذاعة.. فورا .. وعلى قدر سلامة الجهاز تكون قوة الارسال .. وعلى قدر فساد الجهاز يكون ضعف الارسال .. واذا اشتد فساد الجهاز ، توقف عن العمل نهائيا ..

وهذا مايحدث بالنسبة للقلوب الميتة .. أى الفاسدة .. فانها تتوقف تماما عن العمل .. ولا تتلقى شيئا مطلقا ..

.امعنى هذا ؟ أريد أن أقول فى صوره أبسط وأبسط قال تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » .. إذا رحمة الله . . وهذه صفة من صفاته تسع كل شىء .. مهما كان هذا الشىء.. فلماذا إذا تظهر آثار هذه الرحمة على بعض عباده دون البعض ؟ . . لماذا تبلغ فى بعضهم مستوى عاليا جدا ، حتى يكونوا هم أنفسهم رحمة مطلقة . . « وما أرسلناك الارحمة للعالمين» .. ولماذا تختفى من بعضهم حتى يكونوا لعنة مطلقة « وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ؟»

الأمر سهل .. أن بعضهم له قلوب صالحة للتلقى والانفعال والاذاعة .. قلوب سليمة .. وأن الآخرين لهم قلوب مظلمة ، فاسدة ، ميتة . . لاتصلح للتلقى والانفعال والاذاعة . .

أما رحمة الله فهى منشورة دائما .. فمن كان مستعدا لها تلقاها .. ومن كان غير مستعد لم يستفد منها .. كالشمس تشرق دائما فمن تعرض لها أصابه من اشعاعها .. ومن سار فى الظلام لم يصبه شىء من شعاعها .. أماهى فمشرقة دائما .. وترسل اشعاعها دائما .. كذلك الله .. أوشمس الذات .. مشرقة .. دائما .. وأبدا .. فمن كان قلبه سليما .. تلقى من رحماتها .. وفضلها .. وانفعل وأرسل .. واذاع .. ومن كان قلبه ميتا .. لم يستفد شيئا .. قليلا أو كثيرا .

كذلك ابراهيم .. كان جهازه على الغاية من السلامة والاستعداد .. كان قلبه سليما .. فى ذروة السلامة والطهارة فلما أدار المفتاح .. فلما وجه وجهه للذى فطر السماوات والأرض .. فلما اتجه بقلبه إلى الله .. فلما ذهب إلى الله .. فلما اتجه اليه مباشرة .. فلماذهب اليه حنيفا .. وجد الله مباشرة .. كما تتلقى اجهزة التليفيزيون والاذاعة .. إذاعات المحطات مباشرة .. مادامت سليمة .. لاعطب فيها .. وانفعل ابراهيم .. واذاع .. وتلقى ماتلقى .. فكان كما أكد « سيهدين » .. وكما قال ربه « اجتباه .. وهداه .. إلى صراط مستقيم » .

كيف يطوى الزمان والمكان ؟!

من هنا .. من الاتجاه على ملة ابراهيما .. من الحنيفية .. التى هى الاتجاه المباشر .. وهذا ماحدث .. فان ابراهيم كان سليم القلب .. بل فى قمة ذلك المقام .. ثم اتجه إلى ربه مباشرة .. فوجد ربه على الفور .. فلم يكن هناك زمان يقضية .. ولم يكن هناك مكان يقطعه .. وبذلك طوى الزمان والمكان لابراهيم .. أى ألغى الزمان والمكان .. حين ذهب إلى ربه .. حنيفا .. مباشرا .. فهل استبان الآن كيف طوى الزمان والمكان لابراهيم ؟

كيف يطوى لك أنت الزمان والمكان ؟!

إذا نفذت ماأمرك الله به .. حين أمرك باتباع ابراهيم « فاتبع ملة ابراهيم حنيفا .. » إذا اتبعت ابراهيم فى طريقته .. إذا اتجهت إلى الله حنيفا .. أى مباشرة ولكن بشرط

واحد .. هو أن يكون جهازك سليما .. أن تكون سليم القلب كما كان ابراهيم سليم القلب. فاذا تحقق لك هذان الشرطان .. طوى لك الزمان .. والمكان .. يا انسان .. أى انسان!! هل هذا صحيح ؟ نعم .. نعم .. ولا تعجب ! هل يعقل أن يطوى لأى انسان الزمان والمكان .. وأن يظفر بتلك المكانة الرفيعة فى مثل هذه السهولة والبساطة ؟ نعم .. نعم .. فقط عليك أن تحقق الشرطين .. قلب سليم .. حنيفا .. جهاز سليم .. وفتح الجهاز على محطة « الله » .. هنالك تجد الله .. فورا .. وهذا هو طى الزمان والمكان لكل انسان ..

هل من دليل ؟ أدلة .. لا دليل .. ألم يقل تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان .. » ؟ وهل القرب هنا الا هذا ؟ أنه تعالى قريب من كل إنسان بشرط أن يكون قلب هذا الانسان مستعدا .. سليما .. وقريب من كل انسان ..

بشرط أن يتجه اليه مباشرة .. حنيفا .. هل هناك من دليل أقوى من هذا كله ؟ هاهو دليل .. يدحض كل شبهة .. ويزيل كل شك .. من كل رأس .. دليل عام .. هام .. للجميع .

قال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من من حبل الوريد » تصور .. الله خلق الانسان .. أى انسان .. الله .. يعلم كل ما يدور فى نفسك .. الله .. أقرب إلى أى انسان من حبل الوريد .. من هذا الشريان الكبير الذى يخرج من القلب ليوزع الدماء على الجسم كله .. وفى هذا التعبير اشارة عجيبة .. إلى شدة قرب الله إلى الانسان .. أى أن الله أقرب إلى قلب الإنسان ، من هذا العرق النابع من نفس هذا القلب .. فلو كان يتصور قربا من القلب أقرب من شىء ينبع منه .. لصوره للانسان .. ولكن لا يوجد هذا الشىء .. ولكى يشعر الانسان بهذا القرب عليه أن يجعل قلبه صالحا للتلقى .. ان يجعله سليما .. وأن يتجه إلى الله مباشرة .. ويسقط كل ما فى الوجود من اتجاهه .. وهذا هو طى الزمان والمكان لكل انسان .. والناس فى ذلك مقامات .. فالأنبياء فى الذروة .. ومن ورائهم السالكون الى الله على تفاوت بينهم ..

لماذا كان ابراهيم أشد الناس بلاء ؟!

من هنا .. من اتجاهه المباشر إلى الله . بقلبه السليم ..من اسقاطه ماسوى الله اسقاطا كليا .. من ارادته لله وحده .. لاشريك له .. من هنا كان بلاؤه أشد بلاء .

روى الترمذى : « أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم سُئلَ أىُّ الناسِ أشدُّ بلاءً ؟

« قال : الأنبياء .

« ثم الأمْثَلُ ، فالأمْثَلُ »

اذن الأنبياء أشد الناس بلاء ..أشدهم اختبارا .. كلما كان النبى افضل من اخيه النبى كلما كان أشد منه بلاء ، . وإذا علم أن ابراهيم كان أفضل الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم . . أدركنا أنه كان أشدهم بلاء . . ونظرة واحدة إلى ابتلائه بذبح وحيده اسماعيل . . تعطينا فكرة أنه بلغ الذروة فى الابتلاء بين جميع الأنبياء .. عدا خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

ولقد سجل الله تعالى فى ذلك قوله « إن هذا لهو البلاء المبين » .. أى لايتصور بلاء ظاهرى أشد من ذلك البلاء ولقد ابتلى به ابراهيم .. فنجح فيه خير نجاح !!!

إلا ان البلاء الظاهرى ليس هو اساس التفاضل بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .. انما البلاء الباطنى اشد واشد .. فقد يسارع الانسان إلى الاستشهاد وبذل نفسه.. فيقتل فى سبيل الله.. إلا انه لايكون خالصاباطنيا خلوصا تامالربه.. فلايكون مقامه فى درجة من جمع بين الشهادة وشدة الاخلاص .. ولقد كان ابراهيم فى الذروة من البلاء الظاهرى ، والبلاء الباطنى . . ابتلاه ربه ظاهرا بلاء شديدا . فبذل نفسه فى النار . . وبذل ابنه فى الذبح .. إلى غير ذلك .. وابتلاه باطنا بما هو اشق واشد حين فرض عليه الغربة.. عن ابيه.. ووطنه . . وقومه . . طيلة حياته . . وحين فرض عليه ان يأخذ وحيده وامه . . ويتركهما وحدهما فى البرية . . وحين فرض عليه الغربة الفكرية التى كان يعانيها لسبقه لعصره سبقا شديدا.. وحين فرض عليه ..وهذا هو اشدبلاء .. ان لايركن .. ولا يلتفت .. ولاينظر إلى شىء سواه .. وقديظن الجاهلون ان مسألة انخلاع الانسان من علاقاته بالاشياء . . والتجرد لله وحده، شىء سهل..ولكنه اشق شىء يبتلى به الانسان.. ولقد عانى ابراهيم تلك التجربة..

وينجح فيها .. حتى بلغ مقام الحنيفية وهو المقام الذى يتجرد فيه لله تجرداتاما .. ويتجه اليه مباشرة .. ولا يلتفت إلى السوى أى التفات . . وهذا شىء شاق جدا جدا جدا . لأن الانسان انسان قبل كل شىء .. فكون انسان ماينخلع من نفسه انخلاعاتاما .. ليسلمها إلى الله اسلاما مطلقا .. إن حدوث ذلك من انسان .. شىء لايستطاع الا لإبراهيم ..

ولئن كان العلماء الطبيعيون ، والمخترعون ، يعانون آلام الغربة ، لسبقهم عصورهم . أو لتوصلهم إلى نظريات جديدة مجهولة لأهل زمانهم . . فكيف بالأنبياء . . وهم يحلقون فى مقاماتهم العلى .. والناس ملتصقون فى أسفل سافلين ؟ ثم كيف بابراهيم .. ذروة هؤلاء الأنبياء . . وهو يحلق فى مقامه . . مقام الخلة .. والناس فى حضيضهم غافلون ؟ ! إنه يعانى آلاما ، وآلاما ، وآلاما .. وذلك هو البلاء الحق .. أشد البلاء .. البلاء الباطن ..

وهو لايظهر للناس ..وإنما يكون بين المبتلى به وربه .. كلما اشتد به كربه .. كلما اشتد هو التجاء إلى الله . وكلما ثقل عليه حمله ، كلما ازداد تسليما لله .. وهكذا .. وهكذا .. حتى يتم تسليمه لربه .. «إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين »
ومن هنا كان قلب ابراهيم موضعا لهذا البلاء كله .. فأى قلب كان ذلك القلب ؟

أحاسيس ابراهيم ؟!

لقد كان قلب ابراهيم فوارا .. دوارا .. تفور فيه أحاسيس الجمال . . وتدور فيه تجليات الجلال ..هذه تدفع ، وهذه تدفع .. وابراهيم هو موضع التجربة الكبرى لقد وصف الله ابراهيم بأنه كان .. أواها ! حليما ! منيبا! امة ! قانتا ! حنيفا! شاكرا لأنعمه ! اجتباه! وهداه ! مسلما وجهه لله ! يخر ساجدا وباكيا ! وغير ذلك .. فما معنى ذلك !

معناه أن هذه كلها أحاسيس صادقة تنبع من قلب ابراهيم .. أحاسيس مستمرة .. لاتهدأ .. ولاتذهب .. فكيف كان قلب ابراهيم موضع تلك الموجات المتدافعة المتلاطمة؟ كان قلبا حيا .. على أعلى مايمكن أن تكون الحياة !! فكلما كان الإنسان أقرب إلى ربه كلما كان قلبه أشد حياة مما سواه .. قلب جياش بالأحاسيس العليا .. والإنطلاقات الرفيعة .

فهو يتأوه .. ويحلم.. وينيب .. ويؤم.. ويقنت.. ويتجه حنيفا.. ويشكر لأنعمه .. ويهتدى.. ويسلم وجهه لله .. ويخر ساجدا وباكيا .. وغير ذلك .. كل ذلك يتدافع .. ويتلاطم فيه دائما وأبدا .. فلم يحدث مثلا أنه لم يكن أمة .. لم يكن قدوة فى وقت من الأوقات .. بل هو دائما يتصرف تصرف الإمام فى كل مايصدر عنه .. ولم يحدث أنه لم يكن قانتا .. مطيعا .. لربه .. فى وقت من الأوقات .. بل فى طاعة .. ودائما فى استقامة .. ولم يحدث أنه لم يكن حنيفا فى وقت من الأوقات .. أى تلوى .. أوركن إلى شىء من الأشياء .. بل هو دائما حنيفا .. متجها اليه .. غير راكن إلى شىء سواه .. ولم يحدث أنه لم يكن شاكرا لأنعم الله فى وقت من الأوقات .. ولكنه دائما شاكرا لأنعمه .. دائما شاعرا بعظيم فضل الله عليه .. وهكذا قلب جمع بين الأحاسيس العليا .. تدافعت .. وتداخلت .. وانصهرت .. وكان منها فى النهاية.. ابراهيم !!

الا ملة واحدة ؟!

« قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . لَيَأْتِيَنَّ على أمتى ماأتى على بنى إسرائيل ، حَذْوَ النعْلِ بالنعلِ .

« حتى إنْ كانَ مِنهُمْ من اتى امَّهُ علانيةً لَكانَ فى امتى من يصنَعُ ذلك .

« وإنَّ بنى إسرائيلَ تفرَّقَتْ على اثْنتَيْنِ وسبعينَ مِلةً ،

« وتفترِقُ امتى على ثلاث وسبعينَ ملةً .

« كلُّهُمْ فى النارِ . إلا مِلةً واحدةً .

« قالوا : ومَنْ هىَ يارسولَ الله ؟

« قالَ : ما أنا عليهِ وأصحابى . » [الترمذى]

* * *

مامعنى هذا ؟ وماعلاقته بقلب ابراهيم ؟ معناه كبير .. خطير .. جدا .. معناه أن هناك ملة واحدة على الحق .. أسلوب واحد على الحق .. وأن هذه الملة .. أو هذا الأسلوب

هو ماعايه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأصحابه .. فإذا علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باتباع ملة ابراهيم في أكثر من موضع من كتاب الله .. انتهينا إلى أمر غاية في الخطورة .. أن ملة ابراهيم .. هي الملة الحق .. المؤدية إلى الجنة .. إلى الله .. وإذا علم أن ملة ابراهيم .. هي الحنيفية .. هي التوجه المباشر إلى الله .. بقلب سليم .. انتهينا إلى نتيجة أخطر وأخطر .. أن أسلوب ابراهيم في السلوك إلى الله هو وحده الحق .. وإذا علمنا أن القلب السليم هو الجهاز الوحيد الصالح للسلوك إلى الله .. وأن قلب ابراهيم هو القلب السليم أدركنا في النهاية أن قلب ابراهيم هو النموذج الصالح لما ينبغي أن يكون عليه كل قلب يريد أن يعرف الله .. أو يتقرب إلى الله .. أو يتجه إلى الله .. فهل من دليل ؟

الا من أتى الله بقلب سليم ؟!

هذا هو الدليل .. قوله تعالى : « يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » . [الشعراء ٨٨ — ٨٩]

إذن كل شيء يبطل .. ويسقط يوم القيامة .. ولا ينفع إلا شيئا واحدا .. إلا من أتى الله بقلب سليم .. إلا من جاء ربه بقلب سليم .. إلا من جاء ربه .. إلا من مات وقلبه سليم .. من اتى الله بقلب سليم .. أي من لقى الله بقلب كقلب ابراهيم .. مع حفظ النسبة بين خليل الله .. وسائر عباد الله .. من كان هكذا .. فهو وحده الذى سوف ينتفع بحاله .. أما ما سواه .. فقد خابوا وخسروا .. أي من لقى الله على ملة ابراهيم .. أي على ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .. فهو وحده الناجي يوم القيامة .. كما حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلهم في النار ، إلا ملةً واحدة » !! وهذا هو وجه الخطورة من هذا الأمر ..

سنة محمد .. هي ملة ابراهيم ؟!

هي هي .. كما كان يدعو ابراهيم إلى القلب السليم .. كان محمد يدعو كذلك إلى القلب السليم .. وها هو توجيه واحد .. من توجيهاته الشريفة .. يبرهن لنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يوجه أصحابه إلى نفس التوجيه .

قال أنسُ بنُ مالِك : قال لى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : يا بُنىَّ ، إنْ قدَرْتَ أنْ تُصْبحَ وتمسِىَ ، ليسَ فى قلْبكَ غشٌ لأحدٍ، فافعَلْ .

« ثم قال لى : يا بُنىَّ ، وذلك من سُنَّتى .

« ومن أحيا سنتى فقد أحَبَّنى .

« ومنْ أحَبَّنى كانَ مَعِى فى الجنَّةِ .. » [الترمذى]

هل رأيت ؟ ان محمدا صلى الله عليه وسلم .. يوجه أصحابه نفس التوجيه .. يوجههم نحو سلامة القلب .. ويبين لهم أن ذلك من سنته .. نفس الاتجاه .. كما أمره ربه « واتبع ملة ابراهيم » .. وهكذا يتلاقى محمد وابراهيم !!

أبى .. وخليلى .. وخليل ربى ؟!

ولقد سجلها محمد صلى الله عليه وسلم تسجيلا عظيما ..

« قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ لكُلِّ نبى وُلاَةً من النبيينَ .

« وإنَّ وَلِيى أبى ، وخليلى ، وخليلُ رَبى .

« ثم قَرأ إنَّ أوْلَى الناس بابراهيمَ للذينَ اتبعوهُ وهذا النبىُّ والذين آمنوا واللهُ ولىُّ المؤمنينَ » . [الترمذى]

المعنى هاهنا أن أقرب الناس إلى ابراهيم بالمحبة والنصرة والموافقة فى التوحيد ، والمعاضدة على الدين الذين تبعوه وهم المؤمنون أمة محمد وهذا النبى محمد .

قالوا : هذه الأمة هم الذين اتبعوه . وقيل . المراد بقوله للذين اتبعوه يعنى من الأنبياء. وهذا النبى مخصوص مصطفى منهم يريد محمدا والذين آمنوا يريد الأمة . إن محمدا صلى الله عليه عليه وسلم يعلن .. ان وليى أبى ، وخليلى ، وخليل ربى .. لماذا ؟ لأن الملة واحدة ، لأن السنة واحدة ، لأن الأسلوب واحد ، لأن الطريقة واحدة .. ابراهيم داعية قلب سليم .. ومحمد داعية قلب سليم .. ابراهيم داعية حنيفية .. ومحمد داعية حنيفية .. ولذلك يعلن محمد أن وليه أبوه .. وخليله .. وخليل ربه .. لماذا ؟ لأن ابراهيم هو الفرد الذى يأتى فى الترتيب مباشرة

بعد محمد .. محمد الأول .. وابراهيم الثانى .. فابراهيم أعلم الناس بربه .. بعد محمد .. فهناك تقارب .. وتماثل .. وإذا كانت الصداقة لاتقوم إلا بين ندين متقاربين .. فانه لايوجد تقارب حقيقى إلاما كان بين الأول والثانى . . أوبين الخليل والحبيب .. فيمكن والحالة هذه أن يتخذه وليا .. ويمكن أن يتخذه خليلا .. وهذا مالم يستطع أن يصل اليه أبو بكر رضى الله عنه .. رغم أنه قمة الصحابة .. وهناك بون بعيد بين ابراهيم وأبى بكر .. إذن قلب ابراهيم .. أقرب القلوب إلى قلب محمد صلى الله عليه وسلم .. أوأشبه القلوب بقلب محمد صلى الله عليه وسلم .. وقد كان هذا واضحا جدا .. حتى فى الشكل .. فقد ثبت أن ابراهيم يشبه محمدا صلى الله عليه وسلم فى الصورة .. وهاهو يشبهه فى القلب .. وهاهو يتطابق معه فى الملة أوالأسلوب.. فهما رجلان .. يتطابقان .. صورة .. وقلبا ..وملة .. وهذا أعجب أنواع التطابق بين الشخصيات ..

ولعل هذا هو سر ابتداء شجرة النبوة بابراهيم .. وانتهائها بمحمد .. ففى البداية ابراهيم .. بذرة التوحيد .. وفى النهاية محمد تمام هذه البذرة واكتمالها .

من هنا .. نذهب ؟!

والآن كيف نذهب إلى الله .. كما ذهب ابراهيم ! أو ماذا نفيد من قلب ابراهيم ! الأمر سهل جدا .. علينا أن نأتى إلى الله بقلب سليم .. وأن نتجه اليه حنفاء .. وهذه هى خلاصة التجربة كلها .. ان ابراهيم سافر إلى الله بقلبه ، واتجه اليه حنيفا .. فينبغى على كل من أراد أن يتقرب إلى الله ان يسلك نفس الطريق ، ويركب نفس المركب .

والآن ندخل إلى تفصيل الرحلة .. لابد من مركب .. ولابدمن طريق .. أما المركب فهو القلب . . وأما الطريق فهو الحنيفية . . أو الخط المستقيم . . أو الاتجاه المباشر . . فمن استوفى هذين الشرطين فقد اقترب من الله .. ومن لم يستوفهما .. هيهات أن يقترب منه تعالى .. أما الطريقة العملية لتحقيق هذين الشرطين.. فمؤداها .. يتحقق القلب السليم . .

بتطبيق « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » أى اتركوا المعاصى .. ماظهر منها وما بطن .. المعاصى إذا نوعان .. ونحن مأمورون بترك النوعين ..

معاصى ظاهرة .. وهى معاصى البدن، أو الجوارح .. كالقتل، والسرقة ، والزنا ،والغيبة ، والنميمة .. إلى آخر هذه السلسلة الطويلة ،من الانحرافات المشهورة .. ومعاصى باطنة .. أى لاتظهر للناس .. وهى معاصى القلب .. وهى أخطر . . وأخطر من المعاصى الظاهرة .. بل هى فى الواقع الدافع الحقيقى للمعاصى الظاهرة . . فالرجل الذى يسرق — مثلا — لم يدفعه إلى السرقة الااحساس باطن معين بقلبه زين له الجريمة فاندفع ينفذها .. وعلى ذلك يمكن أن يقال أن الانسان إذا ترك باطن الاثم ، ترك بالتبعية ظاهر الاثم . . ولذلك كان تركيز الاديان كلها على القلب .. ومحاولات تطهيره .

والمعاصى الباطنة . . لا حصر لها . . وهى تتنوع ، وتتشعب ، وتتفاوت . . حسب مقامات الأشخاص ، وتفاوتهم علوا ، أونزولا .

فالكفر .. معصية باطنة .. والشرك .. معصية باطنة . والظلم .. معصية باطنة .. والنفاق .. معصية باطنة .. والحقد .. معصية باطنة .. والحسد .. معصية باطنة .. والضغينة .. معصية باطنة .. والكبر .. معصية باطنة .. وحب الدنيا .. معصية باطنة .. وحب الشهوات .. معصية باطنة .. والتعالى .. معصية باطنة .. و .. و .. و .. إلى آخر هذه الأمراض التى لا حصر لها .. والتى تتنوع وتتفاوت من شخص لآخر .

هناك إذا نوعان من الاثم .. ظاهر وباطن .. معاصى ظاهرة وباطنة .. والانسان لا يعتبر سليم القلب إلا إذا ترك المعاصى بنوعيها .. أو الشخصية لاتعتبر سليمة إلا إذا تركت المعاصى بنوعيها .. فإذا تم هذا التكامل .. أى تم للانسان ترك المعاصى الظاهرة والباطنة . . فهو قلب سليم .. فهو انسان يصلح لأن يبدأ السفر إلى الله . . يصلح لأن يبدأ الرحلة يصلح لأن يذهب إلى الله .. لأن يبدأ الترقى .. والصعود .. إلى الله .. إذا لابد من مركب هذا المركب هو القلب فان كان المركب غير صالح .. اى كان القلب مريضا . . تحتم

البدء باصلاحه أولا وذلك بترك المعاصى ظاهرها وباطنها .. فاذا تم ذلك ، كان معناه أن المركب اصبح الآن مستعدا للسفر .. صالحا للطيران .. ومن هنا .. نذهب .. وبدون ذلك يستحيل الذهاب .. فهؤلاء الذين يستمرون على معصية الله ظاهرا ، أوباطنا .. ثم يزعمون أنهم يسيرون إلى الله .. وفى طريقهم إلى الله ..

هؤلاء قوم حالمون .. يتمنون على الله الأمانى .. والأمانى لاوزن لها .. فكما لايستطيع الطيار أن يصعد إلى الفضاء بدون طائرة صالحة للطيران .. وكما يتحتم على المطار أن يقوم بفحص الطائرة قبل أى رحلة تقوم بها إلى السماء .. وأن يسارع إلى اصلاح أى خلل يظهر بها عند الفحص حتى يمكن للطيار بعد ذلك أن يصعد بها إلى طبقات السماء.

كذلك الرحلة إلى الله .. أو السفر إلى الله .. يتحتم على الانسان ليستطيع الصعود إلى اللهأن يصلح مركبه .. يصلح قلبه .. يصلح كل مرض يجده به .. وذلك بترك المعاصى باطنها وظاهرها .. فاذا تم له ذلك .. أصبح القلب مستعدا للطيران.. وهذه هى المرحلة الأولى.. من لوازم الرحلة .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية .. وهى أخطر وأخطر ..

خط سير الطائرة ؟!

والآن يركب الطيار طائرته ، بعد أن تم فحصها واصلاحها .. وينطلق إلى الفضاء .. وهنا .. نسأل : إلى أين الاتجاه ؟ وأى الطرق يسلك هذا الطيار ؟ هل يطير حسبما اتفق فى السماء ؟ أم يكون له خط سير معين يلتزمه ، ليصل إلى هدفه ؟

ثم يختار أقصر الطرق ليصل إلى ذلك الهدف .. وفى عالم القلوب . الهدف هو الله . أو الوجهة .. أو الغاية هو الله.. وذلك واضح فى «ومن أحسن دينامن أسلم وجهه لله » بقى هنا أن نحددأقصر الطرق للوصول إلى الهدف.. وهنا نجدطريقة ابراهيم .. هى أقصر الطرق إلى الله وذلك واضح فى قوله « واتبع ملة إبراهيم حنيفا » أى واتبع طريق إبراهيم ..وكأن سائلاسأل : وماهوطريق ابراهيم هذا ؟ فكانت الاجابة : حنيفا !! أى اتجه خطا مستقيما .. اتجه اليه مباشرة ..

وهو نفس الناموس . « إن ربى على صراطٍ مستقيم » هذا هو الهدف .. هذا هو الطريق الذى يتحتم على القلب أن يسلكه وهو يطير إلى الله .. وبذلك يكون قد تحقق الشرطان الحتميان .. شرط القلب السليم .. الطائرة السليمة .. وشرط .. الطريق المستقيم المباشر .

ثم ماذا . ثم يستطيع الانسان الآن ان ينطلق إلى الله . . يستطيع الآن ان يرقى فى المقامات .. صعودا اليه سبحانه .. وكلما طوى مقاما .. دخل إلى غيره وهكذا . ، حسب استعداده .. وقوة انطلاقه إلى ربه .. وكلما طوى مقاما .. كان اقرب إلى ربه بقدر ماقطع.. حتى يصل إلى آخر مدى يمكن ان يحققه فى رحلته الى الله ..

هبوط الطائرة اثناء الرحلة ؟!

ولكن هل هذه الرحلة .. بعدا ن يستكمل الانسان شرطيها .. وهو القلب السليم .. وسلوك الطريق المستقيم .. تصبح سهلة .. لاعقبات فيها تعوق الطيران؟ كلا فما أن يرتفع الطيار بطائرته . . إلى طبقات الجو حتى يتعرض لعوامل جوية مفاجئة ، من عواصف ، ورعود ، وتيارات وغير ذلك قد تضطره إلى الهبوط المفاجىء .. ثم يعاود الطيران .. أو إلى تغيير اتجاهه ليتفادى السقوط .. أو قد تشتد هذه المؤثرات المفاجئة حتى تتحطم الطائرة ان لم تكن شديدة البنيان .. وتهوى محترقة !! ما هذا ؟ هذا مايحدث تماما للذين يسافرون إلى الله .. ماان يرتفعون قليلا عن الأرض . . ويطوون مسافات إلى أعلى . . حتى تقابلهم فتن لاحصر لها . . وتهب عليهم اعاصير جهنمية عاتية . . وعلى قدر مهارة الطيار ، وسلامة الطائرة ، وقوة بنيانها تكون قوة المقاومة .. حتى إذا اجتاز الطيار تلك المراحل .. مراحل الفتن .. دخل بطائرته إلى منطقة الأمن.. ومازال يطير فى تلك المنطقة مرتفعا . إلى أعلى .. مقتربا من ربه.. حتى يدخل منطقة التسليم.. ومازال يطير .. ويطير .. ليجتاز تلك المنطقة .. حتى يدخل منطقة السلام . . ومتى دخلها . . أصبح فى سلام تام . . لا يتعرض لما كان يتعرض له من هزات وهو بالمنطقة الأولى . . ومتى دخل هذه المنطقة .. اصبح أهلا لما هو أعلى .. اصبح يستحق الارتفاع إلى مقام الخلة.. ان يتخذه الله خليلا .. ومتى وصل

هذه .. اصبح اهلا لأن يرتفع إلى مقام الحبيب .. وذلك آخر المقامات .. وهو مقام محمد صلى الله عليه وسلم .

من أين لنا هذا كله ؟ من النصوص الكريمة . . اما المنطقة الأولى . . منطقة الفتن .. فمعلوم أن الشيطان مسلط على الإنسان دائما .. فما ان يراه قد أصلح قلبه .. وسلك الطريق المستقيم إلى ربه . . حتى يبدأ أقصى ما يستطيع من محاولاته ليصده عن ذلك السبيل .. ويحاول أن يهوى به إلى الأرض كما كان ..فيشن عليه حرب التزيين .. تزيين الشهوات.. وتزيين الدنيا .. وتزيين اللذات.. ويشن عليه حرب الفتن .. فتنة المال ، وفتنة الولد ، وفتنة الزوج ، وفتنة النفس.. ويشن عليه حرب الشكوك .. الشك فى امكانية الوصول .. والشك فى امكانية الصعود وهكذا .. ليصده .. فاذا كان الانسان صادقا فى ارادة الله . . انثنى الشيطان أمام ارادته . . ولم يستطع أن يثنيه عن رحلته وان كان به ضعف تغلب الشيطان على قلبه .. واستطاع ان يهوى به إلى الأرض قال تعالى . « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير اوتهوى به الريح فى مكان سحيق » .. اماعن المرحلة التالية .. فان الانسان اذا مااجتاز هذه الفتن كلها.. وعجز الشيطان عن صده عن الارتفاع . . فقددخل إلى منطقة الأمن . . واليك دليلها من كتاب الله ، ومن حوار ابراهيم نفسه مع قومه . . « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » وفى هذا المقام . . مقام الأمن يشعر الانسان بتمام الأمن.. فهو فوق الفتن.. ودون التسليم.. لايستطيع الشيطان ان يصل اليه فى تلك المنطقة .. قال تعالى: « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» اى تسلط .. لماذا ؟ لأن الشيطان لايستطيع ان يرتفع إلى تلك المنطقة ليباشر اضلاله للانسان .. ولايدخل هذه المنطقة .. الا الذين تحقق منهم كامل العبودية .. وهم الموصوفون « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » .. لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، أوكفر ، أوأى نوع من الظلم.. خلص ايمانهم بالله .. ولم يلتفتوا إلى ماسواه .. فاستطاعوا بذلك أن يرتفعوا إلى منطقة الأمن .. الأمن من الفتن .. ومن الشيطان .

ثم ماذا ؟ ثم يأتى دور مقام التسليم .. وهو يكون بعد اجتياز مقام الأمن .. ودليله: « إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت» .

فى هذا المقام يستوى عند الإنسان الخير والشر .. ويعلم أنها مجرد أداتى اختبار .. « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فلا الخير مقصود لذاته ، ولا الشر مقصود لذاته ، وإنما هما أداتا اختبار ليس إلا .. كالليل والنهار .. لابد منهما ليتم حدوث الأيام .. « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فالأحداث تجرى .. والمقادير تسرى .. لمجرد .. الفتنة .. الامتحان .. ليس الا .. والانسان الذى ارتفع إلى ذلك المقام يستوى عنده وقوع الخير والشر به .. ان اصابه خير شكر .. وان أصابه شر صبر .. وهو هنا وهناك مأجور .. والإنسان فى هذا المقام يتحقق منه قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ..

ثم ماذا ؟ ثم مقام السلام .. ودليله قوله تعالى عموما « وسلام على المرسلين » . وقوله فى ابراهيم خاصة «سلام على ابراهيم». وهذا يدل على أن ذلك المقام لا يرتفع اليه الا الأنبياء .. لأنه فوق مقام التسليم .. ويدل كذلك على أن أقصى غايات البشر من غير الأنبياء أن يصلوا الى مقام التسليم .. أما مقام السلام فذلك للأنبياء .

ثم ماذا ؟ ثم مقام الخلة .. ودليله قوله تعالى « واتخذ الله ابراهيم خليلا » وطبيعى أن ابراهيم وصل الى ذلك المقام بعد أن اجتاز كل المقامات التى قبله .. وهذا المقام وصله محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى طريقه الى مقامه .. ثم ماذا ؟ ثم مقام الحبيب .. وهو أعلى المقامات .. وقد خص الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم .. قال تعالى . « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » فكل من أراد أن يظفر بحب الله ، فعليه أن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه هو الحبيب !!

(تم)

فهرس

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه عجائب.. وغرائب : « وجعلنا في ذريته النبوه والكتاب »...

فيه اشعاعات.. انوار.. مقامه.. مقام : « اذ قال له ربه أسلم.. قال : أسلمت لرب العالمين »..

فيه انطلاقات النور.. من مقامه.. مقام : « أني اذبحك.. قال : يا أبت افعل ما تؤمر.. » !!

فيه.. تفصيل.. وتحليل..

وفيه.. وفيه.. وفيه.. ولن تعلم ما فيه.. حتى تقرأ ما فيه.